نحو صياغة رواية تاريخية للنكبة
إشكاليات وتحديات

تحرير: مصطفى كبها

نحو صياغة رواية تاريخية للنكبة

إشكاليات وتحديات

تحرير

مصطفى كبها

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية

نحو صياغة رواية تاريخية للنكبة: إشكاليات وتحديات
تحرير: مصطفى كبها

Towards a Historical Narrative of the Nakba
Complexities and Challenges
Edited by Mustafa Kabha

مسؤول الإنتاج: نبيه بشير
تصميم: إيفا موسى

ISBN 965-7308-06-2

© جميع الحقوق محفوظة، ٢٠٠٦
مدى الكرمل- المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية
ص.ب. ٩١٣٢، شارع الزيتون (اللنبي) ٥١
حيفا ٣١٠٩٠
هاتف: ٩٧٢-٤-٨٥٥٢٠٣٥+
ناسوخ: ٩٧٢-٤-٨٥٢٥٩٧٣+
البريد الإلكتروني: mada@mada-research.org
عنوان الموقع: www.mada-research.org

Mada al-Carmel: Arab Center for Applied Social Research
P. O. Box 9132
51 Allenby St.
Haifa 31090
Israel
Email: mada@mada-research.org
Website: http://www.mada-research.org

المحتوى

تقديم ١

إشكاليات كتابة التاريخ الفلسطينيّ الحديث ٥
وضرورة صياغة رواية تاريخيّة متكاملة
مصطفى كبها

لماذا لا نستطيع كتابة تاريخنا المعاصر ٢٥
من دون استخدام المصادر الشفوية؟
حرب ١٩٤٨ – دراسة حالة
صالح عبد الجواد

الذاكرة والهُويّة ٥٧
أحمد سعدي

التصوير الفوتوغرافيّ الفلسطينيّ المبكّر ٨١
وغيابه خلال النكبة
عصام نصار

القدس ١٩٤٨ ٩٩
الأحياء المهجّرة والعمق القروي
سليم تماري

أداء المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ في حرب عام ١٩٤٨ ١٣٣
"السنديانة" نموذجًا
نمر سرحان

الذاكرة و تأريخ أحداث النكبة ١٧٣
مجد الكروم نموذجًا

عادل مناع

الكتابة الجديدة للتاريخ والهُويّة القوميّة ٢٠٩
تحوّلات في الرؤية الذاتية للإسرائيلي
والجديد في تعديل كتابة التاريخ

مردخاي بار أون

النكبة في التاريخ والحاضر ٢٥٩

إيلان بابه

ملحق ٢٧٧
الذاكرة الضائعة

سميح شبيب

ثبت المراجع ٣٢٣

تقديم

يقول الكاتب الفلسطيني علي الخليلي في سياق تعرضه لقضية الذاكرة التاريخية الفلسطينية عامة، وذاكرة النكبة خاصّة، وضرورة صياغتها وتشكيلها:

> من المؤكد أن العقل الفلسطيني لم يفقد ذاكرة النكبة. وإنما هو، على عكس أي فقدان قد تحتمله المحاجة النظرية، يشتعل بها اشتعالاً. ولكن هذا الإشتعال لا يتحوّل إلى فعل منهجي. وثمة من يفترض، أن العقل الفلسطيني المشتعل، يغوص في الكابوس عبر تتابع النكبة من فصل إلى فصل، دون أن يملك فرصته، حتى الآن، للإمساك بالأمل وإعادة صياغة محتوى الضحية في ذاكرته المعذّبة. وتعني المسألة بالنسبة لهذا المنظر، أن الفسحة أو الاستراحة، لم تتح بعد للمحارب الفلسطيني، كي يطمئن إلى وراثته، ويبدأ بكتابة روايته (الخليلي ٢٠٠١، ١٦٢).

ثمة أسئلة ثقيلة تثيرها أقوال الخليلي هذه، أهمها: ما دام العقل الفلسطيني لم يفقد ذاكرة النكبة و "يشتعل بها اشتعالاً" كما يقول، لماذا، إذن، لم يوظّف هذا الاشتعال حتّى الآن إلى خطوات عملية على طريق بناء وصياغة رواية تاريخية فلسطينية متكاملة يكون من شأنها، في يوم من الأيام، أن تقف في وجه الرواية التاريخية الصهيونية وتحاججها بالوثيقة والرواية الشفوية والتحليل المهني المتروي الخالي من الغلو والبكائيات؟

والسؤال الثاني هو، هل أقصى ما تطمح له هذه الرواية هو "إعادة صياغة محتوى الضحية في الذاكرة المعذّبة"، كما يقول الخليلي؟

إن حصر أهداف الرواية السردية التاريخية الفلسطينية في إطار التعبير العاطفي والبكائي عن صورة الضحية ومعاناتها وذاكرتها المعذّبة، يعني أكثر ما يعنيه المراوحة في المكان وعدم القدرة على تجاوز مرحلة الكتابة العاطفية الذاتية لا سيما وأنه "لم تتح بعد للمحارب الفلسطيني الفسحة والاستراحة، كي يطمئن إلى وراثته ويبدأ بكتابة روايته"، كما يقول الخليلي.

يقودنا هذا القول إلى تساؤل آخر مرتبط بتوقيت كتابة الرواية الوطنية للشعب المتواجد في حالة صراع قومي، هل "الفسحة" أو "الاستراحة" التي يتحدث عنها الخليلي هي شرط من شروط الشروع بكتابة وتدوين الرواية التاريخية، أم أن هناك مكانًا لمواكبة التوثيق التاريخي لتفاعل الحدث التاريخي وترامي أبعاده؟ وإذا كان الخليلي قد كتب ما كتب بإيحاء من الذكرى الخمسين للنكبة، فإن كاتبًا فلسطينيًا آخر، وهو عارف العارف، كان واعيًا لضرورة تسجيل وقائع النكبة في حينه على الرغم من عدم توفر البعد التاريخي اللازم لذلك. وهو يقول، في هذا السياق:

> من واجبنا، إذن، أن ندوّن الحوادث التي حدثت، كما حدثت، وأن نذكرها كما هي قبل أن ينسج الدهر عليها خيوط النسيان. إنّا إذا فعلنا ذلك كان لدى المؤرّخين التابعين، عندما يأتي اليوم الذي يصح فيه التاريخ، سطور يستطيعون الركون إليها... سطور تدعمها الوقائع والأسماء والأماكن والأرقام. وهذا ما حداني إلى تسجيل النكبة، وقد سجلتها بأمانة. وهو ما يحدوني الآن إلى وضع سجلها هذا بين يديك، ذاكرًا طبعًا أن أحسن التواريخ وأصدقها ما يكتبه المؤرّخون بعد مضي ما لا يقل عن ربع قرن من الزمن، وليس الذي يكتب فور وقوع الحادث (العارف ١٩٥١-١٩٥٦، ٣).

ولعل العارف قام بعمل كان من المفروض أن يقوم به كثيرون غيره بكل ما يتعلق بتوثيق أحداث النكبة حال وقوعها أو فترة قصيرة بعد ذلك، وهو أمر تعسر حصوله لجملة من الأسباب الموضوعية والذاتية التي لا مجال لتفصيلها هنا. ولكن من شأن تجربة العارف أن تشير إلى فداحة الخسارة التي أصابت رواية النكبة بسبب عدم توثيق وقائعها الدقيقة كما فعل العارف في منطقة القدس، حيث واكب الأحداث هناك عن كثب. وأن تكون قدوة لشهادات من أماكن أخرى لم يعمد المشتركون فيها أو المشاهدون لها إلى تدوينها فضاعت بذلك شهادات ذات قيمة تاريخية عالية كشهادة العارف عن منطقة القدس. صحيح أن العارف وثّق، أيضًا، للمناطق الأخرى، لكن هذا التوثيق، على أهميته، يبقى ناقصًا ولا يمكن أن يرتقي بجودته إلى شهادته عن منطقة القدس.

وعليه، تأتي المحاولات الجادّة التي يقوم بها المؤرخون الفلسطينيون في العقدين الأخيرين لسدّ هذا النقص من خلال جمع الشهادات الشفوية والوثائق والمستندات المتعلقة بهذا الحدث الجسيم وذلك في سبيل بناء رواية تاريخية فلسطينية عنه. ومن هنا كان هذا الجهد من مركز "مدى الكرمل" الذي شرع عام ٢٠٠٣ في وضع الأسّس لمشروع صياغة الرواية التاريخية الفلسطينية، حيث قام بتنظيم سمينارين أتبعهما بيومين دراسيّين كان الأوّل تحت عنوان "النكبة والتهجير" وتشكل المقالات التي القيت فيه حصة الأسد من هذا الكتاب. أما الثاني فقد تناول فترة الحكم العسكري الذي فرض على الفلسطينيّين العرب داخل إسرائيل في الفترة الواقعة بين ١٩٤٨– ١٩٦٦، وستصدر هي الأخرى في كتاب آخر في وقت لاحق.

يتكوّن هذا الكتاب من تسعة مقالات وملحق، تم تقسيم المقالات التسعة إلى ثلاثة أبواب: حمل الأوّل عنوان "كتابة التاريخ الفلسطيني للنكبة" وهو مكوّن من أربعة مقالات، يناقش الأوّل (لمحرّر الكتاب) موضوع كتابة التاريخ الفلسطيني، بشكل عام، وإشكاليات صياغته؛ في حين يتعرّض المقال الثاني (لصالح عبد الجواد) لقسريات كتابة تاريخ النكبة وأهمية دور التاريخ الشفوي في ذلك؛ أما المقال الثالث (لأحمد سعدي) فيتناول موضوع ذاكرة النكبة وأشكال صياغتها؛ في حين يعرض المقال الرابع (لعصام نصّار) دور الصورة والمصوّرين في توثيق أحداث النكبة وقت وقوعها.

يتعرض الباب الثاني، والمكوّن من ثلاثة مقالات، لنماذج متنوعة من اداء قطاعات وشرائح مختلفة من الشعب الفلسطيني وقت النكبة. فالمقال الأوّل (لسليم تماري) يتعرض لتعامل القطاع المدني، ممثلًا بمدينة القدس وعمقها القروي، مع أحداث النكبة وتداعياتها. أما المقالان الثاني والثالث والمتعرضان لاداء القطاع القروي في منطقتين مختلفتين، يتميزان لكون كاتبيهما يرويان، أيضًا، شهادة تحمل بعدًا ذاتيًا لما حصل في قرية كل منهما، أحدهما (لنمر سرحان) يتحدث عن قريته السنديانة (منطقة الروحة) التي كان قد غادرها وهو في الحادية عشرة من عمره وشاهد عن كثب ما حصل هناك، في حين غادر كاتب المقال الآخر (لعادل مناع) قريته مجد الكروم (الجليل الأعلى) عام النكبة وهو طفل رضيع ليعود إليها بعد رحلة لجوء قاسية في لبنان. وخلاصة ما حصل في القريتين يمكن أن يكون نموذجًا لما حصل في قطاعين قرويّين مختلفين.

في الباب الثالث، الذي يتعرض لكتابة التاريخ الصهيوني الإسرائيلي للنكبة، يتضمن مقالين:

يستعرض الأوّل (لمردخاي بار أون، المؤرخ المحسوب على مجموعة مؤرّخي النظام) مجمل مواقف مؤرخي المؤسّسة محاولاً الرد، أيضًا، على مجموعة "المؤرخين الجدد"؛ في حين يتناول المقال الثاني (لإيلان بابه، أحد أركان مجموعة المؤرّخين الجدد) بشكل ناقد التاريخ المؤسّساتي الإسرائيلي وطريقة تناوله لموضوع النكبة.

أما ملحق الكتاب فيقص فيه سميح شبيب من خلال شهادة شخصية قصة أرشيف مركز الدراسات الفلسطيني في بيروت الذي كان قد عمل فيه سنوات طوال وشاهد عن كثب عملية بنائه وعمله ومن ثم استيلاء القوات الإسرائيلية عليه على أثر اجتياحها بيروت عام ١٩٨٢، ودرب الآلام التي مرّت بها مواد هذا الأرشيف منذ ذلك التاريخ. وقد رأينا أن نورد هذه الشهادة في هذا الكتاب عسى أن تكون عبرة ودرسًا لكل من يحاول بإخلاص بناء أرشيف وطني فلسطيني يكون من شأنه سد بعض الثغرات في نقص المواد الخام الذي يعانيه المؤرّخون الفلسطينيّون.

أرى من واجبي التنويه هنا أن قدر كبير من المقالات المنشورة بين طيات هذا الكتاب قدّمت بالأصل كأوراق في السمينار واليوم الدراسي المنظمين من قبل مركز مدى الكرمل، علمًا بأن القسم المتبقي كان قد نشر في أماكن ومنصات أخرى وعليه اقتضى التنويه.

ولا يسعني في نهاية هذه المقدمة الا أن أشكر كل من كانت له مساهمة، مهما كان حجمها، في اصدار هذا الكتاب: بطرس أبو منة على ملاحظاته القيّمة، نديم روحانا (المدير العام لمركز مدى الكرمل) على دعمه ومساندته. وكذلك أتقدم بالشكر لكل من ساهم من طاقم المركز، كل في موقعه، نبيل الصالح، نبيه بشير، همّت زعبي، ريموندا منصور وحنّا الحاج على تدقيقه اللغوي.

د. مصطفى كبها

إشكاليات كتابة التاريخ الفلسطيني الحديث وضرورة صياغة رواية تاريخية متكاملة

مصطفى كبها

مصطفى كبها هو باحث ومحاضر في موضوعي التاريخ والإعلام في الجامعة المفتوحة وجامعة بئر السبع. حاصل على الدكتوراه من قسم التاريخ في جامعة تل أبيب. أصدر العديد من الكتب والدراسات في تاريخ الشرق الأوسط والتاريخ الفلسطيني الحديث وتاريخ الصحافة العربية. يشرف على مشروع الرواية التاريخية في مركز مدى الكرمل.

إذا انطلقنا من نقطة مفادها أنّ الفكر القوميّ – الوطنيّ هو نتيجة مباشرة من نتائج عصر التحديث، يمكن الافتراض أن الرواية التاريخيّة القوميّة – الوطنيّة لشعب أو لأمّة معيّنة هي نتيجة مرافقة أيضًا لهذا العصر. وهي تتطوّر تبعًا لتطوّر الوعي القوميّ – الوطنيّ لهذا الشعب أو هذه الأمّة وتتشكّل حسب تجسيدها لهويّتها وتطلّعاتها القوميّة – الوطنيّة (Smith 2000, 44-52).

وعليه يمكن الافتراض أيضًا أن الرواية السرديّة التاريخيّة، لأيّ شعب كان، محكومة – بالضرورة – للثوابت أو القسريّات الإيديولوجيّة لهذا الشعب، وبخاصّة حين تكون الشعوب في ٦
طور تجسيد الذات والهُويّة من خلال الكيانات أو الأطر السياسيّة. بل إنّ البعض اعتقد جازمًا بأنّ الرواية السرديّة التاريخيّة للشعوب والأمم تتجسّد أساسًا من خلال سعي الحركات القوميّة – الوطنيّة لهذه الشعوب إلى إقامة كِيان سياسيّ يجسّد تطلّعاتها أو مصالحها أو إيديولوجيتها القوميّة– الوطنيّة. وقد لخّص جون بريلي ذلك بتعليلات ثلاثة:

– الاعتقاد الراسخ بوجودهم وكينونتهم كأمّة ذات طابع محض ومميز.

–الاعتقاد بأنّ مصالح وقيم الأمّة يجب أن تأتي، من حيث الأولويّة، قبل أيّ مصالح وقيم أخرى.

– ضرورة نيل الأمّة الاستقلال والسيادة السياسيّة (Breuilly 1993, 2).

وإذا كان كدوري قد وضع الأسس التاريخيّة لدراسة كيفية استحواذ الإيديولوجيا القوميّة – الوطنيّة وتسخيرها للرواية التاريخيّة في خدمة الأهداف السياسيّة لهذه الحركات، فإنّ دويتش وجلنر قد أضافا عرض الأبعاد السوسيولوجية لذلك الاستحواذ (Kedourie 1960, 1971; Deutsch 1966; Gellner 1964, 1994).

ولعله من بديهيّات الأمور التأكيد على ضرورة صياغة رواية تاريخيّة متكاملة لشعب يعيش عقودًا عديدة من الصراع الوطنيّ والقوميّ المرير، مع شعب آخر له ذات المطالب على ذات الأرض التي يطالب الشعبان المتناحران بتجسيد سيادتهما الوطنيّة والقوميّة عليها.

وتكتسب هذه الضرورة أهمّيّة قصوى في الحالة الفلسطينيّة، وذلك لشراسة ظروف الصراع وانعكاسها سلبيًّا بالنسبة لتواجده على أرضه، وذلك إزاء تمكّن الشعب الآخر من تثبيت أسس تواجده ودعمها برواية تاريخيّة دأب أصحابها، منذ بداية الصراع، على صياغتها وبلورتها وتوثيقها بشكل تقسَّم فيه أطراف الصراع بصورة قاطعة وحاسمة إلى "أخيار" و"أشرار"، أو إلى "متحضرين" و"متخلّفين"، إلخ... والأهمّ من ذلك تقسيمهم إلى أصحاب حقّ شرعيّ تاريخيّ – دينيّ مقابل مدّعين طارئين على السياق التاريخيّ لهذه البلاد.

ومن الضرورة بمكان أن نؤكّد هنا أنّه توافرت للطرف المهيمن في الصراع (الطرف الصهيونيّ) موادّ ووسائل صياغة للرواية التاريخيّة بشكل أوفر بكثير ممّا توافر للطرف الفلسطينيّ، إن كان ذلك بسبب الوعي المبكر لضرورة العمل على التوثيق وجمع البيّنات والشواهد والوثائق وتسجيل المقابلات الشخصية لدى الطرف الصهيونيّ من جهة، أو كان بسبب ما ولّدته النكبة التي حلّت بالشعب الفلسطينيّ من تهجير واقتلاع وضياع لمعظم الوثائق الفلسطينيّة المكتوبة أو سقوطها غنائم في أيدي القوّات الإسرائيليّة أثناء الحرب (على سبيل المثال، لا الحصر: وثائق اللجنة التنفيذية العربيّة؛[١] وثائق اللجنة العربيّة العليا؛[٢] وثائق المجلس الإسلاميّ الأعلى[٣] – هذا بالإضافة إلى وثائق الأحزاب السياسيّة والبلديّات والمجالس القرويّة والمكتبات العامّة والصحف والنوادي ومكاتب المحاماة وغيرها، والتي تتواجد بمعظمها في أرشيف الدولة الإسرائيليّ أو الأرشيف الصهيونيّ المركزيّ أو أرشيف الهاجاناه أو أرشيف الجيش الإسرائيليّ)، وإذا أضفنا إلى ذلك ما استولى عليه الإسرائيليّون (في الحروب: ١٩٨٢، ١٩٦٧، ١٩٥٦)، يمكن الاستخلاص أنّه ليس في الإمكان صياغة كتابة جِدّيّة لتاريخ الشعب الفلسطينيّ الحديث دون المرور في الأرشيفات الإسرائيليّة المذكورة أعلاه، علمًا بأنّ جهات ومؤسّسات بحثيّة فلسطينيّة عديدة[٤] حاولت تعويض هذا النقص من خلال عمليات جرد وتجميع لما تبقّى في أيدي الشعب الفلسطينيّ ونشيطيه السياسيّين من وثائق. ولكن هذه المحاولات، على أهمّيّتها، لم تفلح بملء الفراغ الأرشيفيّ الكبير الذي يعانيه الباحث والمؤرّخ الفلسطينيّ في هذا المجال.

وعوضًا عن النقص الكبير الذي يعانيه المؤرّخ الفلسطينيّ، فيما يتعلق بالحصول على الوثائق أو الوّصول إليها، فإنّ هناك صعوبات موضوعيّة أخرى تتعلّق بتوفير مصادر رديفة (كالرواية الشفويّة مثلًا) وذلك بسبب خصوصية وضع الشتات الذي يعيشه الشعب الفلسطينيّ والذي يجعل إنجاز عمليّة جمع الشهادات الشفويّة عن موضوع أو حادثة أو قرية معينة أمرًا بالغ الصعوبة. هذا فضلًا عن التناقص المستمرّ (بحكم الجيل) في عدد الذين من الممكن تدوين أو توثيق شهاداتهم، علمًا بأنّ بعضًا منهم يحجمون، تخوّفًا وتشكيكًا، من الإدلاء بما يعرفونه من معلومات.

وجدير بنا من خلال هذا التقديم، أن نشخّص الوضعية الخاصة للكتابة التاريخيّة الفلسطينيّة. إذ لم يحظَ المؤرّخون الفلسطينيّون بالكتابة تحت كنف دولة ومؤسسات فلسطينيّة مستقلة، فقبل النكبة كتب الكتّاب الأوائل تحت السيطرة العثمانية أو البريطانية. أما في فترة ما بعد النكبة، وما ترتّب عليها من اقتلاع لمعظم مكوّنات طبقة الانتلجنسيا وهدم السواد الأعظم من المؤسّسات التي كان من الممكن أن تقود وترعى عمليّة الكتابة التاريخيّة، فقد نشأت الكتابة التاريخيّة الفلسطينيّة، في هذه الفترة، على شكل ظاهرة يمكن أن نطلق عليها سمة "رواية الشتات" التي كتب فيها معظم الكتّاب الفلسطينيّين في ظلّ الأنظمة العربيّة التي أقام اللاجئون الفلسطينيّون في بلادها، أو تحت أنظمة أخرى – كوضع العرب الفلسطينيّين في إسرائيل، على سبيل المثال، أو في بلاد ومؤسّسات أكاديميّة غربيّة وأجنبيّة، حيث كان من المفروض على الكاتب، بشكل أو بآخر، أن يراعي شروط وقسريّات الكتابة فيها وأولويّات واستراتيجيات القائمين عليها. وبطبيعة الحال، انعكس السياق المكانيّ الذي انوجد فيه المؤرّخ الفلسطينيّ على مضامين كتابته، ومن هذا المنطلق، ليس من اليسير الحديث عن "ذاكرة جماعيّة فلسطينيّة" واحدة بعد أحداث حرب ونكبة ١٩٤٨.

سأتناول، في هذا المقال، بالعرض والتحليل، ما تمّ إنجازه من الرواية التاريخيّة الفلسطينيّة حتّى الآن، والخطوات التي من المفضل السير فيها في سبيل صياغة وبلورة رواية تاريخيّة فلسطينيّة متكاملة.

في ما يتعلّق بالموجود، يمكننا تقسيم الكتابة التاريخيّة الفلسطينيّة الحديثة، منذ نشأتها حتّى اليوم، إلى خمس مراحل تاريخيّة أساسيّة:

١. مرحلة ما قبل النكبة (حتّى عام ١٩٤٨)

٢. مرحلة ما بين النكبة والنكسة (١٩٤٨-١٩٦٧)

٣. من النكسة حتّى الانتفاضة الأولى (١٩٦٧-١٩٨٧)

٤. من الانتفاضة الأولى حتّى الثانية (١٩٨٧-٢٠٠٠)

٥. من الانتفاضة الثانية حتّى اليوم (٢٠٠٠-٢٠٠٦).[٥]

المرحلة الأولى - ما قبل النكبة

تميزت هذه المرحلة بالمحاولات القليلة للكتابة التاريخيّة التي خُصِّصت بمعظمها لتلبية الحاجات التعليميّة، ككتاب حسين روحي (روحي ١٩٢٣)، أو تلك التي كتبها خليل طوطح (١٨٨٧-١٩٥٥) وعمر الصالح البرغوثي (١٨٩٤-١٩٦٥) (البرغوثي وطوطح ١٩٢٣)؛ وكتاب خليل طوطح وبولس شحادة (١٨٨٢-١٩٤٢) (طوطح وشحادة ١٩٢٠)؛ وكتاب خليل السكاكيني (١٨٧٨-١٩٥٣) (السكاكيني ١٩٢٥) الذي أرّخ فيه لفلسطين بعد الحرب العالمية الأولى؛ أو كتب تاريخيّة أُلِّفت بأسلوب صحافيّ، كالكتاب الذي كتبه الصحفيّ عيسى السفري (١٨٩٤-١٩٤٩) وأصدره عام ١٩٣٧ إبّان الثورة الفلسطينيّة (١٩٣٦-١٩٣٩) تحت عنوان " فلسطين العربيّة بين الانتداب والصهيونيّة" - وهو كتاب غلب عليه عدم الدقّة أحيانًا، وسِمَة التهويل أحيانًا أخرى (السفري ١٩٣٧). ويرجع ذلك - كما يبدو - إلى أنّ الكاتب بَعث من مكتبه في جريدة فلسطين (في يافا) نماذجَ من الأسئلة إلى بعض المهتمّين بجمع المعلومات التاريخيّة، وقد قام بجمع تلك النماذج وتفريغها ثم تسجيلها (على الأغلب دون فحص أو تمحيص)، ثم جمعها في الكتاب الآنف الذكر. وفي السنة ذاتها، أصدر يوسف هيكل (الرئيس الأخير لبلديّة يافا العربيّة في عهد الانتداب) كتابًا ناقش فيه الأبعاد المختلفة للقضية الفلسطينيّة حتّى ذلك الوقت (هيكل ١٩٣٧).

من الكتب التي كانت على صلة بالكتابة التاريخيّة الكتابُ الذي ألّفه الطبيب توفيق كنعان (١٨٨٢-١٩٦٤) وأصدره عام ١٩٢٧ تحت عنوان "الأولياء والمزارات الإسلاميّة في فلسطين" (كنعان ١٩٢٧). صدر هذا الكتاب بدءًا كسلسلة من المقالات في مجلة "جمعيّة الاستشراق الفلسطينيّة"، ثم أصدره بالإنجليزيّة عن دار النشر "لوزاك" في لندن، وقد قامت مجلة "أرئيل" الإسرائيليّة بنشر

هذا الكتاب مختصرًا باللغة العبرية عام ١٩٨٧، هذا قبل أن تعمد وزارة الثقافة الفلسطينيّة إلى ترجمته للغة العربيّة وإصداره سنة ١٩٩٨ (كنعان ١٩٩٨). واللافت للنظر أن مؤلف هذا الكتاب يتبنى بشكل شبه تام التوجه البحثيّ والعبارات والمصطلحات الصهيونيّة، فقد جاء من هذا الكتاب:

والشيخ ياسين في دير ياسين هو أيضًا القديس المسيحيّ ياسون ويخلد النبي هوشان في خربة هوشة وهو الاسم التلمودي "أوشة"، وكذلك فإن النبي ياقين قد يخلد مدينة قايين المذكورة في هوشع (١٥: ٧٥). إن الشيخ أبو طور (في الأصل أبو الثور) مبني على موقع الدير المسيحيّ سانت لوقا والذي كان شعاره الثور.

والأغرب من هذا التوجه هو ما كتبه محرر الكتاب باللغة العربيّة حمدان طه الذي قال:

وربما تستوقف بعضَ القرّاء محاولةُ كنعان الدؤوبة الربط بين بعض جوانب الحياة العاديّة ومصادر العهد القديم، وهو ربط لا غبار عليه، فقد انتمى كنعان إلى مدرسة الفهم التراكمي للتاريخ الحضاري لفلسطين غير المدنّس بالمفاهيم التي حاولت فصم التاريخ الحاليّ عن عراه القديم" [كذا في الأصل: "القديم"؛ وعين الصواب: "القديمة"] (كنعان ١٩٩٨، ٢٩٨).

وبطبيعة الحال لم يُشِرْ حمدان طه إلى تلك الجهات التي تحاول "فصم التاريخ عن عراه القديم"، أو أولئك الذين يتعاملون بالمفاهيم "المدنّسة" الذين من المفترض أن يكونوا مختلفين عن منهج كنعان بطبيعة الحال.

المرحلة الثانية - من النكبة إلى النكسة

تميزت هذه الفترة بمحاولات الاستفاقة من هول صدمة النكبة ومحاولة تفسيرها. معظم من شاركوا في الكتابة فيها كانوا من الأشخاص الذين شاركوا في صنع الحدث. ومن هنا نبع لديهم الميل الطبيعيّ إلى تخليص أنفسهم أو تخليص الطرف الذي انتموا إليه من تبعات النكبة ونسبها إلى أطراف أخرى. وقد تركّز عملهم في المحاور التالية:

١. تبييض دورهم في النكبة وتجميله

وقد تركزت جهود الكتاب في هذا المحور على إبعاد مسؤولية ما حلّ بالشعب الفلسطينيّ عام ١٩٤٨ عن ظهورهم (بوصفهم صانعين للحدث التاريخيّ أو مشاركين في صياغته). وقد تركزت محاولاتهم في وصف الجهود التي بذلوها (أو بذلها من كانوا على صلة به) لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولكن محاولاتهم تلك باءت بالفشل، لا بسبب سوء التخطيط والتصرف، وإنّما بسبب ظروف قاهرة لم يجدوا إزاءها سبيلاً للنجاح.

٢. تطوير فكر المؤامرة

إمعانًا في تبرير سلوكهم وإبعاد المسؤولية عن كاهلهم، كثيرًا ما لجأ الكتّاب الفلسطينيّون في هذه المرحلة إلى تفسير الفشل من خلال تطوير فكرة المؤامرة التي تتلخص في وجود تعاون خفيّ بين القوى المعادية للفلسطينيّين التي تقف، بطبيعة الحال، وراء ما حلّ بالفلسطينيّين من نكبات (انظر: النقيب ١٩٩٧؛ البيطار ٢٠٠٢). ومع ذلك، أرى لزامًا عليّ أن أؤكّد هنا أنّني لا أنفي بالضرورة وجود خطط وصفقات حِيكتْ ضدّ مصلحة الطرف الفلسطينيّ في الصراع منذ بدايته. وفي المقابل، أرى من الواجب الإشارة إلى ضرورة عدم إعطاء الشرعيّة لاستعمال هذه الفكرة شمّاعة وحيدة لتبرير ما حلّ بالفلسطينيّين من مصائب. هذا مع العلم أنّ ذلك لا يميّز الرواية السرديّة التاريخيّة الفلسطينيّة فحسب، بل هو واسع الانتشار في الروايات التاريخيّة لشعوب العالم المختلفة. وذلك أنّه لو أخذنا بعين الاعتبار أنّ الأحداث التاريخيّة هي من صنع البشر، فإنّ هناك ميلاً إلى تفسير حصول هذه الأحداث بفعل أفراد مستغلين لقواهم أو أهدافهم، وإنْ لم يظهر الفاعلون أو لم تكن هناك إشارات لوجودهم. ويزداد هذا الميل شدّة عندما تكون هذه الأعمال منظّمة من جهات سياسيّة واجتماعيّة، إذ تُعْزَى عندها الأعمال الجيدة إلى روح المبادرة (التابعة للشعوب المستهدَفة بالطبع)، بينما تُعْزَى المصائب والكوارث إلى جهات شرّيرة، أو إلى أيادٍ تعمل جاهدة على تدبير تلك الشرور في الخفاء (Bennet 2003; Epperson 1985; Hayek 1966; Popper 1966, 2: 93-95).

٣. التغطية على دور ومسؤوليّة الدولة العربيّة التي أقاموا فيها إزاء دور دول عربيّة أخرى شاركت في حرب ١٩٤٨

لم يكن بوسع الكاتب الفلسطينيّ المقيم في الأردنّ – على سبيل المثال – أن يكتب، بشكل نقديّ

ومتحرّر، عن ملابسات الدور والمشاركة الأردنيّين في الحرب، لا سيّما أنّ بعض هؤلاء الكتّاب قد تولّوا هناك مناصب سياسيّة مهمّة.[٦] من هؤلاء الكتّاب نذكر: محمّد عزت دروزة (١٨٨٧–١٩٨٤)،[٧] أكرم زعيتر (١٩٠٩–١٩٩٦)،[٨] إميل الغوري (١٩٠٧–١٩٨٢)،[٩] محمّد نمر الخطيب،[١٠] قدري حافظ طوقان (١٩١٠–١٩٧١)،[١١] عارف العارف (١٨٩٢–١٩٧٣)،[١٢] والمفتي الحاجّ محمّد أمين الحسيني (١٨٩٤–١٩٧٤).[١٣] وجميع هؤلاء، كلّ في موضعه، كانوا قد شاركوا في صنع الحدث التاريخيّ، وبعضهم (كالحاج أمين الحسيني – على سبيل المثال) كان في بؤرة الأحداث وأثّروا إلى مدى بعيد على سلوك الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة وخاصّة فيما يتعلق بالقرارات المصيريّة التي اتُّخِذت عشية الحرب وأثناءها. وفي هذا السياق بخاصّة، جدير بنا أن نذكر الكتاب الذي ألّفه المحامي محمّد نمر الهوّاري (قائد منظّمة "النجّادة" الشبابيّة شبه المسلّحة التي أُنشئت في النصف الثاني من الأربعينيّات، لتكون الموازيَ العسكريَّ لمنظّمة "الهاجاناه" اليهوديّة) الذي جاء تحت عنوان "سرّ النكبة"،[١٤] وقد نُشر في الناصرة عام ١٩٥٥ بعد أخذ وردّ مع السلطات الإسرائيليّة دام أربع سنوات كاملة (الهوّاري ١٩٥٥). ولعلّ هذا الكتاب هو من أوائل الكتب بعد النكبة التي انتقدت بشكل شخصيّ ومباشر أداءَ القيادة الفلسطينيّة (وخاصّةً الحاجّ أمين أثناء الحرب، علمًا بأنّه أَصدَر في هذه الأثناء ثلاثة كتب إبداعيّة – أدبية اختار أن يصدرها في عمّان، ومن الجائز الاعتقاد أنّ الكتاب الثالث في هذه السلسلة، والذي جاء تحت عنوان "الناس الآلهة"، كان ذا بُعد نقديّ سياسيّ قصد فيه الحاجّ أمين الحسيني (الهوّاري ١٩٥٢، ١٩٥٦، ١٩٥٨).

كذلك نشر مصطفى مراد الدبّاغ في هذه المرحلة كتابه "بلادنا فلسطين" الذي كان محاولة طليعيّة في مجال كتابة التاريخ العمرانيّ لفلسطين، وذلك على الرغم مما شاب هذه المحاولة من عدم الدقّة النابعة (حسبما ذكر الدبّاغ في المقدّمة) من فقدانه للنصّ الأصلي للكتاب، أثناء عملية التهجير (حين اضطر إلى رمي مادة الكتاب في البحر تحت ضغط ربّان السفينة الصغيرة التي أقلّته مع مجموعة من المهجّرين، وذلك حين انتابت هذه السفينةَ عاصفةٌ هوجاء هدّدتها بالغرق)، واعتماده على ذاكرته الشخصيّة في عمليّة استرجاع مضامين الكتاب (الدبّاغ ١٩٦٥، ٧–٨).

المرحلة الثالثة: من النكسة إلى الانتفاضة الأولى ١٩٦٧-١٩٨٧

تميّزت هذه المرحلة بالميزات التالية:

١. كتابة نقديّة تجاه الزعامة السياسيّة (المفتي أساسًا)

بعد تأسيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة عام ١٩٦٤ وتولي أحمد الشقيري رئاستها، أصبح من الواضح أن الزعامة السياسيّة للمفتي، الحاجّ أمين الحسيني، قد فقدت قدرًا كبيرًا من مضامينها وهيبتها. وعليه، بدأت مؤسّسات منظّمة التحرير تحت زعامة الشقيري، وبعد ذلك تحت زعامة ياسر عرفات، بعمليّة تغييب لشخصية المفتي؛ وقد انعكس ذلك التغييب من خلال عدم إطلاق اسم الحاجّ أمين (حتّى بعد وفاته) على شارع أو ميدان أو مكتبة أو مؤسّسة ثقافية أو حتّى لم يطلق على إحدى الوحدات العسكرية التابعة لمنظمة التحرير. وقد يكون ذلك هو السبب الذي جعل المؤرّخين الفلسطينيّين، في هذه الفترة، أكثر جرأة في التناول التاريخيّ النقديّ لشخصيّة المفتي.

٢. بداية ظهور بوادر أوّلية للنقد الذاتيّ لسلوك الفلسطينيّين عشيّة النكبة وأثناءها

بعد البدء بعمليّة التقييم المجدّد لدور المفتي والقيادات البارزة الأخرى، بدأت تطرح أيضًا قضايا ساهم فيها الفلسطينيّون (بوعي أو بغير وعي) بشكل أضرّ بمصلحتهم الوطنيّة العليا، وأفاد، إلى حدّ بعيد، مصالحَ الاستيطان اليهوديّ، كقضية بيع الأراضي والسمسرة بها، أو التعاون مع جهات أَمنيّة يهوديّة عملت آنذاك على جمع المعلومات عن المجتمع الفلسطينيّ. أقول هذا وأنا على علم بأنّ الخوض في هذه الأمور والتعمّق فيها ما زال ينطوي على إشكاليّات وحساسيّات كثيرة إلى حدّ يُضطرّ فيه المؤرّخ إلى الحذر الشديد في التعامل معها؛ وهذا من شأنه، بطبيعة الحال، أن يقيّد عمل المؤرّخ ويعيق عمليّة تعمقه في التفاصيل ومن ثم تحليلها والحكم عليها.

٣. نسبة لا يستهان بها من الكتّاب كانوا من أصحاب الميول اليساريّة الماركسيّة

على أثر التغيير الأيديولوجيّ الذي حصل في توجّهات العديد من الحركات السياسيّة الفلسطينيّة، بسبب هزيمة حزيران ١٩٦٧، وتراجع المشروع القوميّ العربيّ الناصريّ، مالت بعض هذه الحركات (كحركة القوميّين العرب التي انبثقت عنها الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطيّة لتحرير فلسطين وجبهات وحركات سياسيّة عديدة أخرى) إلى تبنّي الخطاب

الماركسيّ، بمن في ذلك العديد من المثقّفين السابحين في فلك هذه الحركات أو المتعاطفين معها؛ وقد انعكس ذلك، بطبيعة الحال، من خلال تغيير كبير في المصطلحات وتبنّي مصطلحات ثوريّة، نحو: "حرب التحرير الشعبيّة"؛ "حرب الاستنزاف"؛ "حرب العصابات"؛ "الكفاح المسلّح"؛ وغير ذلك من المصطلحات التي أصبحت، آنذاك، جزءًا من القاموس السياسيّ والخطاب السياسيّ الفلسطينيّ، ومن الطبيعيّ أن ينعكس، بأثر رجعي، على كتابات المؤرّخين وتأريخهم لفترات سابقة من التاريخ الفلسطينيّ. من هؤلاء الكتّاب نذكر: عبد الوهّاب الكيّالي (١٩٦٨، ١٩٧٠)؛ وليد الخالدي (Khalidi 1971)؛ كامل محمود خلة (١٩٧٤)؛ بيان نويهض الحوت (١٩٨١)؛ ناجي علّوش (١٩٧٠)؛ أنيس صايغ (١٩٦٦)؛ خيريّة قاسمية (١٩٧٣، ١٩٧٤)؛ إبراهيم أبو لغد (١٩٧١)؛[15] إميل توما (١٩٧٣)؛[16] عبد القادر ياسين (١٩٦٩) وغيرهم.

على الرغم من الانقلاب الكيفيّ الذي طرأ على كتابة هؤلاء الكتّاب (من حيث طريقة الكتابة والمنهجيّة وآليّات العمل)، فقد لاقى بعضهم صعوبة جمّة في التخلص من الميراث الكتابيّ للجيل الذي سبقهم ومن ترديد بعض أوصافهم للوقائع التاريخيّة بشكل أقرب إلى التهويل وعدم الدقّة، بل واجترار ذلك في المصادر المختلفة. من ذلك ما كتبته بيان نويهض الحوت في وصف نهاية ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩:

> وكانت فجيعة البلاد في ٢٧ آذار (مارس) ١٩٣٩ باستشهاد القائد البطل عبد الرحيم الحاج محمد وقد كان يدعى القائد العام للثوار، فأضربت البلاد حزنًا عليه. وفي اليوم السابق لاستشهاده، وصل القائد عبد الرحيم من دمشق ونزل مع المجاهدين في قرية صانور، في قضاء جنين، ولما علمت السلطة، عبر جواسيسها، بمكانه طوّقت القرية من كلّ الجهات، وقد رفض القائد حين وثوقه من الحصار على حين غرّة اللجوء إلى الهرب، كما أشير إليه، وقام يقود معركة الخلاص مع إخوانه إلا أنّه استشهد. وقد بلغت بطولة القائد الكبير حدًّا جعل بعضًا من الجنود الإنكليز يضربون له التحيّة العسكريّة وهو مسجّى على الأرض شهيدًا (نويهض الحوت ١٩٨١، ٤٠٨).

اعتمدت بيان نويهض الحوت في وصفها لاستشهاد القائد عبد الرحيم الحاجّ محمد على مصدرين: الأوّل كتاب صبحي ياسين (من شفاعمرو) الذي كان ثائرًا في منطقة الشمال؛ ولعل كتابه هذا (الذي يعتمد على ذاكرته وتجربته الشخصية) يعتبر مصدر معلومات أساسيًّا ومهمًّا في المنطقة التي عمل

فيها، في حين يغلب على الكتاب عدم الدقّة في معظم ما يتعلّق بالمناطق الأخرى، وذلك لأنّه اعتمد على روايات غير محقَّقة تناقلها الثوار، في حينه، فيما بينهم، أو على روايات متأخرة أكثر سمعَها من بعضهم بعد انتهاء الثورة في نهاية عام ١٩٣٩. أمّا المصدر الثاني فهو رواية شفوية من كامل الدجاني (الذي لم تبيّن الكاتبة مدى وكيفيّة صلته بالحدث، وما إذا كان قد شاهد الحادث عن كثب أو نقله عن مصدر آخر). وبعد فحص وتدقيق قمنا به في مسرح الحدث تضمن استجواب بعض الأشخاص الذين شاهدوه عن كثب، وجدنا أنّه لم تكن هناك معركة على الإطلاق، وأنّ كل ما كان هو محاولة من المضيف لتهريب القائد ومرافقه، ولكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح بسبب إحكام القوّات البريطانيّة الحصار، فقام أحد الجنود البريطانيّين بإطلاق النار على ساق عبد الرحيم الحاجّ محمّد بقصد أسره واستجوابه، ولكن أحد العرب المرافقين للقوات البريطانية والذي عمل في إطار ما عُرِف آنذاك بـ"فصائل السلام"، [١٧] سارع إلى الإجهاز عليه وسلب وثائقه بدعوى سداد ثأر قديم.

من الجدير ذكره هنا انه تمّ في الفترة قيد البحث نشر القسم الأوّل (العامّ) من الموسوعة الفلسطينيّة التي ساهمت (على الرغم من بعض العلاّت التي شابتها) مساهمة فعّالة في عمليّة الصياغة المجدّدة للذاكرة الجماعيّة الفلسطينيّة، خاصّة فيما يتعلّق بفترة الانتداب وما سبقها. هذا بالإضافة إلى عملية إعادة البريق، من حيث التناول التاريخيّ، إلى بعض الشخصيات والرموز والأماكن. [١٨]

المرحلة الرابعة: من الانتفاضة الأولى حتّى الانتفاضة الثانية

يمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى فترتين أساسيتين: الأولى بدأت مع اندلاع الانتفاضة الأولى واستمرت حتّى التوقيع على اتفاقيات اوسلو وإقامة السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة. أما الثانية فقد بدأت مع إقامة السلطة واستمرت حتّى اندلاع الانتفاضة الثانية في خريف ٢٠٠٠.

تميزت الفترة الأولى بتصاعد التأكيد على الشعور الوطنيّ الفلسطينيّ، وذلك كما يبدو من وحي الانتفاضة الشعبية التي اندلعت في كانون الأول عام ١٩٨٧، والتي كانت أحداثها الملهمَ الأساسي لكتّاب الذين قادوا عملية العودة إلى الماضي، وخاصّة فترة الثلاثينيّات، بدءًا بانتفاضة ١٩٣٣، ومرورًا بحركة الشيخ عز الدين القسّام[١٩] في تشرين الثاني ١٩٣٥، وانتهاءً بإضراب وثورة ١٩٣٦-١٩٣٩. وقد درج العائدون إلى هذه الأحداث على المقارنة بينها وبين ما كان يجري على الساحة الفلسطينيّة آنذاك. وبطبيعة الحال، كانت هناك عودة لتناول رموز هذه الفترة كشخصيتي

القسّام والمفتي وشخصيات مركزية أخرى شاركت في تلك الأحداث. كما انعكست عملية العودة إلى الماضي ومحاولة استرجاعه من خلال التركيز على كتابة التاريخ المحلّيّ والبلدانيّ الفلسطينيّ.[٢٠] ومن الجدير ذكره هنا أن هذه الفترة شهدت ازديادًا في عدد الكتّاب والمؤرّخين الفلسطينيّين الذين كتبوا في الغرب ونشروا مؤلفاتهم بلغات أجنبيّة كرشيد الخالدي ومحمّد مصلح، على سبيل المثال (Khalidi 1997; Muslih 1988). كما شهدت هذه المرحلة اهتمامًا ملحوظًا من جانب الكتاب الفلسطينيّين بظاهرة "المؤرّخون الجدد" الإسرائيليّة التي أضحت كتابات رجالها البارزين (نحو: إيلان بابه؛ بيني موريس؛[٢١] آفي شلايم؛ ويسرائيل شاحك[٢٢]) أساسًا مهمًّا من أسس الرواية التاريخيّة الفلسطينيّة، خاصّة في كلّ ما يتعلق باستعمال الوثائق الإسرائيليّة التي لم يكن في إمكان معظم المؤرّخين الفلسطينيّين الوصول إليها واستعمالها، وذلك كوسيلة من وسائل محاججة الرواية التاريخيّة الإسرائيليّة الرسمية. فمن هذا المنطلق كان السعي لترجمة أعمال هؤلاء إلى اللغة العربيّة، رغم ما اعتور بعضَ هذه الترجمات من انعدام الدقّة في بعض الأحيان. وقد وصف الكاتب علي الخليلي ردود الفعل الفلسطينيّة حول نتائج البحث التي خلص إليها المؤرّخون الجدد في إسرائيل قائلًا: "وماذا عن 'ردود الفعل' بيننا، حكّامًا ومحكومين، أو أفرادًا ومؤسّسات، أو أحياءً وأمواتًا؟ لا شيء قي المشهد المحبط، سوى أننا مرة أخرى، نقف مذهولين أمام 'المؤرّخين الجدد' في إسرائيل بلا منصّة خاصّة بنا، وهم يكشفون عن تفاصيل جديدة، في النسيج الدامي للنكبة الفلسطينيّة في العام ١٩٤٨" (الخليلي ٢٠٠١، ١٧١-١٧٢). ولكن نكوص بعض هؤلاء الكتّاب عن مواقفهم (خاصّة بيني موريس ويسرائيل شاحك) جعل الأساس الذي تم بناؤه في الرواية التاريخيّة الفلسطينيّة على مؤلفاتهم، مهدَّدًا بالزعزعة.[٢٣]

ثمّة ظاهرة كتابيّة أخرى أخذت أبعادًا جديدة في هذه الفترة، تلك كانت ظاهرة التوثيق الشفويّ، حيث ظهرت بعض الإصدارات التي كانت نتاج مشاريع لجمع التاريخ الشفويّ مثل كتاب شريف كناعنة (١٩٩٢) علمًا بأنّ هذه الظاهرة جاءت لتعالج حالة اجترار المصادر المكتوبة التي كانت مسيطرة على الرواية التاريخيّة الفلسطينيّة آنذاك.

كما تميزت هذه المرحلة بتبلور مدرسة للكتابة التاريخيّة لدى الفلسطينيّين العرب داخل إسرائيل مارس معظم أعضائها كتابتهم داخل المؤسّسة الأكاديمية الإسرائيليّة (مع كلّ ما يعني ذلك من قسريات وصعوبات). وقد كانت بدايات هذه المدرسة لدى كلّ من بطرس أبو منّة وسليمان بشير وقيس فرّو وعادل منّاع، ومن ثمّ محمود يزبك ومصطفى كبها ومصطفى العبّاسي وآخرين.

وانصبّ اهتمام البعض على التاريخ العثماني، ولا سيّما الفترة العثمانية المتأخرة (بطرس أبو منّة؛ عادل منّاع؛ محمود يزبك)، بينما كتب الآخرون أساسًا حول فترة الانتداب والمراحل التالية للنكبة (سليمان بشير؛ قيس فرّو؛ مصطفى كبها؛ مصطفى العبّاسي)، علمًا بأنّ البعض منهم اهتمّ أيضًا بقضايا عامّة تهمّ تاريخ منطقة الشرق الأوسط والأقطار العربيّة المجاورة.

أما الفترة الثانية التي بدأت مع إقامة السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة، في ربيع سنة ١٩٩٤، فقد كان من المفروض أن تفرز حالة جديدة من حالات الكتابة التاريخيّة تمكّن الكاتب والمؤرّخ الفلسطينيّ (الذي يعيش في مناطق السلطة الوطنيّة بطبيعة الحال) من أن يكتب، ولأول مرة، تحت نظامٍ راعٍ لديه مصلحة في رعاية عملية الصياغة المجددة للرواية التاريخيّة الفلسطينيّة. ومع عودة كثير من الكتّاب الفلسطينيّين إلى مناطق السلطة الوطنيّة، حسبما اقتضته اتفاقيّات أوسلو، ومع بداية تبلور المؤسّسات السياسيّة والثقافية التابعة للسلطة، بدأت عملية تشجيع ورعاية لمراكز الأبحاث والمؤسّسات المعنيّة بالدراسات التاريخيّة في مناطق السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة وفي بعض البلاد العربيّة الأخرى. ولعلّ التفاصيل التي يرويها الكاتب علي الخليلي عن الفعاليّات التي قامت مؤسّسات السلطة بإجرائها عام ١٩٩٨ (مقابل احتفالات إسرائيل بالذكرى الخمسين لتأسيسها) تجسّد مأساوية الوضع الذي تعيشه الرواية السرديّة الفلسطينيّة، حيث قال:

> قررت السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة اعتبار العام ١٩٩٨، عام فعاليات وأنشطة ثقافية وفكرية وسياسيّة وتاريخيّة، حول النكبة، في الذكرى الخمسين لها (١٩٤٨–١٩٩٨)، مؤكّدة بذلك – من جانبها السياسيّ على الأقل – على أنّ العام ١٩٤٨ هو بدء تاريخ النكبة ومنسجمة مع منطق الضد، بنشوء إسرائيل في العام نفسه... ومع أن هذا القرار نصّ على عناوين لعشرات الفعاليات والأنشطة التي يفترض القيام بها على مدار ذلك العام، داخل فلسطين وخارجها ومنها مسيرة المليون في منتصف أيار، ومؤتمر دوليّ فكريّ حول النكبة، وفيلم سينمائيّ ضخم يؤرّخ له برواية فلسطينيّة متطوّرة، وإنشاء متحف عصريّ متخصّص في مراحل النكبة، وجداريات لكل المخيمات وغيرها. مع ذلك فإن "شيئًا كثيرًا" من هذه العناوين الكبيرة، لم ينفّذ واقتصر الأمر على "مسيرة المليون" على شكل تظاهرات ومسيرات ضخمة في مختلف محافظات فلسطين، إلى جانب بعض المسيرات الأخرى، في مدن القاهرة وبيروت ولندن، وغيرها. وكان من المؤلم أن "الكتيّبات" التي صدرت بـ

"المناسبة"، عن هذه الوزارات أو تلك، وعن هذا المركز الثقافي أو ذاك، لم تتجاوز "لملمة" المعلومات، ونقلها عشوائيًا، عن الكتب التقليديّة الموجودة. فكأنّها إصدارات لرفع العتب بشأن المشاركة المقررة وأي عتب أو عتاب لأخطر قضية؟ (الخليلي ٢٠٠١، ١٦١).

ومع ذلك فقد أنجزت بعض الأعمال المهمّة في ثلاثة مجالات أساسية يكمل أحدها الآخر: التاريخ البلدانيّ- المحليّ؛ التاريخ الشفويّ؛ التاريخ الفلسطينيّ من منظور قضايا عامّة تتعلق بالصراع.

في ما يتعلّق بالمجال الأوّل، أصدرت مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة سلسلة أسمتها "سلسلة المدن الفلسطينيّة" صدر منها كتب عن حيفا (صيقلي ١٩٩٧)، اللدّ (منيّر ١٩٩٧)، جبل نابلس (دوماني ١٩٩٨) لواء عكّا (غنايم ١٩٩٩). كانت هذه الكتب (باستثناء كتاب اسبير منيّر عن اللد) أبحاثًا أكاديميّة قدّمها أصحابها لنيل شهادات في الدراسات العليا. كما أصدر إبراهيم يحيى الشهابي كتابًا عن مدينة طبريّا، ضمّنه محطّات تاريخيّة مهمّة في تاريخ هذه المدينة قبل النكبة (الشهابي ١٩٩٩).

أما في المجال الثاني، فقد نشط كتّاب كثيرون في مجال تدوين الروايات الشفوية، وذلك - كما يبدو - إدراكًا منهم لضرورة جمع الروايات الشفوية التي يتناقص حاملوها باستمرار، إزاء ابتعاد الأحداث التاريخيّة زمنيًا، كأحداث ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، أو أحداث حرب ونكبة ١٩٤٨. وبضياع هذه الشهادات، يمكن افتراض ضياع إمكانية استرجاع مساحة ليست بالقليلة مما جرى أثناء الفترات التي قيد البحث. ومن الكتّاب الذين كتبوا في هذا المجال نذكر: فيحاء عبد الهادي؛ عادل يحيى؛ روز ماري صايغ؛ نمر سرحان؛ مصطفى كبها؛[٢٤] وآخرون.

أما في المجال الثالث، فقد برزت كتابات رشيد الخالدي (Khalidi 1997) ونور الدين مصالحة (٢٠٠١، ١٩٩٢) ويزيد صايغ (٢٠٠٢) التي تعرّضت، بأسلوب علميّ نقديّ، لقضايا وأفكار ومنظومات عامّة تتعلّق بجذور الصراع وانعكاساته على مسيرة الشعب الفلسطينيّ وحركته الوطنيّة، كقضايا الهُويّة والكيانيّة والفكر الصهيونيّ وفكرة الترحيل وآليّات الكفاح المسلّح وغيرها.

خلاصة

ممّا تقدّم يتّضح أنّ صياغة الرواية السردية التاريخيّة الفلسطينيّة المتكاملة، ليست بالامر السهل

التحقيق وذلك لجملة من الصعوبات والقسريّات التي أملتها الوضعية الخاصة للشعب الفلسطينيّ. ومع علمي التامّ بصعوبة استيعاب مقالة تاريخيّة لتوصيات ما يمكن فعله، مستقبلاً، في هذا المجال، أرى من المناسب الإشارة إلى ضرورة توفير الموادّ الخام للكتابة التاريخيّة (المجموعات الوثائقية؛ المقابلات الشفوية؛ وغيرها) ووضعها تحت تصرّف الباحثين، وهذا لا يتأتّى بطبيعة الحال إلاّ من خلال إقامة الأرشيفات التاريخيّة وتشجيع التوثيق وجمع الشهادات الشفويّة وإقامة مراكز الابحاث المستقلّة، عسى ذلك يمكّن الرواية التاريخيّة الفلسطينيّة من التبلور والتكامل.

هوامش

١ اللجنة التنفيذية العربيّة: هي لجنة انبثقت عن المؤتمر الوطنيّ الفلسطينيّ الثالث المنعقد في حيفا من الثالث عشر وحتّى التاسع عشر من كانون الأوّل ١٩٢٠. تولى رئاستها موسى كاظم الحسيني (١٨٥٠-١٩٣٤)، بعد أن أطاح به البريطانيون من رئاسة بلدية القدس وولّوا مكانه راغب النشاشيبي. وبوفاة موسى كاظم (عام ١٩٣٤)، توقفت اللجنة عن العمل، ثم سرعان ما غابت عن الساحة السياسيّة الفلسطينيّة (حول هذه اللجنة، انظر: الحوت ١٩٨١، ١٣٩-١٤٥).

٢ اللجنة العربيّة العليا: تكوّنت هذه اللجنة في نيسان ١٩٣٦ إثر اندلاع الإضراب العامّ والعصيان المدنيّ الذي دعت إليه اللجان القوميّة التي تشكلت بشكل عفويّ بعد أحداث ١٥-٢٠ نيسان ١٩٣٦ التي سبقت الإعلان عن الإضراب العام. ولم تجنح القيادات السياسيّة الفلسطينيّة التقليديّة إلى الوحدة والعمل سوية لقيادة الإضراب إلا بعد ضغط شعبيّ كبير، عندها فقط عمدت إلى تشكيل اللجنة العربيّة العليا التي تكونت من ممثّلي الأحزاب السياسيّة الستة، التي كانت قائمة آنذاك، ورئاسة المفتي الحاجّ محمّد أمين الحسيني (حول تشكيل وعمل هذه اللجنة، انظر: الحوت ١٩٨١، ٢٣٥-٢٣٧؛ دروزة ١٩٥١، ج٣، ١١٥-١٢٠).

٣ المجلس الإسلاميّ الأعلى: سعى البريطانيون لإقامته عام ١٩٢١ وذلك ليمثل الطائفة الدينيّة الكبرى في فلسطين آنذاك (الطائفة الإسلاميّة)، خدمةً لسياسة "فرِّق تسُدْ" التي رأت بالعرب الفلسطينيّين مجموعة من الأقليات الدينيّة (أي أنّها لم تشكل بنظرهم مجموعة وطنيّة واحدة جديرة بتجسيد حقوقها وتطلّعاتها الوطنيّة والقوميّة). ترأس المفتي، محمّد أمين الحسيني، المجلس منذ تأسيسه، أمّا باقي الأعضاء فقد كانوا يُنتخَبون حسب مفتاح قطريّ، وقد أثارت هذه الانتخابات حساسيّات جمّة داخل المجتمع الفلسطينيّ قسمته فيه إلى معسكرين: معسكر "المجلسيّين" ومعسكر "المعارضين" (حول ذلك، انظر: الحوت ١٩٨١، ٢٠٥-٢١٠؛ دروزة ١٩٥١، ج٣، ٤٩-٥٠).

٤ قام بذلك مركز الأبحاث الذي أقامته منظّمة التحرير الفلسطينيّة في بيروت، وكذلك مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة، وجمعيّة الدراسات العربيّة في القدس، ومراكز الأبحاث في جامعتَيْ بير زيت والنجاح، ومركز إحياء التراث في الطيّبة، وغير ذلك من المؤسّسات والمراكز البحثيّة.

٥ من الواضح أن هناك إشكالية معينة في هذا التقسيم، وذلك لأنه يحمل في طياته بعض التعميم وعدم الدقة مردّهما إلى إشكالية الحكم على الكتب حسب تاريخ الإصدار أو حسب الجيل السياسيّ للكاتب أو التيار الفكري الذي ينتمي إليه. فهناك من نشر كتابه بعد سنوات عديدة من كتابته، وهناك من انتمى في مرحلة معينة إلى تيار سياسيّ معين فكتب، حينها، بروح ذلك الانتماء، ثم غيرّ انتماءه إلى تيّار آخر فكان من المفروض أن ينعكس ذلك على كتابته وهكذا... ومع علمنا الكامل بهذه الإشكالية، كان لا بد من صياغة معايير (زمنيّة وغير زمنيّة) للحسم من خلالها في شأن المميزات والفوارق بين الفترات التاريخيّة المختلفة.

٦ تولى أكرم زعيتر، على سبيل المثال، مناصب سياسيّة عديدة في المملكة الأردنية الهاشمية، كان أهمها إشغاله لمنصب وزير الخارجية. وكذلك الأمر كان بالنسبة لإميل الغوري الذي أشغل هو الآخر مناصب رفيعة في الأردن، علمًا بأنّ الاثنين كانا من المناوئين لسياسة الملك عبد الله بن الحسين في فلسطين في فترة الانتداب.

٧ في هذه المرحلة، ألّف محمّد عزت دروزة العديد من المؤلفات التاريخيّة، كان أهمها مؤلف بعنوان " نشأة الحركة العربيّة الحديثة" (دروزة ١٩٥١)، وهو مكوّن من ستة أجزاء. وقد صدرت مذكراته، في مرحلة متأخرة أكثر، تحمل عنوان "مذكرات محمّد عزت دروزة ١٨٨٧–١٩٨٤" (دروزة ١٩٩٣)، والتي جاءت هي الأخرى في ستة أجزاء.

٨ في هذه الفترة، ألف أكرم زعيتر كتابًا مهمًا أسماه "القضية الفلسطينيّة" (زعيتر ١٩٥٥)، ولكن مساهمات زعيتر المهمة كانت في الثمانينيّات والتسعينيّات من القرن الماضي حين نشر على التوالي: "وثائق الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة ١٩١٨–١٩٣٩"، و"الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة ١٩٣٥–١٩٣٩"، و"بواكير النضال – من مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩–١٩٣٥" (زعيتر ١٩٧٩، ١٩٨٠، ١٩٩٤).

٩ انتمى إميل الغوري إلى مجموعة صغيرة من الشبّان المثقفين الذين كانوا مقرّبين من المفتي، وبحكم ذلك كانوا على اطّلاع واسع على ما يجري وراء الكواليس، وقد لخص تجربته هذه في كتاب يتكوّن من جزأين صدر تحت عنوان "فلسطين عبر ستّين عامًا" (الغوري ١٩٧٣).

١٠ كان محمّد نمر الخطيب أحد أهمّ نشطاء الجمعيّات الإسلاميّة في حيفا في عهد الانتداب، اشترك في عمليّات الدفاع عن حيفا قبل سقوطها في نيسان ١٩٤٨، وبعد اللجوء تنقل بين دمشق وبيروت وبغداد. وقد ألف عن نكبة ١٩٤٨ مؤلَّفين، أحدهما حمل عنوان "من أثر النكبة"، والثاني حمل عنوان "أحداث النكبة أو نكبة فلسطين" (الخطيب ١٩٥١، ١٩٦٧).

١١ ألف قدري طوقان كتابًا حاول أن يستقرئ فيه نتائج وانعكاسات النكبة على القضية الفلسطينيّة وعلى الشعب الفلسطينيّ والشعوب العربيّة الأخرى. وظهر هذا الكتاب بعنوان "بعد النكبة" (طوقان ١٩٥٠).

١٢ ألّف عارف العارف كتبًا ومؤلفات مهمّة في التاريخ المحليّ والبلدانيّ لفلسطين، ولكن أشهر مؤلفاته في مجال القضية الفلسطينيّة كان كتاب: "النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود، ١٩٤٧ - ١٩٥٢" (العارف ١٩٥١-١٩٥٦).

١٣ سجّل المفتي أمين الحسيني مذكراته وملاحظاته حول تاريخ الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة (أثناء توليه قيادتها) في عدّة مؤلفات، ففي الفترة المعنية نشر مؤلفه الأول بداية على شكل مسلسل في صحيفة "المصري" المصرية عام ١٩٥٣، وبعد ذلك بسنة ظهر على شكل كتاب جاء حمل عنوان "حقائق عن قضية فلسطين" (الحسيني ١٩٥٤). وفي عام ١٩٩٩، قام عبد الكريم العمر، أمين سرّ المكتب التنفيذيّ للهيئة العربيّة العليا كتابًا حمل عنوان: "مذكّرات الحاجّ محمّد أمين الحسيني" (العمر ١٩٩٩).

١٤ المقصود، كما يبدو من مادّة الكتاب، أنّ سرّ النكبة هو الحاجّ أمين الحسيني.

١٥ أعدّ وحرّر إبراهيم أبو لغد في عام ١٩٧٢ مؤلّف حمل اسم "تهويد فلسطين"، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات المترجمة من الانجليزية (Abu-Lughod 1971)، ضمن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية (أبو لغد ١٩٧٢).

١٦ كان إميل توما من كبار المثقفين الفلسطينيّين الذين بقوا في البلاد بعد النكبة، وقد مارس نشاطه السياسيّ والثقافي من خلال مؤسّسات وصحافة الحزب الشيوعي الإسرائيليّ (عمل محرّرًا لصحيفة "الاتّحاد" ومجلة "الجديد" لبعض الوقت). وقد ألف عدة كتب في التاريخ الفلسطينيّ كان أهمها: "جذور القضية الفلسطينيّة".

١٧ **فصائل السلام:** فصائل مسلحة أقامها البريطانيون في خريف عام ١٩٣٨ من ثوار وقادة ونشيطين سياسيّين اختلفوا مع الثوار وانشقّوا عنهم فقامت بريطانيا بتجنيدهم وتفعيلهم ضد رفاق الأمس. وبواسطة هذه الفصائل استطاعت بريطانيا أن تشقّ الثورة من الداخل ومن ثمّ قمعها. وقف على رأس هذه الفصائل فخري عبد الهادي (نائب فوزي القاوقجي القائد العامّ لقوّات المتطوعين العرب عام ١٩٣٦)، كما كان فخري النشاشيبي المنظم الأساسي لها.

١٨ صدرت الطبعة الأولى للقسم الأول من الموسوعة الفلسطينيّة، والذي تكوّن من أربعة مجلدات، عن هيئة الموسوعة الفلسطينيّة في دمشق عام ١٩٨٤.

١٩ على الرغم من كونه سوريّ المولد والنشأة، احتلّت شخصيّة الشيخ عز الدين القسّام حيّزًا مركزيًا في الوعي الوطنيّ والذاكرة الفلسطينيّة، خاصة بعد سقوطه في اشتباك مسلح مع البريطانيين في حرش يقع قرب قرية نزلة الشيخ زيد (في الشمال الغربي من بلدة يعبد) في التاسع عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٣٥. وقد اتّضح على اثر هذه المعركة انه كان المنظّم للخلايا العسكرية السرية المسلحة والتي نشطت في شمال فلسطين في النصف الأول من ثلاثينيّات القرن الماضي. وعليه يكون القسّام من طلائعيّي المنادين بفكرة "الكفاح المسلّح" التي وجهت ضد سلطات الانتداب البريطاني بغرض تحقيق مكاسب سياسيّة. وقد اختلطت الأمور على بعض مصممي الذاكرة الشعبية الفلسطينيّة حين صوّروا القسّام على انه قائد ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، وهو ما جعل أوساطًا شعبية واسعة تدعو هذه الثورة "ثورة القسّام"، على الرغم من ان الاشتباك المذكور أعلاه وقع قبل اندلاع إضراب وثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ بنصف عام. وكذلك أطلق اسم القسّام، بعد انطلاق الانتفاضة الأولى، على الذراع العسكري لحركة "حماس" الذي سُمِّيَ "كتائب الشهيد عز الدين القسّام" بشكل ساهم، إلى حد كبير، في تثبيت شخصية القسّام كرمز دينيّ إسلاميّ. للمزيد من التفاصيل انظر: حمودة ١٩٨٧.

٢٠ بدأ هذا التوجه من خلال السلسلة التي صدرت عن مركز الوثائق والأبحاث في جامعة بير زيت تحت عنوان "القرى الفلسطينيّة المدمّرة"، بإشراف شريف كناعنة. وقد صدر منها ١٨ إصدارًا. كما حرّر في هذا المجال حسين العودات "موسوعة المدن الفلسطينيّة" (العودات ١٩٩٠).

٢١ كتب بيني موريس مجموعة من الكتب حول ما جرى من أحداث أثناء حرب ١٩٤٨ والنكبة الفلسطينيّة، كان أولها الكتاب الذي نشره في نهاية الثمانينيّات، بداية باللغة الإنجليزية، حول نشوء قضية اللاجئين الفلسطينيّين، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العبرية مع إدخال بعض التغييرات في حدّة عرض التفاصيل ومن ثم إلى العربيّة تحت عنوان: "طرد الفلسطينيّين وولادة مشكلة اللاجئين" (موريس ١٩٩٣). وقد راج استعمال هذه الترجمة في أوساط الكتّاب الفلسطينيّين والعرب رغم ما تنطوي عليه من انعدام الدقّة.

٢٢ كتب يسرائيل شاحك في موضوع الصراع الصهيونيّ-الفلسطينيّ رغم كون تخصصه العلمي بعيدًا عن موضوع التاريخ. وقد اظهر، كبيني موريس، مواقف متذبذبة في ما يتعلّق بالصراع. في نهاية الثمانينيّات ألف كتابًا عن سياسة الترانسفير، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة العربيّة تحت عنوان "الترانسفير - الإبعاد الجماعي" (شاحك ١٩٩٠). أما حول مؤلفات أفي شلايم وإيلان بابيه، أنظر: Shlaim 1999, 1988; Pappe 1999, 1988.

٢٣ أثارت ظاهرة المؤرّخين الجدد في إسرائيل، جدلاً متشعّبًا في أوساط الكتّاب والمثقفين العرب، وقد تبدلت المواقف تجاهها بتبدل مواقف أعضاء هذه المجموعة اتجاه الصراع. حول هذا الموضوع، انظر: Kabha (forthcoming).

٢٤ أصدر نمر سرحان ومصطفى كبها سلسلة حملت عنوان "سلسلة دراسات التاريخ الشفويّ لفلسطين"، وهي تهدف إلى تغطية تاريخ الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة منذ بداياتها في أوائل القرن العشرين حتّى إقامة السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة عام ١٩٩٤. وفي هذه السلسلة مزج ومزاوجة بين الروايات الشفوية والوثائق الأرشيفية، وقد صدر من هذه السلسلة، حتّى الآن، ثلاثة أجزاء يستعرض الأوّل سيرة حياة القائد العسكريّ العامّ لثورة ١٩٣٦–١٩٣٩ عبد الرحيم الحاجّ محمّد (سرحان وكبها ٢٠٠٠ب)؛ أمّا الجزء الثاني فيتعرض للجهاز القضائي للثورة من خلال سيرة القاضي بشير الإبراهيم الذي كان قاضيًا في منطقة طولكرم (سرحان وكبها ٢٠٠٠أ)؛ أما الجزء الثالث فقد جاء تحت عنوان "بلاد الروحة في فترة الانتداب البريطاني" (كبها ٢٠٠٤).

لماذا لا نستطيع كتابة تاريخنا المعاصر من دون استخدام المصادر الشفويّة؟

صالح عبد الجواد

صالح عبد الجواد هو أستاذ التاريخ والعلوم السياسية في جامعة بيرزيت. له مؤلفات عديدة في التاريخ السياسي الفلسطيني الحديث وخبرة طويلة في مجال التاريخ الشفوي.

مقدمة

كان لأحداث حرب عام ١٩٤٨ وما انتهت إليه من نتائج أثر مباشر على إمكانيات الفلسطينيّين وقدرتهم على كتابة تاريخهم. كتب بندكيت أندرسون "الأمم تراكم ذاكرتها من خلال المصادر المطبوعة" (Anderson 1991, 77)، وبالنسبة للفلسطينيّين فإن جزء كبير من مصادرهم المكتوبة اختفى مع الحرب التي لم تكن حربًا بالمعنى التقليدي، وإنما مشروع كبير للتطهير العرقي (Abdel Jawad, forthcoming). هذا المشروع لم يستهدف تهجير السكان عن ديارهم (٦٠٪ من الشعب الفلسطيني) أو تدمير ٨٠٪–٨٥٪ من قراهم التي احتلت وأصبحت تحت السيطرة الإسرائيلية،[١] ولكنها استهدفت، أيضًا، إخراس ذاكرة المقتلَعين وطمس مشهدهم الحضاري والثقافي. وفي هذا السياق تعرضت المدن الفلسطينية بدورها إلى عملية تفريغ واقتلاع للسكان، ومصادرة لكل ممتلكاتهم بما في ذلك إرثهم الثقافي، كجزء لا يتجزأ من عملية التهويد الشاملة.

تدمير الإرث الثقافي المكتوب

سقطت خمس مدن من بين ١١ مدينة فلسطينية خلال الحرب بيد الإسرائيليّين وتحت سلطتهم، فرغت بشكل كامل من سكانها – طبريا، صفد، بيسان، بئر السبع، والمجدل. كما لاقت الأحياء العربية الغنية في القدس الغربية مثل القطمون والبقعة الفوقا والتحتا والطالبية المصير ذاته.

فُرّغت خمس مدن أخرى – يافا، حيفا، عكا، اللد والرملة بشكل شبه كامل. مدينة الناصرة

لوحدها نجت من مصير النهب والفظائع وتفريغ السكان. ويكمن السبب في أوامر مشدّدة أصدرها بن غوريون حيث أراد تجنب غضب الفاتيكان والعالم المسيحي، فحرص على إصدار أوامر مشدّدة إلى قادة جيشه بعدم التعرض للمدينة بأي أذى، حتّى أنه طلب إطلاق النار على الجنود في حالة قيامهم بأعمال النهب (بن غوريون ١٩٨٤، ٤٥٤).

كتب الفلسطينيّون عن القرى المدمّرة، نسبيًا، أكثر مما كتبوا عن المدن. مغفلين بذلك حقيقة كون المدن الحاضنة الثقافية للمجتمع ولهويته التي كانت في طور التشكل. وعلى الأغلب فإن الأثر السلبي الذي أحدثه احتلال وتفريغ المدن الفلسطينية على الثقافة الفلسطينية وإرثها كان أشد تخريبًا من تدمير القرى الفلسطينية ناهيك عن الضربة الشديدة التي أصابت المثقفين أنفسهم. لقد دُمّر أو ضاع أو نُهب معظم الإرث الثقافي والقانوني المكتوب للشعب الفلسطيني: سجلات الملّاك والأراضي، المكتبات العامة، الصحافة المطبوعة وأرشيفها، مستندات أجهزة الحكم المحلي، سجلات المستشفيات والمصارف والمدراس ومعاهد العلم والمراكز الثقافية، بيانات الأدباء والكتّاب والسياسيّين. وبإختصار، فقد دُمّر أو ضاع أو نُهب كامل الإرث الثقافي المكتوب، تقريبًا، في المناطق التي أضحت تحت السيطرة الإسرائيلية، والتي كانت تشمل أهم المراكز الثقافية للمجتمع الفلسطيني. ففي مدن يافا وحيفا والأحياء الغربية من القدس، على وجه الخصوص، تركّزت الطبقة الوسطى والإنتلجنتسيا المتنوّرة وصاحبة الميول العلمانية الواضحة، وفيها تركّزت الصحف والمطابع ودور النشر وكل ما له صلة بالثقافة والمسارح ودور السينما والنوادي الثقافية ووسائل الترفيه.

أحد الأمثلة على ضياع الأوراق الخاصّة قدّمه مصطفى مراد الدباغ الذي فقد مخطوطته الأولى المكوّنة من ٦ آلاف صفحة بعد أن سقطت في البحر خلال الارتباك والرعب الذي شهدته يافا في نهاية نيسان/ابريل وايار/مايو ١٩٤٨:

> بعد قصف يافا العنيف، اشتدت سوء الحال فقطع النور والماء ونفذ ما لدي من الخبز، وأخيرًا، جاءني ابن عمي وكان قد استأجر مركبًا صغيرًا من مصر ليافا لينقل فيه اخوانه، وهكذا ضاع الكتاب بعد جهد سنوات طويلة [حيث سقطت مخطوطة الكتاب المؤلفة من ٦ آلاف صفحة في البحر] (الدباغ ١٩٦٥، الجزء الأول، ٧-٨).[٢]

لقد أضطر الدباغ إلى العمل عدة عقود اخرى قبل أن يعيد كتابة مخطوطته، والتي صدرت في ١١

مجلدًا، وأصبحت أحد الأعمال الفلسطينية الكلاسيكية، وركيزة مهمة لـ"الموسوعة الفلسطينية" التي صدرت لأول مرة عام ١٩٨٤ (القسم العام)[٣] وللكتاب الموسوعي "كي لا ننسى"، الذي قام وليد الخالدي على تحريره. وفي قصة مماثلة وثّق بولس فرح، وهو ناشط شيوعي فلسطيني من حيفا، عمليات المصادرة التي تمّت في أعقاب سقوط حيفا (يوم ٢١-٢٢ نيسان/بريل ١٩٤٨):

ذهبت إلى بيتي في شارع الأنبياء فطردت شر طردة، صاح الذي اغتصب بيتي: عرابيم. قلت هذا بيتي يا خواجا، ولكن الخواجا أربد وأزبد وأحمرّ وجهه وكاد يختنق غيظًا وشتم بالعبرية. ولم آسف على شيء، أسفي على كتبي وأوراقي والأشياء ذات الطابع العاطفي والشخصي المحض، أشياء ثمينة لي وتافهة لغيري (فرح ١٩٨٥، ١٩٧).

عائلة جورج أنطونيوس مؤلف كتاب "يقظة العرب"[٤] (Antonius 1939) نجحت في إخراج معظم مكتبته ولكن جزء منها يحوي أوراقه الشخصية ضاع، وقد قيل لي قبل عقدين من الزمان من أحد الذين عملوا في المكتبة الوطنية الإسرائيلية (الجامعة العبرية في جبعات رام) أن هذه الأوراق ما زالت حبيسة في عدة صناديق في مخازن الجامعة. توفيق أبو السعود، أحد المربين المهمّين في اللد قبل احتلالها والذي شغل، لاحقًا، وحتّى وفاته، منصب رئيس مجلس أمناء جامعة بير زيت، روى كيف فقد مكتبته "التي قضيت ثلاثين سنة في جمع كتبها، ومعظمها في نفيس كتب الأدب العربي وسائر علوم التربية واللغة" (أبو السعود د.ت.، ٢٣). أمّا خليل السكاكيني، المربي الفلسطيني المعروف، الذي ظلّت كتبه في اللغة العربية تدرس في عديد من البلاد العربية عبر عقود من الزمان، وعُرفت مكتبته كأهم المكتبات الخاصّة في فلسطين، فقد ندب ضياع مكتبته على النحو التالي:

الوداع يا مكتبتي! يا دار الحكمة، يا رواق الفلسفة، يا معهد العلم، يا ندوة الأدب! كم احييّت فيك الليالي الطوال أقرأ وأكتب، والليل ساج والناس نيام... الوداع يا كتبي النفيسة المختارة. أقول كتبي وأنا أعني [ذلك]، أولاً، لأني لم أرثها عن الأباء والأجداد، وثانيًا، أني لم أستعرها من الناس، ولكنها من إنشاء هذا العاجز ... الوداع يا كتبي، لست أدري ما حلّ بك بعد رحيلنا، أنتهبت، أحرقت، أنقلت معزّزة مكرّمة إلى مكتبة عامّة أو خاصّة، [أم] صارت دكاكين البصل تلف بأوراقك ... الوداع يا كتبي! يعزّ عليّ أن أُحرم منك وأنا على أُهبة الرحيل من هذه الدنيا. وهل يستطيع من كان مثلي ... أن يُنشئ

مكتبة جديدة (السكاكيني ١٩٥٥، ٣٩٤).°

حالة خليل السكاكيني كانت مغايرة لحالة جورج أنطونيوس، فلحسن الحظ استطاع السكاكيني الذي خسر مكتبته من إخراج يومياته التي تعتبر بلا شك واحدة من أهم المصادر الفلسطينية المحلية لدراسة الحالة الثقافية والاجتماعية في نهاية العهد العثماني وتحت الانتداب من قبل شخص عايش الأحداث (السكاكيني ١٩٥٥، ٣٩٣).

غير أن فقدان الأوراق واليوميات... الخ، لا يقتصر على كبار المثقفين وإنما طال المجتمع بأسره بما في ذلك الذكريات الحميمة التي ضمتها البومات الصور الخاصّة. ومن الواضح أن بعض المثقفين الصهاينة الذين كان معظمهم جزءً لا يتجزأ من آلة الحرب والتدمير قد وعوا أهمية الاستيلاء، وفي بعض الأحيان، المحافظة على المصادر العربية. تلقي شهادة الأديب محمد البطراوي، الذي كان عام ١٩٤٨ شابًا صغيرًا، بعض الضوء على تنبّه وتوجّه المؤسّسة الثقافية والعسكرية الصهيونية – على الأقل بعد إنتهاء الحرب – على تجميع وحفظ وحتّى فهرسة مختلف أنواع الكتب والوثائق والمصادر الفلسطينية، والتي توفر مجالاً أفضل لعملية دراسة ومعرفة المجتمع الفلسطيني، وبالتالي مكافحته وإضعافه. يقول البطراوي الذي أسر في أسدود بوصفه من "فئة الذكور في سن القتال"، والذين اعتقل آلاف منهم في معسكرات خاصّة، أجبر فيها المعتقلون على أعمال السخرة، بما في ذلك أعمال للمجهود الحربي الإسرائيلي:

> كنّا فرقة اسمها سبعة وثلاثون، نروح عالقرى العربية والمدن العربية نجمع الكتب والأشياء الثمينة ليتصرف بها اليهود، فالكتب كانت تروح كما علمت منهم لمكتبة الجامعة العبرية. كل الكتب، يعني كتب مدينة الرملة أنا شاركت في جمعها جميعًا، شايف، ونقلت لمكتبة الجامعة العبرية في التسعة وأربعين. آه، في التسعة وأربعين يعني لمّا كنّا أسرى. كانوا بشغلونا يعني عمال، كان معنا ضابط وحرس وكذا وإلى آخره، ويوخذونا يللا، ييجو شو الكتب، تعال انت إحمل هذول الكتب نحمل ونحطها بالسيارة، هم يمسكوها ويودّوها على الأماكن إللي بدهم إياها. مرة من المرات حدث معي شيء برضه، أيضًا، طريف جدًا، اتجهت السيارة للجنوب، للجنوب، للجنوب، إي إي، وين صرنا؟ بأرض بلدنا (قرية أسدود) السيارة مشيت مشيت، لفت في القرية وعند دارنا وقفت السيارة باب الدار [دار البطراوي] الحارس اليهودي نزلنا وقال: يلاّ بدنا الكرميد. دارنا كانت كرميد أحمر،

من الفخار هذا نوع صلب من الكرميد لا يتفتت، بدنا الكرميد حطّوا الكرميد في السيارة، فطلعنا على الدار بدينا نفك الكرميد.

الكرميد فكرتي، لأبوي كانت، أمنيتي في زماني إنو يصير لي دار وفيها كرميد، لأني كنت مرة جاي عالقدس، وأعجبت جدًا بالكرميد الأحمر تاع القدس، فأبوي لبالي هذي الرغبة وعمل لي جزء من الدار في كرميد، كان هذا الجزء بدينا ننزل في الكرميد، الظهر بدنا نتغدى جبولنا أكل همه، كانوا يجيبوا لنا لبنه وزيتون وإشي هيكه وخبز قوالب، أنا مش آدر اكل. أنا كشيوعي سابق حقق معي الجيش البريطاني واستجوبني عدة مرات، دايمًا أستجوب وأروح عالبوليس وكذا، فمرة حققوا معي على صور عثروا عليها في البيت كانت تضمني مع مجموعة من الناس، فمين هذا ومين هذا ومين هذا وكلهم مسكوهم. فصار عندي من ذلك الحديث حس يمكن لليوم موجود عندي إنو ما بتصوّر، بحبش أتصور إلا غير مع أسرتي، بتصورش مع آخرين على الإطلاق، الا في يوم من الأيام أسأل عنهم وأضرهم، لأنو أنا معروف، فالآخرين ليش ينضروا، فكنت مخبي مجموعة صور قبل الرحيل، دارنا كانت انتهت حديثًا، لسه في كوام من "الحصمة"، يعني كانت مبينة جديد. دارنا القديمة كانت غرب القرية مع المجموعات هاي "النتصلة"، ثم بنينا بيت جديد في السبعة وأربعين أواخر السبعة وأربعين في شرق القرية في منطقة بيارات الحمضيات في "كوم حصمة" كنت جايب علبة سجاير، كان في زمان سجاير هيك مربعة بتسع خمسين سيجارة، فايف فايف، خمسة، خمسة، خمسة، حاطط أنا فيها مجموعة صور هاي العلبة، ومغلفها في ورء (ورق) زفته كنا نسميه، مكنش في بلاستيك ونايلون هداك اليوم، ورق زفته ودفنها في الكوم، خفت إنو المصريّين [الجيش المصري] عنا في يوم من الأيام ييجوا يسألوني عن مين ايللي معي في الصور، هلأ الصور إيش كانت كلها لمؤتمر حدث في أسدود، مؤتمر للفلاحين، حدث في أسدود. كان موجود فهمي السلفيتي، فؤاد نصار، وإميل حبيبي أشخاص وميكرفون وخطابات. مخبي الصور هاي حاططها في وين كوم الحصمة أنا جيت أعدت فوء (فوق) "كوم الحصمة"، عملت إني بدي أرتاح هدلاك بتغدوا آعدين وأنا بديش آكل، أعدت فوء "كوم الحصمة"، واعدت أنكش هيك بحيث إنو ميشوفونيش الحرس اللي معنا، لئيت شفت القماش، بديت أطم هيك بسرعة بعد ما تطمنت إنو لسه الصور موجودة، لكن في واحد كان شايفني، أذكر تمامًا، يهودي

اسمو ماركوس بلغاري، مكنش يعرف، ولا حرف إنجليزي، ولا حرف عبري الا لغته البلغارية، فشافني، فكر إنو لقيت كنز أو إشي، مهو دائمًا عندهم برضة الجيش الإسرائيلي إنو أدخل أي بيت عربي إرفع البلاط، تلقى ذهب تحت البلاط، كانوا همة يؤلولنا في اشي تحت البلاط، فالمهم إنو رجعت "الحصمة" وزي ما حدث، لكن هذا شافني أجى شو، وبدى يفتش هيك لبيئي هاي المدفونة، فتحها، ليئي علبة فتحها، ليئي صور، صار يطلع بعض الصور ايللي أنا موجود في الصور صار يعملي هيك (إشارات بإيده) انو هذا بيتكو وأنا أؤوله لألأ بعدين صرت أعيط، صرت أبكي، مخلنيش إشتغل عرف إنو هذا بيتنا، يعني قدر إنو مدام هاي الصور موجودة في نفس الدار وأنا جيت أطلعتها معناتو إنو هذا بيتنا، خلاني أقعد مشتغلتش مكملتش الشغل، وروحنا بطبيعة الحال والصور انطمت هو طم عليها، خلاهم كما هم لا صابهم ولا أنا صبتهم. (الم ترجع لأخذ الصور فيما بعد؟) كيف بدي أرجع، متمش في إشي.[٦]

إن تجربة فقدان الوثائق والصور الشخصية، ما زالت مستمرة إلى الأن. الصحفية الإسرائيلية عميرة هس ذكرت في مقال لها كيف تعلمت عائلة ناديا عبد الله المعروفة بأم غسان، من تجاربها. فبعد فقدان صور العائلة في عكا عام ١٩٤٨، قرّرت العائلة خلال الغزو الإسرائيلي للبنان والهجوم على بيروت، أن تعهد صور العائلة كأمانة لعائلة درزية صديقة. وعندما اندلعت الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠، فإن أحد أبناء العائلة والذي كان يعمل في أحد البنوك الأردنية في رام الله، والذي أجبر على المغادرة بعد أن رفضت إسرائيل طلبه تجديد تأشيرة العمل، حمل معه صور العائلة. إذ أنه أعتقد حقًا بأن مصير هذه الصور أكثر أمانًا معه في عمان (Hass 2004a) وتواصل هس في مقال أخر:

في الفترة الأخيرة خلال عمليات التدمير الواسعة في رفح، تعلمت العائلات الفلسطينية، وخصوصًا تلك القريبة من الحدود مع مصر، والتي تتعرض لعمليات تدمير منهجية بلا توقف، دروس السنوات الأخيرة فهناك على حالة استعداد طارئ حقائب صغيرة تضم الوثائق العائلية الهامة، وما تيسر من النقود، وصور ورسائل ذات قيمة عاطفية ومعنوية. وعندما يضطرون على مغادرة بيوتهم عندما تتقدم شوكات البلدوزرات، أو تئز قذائف الدبابات، أو تحوم المروحيات كما حدث في ١٢ مايو/أيار، فإنهم يخطفون حقائبهم هاربين طلبًا للنجاة (Hass 2004b).

كانت مقالات هس في العبرية مثالاً على الدور الذي من الممكن أن تلعبه الصحافة كمصدر مهم للمؤرخين. فقد الفلسطينيّون في عام ١٩٤٨ أهم دور الصحافة الفلسطينية وأرشيفها والتي كانت تتمركز، بشكل أساس، في يافا. توقفت قبل نحو ثلاثة أسابيع من استسلام يافا في الثالث عشر من مايو/ أيار أهم صحف البلاد عن الصدور بما في ذلك الصحيفتان الرئيسيتان "فلسطين" و"الدفاع" عن الصدور بعد القصف والفوضى والاختراقات التي أعقبها فرار جزء كبير من السكان. ضمن عمليات النهب والمصادرة الواسعة التي شهدتها المدينة اختفت كل محتويات هذه الدور بما في ذلك معداتها وأرشيفها.[٧]

صدرت في السبعينيّات نسخ ميكرو فيلم عن هذه الصحف من قبل مؤسّسة هولندية متخصّصة في تصوير الوثائق وتوزيعها على شكل ميكرو فيلم أو ميكرو فيش، الا أن هذه النسخ الباهظة نسبيًا، محدودة الإنتشار في الجامعات ومؤسّسات الأبحاث العربية. وعلى أية حال فإن اختفاء هذه الصحف في وقت مبكر من الحرب، والمشاكل العميقة والمزمنة التي كانت تعاني منها، بالأساس، حدّت من أهميتها كمصدر للمعلومات الأولية عن الحرب وعنت ضرورة البحث عن مصادر فلسطينية أخرى تعوّض عن إختفائها المبكر وعن ضعفها المزمن. عانت الصحافة الفلسطينية تحت الانتداب من مشكلة الحجم المحدود للسوق، وقلة عدد القراء، وغلبة المصالح الشخصية المالية والعائلية/ الحزبية لأصحابها وهو ما انعكس على تدني مستواها المهني. لم يكن لمعظم الصحف مراسلون يغطّون الأحداث في الريف، وبخاصة في المناطق البعيدة عن يافا. وخلال الحرب بالذات عانت الصحف من مشكلة توزيع حادّة نتيجة اضطراب المواصلات على الطرق.

اختفاء الوثائق لعدة أسباب (تدمير، نهب، مصادرة، ضياع)، وخصوصًا تلك الخاصة بالاحزاب السياسية وأوراق ومذكرات الأفراد الذين لعبوا دورًا في المقاومة خلال فترة الانتداب أو خلال الحرب، لا يقتصر على الظروف المأساوية لعام ١٩٤٨. في كتابه حول حرب ١٩٤٨ يذكر بهجت أبو غربية ضياع مخطوطتين له عندما احتل الجيش الإسرائيلي مدينة القدس عام ١٩٦٧ وداهم بيته ونهب وأتلف معظم محتوياته. واحدة من هذه المخطوطات عن حرب ١٩٤٨، والتي تتألف من ١٢٠ صفحة من القطع الكبير، مطبوعة على الآلة الكاتبة كان قد دوّنها في ربيع ١٩٤٩ وأطلق عليها اسم "نضال شعب فلسطين"، والأخرى "عن حياتي ومذكراتي منذ ولدت وحتّى عام ١٩٤٧" دوّنها عام ١٩٥٧ عندما كان مطاردًا لمدة سنتين ونصف في الحقبة الأردنية (أبو غربية ١٩٩٣، ٢).

ومصادرة الوثائق والأوراق الفلسطينية أيًا كان مصدرها أو زمانها أو مكانها عمل لا يقتصر على حالات فردية إستثنائية، وإنما ممارسة مستمرة دون انقطاع، ضمن عملية جوهرها استحواذ وامتلاك الإرث المكتوب للآخر، كجزء من عملية الاستحواذ على المكان وهويته. بعد ساعات فقط من احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة قامت إسرائيل بمصادرة وثائق وبيانات ونشرات الحركة الوطنية الفلسطينية في الخمسينيّات والستينيّات التي كانت في خزائن وأرشيف الإدارة وأجهزة المخابرات الأردنية والمصرية. وقد حوّلت هذه الوثائق إلى الأرشيف المركزي لدولة إسرائيل (أرشيف الدولة) في خطوة رمزية تؤكد عقلية الاستحواذ.

العديد من كبار المؤرخين والسياسيّين الإسرائيليّين نشروا أبحاثًا اعتمدت إلى حد كبير على هذه الوثائق المصادرة كأمنون كوهين عن الأحزاب السياسية في الضفة الغربية خلال العهد الأردني (١٩٤٧-١٩٦٧) (Cohen 1989)، وموشيه معوز عن القيادات السياسية في الضفة الغربية (Maoz 1984)، وغيرهم الكثير. وقد أشار بعضهم، مثل كوهن على سبيل المثال، إلى الأهمية الفائقة لوثائق المخابرات الأردنية في كتابة بحثه. في حين أنه من الناحية النظرية لا شيء في القانون الإسرائيلي يمنع أي باحث فلسطيني من تداول هذا الأرشيف، إلا إن الوصول اليه واستخدامه أصبح الآن أمرًا في غاية الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً من الناحية الفعلية.

أما أرشيف جيش "الجهاد المقدّس"، وهو المؤسّسة العسكرية الوحيدة شبه المنظمة للفلسطينيّين خلال الحرب، فقد ضاع معظمه، حيث ضاع جزء منه مع سقوط المدن والقرى الفلسطينية. والجزء المتبقي من هذه الوثائق، الذي كان في الجزء العربي غير المحتل من فلسطين، استولى عليه الجنود الأردنيون عندما داهموا مقر قيادة "الجهاد المقدّس" في بلدة بير زيت وعين سينيا في عام ١٩٤٨ ولا أحد يعرف حتّى الأن إذا ما كان هذا الجزء من الأرشيف ما زال محفوظًا لدى الأردنيّين أم أنه أتلف أو ضاع.[٨] وهناك بعض الأوراق والمقتنيات الخاصّة بالشهيد عبد القادر الحسيني كانت في بيت داود الحسيني غير أنها أحرقت عام ١٩٦٧ عندما احتلت القوات الإسرائيلية مدينة القدس مخافة وقوعها في يد الجيش الإسرائيلي وخوفًا من التعرض للانتقام.[٩] ومن هذه المقتنيات الغطاء الذي لف فيه عبد القادر الحسيني عندما أحضر جثمانه من القسطل، وكان مخضبًا بدماء عبد القادر وقد أحرقت الأوراق في حين تمّ غلي الغطاء إلى أن أزيلت بقع الدم عنه.[١٠] ما تبقى من وثائق خاصّة بالجهاد المقدّس جمعت في أرشيف جمعية الدراسات العربية في القدس بعد عام

١٩٧٩ والتي نقلت مقراتها في الثمانينيّات إلى بناية "الأورينت هاوس". وفي الأول من حزيران ٢٠٠١ استغل شارون مباشرة بعد وفاة فيصل الحسيني وعملية الدولفيناريوم في تل أبيب من أجل اغلاق "الأورينت هاوس" ومصادرة وثائق جمعية الدراسات العربية التي تبلغ حوالي نصف المليون ووضع اليد على مكتبتها المتخصّصة في فلسطين قضية وتاريخًا وشعبًا.

إن قيام الفلسطينيّين بتدمير وحرق وثائقهم خوفًا من وقوعها في يد الأعداء، أو احتمال التعرض للانتقام، أمر شائع إلى حدّ كبير في فلسطين وحتّى في بعض حالات الشتات. ويشمل هذا وثائق تغطي أحداث جرت في الماضي. يشرح تيد سويدنبرغ أحد الطلائعيّين الذين عملوا في مجال تسجيل التاريخ الشفوي لثورة ١٩٣٦ أن عدد كبير من المناضلين القدامى، الذين شاركوا بفاعلية في أحداث ١٩٣٦، دمّر أوراقه بيده عندما سقطت مناطقهم عام ١٩٤٨ أو ١٩٦٧ تحت السيطرة الإسرائيلية. فقد فهموا أن ذكريات الثورة خطيرة من منظور إسرائيلي. ولم يكن هذا مجرد بارانويا (خوف وهمي) فهناك من دوهمت منازلهم بعد عام ١٩٦٧ وصودرت أوراقهم، وتم التحقيق معهم. ولهذا فليس من الغريب أن يخشى بعضهم اليوم الحديث عن تجربته القديمة، وخصوصًا عندما يتعلق الأمر بباحثين أجانب، أو مهاجمة أهداف يهودية (Swedenburg 1989, 267).[١١]

فقد الفلسطينيّون خلال الغزو الإسرائيلي للبنان جزءً كبيرًا مما جمعوه من إرثهم المكتوب أو مما كتب عن قضيتهم. فهناك مكتبات شخصية مهمة دمرت كمكتبة المؤرخ الفلسطيني الكبير وليد الخالدي،[١٢] كما أحرق كثير من الأفراد والفصائل السياسية والمؤسّسات الاجتماعية الفلسطينية أوراقهم تحسبًا لدخول القوات الإسرائيلية مدينة بيروت وغيرها من مدن ومخيمات لبنان. غير أن أفدح الخسائر نجمت حينما اجتاحت القوات الإسرائيلية مدينة بيروت بعد خروج المقاومة الفلسطينية منها، فمركز الأبحاث الفلسطيني التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، والواقع في قلب منطقة الحمراء، كان أحد الأهداف الرئيسة لهذا الاجتياح، حيث جمعت وصودرت كل محتويات المركز التي تشغل بناية كاملة وتم نقلها إلى إسرائيل. كان المركز قد أصبح عمليًا منذ تأسيسه عام ١٩٦٤ الذاكرة المكتوبة للشعب الفلسطيني. على الرغم من أن إسرائيل "أعادت"، ضمن صفقة تبادل جنود إسرائيليّين، صناديق يفترض أنها تضم محتويات المركز، إلا أن أحدًا لا يعرف إلى اليوم، على وجه الدقة، ما تضمه هذه الصناديق التي يقال إنها في حالة غير مرضية من الحفظ والعناية.[١٣] ولا أعتقد أن وثائق مركز الأبحاث في جامعة بير زيت والذي أغلق عام ١٩٩٩ قد حفظت على نحو مقبول.

إن العرض السابق يوضح أن الإرث المكتوب للشعب الفلسطيني هو كتاريخهم وأرضهم وحضارتهم عرضة للتدمير والاستحواذ. والتدمير لا يقتصر على مرحلة زمنية معينة من تاريخهم، ولا على مكان محدّد وهذا يجب أن يدفع الفلسطينيّين إلى تعميق الوعي بأهمية الوثائق والمحافظة عليها، وبخاصة وأن التقنيات الجديدة لحفظ المعلومات توفر اليوم فرص حقيقية من أجل هذه الغاية. في أول اجتماع له مع المندوب السامي، بعد صدور قرار التقسيم، طلب دافيد بن غوريون يوم الطالع من كانون الأوّل ١٩٤٧ نسخة ميكرو فيلم عن وثائق الطابو (بن غوريون ١٩٩٣، يوم ١٩٤٧/١٢/١، ٣١)، وافق المندوب السامي على هذا الطلب ولكنه طلب دفع تكاليف ذلك. بعد أن عاد بن غوريون إلى مكتبه بدأ على الفور في تجنيد أموال لهذا لغرض.

الرقابة على الإنتاج الفكري والقراءة وحرية التعبير

يقول يوغين روغان وأفي شلايم:

> في الشرق الأوسط كما في أي مكان آخر يلعب التاريخ دورًا أساسيًا في عملية تأسيس وبناء الدولة، إذ يبرر شرعية وجودها وشرعية نظامها السياسي. تتأثر الحكومات في هذه المنطقة بسلطة كبيرة مباشرة أو غير مباشرة على كتابة التاريخ ... مناهج التاريخ في المدارس حكر على الدولة، والجامعات في معظمها حكومية التمويل والإدارة. نظام النشر يعمل كمصفاة لعزل روايات لا تتفق أو تتماشى مع تلك التي وفرتها الدول. وبما أن الترقية والتقدّم داخل مؤسّسات التاريخ مرهون بالانخراط في مسار الخط الرسمي، فهناك حافز قليل لدى المؤرخين للإنخراط في مغامرة كتابة تاريخية نقدية (Eugene and Shlaim 2001, 2).

ومن يعارض فإنه يدفع ثمنًا يترواح بين الاضطهاد الفكري والمعنوي من اهمال وتجاهل وتسفيه وحرمان من الترقية والنشر .. الخ وصولاً إلى العقوبات الجسدية التي تصل حد الخطف والقتل.

في إسرائيل يدفع المؤرخ "المنشق" ضريبة معنوية. على سبيل المثال الكاتب اليساري الصهيوني سيمحا فلابان الذي نشر في عام ١٩٨٧ كتابه المعروف "دولة إسرائيل الواقع والأسطورة" (Flapan 1987) الذي نقض الأساطير الإسرائيلية السبعة حول حرب ١٩٤٨ ووجه بالتجاهل

والتسخيف. أو تيدي كاتس طالب الماجستير الذي قبلت أطروحته الجامعية في قسم التاريخ في جامعة حيفا حول مذبحة قرية الطنطورة عام ١٩٤٨ بالاعتماد على شهادات الضحايا الفلسطينيّين والضباط والجنود الإسرائيليّين. ولكن بعد ذلك واجه سلسلة من الملاحقات القضائية إلى أن سحبت منه (كاتس ١٩٩٨).[١٤]

أما في العالم العربي وفي اطار الغياب العام للعبة الديموقراطية وحرية التعبير فإن المنتقد للخط الرسمي يواجه مستويات أخرى من القمع والرقابة. فإضافة إلى مختلف اساليب التنكيل الفكري يواجه "المنشقون" عن الخط الرسمي أو التوجه العام خيارات السجن، أو المنفى، أو القبر. ويبدو ان اغلب المثقفين العرب يفضل الخيار الثاني كلما كان ذلك ممكنًا. وفي حين تحارب كل دولة عربية أي شيء قد يشتمّ منه نقد النظام السياسي، فإن من المحارم الكبرى (الطابو) التي لا تغتفر نقد شخصية الزعيم (القائد والرمز). ومهما كانت المكانة المعنوية للكاتب أو المؤرخ أو الشاعر في البلاد العربية فما من قوة تعصمه، والأمثلة كثيرة، عن عقوبة التنكيل التي تتدرج وصولاً إلى تحوله هدفًا لكاتم الصوت.

وإذا كانت إسرائيل تتمتع، نسبيًا، بقدر كبير من الديموقراطية وحرية التعبير ضمن لعبة الديموقراطيات الليبرالية، فإن هذا القدر لا يتجاوز "الخط الأخضر" ولا يشمل سوى مواطنيها اليهود. أما في الأراضي المحتلة، التي تخضع لحكم عسكري مستمر منذ عام ١٩٦٧، فإن وسائل الرقابة على المادة المكتوبة وتحديد انتشارها، والتي تمأسست عبر نظام الأوامر العسكرية، قاسية حتّى مقارنة بالعالم العربي نتيجة اختلاف الأهداف. ففي حين أن الرقابة في العالم العربي تصادر بالأساس كل ما من شأنه نقد النظام السياسي والاجتماعي وتسمح بما دون ذلك، فإن الإسرائيليّين لا يمنعون موادًا تهاجم نظام الاحتلال فحسب وإنما كل ما من شأنه تعزيز الهوية والتاريخ والثقافة والمشاعر الوطنية للمجتمع الفلسطيني (Benvenesti 1983, 1) وليس من الصعب إثبات ما نقول، إذ تكفي نظرة سريعة على سلسلة قوائم الكتب الممنوعة التي صدرت عن مكتب الحكم العسكري أو الإدارة المدنية، التي وزعت بخاصة على المدارس ومستوردي الكتب قبل وصول السلطة الفلسطينية لتؤكد ما نقول. وبما أن كل كتاب مطبوع في العالم يمر عبر الجسور أو عبر بريد الدولة المحتلة فإن إسرئيل تتحكم بدرجة كبيرة بما يقرأ.

وعندما يتعلق الأمر بمواضيع خاصة بالصراع العربي الإسرائيلي والثقافة الفلسطينية فإن الأثر

المدمر لهذه الرقابة عام وشامل، وحتّى مكتبات الجامعات الفلسطينية لا تستطيع الإفلات من هذا النظام، الذي ينعكس، على سبيل المثال، على الثغرات العديدة في سلسلة الدوريات والمجلات المتخصّصة أو السياسية الموجودة على رف المكتبات. ولا شك أن سياسة الرقابة والتحكم في وصول الكتب وانتشارها التي تتبعها إسرائيل في الأراضي المحتلة قد حدّ بشكل كبير ومباشر من قدرة الفلسطينيّين على كتابة تاريخهم. وحتّى بعد وصول السلطة الفلسطينية أعاقت إسرائيل، على سبيل المثال، وصول الكتب إلى مناطق السلطة فحرمت لسنوات عديدة الفلسطينيّين من تنظيم معارض الكتب السنوية.

وهناك سياسات إسرائيلية أخرى تصب في نفس اتجاه التعطيل والشلل، مثل اغلاق الجامعات الفلسطينية بأوامر عسكرية أو من خلال سياسة الحواجز التي تعيق التنقل، ولا يجب أن ننسى ان الجامعات الفلسطينية الرئيسة، مثل بير زيت والنجاح وبيت لحم، هي المكان الوحيد الذي يضم ما يمكن أن نطلق عليه تجاوزًا - إذا ما قارناها بالجامعات الغربية- مكتبات عامة. ومثال جامعة بير زيت يكفي من أجل الدلالة حول السياسات الإسرائيلية وتشويش أسّس الحياة الجامعية وعرقلة مشاريع طموحة، مثل إعادة كتابة التاريخ الفلسطيني. فمنذ انشائها عام ١٩٧٤ وحتّى اليوم أغلقت سلطات الاحتلال بأوامر عسكرية صريحة الجامعة ١٦ مرة. إن أسوأ وأطوّل هذه الاغلاقات - شمل جميع الجامعات الفلسطينية- تم فرضه في كانون الثاني/يناير ١٩٨٨ واستمر ساري المفعول لمدة ٤ سنوات تقريبًا. عاش الأكاديمي الفلسطيني، طوال هذه الفترة، بدون مكتبات عامة تقريبًا. وبفضل كفاح الجامعة إدارة وأساتذة وموظفين وطلاب، استمر التدريس. غير أن ذلك ما كان ليمر بدون أن يترك أثاره السلبية العميقة على المستوى الأكاديمي وعلى البرامج الأكاديمية.

ولكن حتّى نكون موضوعيّين، يجب ألّا نهوّل من الأثار السلبية لسياسات الاحتلال، فسجل معظم الجامعات العربية في البحث التاريخي الجاد، والتي لم تعان مما مرت به بير زيت والجامعات الفلسطينية الأخرى، غير مرض، خصوصًا إذا ما قورن ليس بالإنتاج في الدول الغربية المتقدمة وإسرائيل فحسب، وإنما، أيضًا، في بعض دول العالم الثالث. ولهذا يجب البحث عن عوامل أخرى تعيق البحث مثل عبء التدريس الثقيل، وحالة المكتبات، والميزانيات الشحيحة - إن وجدت أساسًا- المخصّصة للبحث العلمي، والمناخ الثقافي والسياسي العام.

صعوبات متعلقة بالأرشيف الخاص بحرب ١٩٤٨ في العالم العربي وإسرائيل والدول الغربية المعنية

ضياع أو نهب المصادر والوثائق الفلسطينية المكتوبة ليس إلا جانب واحد من المشكلة التي يواجهها الباحث الذي يريد أن يقدم رواية بديلة للرواية الصهيونية القديمة أو الجديدة. فحتّى اليوم لم يفتح الأرشيف السياسي والعسكري الخاص بهذه الحرب في أي دولة عربية شاركت في حرب ١٩٤٨.

مثال بسيط حول الصعوبات التي يخلقها إغلاق الأرشيف العربي يتمثل في ما واجهه فريق البحث في جامعة بير زيت عام ١٩٩٦، الذي عمل على توثيق قرية الدوايمة (برنامج القرى الفلسطينية المدمّرة)، فنحن نعلم من الراحل سامي هداوي بوجود قائمة أولية بأسماء ضحايا المذبحة التي وقعت في القرية يوم ٢٩/١٠/١٩٤٨ أودعت نسخة في مركز شرطة الخليل (هدّاوي ١٩٨٢). غير أننا لم نستطع بسبب إغلاق الأرشيف الاطلاع عليها بل ومعرفة إذا ما كانت بالفعل موجودة أو محفوظة في أرشيف الجيش الأردني.[١٥]

على ما يبدو، لا توجد في العالم العربي، الذي تسوده عمومًا أنظمة مستبدة وغير ديمقراطية، قوانين تحدّد أصول وقواعد وآلية نزع السرية عن الوثائق السرية كتلك الموجودة في إسرائيل (أنظر أدناه). العوائق تزداد عندما يكون للموضوع علاقة بأحداث وفترات حساسة من تاريخ هذه الدول، كحرب ١٩٤٨، التي دار وما زال حولها خلاف وجدل كبير، واستخدمت وما تزال كأداة لإكتساب أو نزع الشرعية. ولا يبدو على المدى المنظور امكانية تغيير كبير في هذا المضمار. ففي الأردن، العائلة الهاشمية التي قادت الأردن خلال حرب عام ١٩٤٨ ما زالت نفسها التي تحكم ومن غير المتوقع أن يسمح النظام بالكشف عن مواد قد تشير إلى أي تقصير من قبل مؤسّسيه الأوائل. وفي مصر وسوريا التي حكمها بعد فترة قصيرة من انتهاء الحرب، وما زال يحكمها، قادة انحدروا من مؤسّسة الجيش التي خسرت الحرب (عبد الناصر، السادات، مبارك، الأسد) هناك أمل ضئيل أن يوجد لدى أي منهم أي حافز للكشف عن دور العسكريّين في الهزيمة.

ظهرت، في الفترة الأخيرة، بعض الأعمال التي تعتمد على أراشيف الجيوش العربية. غير أن

هذه الأعمال كانت استثناء يؤكد قاعدة الحظر. ويبدو أن مسئولي الأرشيف أو مرؤوسيهم قد تعاملوا معها كذلك، بناء على معرفتهم الشخصية بتوجهات وخلفيات الباحثين أو بسبب مكانتهم. ولهذا فرغم مزيد من التفاصيل وحتّى نقض لبعض الأساطير العربية حول الحرب. إلا أنها لم تتعرض بالنقد الجذري لأداء الجيوش خلال الحرب أو للنظم السياسية التي ما زالت تحكم.

وعلى سبيل المثال، اعتمد كتاب اللواء إبراهيم شكيب إلى حدّ كبير على أرشيف الجيش المصري (شكيب ١٩٨٦).[١٦] غير أن شكيب فحص هذه الوثائق نتيجة شغله منصبه رئيس فرع التاريخ العسكري بالقوات المسلحة مدة أربع سنوات، وهو ما أتاح له الإطلاع على كافة الوثائق الأصلية غير المنشورة عن دخول الجيش المصري حرب فلسطين سواء المحفوظة في هيئة البحوث العسكرية أو في دار الوثائق القومية او بالمتحف الحربي في القلعة.[١٧] كذلك، الكاتب المصري الشهير محمد حسنين هيكل نشر مجلدين حول الحرب مع ملاحق تضم مئات البرقيات المختارة من ارشيف الجيش المصري (شكيب ١٩٨٦، ١١)،[١٨] ولا بد أن مكانة هيكل وعلاقاته في المجتمع المصري والمؤسّسة السياسية قد سمحت له ليس بالاطلاع على هذه الوثائق فحسب بل ونشرها بالجملة. جامعة آل البيت المقربة للبلاط الهاشمي نشرت، أيضًا، مجموعة من الوثائق المختارة والمنتقاه من اوراق الملك عبدالله بن الحسين الأول (البخيت وآخرون ١٩٩٥-).[١٩] لكن جميع الوثائق التي نشرت تعزز من مكانة النظام الأردني.

وهناك بعد آخر لمشكلة الوثائق في العالم العربي يتجاوز موضوع النظم السياسية وقوانين نزع السرية والرقابة على الوثائق. في اغلب الأحوال لا يوجد في العالم العربي مجتمع مدني ذو تقاليد عريقة وآليات منهجية للتوثيق من جمع، حفظ، تصنيف، ووضع الوثائق تحت تصرف الباحثين حتّى عندما تسمح النظم والقوانين. البروفيسور المعروف روجر أوين، المختص بتاريخ المنطقة والذي تتوفر لديه خبرة في ارشيفات عدد كبير من الدول العربية نبّه واكّد على هذه النقطة.[٢٠]

على سبيل المثال هناك لائحة في أحد البلاد العربية تفترض أن تقوم الوزارات المختلفة بعد ٥٠ عامًا بتحويل وثائقها لأرشيف الدولة. ولكن في الغالب لا أحد من موظفي الوزارة يتذكر أو يهتم بتطبيق هذا الإجراء. وفي نفس الوقت لا يوجد أحد من موظفي الأرشيف يكلف نفسه بالاتصال بهذه الوزارات من أجل ارسال عهدتها،[٢١] التي تنقل وتخزن في أماكن غير معدة لذلك إلى أن تتعفن أو تاكلها الفئران أو يتم التخلص منها... الخ وهكذا يحرم باحث على سبيل المثال حول

مشروع للمياه في القاهرة قبل ٦٠ عامًا من وثائق قد تساعد في ايجاد حل لمشكلة المياه في القاهرة عام ٢٠٠٠.

ابراهيم شكيب الذي قال إن بعض الوثائق الرسمية لحرب ١٩٤٨ والتي إطلع عليها ما زالت في الحوزة الشخصية لبعض ضباط الجيش المتقاعدين، يؤكد غياب تقاليد حفظ المعلومات حتّى في الجيوش العربية (شكيب ١٩٨٦، ١٢). خلال زيارتي عام ١٩٩٥ للمركز الوطني المصري للمحفوظات / القاهرة والذي ظل جزء كبير منه موجودًا حتّى حركة ٢٣ يوليو في قصر عابدين (حاليًا على كورنيش النيل) ذكر أحد كبار الموظفين كيف تحولت غرف الأرشيف ضمن القصر إلى مقر لبعض وحدات الحرس الجمهوري وقد ظل الارشيف حبيس الصناديق سنوات عديدة، قبل أن يرى النور من جديد[٢٢]. إن غياب أعراف وتقاليد عريقة بالتوثيق وغياب الشعور في العالم العربي لدى المواطن العادي أو الساسة أو حتّى بعض العاملين في هذه الأرشيفات بأن الأرشيف ذخر وطني ملك للشعب يتوجب المحافظة عليه[٢٣] وتسهيل مهمة استخدامه من قبل الباحثين، تتجسد من خلال الإهمال والغموض الذي يحيط حاليًا بأرشيف مركز الأبحاث الفلسطيني التابع لمنطقة التحرير في الفلسطينية، ورد الفعل الراهن لمصادرة وثائق جمعية الدراسات العربية، وقرار المسؤول في المكتبة العامة لجامعة فلسطينية بالتخلص من جزء من أرشيف الصحف التي كانت تحتفظ بها الجامعة "بعد أن اصبحت قديمة" !!! واهم من كل ذلك وذاك عدم وضع محفوظات متحف بغداد في مكان أمين يحميها من ايدي الغزاة والعابثين.

انعدام الدقة مشكلة اخرى تتعلق بوثائق الحرب. في الفترة الأخيرة نشرت بعض وثائق الجيش المصري عن حرب ١٩٤٨. المتفحص لهذه الوثائق يستطيع بسهولة أن يلاحظ في العديد منها مشاكل التهويل والمبالغة وتضخيم الذات والعمومية الأمر الذي سيحدّ من اهمية ومدى استغلال هذه الوثائق حتّى لو فتح الأرشيف للباحثين. وفي هذا يقول اللواء ابراهيم شكيب حول وثائق الجيش المصري "كثير من الوثائق قد حرق أو فقد بحكم تطور العمليات، وأكثر من ذلك أن بعض الحلقات تصطنع اصطناعًا وكثير من القادة يكتبون أوامر لمواقف لم تحدث وتتضمن عمليات هجومية لم تنفذ، ويأمرون بتحركات لم تتم، وكل ما في الأمر أن هذه الأوامر تضم للسجلات فتثير مشكلات محيرة امام الباحثين، لأنها تخلق واقعًا لا يتفق مع منطق النتائج ولا يمكن اهمالها لأنّ لها ما يبرر حفظها في السجلات" (شكيب ١٩٨٦).

هذا الوضع المزري يتناقض كلية مع اهتمام الإسرائيليّين بالتوثيق وهو ما ينعكس في تنوع وغنى عشرات مراكز الأرشيف التي تشمل مؤسّسات الدولة والجيش وكافة المنظمات العسكرية والأحزاب قبل وبعد عام ١٩٤٨ والوكالة اليهودية مرورًا بالأرشيفات الخاصة بكل كيبوتز وعشرات الأوراق الخاصة بقادة سياسيين وعسكريين إسرائيليّين مهمين خلال الحرب، ولا شك أن هذه الثروة المهمة في المصادر الأولية المكتوبة امتداد للتقاليد اليهودية التي تهتم بالتراث المكتوب.

وعلى سبيل المثال فإن جميع محاضر اجتماعات مجلس الوزراء الإسرائيلي منذ اليوم الأول لإنشاء هذا المجلس (الحكومة المؤقتة) توثق حرفيًا من قبل سكرتيرة اختزال ذات خبرة واسعة، تسجل كل واردة وشاردة واسم الوزير صاحب المداخلة، ومن ثم تفرغ فيما بعد وتوثق وهكذا يمكن فهم مواقف كل وزير بالتفصيل.[٢٤] مقارنة مع العديد من حكومات العالم فهذا شيء نادر، إذ في الغالب تكون المحاضر إجمالية.

عل صعيد أخر، قنّنت إسرائيل عملية نزع السرية عن الوثائق. قانون عام ١٩٥٥ يحدد كشف الوثائق السياسية بعد مرور ثلاثين عاماُ، أما الأمنية والعسكرية فبعد مرور خمسين عامًا. غير أن هناك ثلاث حالات يمنع القانون فيها الكشف عن هذه الملفات سياسية كانت أم عسكرية وتمارس الرقابة "كل ما من شأنه المس بأمن إسرائيل"؛ أو كل ما من شأنه أن يمس بصورتها وسمعتها في المحافل الدوليّة؛ وأخيرًا كل ما من شانه إحراج قيادات صهيونية أو إسرائيلية ما زالت على قيد الحياة "فعلى سبيل المثال في بعض المحاضر التي يشتم فيها بن غوريون مناحم بيغن يظلل بالأسود على الشتيمة والتي قد تسيء إلى الشخصين.[٢٥]

ضمن هذه القواعد، حظر الكشف في أرشيف مجلس الوزراء الإسرائيلي عن تلك الأجزاء المتعلقة بالمذابح والفظائع التي ارتكبت بحق الفلسطينيّين خلال حرب ١٩٤٨ والتي تطلق عليها الدوائر الإسرائيلية الرسمية اسم "التجاوزات أو التصرفات الشاذة" (صحيفة القدس ١٩٩٥/٣/٢٤). هذا الحظر فرض رغم فتح الارشيف بعد انقضاء الفترة الزمنية المحددة التي يتطلبها القانون هذا الحظر لا يقتصر على محاضر مجلس الوزراء الإسرائيلي، وإنما يشمل كل ارشيف في إسرائيل يتضمن نفس الموضوع. وهذا الحظر يشمل بشكل عام الباحثين الإسرائيليّين وإن كان يطبق بشكل أكثر صرامة عندما يتعلق الأمر بباحثين عرب.

وحتّى "بني موريس" الذي كان المؤرخ الصهيوني الأبرز في ظاهرة "المؤرخين الجدد"، واجه

مثل هذه العراقيل الآنفة الذكر، قد رفض طلبه قبل أكثر من عشر سنوات عندما توجه إلى أرشيف الدولة طالبًا الاطلاع على تقرير لجنة "شابيرا" والذي يعتبر تقريرًا حكوميًا يتكلم عن "التصرفات الشاذة خلال حرب ١٩٤٨" (الشاذة كلمة ملطفة للمذابح وجرائم الحرب) وهو ما دفعه للتوجه لمحكمة العدل العليا الإسرائيلية استنادًا إلى القانون السالف الذكر، ولكون تقرير "لجنة شابيرا" يعتبر وثيقة سياسية كما اقرت بذلك وزارة العدل الإسرائيلية. لكن ما حدث هو أنه وفي أعقاب التوجه لمحكمة العدل العليا اتضح أن باستطاعة لجنة وزارية مكونة من وزيريين أو أكثر اتخاذ قرار يجعل من كل ملف موجود في الأرشيف ملفًا سريًا تحت ذريعة المس بأمن الدولة وفي هذه الحالة تشكلت اللجنة من الوزيريين "أرنس وشرير" حيث اجتمعو وقرروا أن الملف الذي طلبه موريس هو ملف سري بحجة أنه يمس بأمن الدولة.[٢٦]

إذن كيف استطاع بني موريس أن يطلع على بعض التقارير الخاضعة للرقابة والتي ظهرت أثارها في أعماله المختلفة. الكاتب مايكل بالمبو الذي كتب واحدًا من اهم الكتب حول النكبة (Palumbo 1987) يقدّم تفسيرًا مفيدًا حول الصراع بين السرية والكشف في التجربة الإسرائيلية والذي يجعل من الوثائق الإسرائيلية مادة محبطة وغنية في نفس الوقت.

يقول بالمبو:

> هناك بعض الوثائق من الأرشيف الإسرائيلي [حول ١٩٤٨] التي تؤشر إلى توجّه عام (general design) لطرد الفلسطينيّين خلال الحرب. لماذا اتيحت هذه الوثائق للباحثين؟ على ما يبدو كانت هناك ٣ خيارات امام الإسرائيليّين. إغلاق الأرشيف بشكل كامل، فتح مجمل الأرشيف بشكل كامل، أو الحظر على بعض الملفات.
>
> لا يمكن التفكير بوضع يكون فيه كل الأرشيف متاحًا للباحثين. فما من دولة تفتح ملفات لها علاقة بموضوع طرد مئات الألاف من المدنيّين. الإغلاق الكامل، أيضًا، مستبعد، فالإسرائيليون فخورون بأنفسهم كشعب يسير على هدى الغرب. عندما كنت أقوم ببحثي قال لي أحد العاملين في الأرشيف الإسرائيلي ما يلي:
>
> بالطبع، نحن كجميع الدول المتحضرة نفتح أرشيفنا ضمن قاعدة الـ ٣٠ عامًا. إن إغلاق الملفات الخاصة بحرب ١٩٤٨ كان سيفسر ليس، فقط، كنوع من الإعتراف بالذنب، وإنما كإنتاج لسياسة تماثل سياسات بلدان العالم الثالث التي يعتبر الإسرائيليون أنهم

أرقى (superior) منها. ولهذا فإن الإبقاء على ملفات مستشاري مكتب الشؤون العربية ووزارة الأقليات مغلقة ومحو حوالي ٢٪ من الملفات التي سيفرج عنها وتصبح في متناول الباحثين كان الخيار الوحيد أمام إسرائيل. تم الكشف عن القليل من الملفات المحرجة، ولكن بشكل عام، كانت سياسة الحكومة الإسرائيلية ناجحة في إقناع الكثيرين من خلال المؤرخين الجدّد أن الدولة اليهودية لم تكن مسؤولة عن خلق مشكلة اللاجئين الفلسطينيّين والتي نكبت الشرق الأوسط منذ عقود عدة (Palumbo 1990).

على أي حال، فإن الرقابة على المواد المحظورة في الأرشيف ليست المشكلة الوحيدة في الأرشيفات الإسرائيلية الغنية، فحتّى لو فتحت هذه الأرشيفات أبوابها على مصراعيها، للباحثين بغض النظر عن توجهاتهم وجنسياتهم، فإننا لن نجد في هذه الأرشيفات البعد الإنساني لما جرى للفلسطينيّين عام ١٩٤٨. فالوثائق العسكرية وتقارير القادة الميدانيّين اليهود وأعمال مؤرخيهم التي نشرت تكاد تخلو كليًا من هذا البعد. هناك فارق كبير بين خبر يذكر قتل عشرة فلسطينيّين في قرية باقتضاب، مجرد رقم صامت، وبين آخر يتحدث عن موت عشرة الأشخاص من خلال قصة تروي مشاعر الخوف، وقتل الإبن أمام أعين أمه وأبيه، وتدمير المنازل ومسيرات الموت وقتل العائدين (الذين يوصفون بالمتسللين في الخطاب الإسرائيلي) من أجل حفنة من القمح.

كما أن من يفهم عقلية الزعماء الصهاينة، كما هي حال أغلب الزعماء الذين صمّموا وّشرفوا على تنفيذ مشاريع التطهير العرقي الحديثة، يجب أن يتكهن أنه من شبه المستحيل العثور في الأرشيف الصهيوني على الصندوق الأسود.[٢٧] فكما يقول جون وماك (John Womack) أستاذ تاريخ أمريكا اللاتينية في جامعة هارفارد:

معظم عمليات التطهير العرقي والمذابح الواسعة التي تّمت في الفترة المعاصرة، جرت بدون أوامر وخطط تفصيلية مكتوبة؛ من ستالين وهتلر ومن الخمير الحمر في كمبوديا إلى بينوشيه في تشيلي، عمليات القتل الواسعة نقلت من القائد أو الزعيم إلى أصغر رتبة بدون أن تحرّر بها المذكرات الموقعة. نحن المؤرخون نبحث دائمًا بسذاجة عن أوامر القتل الصريحة، فقط، في المسرحيات وقصص الأدب توجد مثل هذه الأوامر، لا أحد يعطي أمرًا مكتوبًا بالقتل، هذه الأوامر تتم، غالبًا، بصيغة مغمغمة ولكنها مفهومة.[٢٨]

وفي المناخ المعادي الذي خلقته الحركة الصهيونية ضد عرب فلسطين، لم تكن هناك حاجة لإصدار الأوامر، "فالرغبة الصامتة" لدى القوات العسكرية الصهيونية بطرد الفلسطينيّين تكلفت بتنفيذ كل ما لا يحتاج أن يكتب أو حتّى أن يقال. بن غوريون، بخاصّة، ونتيجة لخيوط المعادلة الدولية التي أحاطت بولادة إسرائيل كان أكثر حرصًا من بقية أمثاله، فقد أدرك خطورة أن يعرف الرأي العام الغربي ما جرى حقيقة على أرض الواقع من مذابح وتهجير منظم، وهي أمور لو عرفت في حينه علانية وعلى نطاق واسع لحرمت إسرائيل من جزء كبير من الدعم الدولي، الذي كانت في أشد الحاجة اليه، وعلينا أن نتذكر أنّ الحرب قد جرت بعد فترة قصيرة، فقط، من إصدار "منبر نورمبرغ" لقراراته الخاصّة بمعاقبة مجرمي الحرب النازيّين وإعدامهم، وهي المحاكمات التي أدّت إلى تسريع ميثاق محاربة الإبادة الجماعية (الجينوسايد) عام ١٩٤٨. ومن الواضح أن بن غوريون – الشخص الوحيد الذي كان بوسعه إقرار مخطّط عام للتطهير العرقي– قد تصرف منذ بداية الأحداث ضمن هذه الإدراك واتبع، فيما يتعلق بالوثائق، سياسة حريصة لتجنب إدانة أعماله والمشروع الصهيوني.

عندما كتب يتسحاق رابين مذكراته في عام ١٩٧٩، وكان قد شغل حتّى ذلك الحين منصب رئيس الوزراء الإسرائيلي ووزير الدفاع، قامت لجنة سياسية للرقابة بمنعه من نشر فقرة حول علاقته بطرد الفلسطينيّين من مدينتي اللد والرملة. اللجنة، كما شرح رابين للصحفي الأمريكي اليهودي دافيد شبلر، تشكّلت من خمسة وزراء يرأسهم وزير العدل الإسرائيلي. كل موظف إسرائيلي مرموق في الحكومة الإسرائيلية يريد أن ينشر كتابًا عليه أن يقدّم ما يكتبه للرقابة العسكرية، وقد حذفت هذه اللجنة الفقرة التالية من مذكراته:

> كان علينا، أثناء القتال، أن نواجه مشكلة لم تكن قد واجهتنا من قبل: مصير سكان اللد والرملة، والذي بلغ عددهم نحو خمسين ألف نسمة. حتّى بن غوريون نفسه، الذي كان حاضرًا في غرفة العمليات، لم يكن باستطاعته أن يقدّم أي حلّ. وخلال النقاش ظلّ صامتًا، كما هي عادته في مثل هذه الأحوال. من الواضح أننا لا نستطيع أن نترك مدينة عدائية، مثل اللد وسكان مسلحين خلف قواتنا فهذا يعرض خطوط تموين لواء يفتاح، الذي كان يتقدّم نحو الشرق، للخطر. مشينا نحو الخارج برفقة بن غوريون. يغئال ألون كرّر سؤاله: ماذا نفعل بالسكان؟. بن غوريون طوّح بيده بطريقة يفهم منها "أطردوهم".

تشاورنا أنا وألون واتفقنا أن نبعدهم باتجاه طريق بيت عور، مفترضين بأن الجيش الأردني سيضطر للإعتناء بهم، وبالتالي تحميله صعوبات لوجستية، تضيف عبء على قدراته القتالية، وتخفّف من صعوبة مهمتنا (Shibler 1986, 32-35).

يدلّل هذا المثال على صعوبة او استحالة العثور على خطة عامة تفصيلية للتهجير حتّى إن وجدت. فإن تصرف بن غوريون يدلّل على شخص كان يخشى من أن يدلي بأوامر صريحة، حتّى لأقرب مقربيه، بتنفيذ أعمال تعتبر في عرف القانون الدولي جريمة حرب. ولو تمعنّا في موقف رابين نفسه، الذي يحاول أن يظهر بمظهر الشخص الصادق الذي يكشف عن أسرار خطيرة، لأدركنا لعبته، فهو يحاول أن يقدّم رواية تحاول تصوير طرد الفلسطينيّين من اللد كحالة استثنائية أو كأمر جرى في "أخذ ورد" وليس كعملية منهجية نفذت منذ بداية الحرب.

ومن خلال قراءتي المتعمّقة ليوميات بن غوريون حول الحرب، ومقارنتها بمجموعة ضخمة من الأوامر والمصادر والمعلومات، فإنه لم يمارس على نفسه رقابة ذاتية فعالة، فحسب – قبل تشريع قوانين الرقابة الإسرائيلية بزمن طويل – بل أنه كان يستمتع بلعبة "المتغابي". وفي الفقرة التالية مثال يجسّد هذه الفكرة، فبن غوريون الذي تظهر يومياته أنه أدار دفة الحرب بكل تفاصيلها يبدي استغرابه من هجرة أهل حيفا الذين تعرضوا لأشهر من القصف والقنص والسيارات الملغومة والموت اليومي وارتفاع الأسعار والجوع... الخ:

قبيل المساء مررت ثانية في الأحياء العربية... إنه لمشهد مخيف. مدينة ميته، مدينة – جيفة. شاهدنا في مكان واحد، فقط، رجلين مسنين يجلسان في دكان شبه خال، وفي زقاق آخر التقينا امرأة عربية تقود طفلها. هناك عنابر، دكاكين، منازل صغيرة وكبيرة، قديمة وحديثة لا مخلوق فيها سوى الهرر الضالة. أطلعنا الدليل، في زقاق ذي مظهر خارجي فقير، على مخازن غنية مملؤة بالحنطة جزء منها أفرغ والجزء الآخر لا يزال مملوءًا. وفي بعض الأماكن تعرّض للقصف. هنا وهناك حواجز مخترقة وهزيلة، هنا وهناك أماكن محصّنة – مخترقة ومثقوبة. وها هو مصنع قرمان الكبير أنه سليم وخالٍ.

كيف غادر عشرات الآلاف من الأشخاص بمثل هذا الذعر – من دون سبب كاف – مدينتهم، منازلهم وأرزاقهم؟ ما الذي سبّب هذا الهروب؟ هل هو أمر من أعلى، فقط؟ لا يعقل أن أثرياء كبارًا، وكان هناك أثرياء كبار، كما يقول العالمون بالأمور، في البلد كله – يتركون أموالهم كلها لأن أحدًا أمرهم بذلك. هل هو الخوف حقًا؟ (بن غوريون ١٩٩٨، ٢٨).

غير أن مشاكل المصادر الأرشيفية الإسرائيلية لا تتوقف عند موضوع الرقابة على الأراشيف في إسرائيل، ولا عن وعي القادة بعدم ترك وثائق تدينهم شخصيًا أو تدين دولتهم، وإنما لسبب أخر إضافي، وهو الميل لتزوير الوثائق الصهيونية نفسها. حول هذا الموضوع أفاد بني موريس بتزوير وثائق رئيسة، مثل تلك التي تخص أوراق بن غوريون ويوسف نحماني ويوسف فايتس والإجتماع الحاسم لمجلس الوزراء الإسرائيلي في ١٦ حزيران/ يونيو ١٩٤٨، والذي اتخذ قرارًا رسميًا بمنع عودة اللاجئين الفلسطينيّين إلى ديارهم (Morris 1995, 44). وأضاف موريس ما يلي:

> أمم وحركات سياسية تعمل من أجل إنتاج تاريخ لا تشوبه الشوائب، ليس من خلال صناعة تاريخها، فقط، وإنما الأوراق التي سيبنى عليها هذا التاريخ، أيضًا. إن الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل، ليستا استثناء لهذه الظاهرة بل أنهم قد يكونوا، على الأغلب، من بين أفضل من قاموا بهذه الصنعة (Morris 1995, 44).

إن العرض السابق يشير إلى حدود الإستفادة من الأرشيفات الإسرائيلية – بسبب الرقابة، والرقابة الذاتية، وصناعة وتزوير الوثائق والمعلومات – رغم غناها في التفاصيل وصعوبة تجاوزها عند كتابة تاريخ الحرب، بخاصة، في ظل غياب بديل عربي.

المشاكل المتعلقة بالارشيفات غير مقتصرة على الجانبين، العربي والإسرائيلي، بل وعلى الأرشيفات الغربية الغنية، أهمها، من دون أدنى شك، الوثائق البريطانية الخاصّة بفلسطين والمحفوظة في دائرة "دائرة المحفوظات العامة" (Public Record Office) في لندن ومكتبة سانت أنطوني في جامعة أكسفورد. فهذه الوثائق لا تغطي الفترة التي تلت جلاء البريطانيّين عن فلسطين بعد منتصف أيار/مايو ١٩٤٨ أو المناطق التي لم يكن فيها للبريطانيّين وجود كبير بسبب عملية الجلاء، والتي نفّذت بشكل تدريجي قبل موعد الجلاء. كما أن معاناة الفلسطينيّين وآلامهم، الذين كان ينظر اليهم بدونية، لم تكن في مركز الاهتمام البريطاني حتّى قبل هذه التاريخ، ولهذا فإن كثيرًا من الوثائق البريطانية الهامّة حول الوضع في فلسطين خلال الحرب تخلو من البعد الإنساني العميق لهذه الحرب. وهناك أرشيفات غربية تعاني من مشاكل أكبر، وعلى سبيل المثال، سأكتفي بالتعرض لإثنين من هذه الأرشيفات.

في شهر أب/أغسطس من عام ١٩٩٧ قمت بزيارة للمقر المركزي للصليب الأحمر الدولي في جنيف، الذي فتح للتو أرشيفه حول نشاط مندوبيه خلال الحرب. لقد توقعت كأول باحث عربي زار هذا الأرشيف[٢٩] العثور على معلومات غزيرة ذات صلة بالفظائع التي ارتكبتها إسرائيل خلال الحرب. تفحصت خلال هذه الزيارة الأرشيف المصوّر الخاص الذي يشمل كل "فترة الحرب الأهلية في فلسطين " بأكمله وبتأنٍ، كما قمت بمسح سريع لمحتويات الصناديق الكرتونية الثمانية عشر وهي الكرتونات المرقمة "م ٨٢٧-٨٤٤". لدهشتي، لم يكن هناك في الأرشيف المصوّر من وثائق ذات صلة بالفظائع، سوى تلك الصور الخاصّة باغتيال الكونت برنادوت، وبالتحديد صور سيارته المنخولة بالرصاص ونعشه في فناء القنصلية الفرنسية، وعدّة صور عن عملية عسكرية إسرائيلية في الخمسينيّات ضد المدنيّين العزل في قرية شرفات!!! أما باقي الصور فمعظمها خاص بإغاثة اللاجئين الفلسطينيّين الذين لعب الصليب الأحمر دورًا هامًا في تخفيف معاناتهم. كذلك، لم تكن في القسم الأرشيفي أية معلومات عن أية مذابح سوى التقرير المعروف أصلاً لممثل الصليب الحمر "جاك دي رينيه"، الذي زار قرية دير ياسين بعد يومين من المذبحة وبعض مراسلات داخلية لا تسمن ولا تغني حول الموضوع بين رينيه والمقر الرئيس، وهناك حالات قليلة جدًا لقتل بعض العائدين وحول معسكرات الاعتقال الإسرائيلية التي أقيمت خلال الحرب. بالتأكيد، فإن هذا الأمر يثير الاستهجان. والسؤال المنطقي هو: هل قام أحدهم "بتنظيف" الأرشيف قبل فتحه لجمهور؟ هذا التساؤل نفاه العاملون في الأرشيف الذين أكّدوا أن هذا هو كل ما وجدوه. إذا كان ذلك صحيحًا، يظهر سؤال آخر: هل تجاهل ممثلو الصليب الأحمر، لأسباب سياسية، تسجيل وتوثيق المآسي الرئيسة التي نفذت ضد عرب فلسطين، ومنها المذابح العديدة التي ارتكبت عام ١٩٤٨؟ لن أعالج هذه التساؤلات في هذه الدراسة فهذا ليس محلها، ولكنني أردت تقديم مثال على بعض مشاكل الأرشيفات الغربية.

مثال آخر، يتجسّد في أرشيف الأمم المتحدة في نيويورك، والذي زرته في آذار/مارس ٢٠٠٤، والذي ما زال يفرض السرية على بعض الوثائق حتّى بعد مرور أكثر من ٥٥ عامًا على الأحداث التي تغطيها هذه الوثائق. والسؤال هو: ما الذي تخفيه هذه الوثائق. مايكل بالمبو الذي بحث في هذا الأرشيف، وكان على علمي أوّل من استخدمه للكشف عن الكثير من فظائع الحرب التي ارتكبتها المنظمات الصهيونية العسكرية والجيش الإسرائيلي، يقول إن الرقابة تمارس على أوراق قد تمس بسمعة الأمم المتحدة [كطرف محايد ونزيه] غير أن النتائج المترتبة لهذه الرقابة تمارس على

أبحاث محدّدة ما زالت غير واضحة (Palumbo 1990). تجدر الاشارة هنا إلى أن الافراج عن الوثائق السرية في الامم المتحدة هي من صلاحية الأمين العام أو من يخوّله الأمين العام بهذه الصلاحية (U.N. Secretariat 1984)؛ وكذلك، المعلومات الموثقة التي نشرت في كتاب نرويجي تشير إلى كون الأمين العام للأمم المتحدة، آنذاك، "تريجفي لي" هو شخص ليس منحازًا لإسرائيل، فحسب، وإنما عمل لصالح الإسرائيليّين؛[٣٠] وكذلك إلى انحياز "رالف بانش"، الذي خلف "الكونت برنادت"، كمبعوث خاص للأمم المتحدة، والذي نظرت اليه المصادر المصرية كشخص منحاز لصالح الإسرائيليّين.[٣١]

التاريخ الشفوي: خصوصية الحالة الفلسطينية

الضرورة والمشاكل المصداقية

يقول مثل صيني "ريشة قلم خير من ألف ذاكرة" وهذا المثل يتطرق بشكل غير مباشر إلى موضوع المصداقية (credibility) في الشهادات الشفوية صحيح إلى درجة كبيرة. أهم نقد لمصداقية الشهادة يتمحور حول قدرة الذاكرة المحدودة على استرجاع التفاصيل خصوصًا بعد مرور زمن طويل على حدث مثل حرب عام ١٩٤٨. وهذا النقد جدير الأخذ بعين الإعتبار. على سبيل المثال، سجلات مستشفى حيفا الحكومي خلال الحرب، والتي توثق للجرحى والقتلى العرب الذين استقبلهم مستشفى حيفا الحكومي خلال الفترة من الأول من كانون أول/ ديسمبر ١٩٤٧ وحتّى ١٩ أذار/مارس من عام ١٩٤٨، أكثر دقة من أي مصدر شفوي لتوثيق عدد وأسماء الضحايا العرب في المدينة قبل سقوطها، وحتّى لإعطاء فكرة حول عنف الأحداث؛[٣٢] أرشيف الهاغاناه والجيش الإسرائيلي حتّى بعد الرقابة يعتبر في أغلب الأحيان أهم من المصادر الشفوية الفلسطينية عندما يتعلق الأمر بتواريخ محدّدة وبتفاصيل معينة، فكل عملية عسكرية وثقت في حينه بما في ذلك ساعة الصفر. الشهادات الشفوية – كالوثائق – قد تعاني، أيضًا، من انحياز الراوي أو تعصبه (لموقف، ايدولوجية، عائلته... الخ) أو خوفه من ذكر الحقيقة أو رغبته في تحريفها... الخ.

لم تكن هذه المشاكل وغيرها خافية على الجانب الفلسطيني الذي أفرد لها بعض الاهتمام، فمن أوائل المقالات التي نشرت في مجلة أبحاث جامعة بير زيت في منتصف الثمانينيّات عرض لهذه المشاكل (Swedenburg 1986/1987). ولكن في ضوء مشكلة المصادر الأولية المكتوبة التي عرضناها أعلاه، وفي ضوء احتياجات المجتمع الفلسطيني وخلفيته الثقافية،[٣٣] تبدو استراتيجية

التاريخ الشفوي نافذة أمل للفلسطينيّين كمصدر لإستخلاص تاريخهم الضائع.

والتاريخ الشفوي الذي يعتمد على الرواية الشفوية (الشهادات) للأحداث التي شهدها وخبرها شخص أو جماعة ما وانطبعت في ذاكرتهم. هنا يعتبر الراوي خزانًا حيًّا للمعرفة التاريخية. والتاريخ الشفوي الذي تم احتقاره وتجاهله مؤقتًا، تحت تأثير المدرسة الوضعية (positivism) الأوروبية منذ القرن التاسع عشر، عاد ليحتل تدريجيًا المكانة التي يستحقها. وأصبحت، حاليًا، معظم الجامعات اللامعة في العالم الغربي والمكتبات العامة، وخصوصًا في الولايات المتحدة، تخصّص للتاريخ الشفوي حيزًا، يتناسب مع الدور الذي يلعبه هذا التاريخ، في تسجيل الذاكرة الجماعية للفئات التي همشت وأغفلت من قبل التاريخ الرسمي والمكتوب.

في الواقع بداية كان التاريخ شفويًا، فكتابة المؤرخين الأوائل التي نعرفها، مثل كتاب "حروب البلونيزيّين" لثوسيديديس (القرن الخامس ق.م) اعتمدت، بشكل أساس، على التقاليد الشفوية المروية. والأمر ذاته فيما يتعلق بالملاحم الخالدة للسومريّين والأكاديّين والعرب والفرس التي اعتمدت على التواتر، أي نقل الرواية من جيل إلى جيل آخر، إلى أن يأتي من يسجلها كتابة، بعد قبولها واعتمادها مثل ملحمة جلجاميش والإلياذة والأوديسة والمعلقات والشاه نامة. لو لم تكن هناك مهارة الحفظ لدى رواة القصص القدامى الذين كان تاريخهم الشفوي ينتقل ويتم تذكره، لما كنا قد حصلنا على كثير من الأعمال التاريخية والدينية الجليلة، مثل السيرة والأحاديث النبوية، التي تمّ جمع موادها مشافهة من الناس، ثم تناقلتها الأجيال، بعد اخضاعها لعملية تحقيق وتدقيق أطلق عليها في التراث التاريخي العربي الإسلامي "الإسناد". بل إن القرآن الكريم حفظ في صدور كبار الصحابة وحفظة القرآن، قبل أن يتم تسجيله على رقاع من جلد الغزال، ليأخذ شكله النهائي المكتوب في عهد عثمان بن عفان. وقد كان هذا استمرارًا للتقاليد العربية القديمة، والتي لائمت نفسها مع ظروف انعدام الطباعة والتعليم وعدم توفر أرشيفات رسمية على النحو الذي نعرفه اليوم. ويلاحظ أن كثيرًا من المؤرخين القدامى أعطوا مصداقية أكبر للتاريخ الشفوي عندما قارنوه بالتاريخ المكتوب، حيث اعتبروا أن الرواية المروية كانت أكثر دقة. ومن هؤلاء ثوسيديديس وهيرودوتس (القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد) وبعض المؤرخين العرب.

الشهادة كمصدر للمعلومات بدأت من جديد تأخذ مكانتها بين المؤرخين المعاصرين الذين أدركوا أنها جزء لا يمكن الاستغناء عنه في كل عمل تاريخي (Bartov 1999, 116)، وبخاصة في

الأحداث التي تشابه ما تعرض إليه الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨، حيث أنها برهنت قيمتها كمصدر للمعلومات يلبي ويوائم متطلبات والشروط الأكاديمية ومعاييرها الصارمة. وأصبحت شهادة الضحايا في الأفلام التاريخية الوثائقية، التي توثق للهولوكست أو أعمال التطهير العرقي، ضيفًا مألوفًا، ومن أهم الأعمال التي استخدمت الشهادة كأساس للعمل السينمائي، فيلم "شوآه" للمخرج اليهودي المعروف كلانسمان.[٣٤] كما تزايد الاهتمام بالشهادات لأن هناك شعور بأن الذين عاشوا التجربة سيختفون وتختفي معهم تجربتهم الغنية التي لم تسجل أو توثق.[٣٥]

الاعتراف بالشهادات كوثيقة يستند اليها، تلقت دعمًا جديدًا، من خلال اعتماد وزارة الخارجية الأمريكية على شهادة ٢٥٧ سوداني وعامل إغاثة أجنبي في توجيه إصبع الإتهام للسودان بشن حرب إبادة (غينوسايد) في منطقة دارفور ضد قبائل مسيحية (Lacey 2004). وبهذا أصبحت للشهادات مكانة قانونية حتّى في مجال العلاقات الدولية والسياسة الخارجية.

في نهاية الأمر، فإن القضية المهمّة ليست فيما إذا كان المؤرخ يعتمد على روايات شفوية أو على مصادر مكتوبة، وانما مدى مصداقيتها ومصادره وطرق التحقق منها. ولا شك أن الشهادات الفلسطينية كمصدر بديل أو إضافي للمعلومات، وفقًا للظروف المتاحة، تستطيع أن تكمل وتعدّل وتضيف وتصحّح المصادر والأعمال المكتوبة. غير أن تحقيق هذا منوط بإخضاعها لعمليات التدقيق والفحص والمقارنة كما يفترض في أي عمل تاريخي. ولا شك أن تطعيمها بالمصادر المكتوبة كلما كان ذلك ممكنًا، هو عامل مهم في فحصها وإغنائها.

خلال نقاشه حول مصداقية الروايات الشفوية في فلسطين، تردّد مايكل بالمبو بين استخدام هذه الروايات أو تجنبها، وقد استخدم شهادات اللاجئين الفلسطينيّين بكل حذر. بداية، قرّرت عدم اللجوء لذاكرة الناجين عام ١٩٤٨. لكن سرعان ما تبينّ لي أن شهاداتهم تأكدت من خلال مصادر غير عربية. على سبيل المثال، وصفت أمينة موسى، وهي فلاحة عربية شابة من قرية الكابري (قضاء عكا)، الخراب الذي حلّ بقريتها أثناء الهجوم عليها في ٢١ أيار/مايو ١٩٤٨ بغية القبض على فارس سرحان، شخصية وطنية فلسطينية على صعيد المنطقة ومن سكان البلدة. ونقرأ في يوميات الجنرال مكنيل، وهو جنرال بريطاني متقاعد كان له باع طويل في الجليل، في اليوم ذاته ما يلي " كل منزل في الكابري هدم، بيت فارس سرحان الجديد والضخم كان أول من تدمّر، إنه عضو في الهيئة العربية العليا في دمشق (Palumbo 1999). وجدت، في مناسبات أخرى، أن

تقديرات اللاجئين حول ضحايا الفظائع الصهيونية أقل مما ذكر في تقارير مراقبي الأمم المتحدة الأمريكيّين وغيرهم، الذين أحصوا في بعض الحالات جثث الضحايا. بالطبع ليس جميع شهادات الفلسطينيّين خالية من الأخطاء، ولكن بالجملة، فإن هذه الشهادات إذا تأكّدت من مصادر غير عربية، فإنها مفيدة لباحثي وطلاب هذه المرحلة، وبخاصة أن عام ١٩٤٨ ليس موضع جدل تاريخي، فحسب، وإنما مأساة إنسانية، أيضًا (Palumbo 1999).

لقد مضى أكثر من عقد من الزمان حول شهادة بالمبو الذي أكّد جزئيًا مصداقية الشهادات الفلسطينية.[٣٦] لكن حتّى قبل ذلك بسنوات، فإن فتح الأرشيفات وظهور أعمال "المؤرخين الجدد"، منذ منتصف الثمانينيّات أكّد بشكل مستمر وبدون استثناء مصداقية الروايات الشفوية والتي ادمجت في الماضي في أعمال المؤرخين الفلسطينيّين.

وعلى سبيل المثال، فإن ما كتبه عارف العارف معتمدًا، بالأساس، على شهادات عيان أو تناقل الأخبار من أحداث جرت في اللد ويافا وبئر السبع ودير ياسين وغيرها من القرى، خصوصًا في المنطقة الوسطى من فلسطين، أكّدته إجمالاً كافة المصادر التي نشرت بعد ذلك بعشرين أو ثلاثين عامًا. وما نشره نافذ نزّال حول الفظائع التي جرت في الجليل، وخصوصًا في الصفصاف والبصة ومجد الكروم وعين زيتون والكابري والقصف القاتل في ترشيحا والجش أكّدتها وثائق الجيش والدولة في إسرائيل، التي نشرت في كتاب بني موريس حول "ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيّين" والذي نشر بعد عقد من الزمان من نزال.

كما وعمل شريف كناعنة حول دير ياسين في سلسلة القرى الفلسطينية المدمّرة الصادرة عن جامعة بير زيت وقد كان يتسم هذا العمل بأكثر صحة ودقّة من كافة المصادر الأخرى بريطانية حكومية كانت أو صهيونية أو حتّى تقارير الصليب الأحمر الدولي فيما يتعلق بحقيقة ما جرى هناك وعدد الضحايا. فقائمته التي تشير إلى نحو ١٠٥ اسماء الأشخاص/الضحايا، فقط، هي أكثر دقة بما لا يقارن مع بقية المصادر والتي تبنّت، في الغالب، عدد ٢٥٤ لأسماء الأشخاص/الضحايا، كحصيلة للمعركة/المذبحة. وهي دليل على عدم رغبة الباحثين الفلسطينيّين الجادين في المبالغة. وجدت روني بن افرات، باحثة إسرائيلية والتي سجلت شهادات رواة من ثلاث قرى عربية في منطقة الكرمل، إجزم وجبع وعين غزال، أن لا تناقضات بين الرواية الشفوية والمعلومات الصعبة الموجودة في أرشيف الهاغاناه والجيش الإسرائيلي حول هذه القرى.

وعليه، وعلى عكس الصورة السائدة، فقد أثبت التاريخ الشفوي الفلسطيني درجة كبيرة من المصداقية، فكلما تقدّم البحث التاريخي كلما تأكّدت أعمال الفلسطينيّين، التي أستندت على الرواية الشفوية. إن العمل المميّز الذي قدمه مسلسل "التغريبة الفلسطينية" لا يعطي فكرة عن الآفاق الواسعة التي تقدّمها المصادر الشفوية والتاريخ الشفوي لأي عمل تاريخي فحسب، وإنما استحالة اكتمال هذه الأعمال بدون ذلك. إن استمرار الجامعات الفلسطينية، بما في ذلك جامعة بير زيت، في تجاهل تدريس ولو مساق واحد عن منهج التاريخ الشفوي هو أمر ليس محزنًا وغير مفهوم، فحسب، بل أنه أمر مشين.

هوامش

١ كمال عبد الفتاح، محاضرة القيت في جامعة بير زيت أوكتوبر/ تشرين أول ١٩٩٧.

٢ يقول الكاتب (مصطفى مراد الدباغ) أنه أصدر المجلد الأول عام ١٩٤٧ ولكنه عاد ونشره "بعد أن غيرّ من منهاجه".

٣ من بين ما قدمه الدباغ في هذه الموسوعة مسح لحوالي ٣٩١ قرية فلسطينيّة.

٤ وقد ترجم إلى العربية، مرّات عدّة، لاحقًا (انطونيوس ١٩٦٦). ترجم الكتاب، لاحقًا، بشكل رائع الراحل إحسان عباس.

٥ من الضرورة الإشارة هنا أن كتاب "كذا أنا يا دنيا" للسكاكيني لا يمثل سوى جزء بسيط ومحرّر بتصرف لهذه اليوميات، وتعمل "مؤسّسة الدراسات المقدّسية" و"مركز خليل السكاكيني الثقافي" في رام الله، حاليًا، على نشر هذه اليوميات بكاملها وقد صدر منها حتّى الآن ثلاثة مجلدات.

٦ شهادة محمد البطراوي، أجرتها فاطمة عاصي تحت إشراف وتوجيه صالح عبد الجواد يوم ٧ أيار مايو ٢٠٠٠.

٧ مقابلة الكاتب مع رجاء العيسى أحد اصحاب صحيفة "فلسطين"، عمان، أيلول / سبتمبر ١٩٩٩. وعن عمليات النهب في مدينة يافا بشكل عام، أنظر: Kimche 1992, 778.

٨ عبد الله التل في كارثة فلسطين يسجل شهر تشرين أول/أكتوبر كتاريخ لهذا الحدث (التل ١٩٩٩، ٣٥٩-٣٦٦).

٩ فيصل الحسيني، صيف ١٩٨٤، مقابلة مع الكاتب في بيته الكائن، أنذاك، في شعفاط.

١٠ المصدر السابق.

١١ حول الخوف من التحدّث حول الهجوم على مواقع يهودية، راجع: Swedenburg 1995.

١٢ دمّرت المكتبة وضاعت خلال قصف دمّر بيته الكائن في حي الرملة البيضا. مقابلة الكاتب مع البروفيسور وليد الخالدي في كامبردج / ماستوستس في الولايات المتحدة ٣٠ مايو / أيار ٢٠٠٤.

١٣ نقلت الصناديق، بداية، إلى الجزائر حيث اودعت أمانة في أحد المعسكرات الفلسطينية، دون توفر حدّ معقول من شروط حفظ الوثائق. وبعد ذلك، لا تزال تتضارب الأنباء حول مصيرها (حول هذا الموضوع، راجع مقالة سميح شبيب في هذا المؤلف).

١٤ رحيل العرب ١٩٤٨ من قرى سفوح جبل الكرمل "اطروحة ماجستير من ٢١١ صفحة مقدمة إلى جامة حيفا في مارس / أذار ١٩٩٨، دراسة حول الطنطورة وأم الزينات. في ٢١ يناير/كانون ثاني، أي بعد حوالي عامين من قبول أطروحة تيدي كاتس نشرت معاريف مقالاً حول الموضوع بقلم تمير غيلات يقوم على دراسة كاتس وكذلك على مقابلات اجراها غيلات مع لاجئين من الطنطورة ومحاربين قدامى من لواء الكسندروني الذي احتل القرية ونكل بها (ترجمت المقالة الطويلة في اليوم التالي في صحيفة "الأيام". وقد أثارت المقالة لغط كبير). إضافة للمقالة المترجمة في صحيفة "الأيام"، لمزيد من المعلومات عن المذبحة، أنظر: الولي (٢٠٠٠). حول رأي مدافع عن كاتس، أنظر: Pappe 2001. حول موقف ناقد لكاتس، أنظر: Morris 1987, 671n, 299-301.

١٥ أرسل مركز البحث الميداني عطية جوابرة إلى عمان لهذا الغرض غير أنه فشل في الحصول على تصريح لدخول الأرشيف لهذه الغاية المحدّدة.

١٦ اللواء ابراهيم شكيب. حرب فلسطين ١٩٤٨، رؤية مصرية، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦ (بالأصل رسالة دكتوراه).

١٧ المصدر السابق. ص ١١.

١٨ هيكل ١٩٩٨، ج١. جزء كبير من الكتاب مخصص للبرقيات اليومية التي كانت ترسلها قيادة القوات المصرية في فلسطين منذ مساء ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨ وحتى ١٨ تشرين أول/ أوكتوبر من نفس العام اما الجزء الثاني بعنوان. العروش والجيوس، أزمة العروش صدمة الجيوش، قراءة متصلة في يوميات الحرب (فلسطين ١٩٤٨) (هيكل ٢٠٠٠، ج٢). فهو استكمال للجزء الأول، قراءة في برقيات القوات المصرية من ١٩ تشرين أول / أوكتوبر وحتّى يوم ٢٩ كانون أول / ديسمبر.

١٩ محمد عدنان البخيت وأخرون (إعداد). أوراق الملك عبد الله بن الحسين الأول، الوثائق الهامشية، عدة مجلدات ابتداء من عام ١٩٩٥، بعنوان حرب فلسطين ١٩٤٨، الادارة الأردنية في فلسطين، وحدة الضفتين، صندوق الأمة، عمان: منشورات جامعة آل البيت، ابتداء من عام ١٩٩٥.

٢٠ روجر أوين مقابلة مع الكاتب، جامعة هارفاردز كامبردج/ ماستشوستس أيار ٢٠٠٤.

٢١ المصدر السابق.

٢٢ ما يحزن أن هذا يتناقض مع ما لاحظته من مستوى رائع من تقاليد التوثيق ونظم الحفظ الذي اتبع في عهد محمد على في الربع الأول من القرن التاسع عشر.

٢٣ يذكر عارف العارف أن اوراق من مكتبات مثقفين فلسطينيّين في منطقة الشيخ جراح، التي سقطت لفترة قصيرة خلال حرب ١٩٤٨ بأيدي القوات الصهيونية قد نهبت واستخدمت في لف اشياء مثل الترمس والفلافل (العارف ١٩٥١-١٩٥٦، مجلد ١، ٧٠- ٧١).

٢٤ بني موريس مقابلة شخصية مع الكاتب في الجامعة العبرية ١٩٩٥/٢/١٣.

٢٥ المصدر السابق.

٢٦ بني موريس، مقابلة شخصية مع الكاتب، مصدر سبق ذكره.

٢٧ على غرار "الصندوق الأسود" في الطائرات الذي يعطي أجوبة شافية عن أسباب تحطم طائرة. والمقصود هنا الخطة العامة والتفصيلية لمشروع طرد الفلسطينيّين.

٢٨ جون وماك في رسالة للكاتب في صيف ٢٠٠٤، تعليقًا على دراسة للكاتب حول موضوع المجازر خلال حرب ١٩٤٨.

٢٩ قمت بزيارة أخرى لهذا الأرشيف في أيار/مايو ١٩٩٨.

٣٠ انظر، صالح عبد الجواد، صحيفة "الأيام" (ملحق) ١٩٩٦/١٠/٢٢، ص ٧، استقيت المعلومات من مقابلة مع الصحفي النرويجي "كارستن تفيت" في مركز أبحاث جامعة بير زيت ١٩٩٥/٣/١٩، وقد أجرى الصحفي أبحاث على الأرشيف النرويجي توصل من خلالها على تواطؤ "ترجيفي لي".

٣١ تقول "نانسي كالاجر"، استاذة في جامعة كاليفورنيا سانتا باربرا، كان بانش يكره المصريّين، الذين اعتقدوا أنه كان يعمل لصالح اليهود، ولكن كالاغر، التي أجرت أبحاثًا واسعة حول نشاط جماعات "الكوكيرز" خلال حرب ١٩٤٨، وبخاصة في جنوب فلسطين، تعتقد أنه مجرد دبلوماسي بيروقراطي (American civil servant diplomat) عمل لصالح ترومان. مقابلة مع الكاتب في مدينة إريفن، كاليفورنيا في حزيران ١٩٩٩.

٣٢ توقف التسجيل قبل حوالي شهر من سقوط المدينة في ٢١ و ٢٢ نيسان/ابريل ١٩٤٨، وعلى ما يبدو بسبب استفحال القصف والهجمات الصهيونية على القسم العربي من حيفا والفوضى التي عمّت في أعقاب ذلك.

٣٣ المجتمع الفلسطيني، كجزء من المجتمع العربي، يتحلّى بتراث شفوي، بالأساس. فالعرب لم يعرفوا التدوين التاريخي إلا في وقت متأخر نسبيًا، حيث تم تناقل الأدب والقصص التاريخية مشافهة عبر الأجيال، بما في ذلك الأحاديث النبوية، التي لم تدوّن إلا بعد مرور ما يقارب مئة وخمسين عامًا على تناقلها. ووفقًا للبروفيسور خليل عثامنة، فحتّى بعد ظهور التدوين التاريخي في مطلع العهد العباسي، فضلوا المؤرخين العرب في المراحل الأولى الرواية الشفوية على المصادر المكتوبة (البلاذري، على سبيل المثال). ورغم ترسخ مرحلة التدوين في منتصف القرن التاسع الميلادي، الذي فاق كمًّا ونوعًا مثيله في أوروبا، فإنه كان، على الأغلب، مهمًا في أوساط المؤرخين وليس بالضرورة في أوساط المثقفين، وبالتأكيد ليس في أوساط العامة، بسبب طرق النسخ البسيطة والمكلفة في الوقت والجهد والمال. وفي حين اكتشفت الطباعة في أوروبا، منذ القرن الخامس عشر الميلادي، انتظر العالم العربي حتّى قدوم نابليون بونابرت إلى مصر ليشهد للمرة الأولى معالم هذا الاكتشاف العجيب. ولكن الطباعة وصلت في زمن عكس الجمود الثقافي الذي ساد في العالم العربي لقرون خبرت تراجع العلم وإغلاق باب الإجتهاد، وكان لذلك أثاره السلبية الملموسة على البحث التاريخي وتراجع نوعي في حركة التأليف رغم بعض الطفرات (كابن خلدون والمقريزي وقلة قليلة أخرى). وفيما عدا بعض القصص من التاريخ والسيرة النبوية، فإن التاريخ لم يكن ضمن نطاق التعليم التي كان يوفرها نظام الكتاتيب البدائي، فظل الوعي التاريخي للعامة الغلبة محصور تمامًا بما يتناقله الناس شفاهة، وليس من الغريب، إذًا أن لا تنتج فلسطين في القرن التاسع عشر سوى مؤلف واحد يمكن أن نعتبره كتاب تاريخ. ورغم التطوّر التدريجي الملموس، الذي بدأ في نهاية العصر العثماني وفي عهد الانتداب، من زيادة عدد المتعلمين وانتشار الصحافة والأدب المطبوع في فلسطين، بما في ذلك كتب التاريخ، فإن عامة الناس ظلت تعتمد على تناقل الأخبار كمصدر رئيس لمعلوماتها التاريخية. وعندما حلت النكبة بالمجتمع الفلسطيني فإنها قطعت بذلك الطريق على عملية كانت قد بدأت للتو في طرح ثمارها.

٣٤ "شوآة" لفظة عبرية يعتبرها اليهود كلمة تعبرّ عن الهولوكست التي حلّت عليهم في ظل النظام النازي. فهولوكست بالأصل هي لفظة يونانية تعني حرق القربان بأكلمه (بالعبرية "المحرقة"). وقد كان يشير مصطلح هولوكوست، في الأصل، إلى القربان الذي يقدّم قربانًا للرب ويحرق كليًا على المذبح.

٣٥ انظر، عبد الجواد ١٩٩٥؛ Bartov 1999, 116. وكذلك، انظر: ورقة البحث التي تقدمت بها روزماري صايغ إلى مؤتمر التاريخ الشفوي في جامعة بير زيت: (Rose 2003).

تعاطف بالمبو مع ماساة اللاجئين الفلسطينيّين. ولكن نبرة عنصرية تشوب حديثه عندما
٣٦ يقول إذا تأكدت رواية الشهادات" من مصادر غير عربية" ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار عدم الاهتمام وحتّى الاحتقار الذي قابل به عدد كبير من الأكاديميّين العرب والفلسطينيّين الأعمال التاريخية المعاصرة التي اعتمدت الشهادات، فلربما نجد له بعض العذر.

الذاكرة والهوية[1]

أحمد سعدي

أحمد سعدي هو باحث ومحاضر في قسم العلوم السياسية في جامعة بن غوريون في النقب. نشرت له دراسات عدّة حول تطوّر التنظيم السياسي للأقلية الفلسطينية في إسرائيل. يهتم بمواضيع نظرية منها الكولونيالية وما بعد الكولونيالية، حركات الاحتجاج الاجتماعية وغيرها، إلى جانب اهتمامه بالقضايا السياسية والثقافية المتعلقة بالأقلية الفلسطينية في إسرائيل.

النكبة هي الكارثة الكبرى التي حلّت بالفلسطينيّين، فغيّرت حياتهم إلى أبعد الحدود. ففي المقام الأوّل دفعتهم إلى الشتات، حيث تحوّل ما بين ٧٧-٨٣ بالمئة من الفلسطينيّين القاطنين في الجزء الذي أصبح يعرف باسم إسرائيل بعد الحرب (٧٨ بالمائة من مساحة فلسطين الانتدابية) إلى لاجئين. لذلك، تمثّل النكبة في نظر الفلسطينيّين فقدان الوطن، وانهيار المجتمع، وفشل الطموحات القومية، وبداية عملية متسارعة تهدد بتدمير ثقافتهم. وقد لاحظ رابينوفيتش أن الهُويّة الفلسطينيّة تتمحور في تجربة السلب والغربة، إلى جانب سوء فهم على صعيد العالم لحقوقهم (Rabinowitz 1994).

وفي السياق نفسه يقول إلياس صنبر:

> يحرّك التاريخَ المعاصرَ للفلسطينيّين حدثٌ مركزيّ: العام ١٩٤٨. ففي ذلك العام اختفى بلد وسكانه من الخرائط والمعاجم. وقال السادة الجدد إن الشعب الفلسطينيّ لا وجود له، وبالتالي تمت الإشارة إلى الفلسطينيّين عبر تعبير غامض ومريح، نحو: "اللاجئين"، أو "عرب إسرائيل" في حالة الأقلية التي نجت من الطرد. وهكذا بدأ غياب طويل (Sanbar 1991).

ومع ذلك، لم تكن حالة الاختفاء والغياب الواردة في كلام صنبر مطلقة، إذ كان من الممكن، على نحو جزئيّ، إعادة بناء الماضي واستعادة بعض تجلياته، لأن ما يكفي من الذكريات الخصبة والشواهد المادية أفلتت من تجربة انهيار المجتمع المدوية، والصمت الدولي الخانق. وفي هذا الصدد يكتب الباحث الثقافيّ الألماني كراوكر مشيرًا إلى تجارب تاريخية من هذا النوع: "هناك، دائمًا، فجوات في الجدار نهرب عبرها، واحتمال بعيد للعودة خلسة منها" (Mulder-Bach 1991, 155). ومن بين الشواهد المادية التي نجت من التحطيم مجموعات الصور الفوتوغرافية الغنية، التي تشكّل معطيات مادية صلبة حول الفلسطينيّين ومجتمعهم في عدد من كتب الصور، التي سنناقشها لاحقًا.

وقد شرع علماء الاجتماع – بعد الأعمال الريادية لبنديكت أندرسون، وإدوارد سعيد، وهوبسباوم ورانجر – في البحث عن الهُويّة في المجال الذاتي المتبادل بين الناس، حيث يعاد إنتاج الانتماء إلى جماعة متخيّلة ويتعزز باستمرار عبر تقاليد مبتكرة، واحتفالات للذكرى، وبناء متاحف قومية، وخلق شرائع ثقافيّة وأبطال قوميين (Anderson 1991; Said 1993; Hobsbawm and Ranger 1983).[٢] وفي ما يلي من هذه المعالجة، أودّ الإشارة إلى وجود عمليات من أسفل إلى أعلى يجري تنشيطها عبر التجارب المحلية الموضعية، إلى جانب تلك العمليات المعروفة من أعلى إلى أسفل، التي تستهدف شحن الجماهير بالروح القومية.

فالشتات، وغياب المؤسسات القومية، والمحفوظات، والوثائق، كلّها أدّت بالفلسطينيّين إلى البحث عن وسائل مختلفة لبناء الهُويّة. فعلى غرار شعوب مختلفة في العالم الثالث عانت من الكولونيالية على مدى قرون، ارتبطت مسألة الهُويّة لدى الفلسطينيّين بالعودة إلى "التجربة الذاتية الفردية" (Camargo *et al.* 1985)، أي بناء الرواية القومية عبر سير ذاتية، ووثائق، ووجهات نظر لأفراد. يقول كراوكر إن التاريخ على غرار الواقع الذي يطمح لتمثيله يتشكّل من عمليّة تجميع لأجزاء متفرقة (Mulder-Bach 1991; Adorno 1991). وحسب هذا السياق، إن النكبة، في التحليل الأخير، هي المصير المأساويّ لرجال ونساء تبددت حياتهم، وهي المصير المأساويّ لذرّيّتهم التي ما زالت تعاني من نتائجها. لكن سِيرَ الحياة المتفرقة لا تصنع رواية قومية يمكن للجماعة القومية عامّةً التماهي معها، إلا إذا جاءت في إطار ما يدعوه بيير نورا بـ "مكان الذاكرة". إذ يقول:

> يتمثل الهدف الأكبر لمكان الذاكرة في إيقاف عجلة الزمن، لسدّ الطريق على فعاليّة النسيان، لخلق نظام من الأشياء، لتخليد الموت، وتحويل الأشياء غير المادّيّة إلى أشياء مادّيّة ملموسة. يحدث ذلك كله للقبض على القليل من العلامات. ومن الواضح، أيضًا، أن أماكن الذاكرة لا توجد إلا لقابليتها العالية للتشوية والاندثار، وإمكانية تدوير معانيها إلى ما لا نهاية، وبفضل التشعبات غير المتوقعة لتوالدها (Nora 1989, 7-25).

وأعتقد أن مفهوم نورا حول "مكان الذاكرة" أداة لا يمكن الاستغناء عنها لفهم الكيفية التي أصبحت بفضلها النكبة أحد العناصر التكوينية في الهُويّة الفلسطينيّة. النكبة حادثة فلسطينيّة، ومكان للذاكرة الجمعيّة. فهي تربط الفلسطينيّين جميعهم بنقطة معينة في الزمن أصبحت في نظرهم "حاضرًا لا

يزول". وعلى ضوء الواقع الفلسطينيّ الذي ألمحنا إليه، فقد بُذلت جهود كبيرة لإعادة بناء الماضي والحفاظ عليه. أثمرت هذه الجهود عددًا من الكتب، معظمها كتب صور فوتوغرافية تحاول إعادة بناء أو استحضار الإحساس بما كانت عليه فلسطين قبل النكبة. سنصف هذه الكتب ونناقشها في القسم الثاني الذي سيتضمّن معالجة للنكبة كمكان للبداية ظهرت فيه التناقضات والتعارضات وموضعة الأشياء بعضها إلى جانب بعض. تحليل هذه العمليات وتأثيرها على الهُويّة الجمعيّة الفلسطينيّة سيتوضح في القسم الثالث، الذي تليه مناقشة لكيفية اللقاء وجها لوجه بين الفلسطينيّين والنكبة من خلال زيارات إلى بيوتهم السابقة – الأماكن التي شهدت وقوع النكبة، والتي ستبقى مرتبطة بها على الدوام. أما القسم الخامس فيحاول تعيين مفاهيم الهُويّة والقومية ومكان الذاكرة الجمعيّة في سياق الحركة العادية لحياة الفلسطينيّين.

تعريف مكان الذاكرة، الناس والمكان

من النادر، حتى بعد سبعة وخمسين عامًا على وقوع تلك التحوّلات المأساويّة، أن تذهب الأدبيات المعنية بموضوع النكبة أبعد من سرد الأحداث، أو وصف الأماكن، والفئات الاجتماعيّة والعمليات العسكريّة. أي أن وصف ما كان عليه الحال قبل النكبة، وتقديم شهادات بشأنه، أصبح نقطة محورية لدى الفلسطينيّين، ولدى العديد من الباحثين غير الفلسطينيّين، وللتدليل على هذا النوع من الإنتاج الثقافيّ سأتناول بعض الأعمال الرئيسية في هذا المجال.

الكتاب الأوّل كتاب صور بعنوان "يافا، عطر مدينة" (دياب ١٩٩١) يمثل توثيقًا رائعًا لحياة يافا الاقتصاديّة والاجتماعيّة وتاريخها السياسيّ، وكذلك لخطط تطوير المدينة التي لم ترَ النور. يتكون هذا الكتاب، بصورة شبه حصرية، من شهادات شخصية. الشهادة الأولى لشفيق الحوت (دياب ١٩٩١، ٨–٢١)، الذي تمثل حكايته رحلة مثيرة في حارات يافا، كما شوهدت في أواخر الأربعينيّات، من نافذة حافلة عمومية للركاب، تعْبرُ مختلف حارات المدينة. يقوم الحوت بدور الدليل المحلّيّ، ويزوّد السائحين – أي القارئ الغريب عن المشهد الموصوف – بثروة من المعلومات عن تاريخ المدينة، ونسيجها الاجتماعيّ، ورجالاتها، والأحداث التاريخية التي وقعت في نواحيها المختلفة. بهذه الطريقة ينعطف في أحد الشوارع:

يقطع الباص الساحة ويتجه يسارًا ليدخل سوق الصلاحي، أحد شوارع يافا التجارية،

وملتقى تجّار البرتقال. وجميع العاملين في هذه التجارة الكبرى من سماسرة يتمتعون بخبرة واسعة ومعلومات لا حدود لها عن كل "بيارة" برتقال في فلسطين. كل تجار البرتقال في يافا كانوا يبدأون يومهم بفنجان قهوة في "مقهى داود" ذي الساحة الرحبة والأشجار الظليلة، وربما مع صحن فول من مطعم "الكحلة" (دياب ١٩٩١، ٨-٢١).

تضيف الصور الثماني، المنشورة إلى جانب النصّ، مزيدًا من الحياة والمصداقية على الحكاية، بيّارة في الطرف الشرقي ليافا، محطة القطار، دوّار الجامع الكبير، عدد من شباب يافا في ملابس أنيقة، وغير ذلك.

ويكتب الدكتور يوسف هيكل، آخر رئيس لبلدية يافا، الحكاية التالية في الكتاب ذاته (دياب ١٩٩١، ٢٩-٥٦). كان هيكل، الذي حصل على شهادة الدكتوراة في جامعة لندن، وعمل في سلك القضاء، رئيسًا لبلدية يافا في الفترة الحرجة بين العامين ١٩٤٥-١٩٤٨. وتضم شهادته موجزًا لنشاطاته وإنجازاته، التي تشمل بناء العديد من المنشآت العامّة، والطرق، وأنظمة الصرف الصحّيّ في الأحياء الجديدة، وغيرها. بيد أن درّة التاج في إنجازاته هي مشروع تنظيم يافا. ففي سبيل وضع خطة لمدينة حديثة، التقى برئيس الوزراء المصري، وطلب منه تعيين اثنين من كبار خبراء التخطيط المصريين للإشراف على المشروع: عثمان رفيق رستم (كبير المهندسين في مصلحة الآثار المصرية)، وعلي المليجي (رئيس هيئة تخطيط المدن المصرية). وقد طُلب منهما إعداد خطتين، لإعادة تأهيل الحارات القديمة، ورسم خطة شاملة حول التوّسع العمراني للمدينة. وبعدها يعرض هيكل تفاصيل محاولاته إقناع موظفي سلطة الانتداب في فلسطين بتغيير سياستهم المحابية للصهاينة. كما يروي نشاطاته في زمن الحرب: كيف التقى بالزعماء العرب للحصول على أسلحة، وبعد انهيار الجبهة، محاولاته الفاشلة – عبر وساطة بريطانية – توقيع اتفاقية مع القادة اليهود، تتحوّل يافا بموجبها إلى مدينة غير مقاتلة. تتخلل هذه الشهادةَ، كبقية الشهادات، صورٌ فوتوغرافية وصور وثائق.

ما الذي دفع السيد هيكل إلى كتابة مقالة ربما تصلح دعاية انتخابية لمن يريد الفوز برئاسة البلدية مرّة أخرى؟ اعتقد أن الإجابة مزدوجة. أوّلاً، ثمّة محاولة لاسترجاع بنية الحياة في يافا كما كانت من قبل. وثانيًا، منذ وقوع النكبة حاول قادة مثل هيكل البرهنة على قيامهم بكل ما يجب عمله للحيلولة دون وقوع الكارثة.

في الكتاب ١٧٥ صورة عن يافا وحياة سكّانها. تشمل الصور أنواعًا مختلفة من مواطني المدينة: عمالاً، وطلاّبًا، وشبابًا، وشيوخًا، ونساءً، ورجالاً، ووجهاءَ، وأناسًا من أصول متواضعة؛ في أماكن مختلفة نحو: الورش، والمصانع، والمقاهي، والمدارس، والنوادي المحلية، والميناء، والملاعب، والأعياد، وتظاهرات موسم النبي روبين، ورحلات إلى نهر العوجا، وغير ذلك. وهناك صور لمناسبات الترحيب بضيوف مشهورين زاروا يافا، فعلاوة على القادة السياسيّين في فلسطين، ثمّة صور لمناسبات الترحيب بقادة عرب، بينهم أمير الأردن، وقناصل دول عربيّة مختلفة، إلى جانب شخصيات معروفة في الحقل الثقافيّ، أبرزها الموسيقار المصري اللامع محمد عبد الوهاب.

يلخّص هشام شرابي القوّةَ الدافعة وراء الكتاب وموضوعَه الرئيس على النحو التالي:

> لا يستمد هذا التعبير [الوطن] معناه الحقيقي إلا من خلال التجربة المباشرة، كتلك التي عاناها أهل يافا وجميع الذين هاجروا من المدن والقرى الفلسطينيّة. فهذا المكان الذي يصبح مع مرور الزمن شيئًا يفوق مجرد المحسوس – يصبح رمزًا لكلّ ما مضى – معنى الوطن ومعنى الحنين كما نعرفهما نحن، المرء لا يمتلك موطنه حقًّا إلا عندما يفقده (دياب ١٩٩١، ١٣–١٨).

تشمل أعمال أخرى من هذا النوع كتاب سارة غراهام براون "الفلسطينيّون ومجتمعهم ١٨٨٠–١٩٤٦" وكتاب وليد الخالدي "قبل الشتات: تاريخ مصوّر للفلسطينيّين ١٨٧٦–١٩٤٨" (Graham-Brown 1980; Khalidi 1991). يرتب الخالدي كتابه بطريقة زمنية، إذ يبدأ كل قسم بمقدمة تزوّد القارئ بمعلومات أساسيّة حول الفترة المعنية، ثم يعرض الخالدي ثروة من الصور عن الفلسطينيّين وحياتهم. وعلى غرار سارة غراهام براون، يعرض الخالدي صورًا ليهود وبريطانيين ضمن ٣٤٥ صورة في الكتاب. ويبرهن استخدام الصور في هذين الكتابين، كما في كتب أخرى، على أهمية التصوير الفوتوغرافي كأداة قوية في استرجاع الماضي، إذ تعطي الصور لمحات محددة خاطفة، وحضورًا عابرًا للزمن، وتسترجع أخْيِلة للبيئة الاجتماعيّة والثقافيّة بمعناها الأوسع في ذلك الزمن. علاوة على ذلك، أعتقد أن كتاب الخالدي، بحكم مادته، وأسلوبه، ومصادر صوره، يزوّدنا بالكثير من المعلومات عن هذا النوع من الكتب، وكذلك عن دلالة العام ١٩٤٨ كمكان للذكرى.

أوّلاً، عنوان الكتاب يلّخص مضمونه والمنطق الضمني الذي يحكم طريقته في العرض. "قبل

الشتات" كتاب عن ماضٍ قد تلاشى – عن شيء لم يعد قائمًا في الوجود – عن أماكن وبشر تعرّضوا لتغيّرات درامية بطريقة توحي أن الناس (الذين نراهم في الصور وأبناءهم) لن يقطنوا الأماكن نفسها، أو حتى المنطقة نفسها. يستهدف الكتاب تحقيق ما تقدّمه الصور الفوتوغرافية من براهين بصرية: شهادة تؤكد وجود مجتمع بعينه – مجتمع أنكر أعداؤه مجرّد وجوده وهويّته. في هذا السياق، يكتب رولان بارث عما نستطيع الحصول عليه من صورة فوتوغرافية: "لا تقول الصورة، بالضرورة، ما لم يعد في الوجود، بل تقول بالتأكيد ما كان قائمًا من قبل" (مقتبس لدى: Wigoder 2001, 32).

ثانيًا، "قبل الشتات" محاولة لاسترجاع وجودٍ تمزّقَ، وتمثيل لبنية اجتماعيّة تعرّضت للتدمير. الصور التي يضمها الكتاب بقيت خلال الحرب في استوديو المصوّر خليل رعد، الذي وثّق الأحداث السياسيّة، والحياة اليومية في فلسطين، على مدار نحو خمسين عامًا. وتم استرجاع الصور بفضل الجهود الشجاعة لروبرت ميلّك، الشاب الإيطاليّ الذي عرّض حياته للخطر، وقام بعدة محاولات لاستعادة الأفلام المتروكة في استوديو رعد" (Al-hajj 2001).

يُلخص تاريخ الصور – كأشياء تمثيلية – تاريخ المجتمع الذي تمثله: دفق الحياة الاجتماعيّة؛ الدمار؛ والاسترجاع.

ثالثًا، يدل الكتاب على الحياة الاجتماعيّة غير المميزة التي تلت النكبة، حيث أصبحت الخطوط الفاصلة بين المجالين الشخصي والعام ضبابية. فالخاص يحكمه الآن المصير الجمعي للفلسطينيّين، مما أتاح عرض عديد من الصور التي التقطت من قبل كنوع من الذكريات الشخصية، في كتب مصوّرة. علاوة على ذلك، منحت ضبابية الخطوط الفاصلة الصورَ الشخصيّة مكانةً تمثيلية من خلال علاقتها بالمجتمع الفلسطينيّ عامّةً. فالوظيفة العامّة، أو الجمعيّة، لتلك الصور لم تكن في الحسبان، ولم تكن مقصودة أو متوقعة في زمن التقاطها (Wigoder 2000). وفي هذا الصدد، يبينّ والتر بنيامين أن الصور "بسبب العقل الباطن البصري" تضم أخيلة ودلالات لم تكن مقصودة أو مدرَكة من جانب المصوّر. وأعتقد أن تأثير هذا البعد غير المقصود أوسع من مضمون الصورة، من حيث ارتباطه بالاستخدامات المستقبلية للصورة نفسها.

وبعبارة موجزة، إن الهدف الأساس لهذه الكتب تمثيل حياة الفلسطينيّين كما كانت قبل النكبة. وهي ليست أعمالاً تاريخية. فقد أصاب إدوارد سعيد حين علّق قائلاً إنّ تواريخ فلسطين المكتوبة

بأقلام فلسطينيّين لم تكن قائمة قبل وجود مسألة فلسطين (Ali 1994; Said 1979). هذه الكتب للذكرى، تستهدف استرجاع الماضي كما خبره وعاشه الناس. علاوة على ذلك، هي محاولة لبناء طهارة خاصة بالتجارب الموصوفة، ومنحها وجودًا دائمًا يحقق وظيفتها كمواقع للذاكرة الجمعيّة الفلسطينيّة.

الزلزال

كما ذكرت من قبل، أدت النكبة، أوّلاً وقبل كل شيء، إلى تشتيت الشعب الفلسطينيّ، وفقدانه لوطنه. وقد تأثر جميع الفلسطينيّين بهذه الدرجة أو تلك نتيجة لتلك الكارثة الهائلة. علاوة على ذلك، ظهرت بفضل النكبة فئتان من الفلسطينيّين هما: الفلسطينيّون الذين بقوا في بلادهم، واللاجئون (كما يشار إليهم في الخطاب الوطنيّ والقوميّ). وهذا التمييز خاصّةٌ من خواصّ الثقافة الفلسطينيّة، التي ميّزت تقليديًّا بين عالمين متعارضين، وبين واقعين مختلفين: الداخل والخارج. نجد تعبيرًا عن هذا التعارض في العمارة التقليدية للبيت العربيّ. يحيط البيتَ سورٌ، في المعتاد، وفي الوسط بوابة يمر منها الداخل إلى البيت. لا يمر جسديًّا فحسب، بل ونفسيًّا كذلك. فبعد عبور البوابة تتغيّر حالة الإنسان العقلية ومواقفه وسلوكه، حيث الداخل هو مكان الألفة، القرب، الخصوصية، الدفء، التصرفات العفوية، والسعادة. أما الخارج فتحكمه قواعد ومواقف مختلفة تمامًا. الخارج عالم المنافسة والكفاح، المكان الذي تطل منه أعين المجتمع بصورة دائمة، لتمحص، وتفتش، وتتدخل، وبين الفينة والأخرى لتعاقب.

وقد كانت النكبة اللحظةَ التي أصبح فيها قسم من الشعب الفلسطينيّ بلا مأوى، ولن يشعروا بعد تلك اللحظة بمشاعر الاستقرار. فقد حُرم أولئك الفلسطينيّون كلَّ ما يمثله الوطن ويمنحه. واتّسم تاريخ اللاجئين تحت الحكم العربيّ، والحكم الإسرائيليّ كمواطنين، والاحتلال العسكريّ في الضفة الغربية وقطاع غزة، اتّسم بظاهرة الملاحقة والقمع الدائمين، مما فاقم إحساس الفلسطينيّين بالتشرّد. فغياب الوطن مصدر ثابت للبؤس. وفي هذا السياق، أصبح مفتاح البيت الرمزَ الأخير للوطن، والدليل على حياة مختلفة عاشها الفلسطينيّون قبل النكبة، وكان البيت في القلب منها مكانًا يلوذ به الإنسان.

كذلك، كان مفتاح البيت رمزًا للعودة، لا العودة إلى البيت المتروك هناك فحسب، بل إلى الحياة

الطبيعيّة أيضًا. حياة تملؤها الكرامة ومشاعر الدفء. لذلك، أصبح المفتاح الرمز الماديّ في حياة اللاجئ، والتركة الأخيرة التي يورثها الأب لأبنائه، كما يبينّ المقطع التالي:

> عندما شارف والد أ. ز. على الموت، نادى أولاده... إلى حجرته لحضور آخر اللقاءات العائلية. شيخ طاعن في السن، وضئيل الحجم من حيفا، قضى الأربع وثلاثين سنة الماضية عاجزًا عن تصديق ضياع بيته وأملاكه. والآن همس لأولاده بالكلمات المتقطعة الأخيرة لأب معدم وعاجز: "احفظوا المفتاح وكوشان الأرض"، قال لهم. حتى أولئك الذين حاولوا التقليل من شأن تأثير ما قبل النكبة على حياتهم وحياة ابنائهم، وجدوا صعوبة في تحقيق هذا الأمر.

ولعل تجربة والد إدوارد سعيد تمثّل هذه الجماعة من الفلسطينيّين:

> في نهاية الأمر، الماضي يملكنا. أنفق أبي حياته في محاولة للهرب من تلك الأشياء [الصور، الأزياء، أشياء مقتطعة من مكانها الأصلي، طقوس الكلام والعادات، وغيرها]. القليل منها بقي معه ما عدا حكاية مبتسرة أو اثنتين، قطعة نقود معدنية زائدة أو ميدالية، صورة لأبيه على ظهر جواد، وسجادتين صغيرتين.. ولكن مع تقدمه في السن، ارتد إلى التعبيرات المقدسية القديمة التي لم أفهمها، ولم أسمعها منه في سنوات شبابي (Said 1986a, 14).

عندما يغيب البيت، البيت الخاص على الصعيد الفردي، والوطن على الصعيد الجمعي، تسود حياة تجوال مقطوعة الجذور. يستعيد محمود درويش تلك المشاعر بهذه الطريقة:

وطني حقيبة

وحقيبتي وطني

ولكن لا رصيف،

ولا جدار

...

وطني حقيبة

في الليل أفرشها سريرا

وأنام فيها

أخدع الفتيات فيها

أدفن الأحباب فيها

ارتضيها لي مصيرا

وأموت فيها (درويش ١٩٨٣).

يقرن إدوارد سعيد مشاعر فقدان الوطن بإحساس عميق من فقدان الأمن، يجد تعبيره في عادة عصبية تتملكه عند السفر، حيث يكدّس أشياء كثيرة في الحقائب حتى في الرحلات القصيرة (Said 1986b, 63-80). فقد أصبح فقدان الوطن جزءًا من وعي الفلسطينيّ في المنفى.

وحتى في المرّات التي عومل فيها اللاجئون الفلسطينيّون بقدر من النزاهة، وهي حالات استثنائيّة، يشعر معظمهم أن الإحساس بالوطن في أرض غريبة يشكل نوعًا من الخيانة. يعبرّ محمود درويش عن هذه الحالة: "القمح مرٌّ في حقول الآخرين، والماء مالح" (درويش ١٩٨٣، ٤٠). إلى جانب ذلك، إن كل إحساس بالدفء يذكّر الفلسطينيّ بالوطن والبيت والحقول وسوى ذلك... كما في حالة أبي قيس – أحد أبطال رواية غسان كنفاني "رجال في الشمس" (كنفاني ١٩٧٦).

تنتمي هذه الرواية إلى أدب النازحين، الذي يعمّق الإحساس بالفرق بين ما قبل النكبة وما بعدها، والمصير المرعب للاجئين (Said 2000). كان أبو قيس في مدينة حدودية في جنوب العراق، وشعر بالاختناق من الغبار، والحرارة، والعرق، ومساومة الأدلاء المحليين، الذين يستطيعون تهريبه إلى الكويت، حيث يستطيع كسب القوت.

يحاول، بفعل التعب، نيل قسط من الراحة فيرقد على الرمل المبتلّ في شط العرب، وما أن يشعر بمتعة سماع قلبه يخفق على السطح المبتلّ، حتى تعيده الأفكار خمسة عشر عامًا إلى الوراء، إلى قريته، وحقل العائلة – ولكن حلم اليقظة السعيد الذي راوده، كفلاح يعرف أن موسم الحرث على الأبواب، سرعان ما تبخر بقسوة عندما تذكر فجأة أنه مجرد لاجئ معدم ومنعزل (كنفاني ١٩٧٦، الفصل الأول). وقد جاءت هذه التعارضات لتركيز الأنظار على موته المأساويّ بعد قليل، إلى جانب اثنين من المهاجرين

الفلسطينيّين غير الشرعيين، على نقطة للحدود لا تبعد كثيرًا عن شط العرب.

صحيح أن الباقين من الفلسطينيّين ظلّوا في الوطن بمعنى ما، إلا أنهم اكتشفوا انقلاب وجودهم بصورة جذرية، عانوا في السنوات الأولى من القلق الوجوديّ – شعروا بعدم الأمن تجاه مستقبلهم القريب، ولم يعرفوا مصير أقربائهم وأحبابهم. ومع مرور الوقت، خاصة منذ أوائل الستينيّات، بدا مستقبلهم أكثر أمنًا، لكن أشواقهم تزايدت. ولم يتمكن الفلسطينيّون من مواطني إسرائيل من الالتقاء بأقاربهم إلا بعد حرب عام ١٩٦٧.

أضف إلى ذلك أنّ النكبة ارتبطت بعملية تصفية متسارعة للملامح العربيّة للبلد. شملت هذه العملية تدمير نحو ٤١٨ قرية (Falah 1996)، ومن بين ١٢ بلدة فلسطينيّة بالكامل أو مختلطة، تمكّن السكّان الفلسطينيّون من البقاء في سبع بلدات فقط. وقد رافق هذا التحويلَ السريعَ للبيئة المادّيّة والثقافيّة، على المستوى الرمزيّ، تغييرُ أسماء الشوارع والأحياء والمدن والمناطق. حلّت محلَّ الأسماء العربيّة تسمياتٌ صهيونيّة، ويهوديّة أو أوروبيّة. وما زالت عملية التسمية هذه تحمل إلى الفلسطينيّين رسالة أن للبلد حقبتين تاريخيتين تعبّران عن "حقيقته الطبيعيّة": الماضي اليهوديّ القديم، وفترة ما بعد قيام إسرائيل. وما حدث بينهما يُعامل كشذوذ عن التدفق "الطبيعيّ" لتاريخ البلد (Sa'di 1999). وقد كتب غازي فلاح في مقالته "تحويل المشهد الثقافيّ الفلسطينيّ وشطب معناه" ما يلي:

> في هذه العملية لتحويل المشهد الثقافيّ، يحاول طرف بصورة منهجية تصفية تعلق الطرف الآخر بموطنه. فالأماكن التي كانت موضع الثقافة الفلسطينيّة والهُويّة القومية، أوعية الذاكرة الجمعيّة للمشهد الثقافيّ للمنطقة، الذي يشبه ورق الكتابة، جرى محوها في عمل من أعمال نزع المعنى (Sa'di 1999, 257).

يعني هذا الأمر في نظر الفلسطينيّين تحويلهم إلى غرباء عن مشهدهم وبيئتهم الطبيعيّة بالمعنى المادي والرمزي. الذاكرة، وحدها، كانت قادرة على إنقاذهم من الاغتراب، ومن الافتراق عن الذات. لذلك، تكتسب كتب الذكريات الموصوفة سابقًا معناها، فهي تستهدف الحفاظ على نوع من الماضي السليم والطاهر.

من التغيرات الكبيرة والمأساويّة التي وقعت بعد النكبة، ونتيجة لها، مصادرة الدولة الإسرائيليّة

للأراضي التي يملكها الفلسطينيّون. فالأرض التي نظر إليها الفلسطينيّون، على مدى قرون، كأحد المصادر الأساسية للثروة، والنفوذ، والمكانة، والكرامة، انتقلت ملكيتها إلى اليهود، وكذلك حقُّ استخدامها. وحتى مطلع الثمانينيّات، حسب أبو كشك، صادرت الدولة ما يزيد عن سبعين بالمئة من الأراضي التي يملكها مواطنون فلسطينيّون في إسرائيل (Abu-Kishk 1981). وقد عبرّ عديد من المثقفين الفلسطينيّين عن خوف أبناء شعبهم من سياسة الدولة لمصادرة الأرض. وعبرّت عن هذا الأمر بحيويةٍ قصيدةُ محمود درويش "بطاقة هُويّة"، عندما كانت سياسة المصادرة على قدم وساق.

كذلك شهد الفلسطينيّون، وبخاصّة من بقوا في الداخل، محاولة مصادرة ثقافتهم. منذ عام ١٩٤٨، ومنذ أواسط السبعينيّات بشكل خاص، جرت محاولة لتأسيس ثقافة إسرائيليّة محلية، لا أوروبية ولا شرقية، أي ثقافة أصلية لا تنتمي إلى المنفى.[٢] وقد تقدم هذا المشروع عبر الاستيلاء على عديد من جوانب الثقافة الفلسطينيّة. فالأطعمة الشرق أوسطية التقليدية مثل الحمّص والفول والفلافل والتبّولة والكبة وغيرها اختيرت من المطبخ الفلسطينيّ، وتقدَّم في أغلب الأحيان كمأكولات إسرائيليّة خالصة. والأعشاب التي يستخدمها الفلسطينيّون في التداوي وإعداد الطعام (كالزعتر) أصبحت جزءًا من سلوك إسرائيليّ يريد "اكتساب صبغة محلية أصلية". علاوة على ذلك، وفي تطور جديد، تقوم جماعات دينية شعبوية من اليهود بتبنّي قبور – أغلبها عربيّة وفلسطينيّة – باعتبارها قبور أولياء صالحين "قيبر تساديقيم". وبهذا المعنى أصبحت الثقافة الفلسطينيّة ساحة مستباحة ينتقي منها الإسرائيليّون ويختارون ما يريدونه لبناء ثقافة إسرائيليّة "أصليّة".

باختصار، النكبة لحظة في التاريخ تعرّض فيها عالم الفلسطينيّين، الذي اعتبروه جزءًا من "قوانين الطبيعة"، إلى التغيير بعنف، وبطريقة جذرية. تقلصت حقوقهم كأشخاص يتمتعون بالحماية القانونية، أو شُطبت بالكامل، وتعرضت بيئتهم الثقافيّة والمادية لتغيرّات درامية، ولم يعد وجودهم كجماعة وطنيّة مضمونًا.

بهذه الطريقة فرضت الكارثة الهائلة نفسها باعتبارها المكان الفلسطينيّ الرئيس للذاكرة الجمعيّة. فهي نقطة البداية لتجارب عديدة يمكن وضعها تحت عنوان "نتائج النكبة"؛ فبالإضافة إلى دمار مجتمع برمته، تمثل النكبة قطيعة لا يمكن جسرها في مكان وزمان ووعي الفلسطينيّين.

النكبة: الزمن، والمكان، والوعي

وهكذا شرع الفلسطينيّون في استخدام النكبة كمرجعية مؤقّتة يؤرخون بها للأحداث، إذ يمكنهم القول إن هذا الحدث، على سبيل المثال، وقع قبل عامين من النكبة، أو بعد عام على وقوعها. حتى التصنيفات الديمغرافية أصبحت مرتبطة بها. فالجيل الذي شهد حرب العام ١٩٤٨ يسمى جيل النكبة، ومن ولدوا بعدها يُشار إليهم كجيل ما بعد النكبة. وفي هذا الاستخدام للنكبة كمرجعيّة ما يمنح ظواهرَ مختلفةً دلالاتٍ مختلفةً، وربما متناقضة. فأبناء جيل النكبة، مثلاً، لديهم معلومات حول ما حصل، إذ كانوا هناك، وعاشوا في فلسطين قبل تغيرّها، وهم يحملون الذاكرة. ومع ذلك، يُتَّهم هذا الجيل، عادة، بالتقصير في الدفاع عن فلسطين. وعلى هذا الأساس، ما زال جيل القادة الفلسطينيّين، في ذلك الوقت، يشعر بضرورة شرح وتبرير تصرفاته في زمن الحرب. أما جيل ما بعد النكبة، فيستطيع تخيّل ما حدث، أو يقوم بزيارات قصيرة لأماكن مختلفة لتخيّل ما كانت الحياة عليه من قبل.

النكبة، كذلك، هي اللحظة العنيفة التي خلقت قطيعة لا يمكن جسرها بين الماضي والحاضر. فهي تشكّل نهاية الحياة العادية، بمعنى أن هذا الشرخ زعزع التطوّر الطبيعيّ للتاريخ. فعلى الصعيد القوميّ، لم تتطوّر فلسطين في الاتّجاه نفسه الذي سلكته بلدان "العالم الثالث" الأخرى – التي خضعت للاستعمار، وكافحت، ثم نالت استقلالها. النكبة هي النكوص المفاجئ لبشائر استقلال تحوّلت إلى كابوس. وبفضل/ وبفعل عدم تحقيق تلك البشائر، فرضت نفسها على حياة ووعي الفلسطينيّين بثلاث طرق مختلفة: انشغال استحواذيّ بالماضي؛ معالجة دائمة لأسئلة تأمّليّة (على غرار: ماذا كان سيحدث لو...؟)؛ كفاح للعودة إلى الحياة الطبيعيّة.

وقد انتهت الحياة الطبيعيّة بسبب النكبة على المستويين الاجتماعيّ والفرديّ. لذا، ما زالت المقارنات بين ما كان قبل النكبة وما أصبح بعدها تحتلّ خلفية كل نقاش أو تفكير بشأن فلسطين، ويميل الميزان دائمًا إلى حياة ما قبل النكبة، حيث ارتبط ما بعد النكبة بالشذوذ عن الحياة العادية. ولإلقاء بعض الضوء على كيفيّة تحوّل النكبة إلى نقطة حاسمة في الانتقال من العاديّ إلى الشاذّ، سأعرض ثلاث تجارب:

الأولى سيرة ذاتيّة لهشام شرابي، الذي غادر يافا في ديسمبر ١٩٤٧، لاستكمال دراسة الماجستير في جامعة شيكاغو. وقد عاد بعد عام من إنهاء دراسته. لم يعد إلى بيت العائلة الكائن في حي من

الأحياء الراقية في يافا، بل إلى شقة صغيرة مستأجرة في بيروت. وفي اللقاء الأوّل بعائلته ما يلقي الضوء على شذوذ الموقف:

استقبلتني أمي بالدموع.. قبلّت جدتي، وعمّاتي، وسألت عن جدّي. قالت جدتي إنه لا يشعر بالعافية. كان يجلس في زاوية معتمة في البيت ويراقب ما يجري، كأنه غير متأكد مما يجري. ولا أدري هل عرفني أم لا. فقد تغيرّ إلى حد كبير. طال شعره الأبيض، كانت ثيابه قديمة وممزقة، رغم اهتمامه بارتداء أفخر الثياب في الماضي، وحرصه الخاصّ على مظهره" (شرابي ١٩٧٨). ترتبط النكبة، في نظر شرابي، بالإفقار، والمنفى، وفقدان العقل.

النص الثاني من رواية إميل حبيبي "المتشائل"، عن حياة فلسطينيّ أصبح مواطنًا في إسرائيل (حبيبي ١٩٧٤). بشفافيّة يستخرج حبيبي في هذه الرواية تجاربَ فلسطينيّ تحمّل ما لحق بفلسطين من تحوّلات.

وبخلاف ما أصاب شرابي وعائلته، إن البطل – الضدّ لدى حبيبي ينجح في العودة من لبنان إلى إسرائيل، إلا أنه يشهد طرد فلسطينيّين آخرين.

يستطيع سعيد العودة إلى بلدته حيفا، لأنه خدم كعميل للدولة الجديدة، ورغم أنه كمخبر قام بكل ما يجب عمله لإرضاء الدولة وتعزيز سلامتها، كان الفشل نصيبه على الدوام: فهو لا يستطيع فصل نفسه عن تاريخ ما قبل عام ١٩٤٨، ولا يستطيع تأكيد هويته الفلسطينيّة. لذا، يجد نفسه في مصحّة للأمراض العقلية في عكا، لا تبعد كثيرًا عن مدرسته الثانوية قبل عام ٤٨، التي عاش فيها تجربة الحبّ الأولى.

ترتبط النكبة، على غرار النص السابق، بالجنون. على ذلك، ترتبط فترة ما قبل النكبة بذكريات سعيدة: بداية الشباب؛ الحب الرومانسيّ؛ البراءة . أما فترة ما بعد النكبة، فهي حزينة ومليئة بالعار – سنوات العمالة، والنفاق، والهزيمة، والاغتراب عن الذات. تحاول الدولة، في نهاية المطاف، وعبر جهاز "الشين بيت" (المخابرات)، الوصول إلى الطبقات الدنيا في وعي سعيد، حيث بقيت أماكن الماضي الحميمة، للعمل على محوها. لذلك، يقتادونه إلى مركز قيادة الشرطة السرّيّة، التي تتهمه بعدم احترام وحدة الكيان الإقليميّ للدولة، وبتنظيم محاولة للعصيان. يسرد الشرطي التهم المنسوبة إليه على النحو التالي:

أصبح الرجل الكبير يعتقد بأنّ إفراطك هو تمويه على تفريطك. ويستعيد الرجل الكبير أصلك وفصلك أدلّة على أنك تتغابى، ولكنك لست بغبيّ. فلماذا لم تعشق سوى باقية، ولم تنجب سوى ولاء؟ (حبيبي ١٩٧٤، ١٥٨).

في ضوء هذه الاتهامات يسأل سعيد: "ألم يسأل الرجل الكبير لماذا لم أولد سوى عربيّ، ولماذا لم أجد وطنًا سوى هذه البلاد؟".

يعكس سؤال سعيد البلاغيُّ الاتهامات التي يسوقها الرجل الكبير ضده. فقد وجدوه مذنبًا بعدم التعاون مع سياسة الدولة في تصفية رموز الهُويّة والذاكرة الفلسطينيّتين، إذ ربط نفسه بشخصيّات تقترن أسماؤها بالنكبة كمكان للذاكرة الفلسطينيّة: يُعاد (الإصرار على العودة)؛ وباقية (التمسك بالوطن)؛ وولاء (الولاء للشعب والوطن).

النص الثالث وصف لحياة عائلة فلسطينيّة. يعكس عنوان الكتاب "أيام العسل وأيام البصل" – وهو مستوحى من أحد الأمثال العربيّة – التناقضَ الموصوف أعلاه، إذ يقدم تفاصيل حياة عائلة فلسطينيّة "عاديّة" تعيش في كفر قرع. يصف أبو أحمد، رب العائلة، النكبة بتعبيرات قاسية:

كانت الحرب وقتًا رهيبًا بالنسبة لشعبنا. كفر قرع أُفرغت من سكانها، وتناثرنا كأوراق الشجر في كل المنطقة. عشنا كلاجئين لمدة ١١ شهرًا، لا نعرف هل سنتمكن من العودة، وأخيرًا عندما عدنا في نيسان ١٩٤٩، وسمح لنا اليهود بالذهاب إلى بئرنا واستخراج الماء، شعرت أن كابوسنا قد انتهى. وفكّرت أن الحياة سرعان ما تعود إلى ما كانت عليه قبل الحرب. ولم يمر وقت طويل حتى أدركت أنها لن تكون بتلك الطريقة.. لم يتأخروا في إفهامنا أن الحياة لن تكون كما كانت من قبل... وبطريقة معيّنة حوّلوا القرية إلى سجن (Gorkin 1993, 125).

ورغم عدم قيامه بعقد مقارنات مباشرة بين ما قبل النكبة وما بعدها، تحضر مقارنة خفيفة بين الفترتين في السرد، حيث يفصل أبو أحمد الأحداث بطريقة تصاعديّة، فالدولة، مثلاً، صادرت الأرض الجيدة ومنحتها للمستوطنات اليهوديّة، وعوّضوهم عنها بأرض صخرية رديئة (Gorkin 1993, 125). وبالتالي ازدادت صعوبة الحياة وظروف العمل، بعد ذلك يطلبون منه التعامل معهم، وهي وظيفة نجمت عن الوضعية الجديدة للفلسطينيّين في إسرائيل – جماعة تراقبها الدولة بشكل دائم، وتسيطر عليها بقوّة.

عود على البداية

سمحت السلطات الإسرائيليّة، بعد شهر من حرب ١٩٦٧، للفلسطينيّين القاطنين في الضفة الغربية وقطاع غزة بدخول إسرائيل. علاوة على ذلك، وكجزء من سياسة "الجسور المفتوحة" سمحت إسرائيل للفلسطينيّين الذين يقيمون في دول عربيّة بالدخول لفترات قصيرة. وبعد اتفاقيات أوسلو، تمكن عديد من الفلسطينيّين، بمن فيهم قادة منظمة التحرير الفلسطينيّة، من القيام بزيارات من هذا النوع.

وقد تساءل إلياس صنبر، الذي زار بيته السابق في حيفا، عن دوافع الفلسطينيّين للقيام بزيارات قصيرة لبيوتهم وقراهم السابقة: "ما الذي يبحث عنه المسافر عند العودة إلى بلده، إلى مسقط رأسه، أو إلى المكان الذي سيموت فيه؟" (ورد ذكره عند Tresilian 2001). ورغم أن صنبر يقدّم عددًا من الدوافع، لا يحيط بكل الاحتمالات. فرفض فكرة الزيارة برمّتها خَيارٌ يفضّله الكثير من الناس.

هناك الكثير من الروايات الشخصية لزيارات من هذا النوع، أو رفض القيام بها. فعلاوة على السير الذاتية، كرّست "الكرمل" – الفصليّة الثقافيّة الفلسطينيّة – مساحة كبيرة من صفحاتها لقسم بعنوان "مكان الذاكرة، ذاكرة المكان"، حيث وصف عديد من الفلسطينيّين زيارتهم لأماكن النكبة عمومًا؛ ويمكن تقسيم تلك التجارب إلى أربعة أنواع.

أوّلًا، يمكن فهم الزيارة كمحاولة لاستحضار المتعة المرتبطة بالمكان، وإنْ كان لدقائق معدودات. وقد أصبح المكان، مع مرور الوقت، بالنسبة لبعض الفلسطينيّين (والمكان هنا البيت، أو القرية، أو غيرهما) مجسّدًا في أشياء محددة كشجرة المشمش، والساحة التي لعب فيها الأولاد، والزيتونات العتيقة، وغيرها الكثير.

تمثّل العودة، في هذا السياق، تحقيقًا لفنتازيا إعادة عجلة الزمن إلى الوراء، وعيش حياة ما قبل النكبة مرّة أخرى. يصف محمود درويش، الذي سُمح له بزيارة قصيرة بعد ستّة وعشرين عامًا، تجربته كما يلي: "لمست الأشجار والحجارة، وشعرت كأنني لم أغادر. توقّف الزمن، واكتملت الدائرة" (ورد ذكره عند: Slyomovics 1998, 16). وقد حاول بعض "الزوّار" العاجزين عن قبول تجربة الاغتراب تجديدَ علاقتهم بالمكان من خلال حمل بعض الأشياء الصغيرة (بضعة

أحجار؛ حفنة من التراب؛ زجاجة من الماء) كتذكارات ثمينة. ومع ذلك، تحوّلت تلك الزيارات في حالات كثيرة إلى تجارب مؤلمة ومعذبّة. فقد اصطحب محمد علي طه (الفلسطينيّ المقيم في إسرائيل، وهو في الأصل من قرية ميعار المدّمرة) ابن عمّه لزيارة أطلال القرية. يكتب طه: "ذهبنا إلى "البير الشرقي"، وبحث عن المشمشة ولم يجدها. المشمشة في المشمش يا محمود. ذرفت عيناه دمعتين ساخنتين حاول أن يخفيها عني، فالرجال لا يبكون، لا يبكون" (طه ١٩٩٨). انتهت زيارات أخرى بالمرض أو الإرهاق، وبعض الفلسطينيّين تعرّضوا للطرد على يد الشرطة، بعد احتجاج السكّان اليهود ضد العرب الذين يثيرون الضوضاء، أو يدورون حول "بيوتهم".

ثانيًا، البعض يقف أمام البيت أو العقار دون محاولة الدخول. شرابي (الذي غادر يافا لاستكمال دراسته في أميركا عام ١٩٤٧) عاد في زيارة قصيرة إلى يافا عام ٢٠٠١، وتمكّن من رؤية بيت العائلة، لكنه لم يحاول الدخول. رفض دخول بيت العائلة زائرًا.[٤] تصرف إدوارد سعيد بطريقة مشابهة عند مجيئه إلى القدس مع أولاده بعد وفاة والدته.

> لم أرد الدخول إلى البيت، رغم أن أولادي ألّحوا عليّ، أشرت إلى نافذة الحجرة التي ولدت فيها. قالوا: أبي، ألا تريد الدخول وإلقاء نظرة؟ لا، لم أرد. كأن جزءًا من ماضيّ قد انتهى في الواقع، وارتبط بسقوط فلسطين، ولم أعد قادرًا على إعادة التحقّق منه. لم أستطع القيام بزيارة أخرى (مقتبس عند: Slyomovics 1998, 15).

يستحضر بحث سوزان سليموفيتش عن عين حوض (القرية العربيّة سابقًا التي تحوّلت إلى مستوطنة للفنّانين اليهود) أسماء السكان الحاليّين لعديد من البيوت، وأسماء أصحابها السابقين، الذين تظهر صورهم وهم يشيرون إلى بيوتهم، وإلى جانب ذلك يركّز الأنظار على عبثيّة الموقف نفسه. تكشف سليموفيتش حقيقة أنّ بعض أهالي عين حوض يقيمون في قرية غير معترف بها على مشارف بيوتهم السابقة. وهي تعلّق على إشارة الإصبع عندما يشيرون إلى بيوتهم السابقة "إيماءة اتّهام تجد تعبيرها في هذا الأسلوب المرئيّ، تطالب بالحداد، وتبحث في الوقت نفسه عن العدالة" (Slyomovics 1998, 13).

ثالثًا، تشكّل هذه الزيارات، أحيانًا، محاولة لفهم النكبة وتغيير نتائجها. وقد كان غسان كنفاني، في "عائد إلى حيفا"، أوّل الكُتّاب الذين وصفوا التعارض المتنامي بين فلسطين ما قبل النكبة وما بعدها، والانقسام المتزايد بين الواقع والذاكرة. نُشرت هذه الرواية عام ١٩٦٩، وهي حول

زيارة متخيّلة يقوم بها اللاجئ الفلسطينيّ سعيد س. وزوجته صفية لبيتهم السابق في حيّ الحليصة في حيفا، بعيد حرب عام ١٩٦٧ (كنفاني ١٩٦٩). لا تتمثّل الزيارة في مجرد مشاهدة البيت، الذي أصبحت تسكنه أرملة يهوديّة ناجية من الهولوكوست، بل في محاولة للعثور على الابن، الذي تركه الأبوان في الشهر الخامس من عمره خلال موجة الرعب التي واكبت هروبهما، والذي تولّى سكّان البيت الجدد تربيته. وقد اكتشف الأبوان، عبر حوارات مؤلمة مع "الابن" الذي تربّى يهوديًّا، وخدم في الجيش، الدلالاتِ الجديدةَ لمفاهيم الهُويّة وصِلات القربى. يؤكّد سعيد في الرواية أنّ "فلسطين أكثر من ذكريات، ومن ابن، وصورة، ومن حيّ الحليصة. كانت بالنسبة لنا بحثًا تحت غبار الذاكرة، وانظر ماذا وجدنا تحت الغبار.. غبارًا جديدًا. أخطأنا عندما اعتبرنا أن الوطن يدلّ على الماضي فقط". الإنسان بالنسبة لكنفاني هو القضيّة (التي يكافح من أجلها)، والوطن هو المستقبل (كنفاني ١٩٦٩، ٧٨، ٨٨-٨٩).

وبصرف النظر عن موقف كنفاني السياسيّ، الذي تحاول رواياته التعبير عنه، فقد حاول عديد من المنفيّين الفلسطينيّين العودة إلى أي جزء من فلسطين، وبذل أقصى ما يستطيعونه من جهد في سبيل غد أفضل. كان إبراهيم أبو لغد، الذي غادر يافا في الرابع من أيّار عام ١٩٤٨، وعاد إليها للمرّة الأولى في الثامن من كانون الأوّل عام ١٩٩١، أحد هؤلاء. اكتشف أبو لغد أن حياة المدينة تغيّرت إلى أبعد الحدود (أبو لغد ١٩٩٨)، حيث أصبحت يافا – التي كانت ذات يوم مركزًا ثقافيًّا وتجاريًّا وقوميًّا رائدًا، إلى جانب كونها مدينة استيراد وتصدير كوزموبوليتيّة – مثلَ مدن الصفيح. يلخّص هذا التحوّلُ ما أصاب المجتمع الفلسطينيّ من دمار. في عام ١٩٩٢، غادر إبراهيم أبو لغد الولايات المتّحدة، التي عمل فيها أستاذًا للعلوم السياسيّة، ليستقرّ في رام الله، وهو يشرح خطوته على النحو التالي: ٧٤

> عندما عدت للمرّة الأولى بعد أربعين عامًا، ذهبت إلى كلّ ركن في يافا... وصمّمت أن أضع حدًّا للعيش في المنفى. فلسطين ما زالت هنا، أنا جزء من هذا التطوّر الفلسطينيّ، ولذلك أستطيع الإسهام، والعيش بسلام مع نفسي في فلسطين.[٥]

شغل أبو لغد العديد من المناصب. كان أستاذًا في جامعة بير زيت، ونائبًا لرئيس الجامعة، وبادر بمشاريع عديدة، كإنشاء مركز تطوير المناهج التربويّة، كما أسهم في صياغة وثيقة "متحف الذاكرة الفلسطينيّة" (شلحت ٢٠٠١)، ووافته المنية في الثالث والعشرين من أيّار عام ٢٠٠١. وقد طلب في

وصيّته أن يُدفن في يافا، إلى جانب أبيه وشقيقه. حاولت أجهزة الأمن الإسرائيليّة الحيلولة دون خروج الجنازة. والمفارقة تتمثّل في أنّ جواز سفره الأمريكيّ – لا حقيقة مولده في يافا – جعل هذه الأمنية الأخيرة ممكنة التحقّق. أقفل الدائرة، سيبقى في يافا إلى الأبد، أنجز حقّ العودة، وإن فعل ذلك ميّتًا (سيغف ٢٠٠١).

رابعًا، رفض العديد من الفلسطينيّين فكرة القيام بزيارات لبيوتهم السابقة. وخلافًا لردّات الفعل الأخرى، يؤكّد هذا الردّ مجدّدًا وجودَ الفجوة غير القابلة للجَسْر بين الماضي والحاضر، ويمثّل رفضًا للاقتراب من عالم الذاكرة، والتعاطي مع ألمٍ لا يُطاق، ولا يمكن تجنّبه بعد زيارات كهذه. يمكن العثور على هذا الموقف في مقالة صلاح حزيّن "البلدة التي لم أزرها" (حزيّن ١٩٩٧). ورغم توافر عدّة فرص لزيارة عين كارم، مسقط رأسه وموطن أجداده، ورغم تفكيره الدائم فيها، رفض فكرة العودة. رفض أبوه وعمّه، أيضًا، فكرة المجابهة مع عين كارم. فأبوه، مثلاً، أبعدَ بعنف حفنةً من تراب عين كارم، أحضرها أحد الزوّار، ونفض ثيابه للتأكد أنّ شيئًا من التراب لم يعلق بها. وعندما سأله الابن، بعد سنوات، تفسيرًا لذلك السلوك الغريب، قال كلامًا كثيرًا... "فهمت منه شيئًا ربّما كان مختلفًا عمّا أراد قوله، فهمت أنّه لا يريد شيئًا يثبت له أن عين كارم ما زالت حقيقة" (حزيّن ١٩٩٧، ١٤٧).

الهُويّة في الممارسة

تطرح الأجزاء التي تتكوّن منها حكايات حياة الأفراد – سواء أكانت حقيقيّة أم متخيّلة – تساؤلاً حول مستوى التجريد الذي استخدمه المشتغلون بالعلوم الاجتماعيّة، عمومًا، في نقاشهم للهُويّة – بمن فيهم أندرسون (Anderson 1991) – فعلى غرار فورتييه، اعتقد بضرورة اعتبار السياق المحلّيّ ببنيته المكانيّة والاجتماعيّة بعدًا أساسيًّا من أبعاد الهُويّة. وفي هذا الصدد، يكتب فورتييه: "تستهدف ممارسات الهُويّة الجمعيّة إنتاج أشكال تاريخيّة وثقافيّة للانتماء، فهي تحدّد تضاريس الجماعة، وترسم الديناميّات الاجتماعيّة والسياسيّة لعمليّة (الانخراط) فيها بصورة مناسبة" (Fortier 1999, 42).

ولم تكن حكايات العودة، واللاعودة، عن فلسطين بصورة مجرّدة، بل كانت تتركز حول أماكن محدّدة، حول قرى وبلدات، وبيوت بعينها ومقابر، وعلامات يمكن تمييزها. إن تفاصيل

الأشياء الصغيرة، ومشاعر الألفة والقرب تجاه الأماكن والناس والأشياء، هي، في محصّلة التناول التحليليّ، ما يمكّن الفرد من إضفاء المعنى على أفكار مجرّدة من نوع الانتماء القوميّ، والهُويّة القوميّة. وغزارة هذه التفاصيل تكمن في قلب تجربة العودة التي عاشها إبراهيم أبو لغد، وروت ابنته تفاصيلها. وهي تروي انطباعاتها بعد قرار أبيها بالعودة:

كان مبتهجًا لأنه سيذهب إلى رام الله، ويشعر بالوطن، ليس لأنه عاش من قبل في ذلك المصيف، الذي كان يؤمّه الأثرياء أيّام طفولته في يافا، ولكن لأنه سيعيش بين بني شعبه من الفلسطينيّين (Abu-Lughod 2001).

ولم يكن ما شعر به من دفء ناجمًا عن العيش مع شعبه فحسب – حيث يتواصل مع الناس، ويشاركهم المشاعر والطموحات السياسيّة –، بل كذلك لأنّه كان قريبًا من يافا، أيضًا، من مرتع طفولته وشبابه الباكر، ومثواه الأخير، كما اتّضح في نهاية الأمر. وفي هذا الصدد تكتب ابنته:

كان متلهّفًا ليرينا فلسطين كلّها، وأرادنا بصورة خاصة أن نذهب معه إلى يافا. وكانت الزيارة – الزيارة نفسها التي يقدّمها لكل زائر – حول استحقاقه وإعادة استحقاقه للمدينة التي وُلد فيها، للبحر الذي سبح فيه كطفل، وللبيت الذي اضطرّ لمغادرته في عام ١٩٤٨ (Abu-Lughod 2001).

يستهلّ فلسطينيّون آخرون – وبشكل مماثل لقصّة حياة إبراهيم أبو لغد – حكايتهم الشخصية بسرد بعض التفاصيل الحميمة عن عائلاتهم أو حاراتهم. وقد أصبح جون تليل، المقدسيّ، وعائلته لاجئين عندما انتقلوا مسافة خمسين مترًا بعيدًا عن البيت نتيجة لحرب ١٩٤٨. وهنا يبدأ الحكاية الشخصيّة بسرد تفاصيل عن تاريخ العائلة:

اسم عائلتي تليل، ويعود أصلنا إلى حوالي أربعمائة عام مضت. يوجد على شاهدة قبر من قبور العائلة في مقبرة الروم الأرثوذوكس على جبل الزيتون، مؤرخة في عام ١٨٣٣ نقشان بالعربيّة واليونانية، وصورة محفورة للأدوات التي يستخدمها الصاغة. كان أجدادي صاغة، وتليل، أو التليل– كما هي محفورة على شواهد القبور– اسم عربيّ يعني الشخص الذي يصقل المعدن بالفضة أو الذهب (Tleel 2001). ثم يقدّم الكاتب معلومات وافرة عن أماكن بعينها شهدت في مجرى حياته أحداثًا صغيرة، لكن ذات دلالة. وقد انتقلت هذه المشاعر تجاه الأماكن من جيل فلسطينيّ إلى آخر. في وصفه لهذه الظاهرة يكتب صنبر: "يشغلهم ولع استحواذيّ بالأماكن، من الطبوغرافيا

العامّة إلى تفاصيل أصغر الشوارع، حيث تسافر فلسطين فوق أكتاف أبنائها" (Sanbar 1991, 90) .

نقاش

ينبغي النظر إلى مفاهيم مثل الهُويّة القومية، والانتماء القومي، ومكان الذاكرة الجمعيّة، باعتبارها تجريدات سوسيولوجيّة ذات جذور راسخة في الحياة المادّيّة الملموسة للناس العاديّين. وحقيقة أنّ لكلّ فلسطينيّ نصيبه من النكبة، ولكل منطقة فيها حصّتها منها، تفسّر، كما أعتقد، الطبيعة السرمديّة المعقّدة للنكبة، وتجلّياتها المختلفة.

وعلى ضوء حقيقة أن أحداثها درامية من نوع النكبة تُغيرّ الأماكن والمشهد العامّ، نتيجة جهود متعمَّدة يبذلها المتسبّبون بها – مثل نزع الصفة العربيّة عن البلد، أو نتيجة لمرور الزمن – فإن مسألة التمثيل تصبح حتميّة. سأناقش هذا الأمر من خلال الوظيفة الرمزيّة لشجرة الصبّار، التي تمثل ما لحِقَ بفلسطين من تغيير.

رسم عديد من الفنّانين الفلسطينيّين – وبصورة خاصّة عاصم أبو شقرة (١٩٦١–١٩٩٠)– مشهد المكان الفلسطينيّ من زاوية تبرز الغائب عنه، أي القرى والمناطق السكنيّة المدمَّرة. في اللوحات الأولى لأبي شقرا، كانت أشجار الصبّار في بيئتها الطبيعيّة، وتبدو كأنها تقوم بوظيفتها الطبيعيّة– تقوم مقام الحدود للقرية– لكن الفراغ المحيط بها يدلّ على وجودها كتذكارات باقية لحياة جمعيّة تعرّضت للتصفية. وفي لوحاته اللاحقة، فُصلت أشجار الصبّار عن بيئتها الطبيعيّة ووُضعت في أواني الزهور. يُعرض هذا "النزوح" القسريّ كمصدر للعذاب. ففي إحدى اللوحات، مثلاً، رُسمت شجرة الصبّار كقبضة سوداء من الأشواك تندفع نحو سماء عاصفة؛ وفي لوحة أخرى يعزّز ظلّ الآنية على حافة النافذة الإحساس بغياب القمر (Boullata 2001).

لقد شهد استخدام شجرة الصبّار كتمثيل للنكبة تحوّلات مختلفة، حيث انتقلت من بيئتها الطبيعيّة الحيّة إلى تضاريس تمثيليّة. ولكنّها، على غرار أماكن الذاكرة الجمعيّة، مقاومة للموت والنسيان. فعندما سئل عاصم أبو شقرا عن سبب رسمه أشجار الصبّار، أجاب: "بسبب قدرتها المدهشة على الازدهار بعد الموت" (Boullata 2001, 76).

إن مجاز شجرة الصبّار يشير إلى سِمَتين للنكبة كمكان للذاكرة: الأولى قدرتها على امتلاك

تضاريس، ودلالات، وتمثيلات جديدة، والحفاظ على حضورها القويّ؛ والثانية تأقلمها مع الواقع الجديد الذي تعيشه مجتمعات فلسطينيّة مشتّتة في أماكن مختلفة، وبالتالي تفتقر إلى المؤسسات القادرة على إنتاج الرواية الرسميّة وأيقونات إحياء الذكرى. لذا، يستطيع الفلسطينيّ أو الفلسطينيّة وضع شجرة صبّار في إناء، وحملها إلى حيث يرتحل.

خلاصة

أماكن الذاكرة ضروريّة لخلق التماسك والهُويّة الوطنيّة، فهي تقدم الإطار، والأبعاد، والمرجعيّات لحكايات السيرة الذاتيّة والقيم. ولأنها كذلك، لا يمكن تفنيدها، ولا يمكن تعريضها لمراجعة محايدة أو تحليل مقارن، لأنها تمثّل حكاية ذاتيّة لجماعة من الناس. لا تمثّل أحداثًا تاريخيّة معيّنة كما جرت، بل تمثّلها كما جرى استيعابها، وتفسيرها، والإحساس بها، من جانب تلك الجماعة. الكثير من أماكن الذاكرة الجمعيّة الفلسطينيّة كائنة بطريقة تراجيدية في الغالب: النكبة؛ هزيمة حرب ١٩٦٧ (النكسة)؛ أيلول الأسود؛ يوم الأرض؛ مجزرة صبرا وشاتيلا؛ الانتفاضة الأولى إلخ... ومع ذلك بقيت النكبة المكان الأساسي للذاكرة الجمعيّة الفلسطينيّة لأسباب مختلفة. أوّلًا، لأن الحدث نفسه غيرّ المجتمع الفلسطينيّ بطريقة جذريّة، إلى جانب كونها ذات آثار مستمرّة على حياة الفلسطينيّين منذ وقوعها حتّى الآن. ثانيًا، تمثّل النكبة لحظة قطع حاسمة بين واقعين مختلفين يخضع كلاهما لقواعد مختلفة بين ما قبل وما بعد. ثالثًا، النكبة لحظة البداية للتاريخ الحاليّ للفلسطينيّين، وأماكن الذاكرة المذكورة أعلاه متجذرة بقوّة في تلك اللحظة.

وأعتقد أن حلاً سياسيًا للجوانب المتشعّبة للمسألة الفلسطينيّة لن يغيرّ مركزيّة النكبة باعتبارها المكان الأساس للذاكرة الجمعيّة، رغم أنه قد يخفّف من حدة المشاعر المرتبطة بها. تصف روز ماري صايغ في بحثها عن اللاجئين الفلسطينيّين في لبنان إحساسهم بالطرد من الجنّة (Sayigh 1979, ch. 1)، وهي عاطفة لا تقتصر على هذا الجزء من الفلسطينيّين. فالشهادات الشخصيّة المذكورة في هذه المقالة توحي أنّ هذه المشاعر واسعة الانتشار لدى المجتمعات الفلسطينيّة في فلسطين وفي أماكن الشتات.

أخيرًا، أعتقد أن الصيغ والشروط التي خلقتها النكبة ستمارس نفوذًا كبيرًا على حياة الفلسطينيّين في المستقبل المنظور، وبهذا المعنى، ستظلّ علامة فارقة من علامات هويّتهم.

هوامش

١ نشرت هذه المقالة سابقًا باللغة الانجليزية (Sa'di 2002) وباللغة العربية في مجلة "الكرمل"، عدد ٧٤/٧٥ (شتاء-ربيع ٢٠٠٣)، ٧-٢٦.

٢ هناك أدبيات عديدة حول هذا الموضوع، أنظر، على سبيل المثال لا الحصر، الادبيات التالية: Gillis 1994b; Thelen 1990; King 2000; Jameson 1986.

٣ تناقش سوزان سليموفيتش هذا الموضوع في الفصل الثاني من كتابها (Slyomovics 1998). بالنسبة لاستيلاء المجتمعات الاستيطانية على الثقافة المحلية، انظر الفصل السادس من كتاب نيكولاس توماس التالي: Thomas 1994.

٤ **فصل المقال** (صحيفة)، ١ حزيران ٢٠٠١.

٥ في معرض فلم وثائقي باسم "في البحث عن فلسطين" (انتاج قناة البي بي سي)، عرض في قناة البي بي سي الثانية يوم ١٧ ايار ١٩٩٨.

التصوير الفوتوغرافي الفلسطيني المبكّر وغيابه خلال النكبة

عصام نصّار

عصام نصّار باحث متخصّص في التاريخ الحضاري الفلسطيني. يعمل مديرًا مشاركًا لمؤسّسة الدراسات المقدسية ومحررًا مشاركًا لفصلية القدس (باللغة الإنجليزية)، عمل أستاذًا زائرًا للتاريخ في جامعة برادلي في الولايات المتحدة الأمريكية. كتب وحرّر العديد من الدراسات والكتب التاريخية.

كلّ ما نعرفه سيتوقّف قريبًا
عن الوجود . . . [إنّه] سيصبح [مجرّد] صورة.
والتر بنيامين (Benjamin 1973, 87)

وصل التصوير الفوتوغرافيّ إلى فلسطين بضعة أشهر فقط بعد إعلان لويس دوغير (L.J.M. Daguerre 1787-1851) عن الاختراع الجديد عام ١٨٣٩. فلسطين، ذلك البلد البعيد كل البعد عن أوروبا، كانت تشكّل الأرض المقدّسة لاوروبا، ولهذا فقط، كانت بمثابة مكان مألوف لدى الأوروبيّين (سواء أكان ذلك عبر اللوحات أو الرسومات أم عبر الصور المنقوشة باستعمال ما يعرف بـ (Camera Lucida). ويمكن القول إنّ عددًا من العوامل كانت وراء الاهتمام الأوروبيّ الفوتوغرافيّ بفلسطين القرن التاسع عشر، ومنها تعاظم الاهتمام العلمي البحثي والاستعمارية في المنطقة عمومًا، والتوجّه الرومانسيّ والنظرة الدينية المسيحية. فقد لعب التوجّه الرومانسيّ للأمكنة غير الأوروبيّة، والذي ساد في بعض الأوساط الأدبية والفنية، آنذاك، في أوروبا، دورًا عظيمًا، بلا شك، في تعزيز مثل هذا الاهتمام. كما ولعب الاهتمام المسيحيّ الجديد، آنذاك، بالدراسات الإنجيليّة والتوراتية، دورًا بالغ الاهمية في اطار الرؤية الأوروبيّة للشرق. فقد كان قرار المصوّرين الأوروبيّين السفر إلى فلسطين مرتبطًا إلى حدّ بعيد، بشكل مباشر أو غير مباشر، بواحد أو أكثر من هذه العوامل. ولكن كانت نتيجة الاهتمام الأوروبيّ بمثابة حسن حظ ولعنة بذات الوقت: حسن حظ لأنّه تمّ توثيق جوانب كثيرة من فلسطين في وقت مبكّر جدًّا؛ ولعنة لأنّ توثيقها الفوتوغرافيّ ركّز، بالأساس، على البلد كأرض مقدّسة وتجاهل وجود بشر عليها. ينبع هذا التجاهل من حقيقة كون سكّان فلسطين لم يشكلوا جزءًا من الوعي التاريخيّ الأوروبيّ،

وبالتالي، لم يحظوا بالاهتمام الأوروبيّ.

على الرغم من وصول التصوير إلى فلسطين في وقت مبكّر جدًا، إلاّ أنّ تطوّر التصوير الفوتوغرافيّ كحرفة محلّيّة واسعة الانتشار حصل في القرن العشرين فقط، حيث فُتحت استوديوهات للتصوير الفوتوغرافيّ في عدد من المدن الفلسطينيّة، وبخاصة، في مدينتي القدس ويافا، تليهما في ذلك المدن حيفا والناصرة وبيت لحم ورام الله، ما يشير إلى أن التصوير الفوتوغرافيّ تحوّل إلى حرفة يمارسها أهل البلاد. يجدر التنويه إلى أنّه من شأن التطوّر المتأخر للتصوير، كحرفة يمارسها السكّان، التدليل على أن الفلسطينيّين لم يمارسوا التصوير، وإن كان رواجه أقلّ بكثير، في القرن التاسع عشر، سواء كمحترفين أم كهواة.

استنادًا إلى دراسات متخصّصة في التاريخ الفوتوغرافيّ للشرق الأوسط، فانّ أوّل مصوّري بلاد الشام المحلّيّين كان المصوّر السريانيّ "لويس صابونجي"، الذي نال شهرة واسعة في بيروت خمسينيّات القرن التاسع عشر. درّب صابونجي أخاه جورج على التصوير، وهذا بدوره أصبح واحدًا من أهم مصوّري تلك الفترة. لسنا متيقّنين من مسألة ما إذا كانت هناك علاقة بين الأخوين صابونجي وما بين المصوّر "داوود صابونجي"، والذي يُعتقد أنّه كان أوّل من افتتح محترفًا فوتوغرافيًّا في يافا عام ١٨٩٢.[١]

شهدت بيروت افتتاح عدد من المحترفات الفوتوغرافيّة، ومنها محترف الفرنسيّ "فليكس بونفيس" (Félix Bonfils) في عام ١٨٦٧، ومحترف منافسه الفرنسي "تانكرد دوماس" (Tancrède Dumas) بعده ببضع سنوات. كذلك نشط "الإخوة عبد الله" في التصوير في الفترة ذاتها في إسطنبول، وقد افتتح المصوّر "باسكال سيبا" (وربما "صباح") محترَفَهُ في إسطنبول عام ١٨٦٨، أيضًا (Garvin and O'Reilly 1982). ولا نعرف بالتحديد مدى تأثير بدء النشاط الفوتوغرافيّ هذا في بيروت واسطنبول على تطوّره في فلسطين، لكن لا بدّ من الافتراض أنّه قد أثر بشكل ما، وبخاصّة وأن بلاد الشام قد شكّلت وحدة جغرافية وثقافية واحدة، آنذاك، وأن المصوّرين، غالبًا، نشطوا في عدد من المناطق، متنقلين بين بيروت والقدس ودمشق والإسكندرية وغيرها، ومتعاونين، أحيانًا، في شركات فوتوغرافيّة تتبادل الصور السياحية وغيرها. إضافة إلى ذلك، فإن عددًا من المصوّرين الأجانب قد استقروا في فلسطين في الفترة ذاتها (كالأسكتلنديّ "جيمس غراهام" والروسيّ "دينيس"). وعليه، فانّه من المرجّح أن المنتمين إلى النُخَب في المدن الفلسطينيّة الرئيسة، آنذاك،

والمقصود هنا القدس ويافا تحديدًا، قد تعرفوا على فن الفوتوغرافيا عن طريق أحد هؤلاء.

وبالطبع، فإنّ عملية كتابة تاريخ حرفة معينة كالتصوير لا تتوجّب افتراض وجود بداية واحدة وشجرة عائلة واحدة تربط كل المصوّرين معًا. فقد كان، بالتأكيد، عدد من البدايات للتصوير الفوتوغرافيّ في فلسطين، ترتبط بأفراد ربما لم يلتقوا البتّة. ترتبط أولى هذه البدايات بدير "مار يعقوب" للأرمن في القدس، حيث بدأ البطريرك الأرمني "يسايي غارابيديان" في الستّينيّات (أو أواخر الخمسينيّات) من القرن التاسع عشر ممارسة حرفة التصوير، ما سيتحوّل، لاحقًا، إلى نواة لهذه الظاهرة المحليّة. فقد كان يسايي من محبي وهواة التصوير، ولكن انتخابه بطريركًا للمدينة حال دون استمرار نشاطه التصويريّ بشكل مباشر، ولكنه دفعه إلى بذل جهود كبيرة لتدريب الشبان الأرمن على التصوير عبر محترف للتدريب أنشأه داخل مجمع كنيسة "القديس يعقوب" في الحي الأرمني في القدس. أنتج المحترَف الأرمني صورًا للأماكن المقدّسة بغية بيعها للسيّاح والحجّاج الذين زاروا دير مار يعقوب. وطبعت هذه الصور على اشكال مختلفة من البطاقات الصغيرة والمتوسطة الحجم، إضافة إلى صور البانوراما والستيريوسكوب.

خرج من المحترف الأرمني في القدس عدد غير ضئيل من مصوّري الشرق المحليّين المبكّرين، حيث بدأت، من هناك، المسيرة الفوتوغرافيّة لاثنين من أوائل المصوّرين المحليّين في فلسطين هما "غرابيد كريكوريان"، و"حزقيال فارتابيد كيفوركيان" (Hummel 2000, 189). عمل هذان المصوّران في المحترف في تدريب تلامذة آخرين. ولا نعرف سوى القليل جدًّا عن نشاط كيفوركيان، غير أنّ "كريكوريان" أصبح صاحب أوّل أستوديو للتصوير الفوتوغرافيّ في القدس عام ١٨٨٥، وسرعان ما أصبح الأستوديو، الواقع خارج باب الخليل - وهو أحد أهم بوابات القدس الشرقيّة القديمة - مَعْلَمًا مهمًّا في عالم الفوتوغرافيا في البلد، وقد تخرّج منه جيل كامل من المصوّرين. ومن الطريف أن موقع الأستوديو، بحدّ ذاته، أصبح ذا أهمية في هذه الحرفة، إذ افتتحت معظم الاستوديوهات في تلك الفترة المبكّرة في المكان نفسه، على مقربة من أستوديو "كريكوريان". وخلَفَ "كريكوريان" في إدارة الأستوديو ابنه "يوهانس" الذي أداره منذ العام ١٩١٣ حتّى إغلاقه عام ١٩٤٨. ومن الجدير بالذكر أن "كريكوريان" (وبخاصة الابن) قد برع في تصوير البورتريه، وغالبًا كان يصوّر زبائنه الأجانب بأحد الأزياء المحليّة التي كانت متوافرة لديه في الأستوديو. كان هذا الأسلوب متّبعًا بين عدد من المصوّرين، منهم "بونفيس" في بيروت وغيره.

وأما خليل رعد، شريك "كريكوريان" آنذاك، فكان – فيما نعلم – أوّل مصوّر عربيّ (أي غير أرمني في حالتنا هذه) في فلسطين. وهو ذو أصول لبنانية (إذ ولد في بحمدون عام ١٨٥٤ لأب من صيناي)، لكنه نشأ في القدس، ودرس في مدرسة "القديس جورج" (أو المطران "غوبات"، كما عرفت آنذاك). وقد بدأ في الحرفة في أستوديو "كريكوريان"، لكن علاقته مع معلمه ساءت في العام ١٨٩٠ عندما قرّر أن يفتتح محلاً له على الجانب الآخر من الشارع مقابل محل "كريكوريان".

تمّ تعيّين رعد رسمياً مصوّرًا معتمدًا للجيش العثماني. واستنادًا على ما يورده بدر الحاجّ، الذي يعتمد على مقابلات شخصية أجراها مع "روت" ابنة خليل رعد، فقد كان رعد صديقًا لجمال باشا الحاكم العسكري سورية، إبّان الحرب العالمية الأولى، والذي مكّن، بدوره، رعد من التصوير على الجبهة الفلسطينيّة المصرية. وقد التقط رعد صورًا للجنود ولقادتهم الأتراك والألمان إلى جانب تصويره فرقة المدفعية العثمانية. ويورد الحاجّ ملاحظة أبدتها "إستل بلايت"، وهي المسؤولة عن إيداع صور وأوراق رعد لدى جامعة أوكسفورد، أن هذه الصور قد حملت تعليقات بالإنجليزية (Captions)، ممّا قد يعني أنها صوّرت بغرض الدعاية العثمانية آنذاك (Al-Hajj 2001).

أصبح خليل رعد مشهورًا بما ينتجه في الأستوديو من بورتريهات، إضافة إلى تصويره المناسبات العائلية. وعلى الرغم من تنوّع إنتاجه، الذي يضمّ كذلك بعض أفضل ما تمّ التقاطه من المناظر الطبيعية لفلسطين ومشاهد من الريف الفلسطينيّ، بقي بشكل أساس – وبخلاف مصوّري الأميركان كولوني – مصوّرَ بورتريه أكثر من كونه مصوّر أحداث. وعلى الرغم من هذا، فإن عددًا من الصور التي التقطها لبعض من القادة المهمّين في تاريخ فلسطين، مثل جمال باشا، والشيخ عز الدين القسّام، تبقى شاهدة على دور رعد في توثيق تاريخ فلسطين السياسي بلا شك.[٢] لا ريب أن خليل رعد يُعدّ أحد أهمّ مصوّري فلسطين المحليّين الأوائل، ويشهد تنوّع مواضيع صوره على قدرة هائلة على التعامل مع أنماط مختلفة من التصوير.

انتهت مهنة رعد الفوتوغرافيّة عام ١٩٤٨، مع سقوط القدس وتقسيمها، حيث وقعت دكان رعد ضمن إطار المنطقة الحدودية المعروفة باسم "المنطقة الحرام". على اثر ذلك نزح رعد عن بيته في غربي القدس في ضاحية "الطالبية" إلى داخل القدس القديمة. وقد تمكن صديق إيطالي عمل في مكتبة "بولس سعيد"، المحاذية لأستوديو رعد خارج باب الخليل، من التسلّل ليلاً، وإنقاذ صور وشرائح النيجاتيف الخاصة برعد، والمودَعة اليوم في أرشيف مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة في بيروت.

من بين المصوّرين الأوائل الذين عملوا في القدس، نجد بعض الصور وقعها مصوّر أرمنيّ اسمه "تومايان." المعلومات المتوافرة لدينا حول اسمه الأول متباينة؛ فبينما تقول "سيلا" إن اسمه الأوّل هو "يوسف"، نجد أن "واصف جوهرية" يذكره في سياق مذكّراته باسم حنّا توميان (وأنا ارجح أن يكون اسمه حنّا وهو في الغالب أحد تلاميذ "غرابيديان"). ولا نعرف الكثير عن هذا المصوّر، غير أن بطاقة الإعلان التي بحوزتنا، وهي مكتوبة باللغة الألمانية، تصف "تومايان" بأنه مصوّر القصر الملكي الإسباني، ويوحي عنوان الأستوديو بأنه قرب الباب الجديد في القدس.[٣] يعرض هذا الإعلان، والذي يعود للعام ١٩٠٧، على زبائنه إمكانية تصويرهم بلباس السكان المحليّين من بيت لحم، ورام الله، وبزيّ سكان فلسطين من البدو.

يقع هذا الأستوديو، بالقرب من دكّانيْ "كريكوريان" و"رعد"، ويشير إلى ظاهرة طريفة، تتلخص بتشكيل ما يبدو أنّه "سوق المصوّرين" في القدس، أسوة ببقية الأسواق الأخرى المتخصّصة. كانت الساحة الواقعة خارج باب الخليل في زمن "كريكوريان" بمثابة "محطّة القدس المركزيّة"، ففيها كانت تقف عربات الخيول، وأصبحت، لاحقًا، موقفًا للسيّارات والحافلات العمومية. وكالعربات من قبلها، وصلت السياراتُ القدسَ بالقرى المحاذية والمدن الأخرى مثل يافا، وبيت لحم، وغيرهما. وفيها كان يقع فندق "فاست" وهو أوّل وأهم فندق حديث في القدس آنذاك. وفي الساحة المقابلة داخل السور، كان يقع مكتب "توماس كوك" للسياحة، وهو أهم شركة سياحة عالمية، آنذاك، متخصّصة في نقل السياح الأوروبيّين من وإلى بلدان العالم، بما فيها فلسطين. زد على ذلك أنّ عددًا من دكاكين المتخصّصين ببيع التحف والتذكارات الخاصّة للحجّاج والسيّاح، كانت في ذلك الموقع- منها دكّان "بولس ميو" الذي تأسّس عام ١٨٧٠ ولاحقًا دكّان الأميريكان كولوني ودكّان بولس سعيد (Abu Sharara 2001). وعلى الرغم من عدم تيقّننا من سبب اختيار "كريكوريان" لموقع دكانه، يبدو أنّ ما ذكرناه قد ساعد في اختياره، فالصور التذكارية شكّلت، في ما شكّلت، سلعة سياحية مطلوبة لدى الأوروبيّين وغيرهم. الطريف في الموضوع أن غالبية الاستوديوهات تأسّست في القدس بعد ذلك، عدا تلك التي أسّسها مهاجرون يهود في غربي المدينة، والتي كانت قرب الموقع الذي اختاره "كريكوريان"، وتحديدًا خارج الأسوار ما بين بابي "الخليل" و"الجديد".

في الفترة ذاتها التي عمل فيها رعد وكريكوريان في القدس نشط مصوّر عربيّ آخر في مدينة يافا مع بداية القرن العشرين، وهو المصوّر عيسى يعقوب الصوابيني.[٤] ولد الصوابيني في القدس عام

١٨٧٥، وسافر إلى الولايات المتحدة وهو شاب صغير بصحبة أخيه الأكبر الذي كان مقيمًا في روسيا قبل ذلك. وعلى الرغم من عدم تيقّننا من كيفية تعلّمه حرفة التصوير وزمن تعلّمه لها، يظنّ ابنه أن ذلك تمّ في بوسطن خلال تلك الرحلة.

بعد عودته إلى فلسطين، افتتح الصوابيني أستوديو خاصًا به في يافا، وتحديدًا في شارع العجمي في الطابق الثاني من البناية ذاتها التي شملت عيادة أخيه للطب وطب الأسنان. ومما يذكره ابنه أنّه كانت هذه العيادة والأستوديو في البناية المجاورة لمكتب تحرير جريدة فلسطين التي امتلكها عيسى العيسى، ومقابل دكان شهير، آنذاك، معروف باسم "لولوسيدس". وقد اشمل الأستوديو على عدد من أجهزة التصوير ومعدّات التحميض والطباعة، إلى جانب عدد من الستائر التي كانت توفر له إمكانية تغيير خلفية الصورة. ونظرًا لمعرفة عيسى الصوابيني باللغة الروسية، فقد تمكّن من توظيف عدد من المهاجرين اليهود الروس الذين عاشوا في مستوطنة تل أبيب المجاورة بعد هروبهم من روسيا على أثر الثورة الروسية. انتقل أحد هؤلاء للعمل في تل أبيب لاحقًا، وأسّس أستوديو خاصًا به. هذا المصوّر اسمه "رحمان" أو ربما "رحمن". وقد وجدتُ عددًا من الصور الموقّعة بهذا الاسم في عدد من البيوت الفلسطينيّة، ممّا يدل على أن "رخمان" قد استمر بالعمل مع زبائن عرب من يافا حتّى بعد افتتاحه لدكانه الخاص في تل أبيب.

على ما يبدو من الصور القليلة المتوافرة – قياسًا إلى ما هو متوافر للمصوّر رعد– كان نشاط عيسى الصوابيني في أوجه خلال الحرب العالمية الأولى، وفي العشرينيّات. وبعد مغادرة عيسى الصوابيني يافا إثر نكبة العام ١٩٤٨، ذهب لفترة قصيرة إلى الولايات المتحدة، حيث عاش هناك في مدينة برلنغتون في ولاية فرمنوت، وغادر بعدها إلى بيروت. ومصير مجموعة الصوابيني الفوتوغرافيّة أو شرائح وزجاجات النيجاتيف مجهول؛ ونظنّ أنّها فُقدت تمامًا. فبحسب ما علمت من عائلته، تركتها في يافا في مخزن صغير في منزله الذي أصبح لاحقًا مقرًا لنادٍ شبابيّ. وقد باءت محاولاتنا للعثور على المجموعة بالفشل؛ فلا هي في مقر النادي، ولا في الأرشيفات الإسرائيلية التي تمكنّا من زيارتها.

وبحسب كتاب طريف يؤرخ ليافا العربيّة بعنوان عطر مدينة يافا، إن مصوّرًا آخر قد عمل في يافا هو محمد صالح الكيالي، الذي مارس مهنة التصوير الفوتوغرافيّ في منتصف العشرينيّات، وسرعان ما تحوّل عنها إلى التصوير السينمائيّ، وبذلك يكون أول السينمائيّين العرب في فلسطين، إضافة إلى

كونه، في الغالب، أوّل مسلم يحترف التصوير في فلسطين. للأسف الشديد ليست لدينا معلومات مؤكّدة حول طبيعة عمله الفوتوغرافيّ. كل ما نعرفه من الكتاب هو أن الكيالي، وهو من مواليد يافا عام ١٩١٨، قد افتتح أستوديو تصوير في يافا، وتعلّم، لاحقًا، التصوير السينمائي في فرنسا وبلجيكا، وأنتج فيلمًا بعنوان "الأيدي العاملة" عام ١٩٣٥ – وهو ما يبدو غير منطقي؛ ذلك أنّ الكيالي من مواليد عام ١٩١٨ – وأنتج فيلمًا آخر عام ١٩٤٦ بعنوان "أرض السلام" (دياب ١٩٩١، ١٤٤).

وكالقدس من قبلها، أمست يافا مدينة يعمل فيها عدد من المصوّرين العرب المحليّين، إضافة إلى المصوّرين اليهود في يافا ذاتها وفي تل أبيب المجاورة، حيث قصدهم سكان يافا العرب للحصول على صور عائلية، أو للاستعمال في الأوراق الثبوتية بعد فرض استعمال بطاقة الهوية في عهد الانتداب البريطاني.[٥] يذكر دليل فلسطين لعام ١٩٢٠ – الصادر باللغة الانجليزية في القاهرة – أسماء ثلاثة محترَفات تصوير في يافا وهي: رحمان – على شارع المحطة؛ وصوابيني وسافيدس (سابا) – على شارع العجمي.

وفي الوقت ذاته، لم تكن القدس ويافا المدينتين الوحيدتين اللتين شهدتا حركة تصوير تجارية محلية فقط، بل شاركهما في ذلك عدد من المدن الأخرى في وقت مبكر أيضًا. من هذه المدن حيفا، التي عمل فيها مصوّرًا أرمنيٌّ آخر اسمه "يوهانس حلادجيان"، حيث عمل في حيفا في الفترة الممتدة بين العامين ١٨٩٩ وَ ١٩١١. وحلادجيان هو مصوّر أرمني مبكر كان قد بدأ عمله الفوتوغرافيّ سنة ١٨٨٤ في عيّنتاب في جنوب شرق الأناضول، وانتقل بعدها في عام ١٨٩٤ إلى أضنة قبل أن يستقر في حيفا بعد بضع سنوات (الحاج ٢٠٠١، ٤٧). تظهر عدة اسماء في طبعتي دليل فلسطين غالبيتها تبدو لمصوّريين يهود، ربما يستثنى منها اسم أ. عزام الواقع على شارع اللنبي (طبعة ١٩٣٢).

ازداد عدد المصوّرين بشكل ملحوظ في السنوات التالية، وتحديدًا في عقدي الثلاثينيّات والأربعينيّات من القرن الماضي، وأصبحت حرفة التصوير مهنة تمارَس على نطاق واسع، وفي العديد من البلدات والمدن. ومن مصوّري تلك المرحلة المصوّر المقدسي حنا صافية، وهو من مواليد القدس عام ١٩١٠، وقد عمل في الأساس مصوّرًا وثائقيًّا في القدس.[٦] بدأ صافية عمله الفوتوغرافيّ في دائرة التصوير في الأميركان كولوني التي أُنشئت عام ١٨٩٨ لتلبي الطلب المتزايد على صور الأرض المقدّسة، حيث عمل هناك مساعدًا للمصوّر السويدي "إيريك ماتسون" (Erik Matson, 1888-1977)، وظلّ يتعاون معه إلى أن غادر "ماتسون" فلسطين عام

١٩٤٦. وفي السنوات الأخيرة من الانتداب البريطاني على فلسطين، عمل صافية مع حكومة الانتداب موظفًا (Public Information Officer). وقد وفّر له عمله مصوّرًا مع الحكومة فرصًا كثيرة لتوثيق الأحداث التي كانت تقع من حوله. ولسوء الطالع، إن بضع صور فقط من تلك الحقبة بقيت حتّى وقتنا هذا. فمعظم الصور في مجموعته، والتي تعود إلى ما قبل العام ١٩٤٨، سُرقت من الأستوديو الخاص به في القدس في أعقاب حرب عام ١٩٦٧، ومن المحتمل أنّها فُقدت من قبل، حين وقع مخزنه القائم في شارع يافا تحت سيطرة إسرائيل عام ١٩٤٨، وبعد فشله في إنقاذ المجموعة آنذاك ونقلها إلى الجزء الشرقي من المدينة.[٧] ولكن عددًا من صور تلك الفترة القديمة بقي متوافرًا لأنّه نُشر في الخارج في عدد من الجرائد والمجلات. لقد كانت، من بين زبائنه الكثر، المجلة الجغرافية الوطنية (National Geographic Magazine)، ومجلة "ريدرز دايجست" (Readers Digest)، وشركات الإعلام مثل "لندن نيوز" "والأسوشيتد برس". ومن الصور ذات الأهمية الخاصّة ما التقطه بعد المذبحة التي ارتكبت في ليلة التاسع من نيسان/ إبريل عام ١٩٤٨ في قرية دير ياسين في غربي القدس. ومن الأحداث التي وثّقها صافية بالصور جنازة القائد الفلسطينيّ عبد القادر الحسيني، الذي استشهد في أوائل نيسان/ إبريل ١٩٤٨ في معركة القسطل قرب القدس (الخالدي ١٩٩٩). والصور التي التقطها لموقع المعركة والجنازة تمثل وثائق مهمة في التاريخ الفلسطينيّ. ويماثل ذلك في الأهمية الصور التي تُظهر سقوط الحي اليهودي في البلدة القديمة من القدس في أيار/ مايو ١٩٤٨ في أيدي المقاتلين العرب. وقد نُشرت في عدد من كتب التاريخ تلك الصورة التي التقطها، والتي يظهر فيها أسرى يهود يرافقهم جنود من الجيش الأردني بمن فيهم القائد عبد الله التلّ الذي كان صديقًا لصافية.

إلى جانب صافية، عمل في القدس، في ذات الفترة، أيضًا، المصوّر الأرمني "إيليا قهوجيان"، وهو كذلك من مواليد العام ١٩١٠، لكن في تركيا، وقد أحضر إلى القدس على أثر نجاته من مذبحة الأرمن عام ١٩١٥ عن طريق احدى جمعيات الإعانة الأمريكية American Near East Relief Association. وقد تعلّم التصوير لدى "كريكوريان" و"تومايان"، وبدأ التصوير عام ١٩٢٤ في القدس وفي عموم فلسطين. كما وبدأ بالعمل لدى أستوديو "الأخوين حنانيا" في القدس عام ١٩٤٠ – وهما مصوّران مبكّران امتلكا دكانًا لبيع مواد ولوازم فوتوغرافيّة في القدس في شارع يافا. وقد صوّر إيليا الحياة اليومية في فلسطين، سواء أكانت الحياة الحضرية أم القروية في تلك الفترة. وتعرض لنا صوره مَشاهد مثل أشخاص يلعبون النرد أو يقفون بجانب النبع، وكذلك

هناك صور لميناء يافا ولسوق الجمعة ولموسم قطف الحمضيات وغيرها من المَشاهد. وعلى الرغم من أن صور إيليا ركّزت على السكان العرب، أظهرت بعض صوره السكانَ اليهود القدامى في القدس أيضًا، ولم يصوّر التجمعات السكنية اليهودية الجديدة.[٨]

المصوّر الآخر الذي عمل في القدس، آنذاك، وتتلمذ على يدي الأخوين حنانيا هو علي زعرور، وهو مقدسيّ مسلم، وربّما كان أوّل مصوّر مسلم يحترف التصوير في القدس. وهو من مواليد قرية العيزرية المحاذية للقدس عام ١٩٠١. عمل زعرور في مجال التصوير الوثائقي مصوّرًا أولاً لدى سلطات الانتداب البريطاني في غزة بين العامين ١٩٤٢–١٩٤٥. وبعدها، ومنذ منتصف الأربعينيّات، عند عودته إلى القدس حتّى وفاته عام ١٩٧٢، عمل مصوّر أخبار لدى وكالة الأنباء "الأسوشييتد برس". وتعود الصور المتوافرة لدى عائلته في القدس إلى مرحلة حرب العام ١٩٤٨، وتوثّق للأحداث العنيفة التي جرت آنذاك، مثل سقوط صاروخ في المسجد الأقصى، ومرضى حُملوا بالشاحنات في معارك ١٩٤٨، وصور لاجئين يحملون الأمتعة مطرودين من قراهم، وأسرى يهود في البلدة القديمة، وسقوط صاروخ على دير راهبات في جبل صهيون في البلدة القديمة، وعملية تفجير في مبنى في شارع بن يهودا.

ومن المدن الفلسطينيّة الأخرى التي شهدت نشاطًا فوتوغرافيًّا مدينتا رام الله وغزة. وقد تمّ افتتاح أول أستوديو في رام الله عام ١٩٣٥ في المنطقة المحاذية لمدينة البيرة المجاورة (والمسمّاة حاليًّا باسم "قدورة"). وصاحب الأستوديو هو خليل قدورة، أحد أبناء مدينة رام الله الذين تعلموا التصوير في القدس من خلال عملهم لدى المصوّرين الأرمن. أمّا في غزة، فقد برزت الحركة الفوتوغرافيّة الفعّالة عمومًا بعد حرب ١٩٤٨، وبخاصة بعد ما وصل إلى المدينة اثنان من المولعين بالتصوير مهاجرَيْن من يافا. الأوّل هو عبد الرازق بدران الذي حارب مع الثوار إبّان الحرب، ووثّق بعضًا من أنشطة الثوار آنذاك. وقد صوّر غزة، لكنه سرعان ما انتقل للعيش في الخليج بعد ذلك منهيًا نشاطه الفوتوغرافيّ في فلسطين. أما المصوّر الثاني، فهو الأرمني "هرنات ناكشيان"، وهو من مواليد غرب أرمينيا عام ١٩٢١. وقد وصل إلى يافا عام ١٩٤٣ وافتتح عام ١٩٤٥ أستوديو للتصوير في يافا أسماه "ناكشيان فوتو فينوس"، لكنه خرج عام ١٩٤٨ مع غالبية أهالي يافا لاجئًا إلى غزة التي استقر فيها. في البداية، عمل في أستوديو للتصوير مع قريبه "كيغام" في غزة، وبعد سنتين افتتح أستوديو مستقلاً حمل اسم "ستوديو هرنات". وقد عمل مصوّرًا لوكالة الغوث تحت إشراف دائرة التصوير، التي أسّستها "ميرتل وينترز" عام ١٩٥٢، موثّقًا حياة اللاجئين

ومأساتهم. ونظّم عام ١٩٦٢ معرضًا يكشف معاناة اللاجئين. وقد تنقل المعرض بين الكويت، ومصر، ونيويورك (عرض في بناية الأمم المتحدة). وفي العام ١٩٦٧، انتقل ناكشيان للسكن في البلدة القديمة في القدس، وتوقّف عن التصوير وعمل في تجارة الخردة، حتّى توفي عام ١٩٩١.

من الواضح في ضوء دراستنا هذه أن الحركة الفوتوغرافيّة في فلسطين كانت مزدهرة بشكل ملحوظ في فترة الانتداب البريطاني وقبيل نكبة عام ١٩٤٨. في ضوء ذلك يبدو مذهلاً – وهذا أقل ما يمكن قوله – أن المصوّرين العرب والأرمن قد أغفلوا ضرورة التقاط صور للأحداث التي كانت تجري من حولهم عام ١٩٤٨. السؤال المُلحّ في هذا السياق هو: لماذا كان هذا الإغفال وما هي أسبابه؟

وراء هذا النقص في توثيق النكبة، على ما أظنّ، عدد من العوامل المرتبطة بسقوط فلسطين وتهجير سكانها. فقد غيّبت يافا وحيفا وهجّر أهلها، كما وتحوّلت المنطقة الفوتوغرافيّة في القدس، التي أشرنا إليها في الفصل الثاني، إلى خطّ حدودي فاصل – أي إلى ما يسمى بالمنطقة الحرام. فلم يعد في مقدور رعد وكريكوريان وتوميان وسحار وصافية وغيرهم الوصول إلى أستوديوهاتهم، فقد وجدوا انفسهم، فجأة، مواطنين في الشطر الذي أصبح أردنيًا من فلسطين، فيما بقيت حوانيتهم في الجزء المحتل او ما بين المنطقتين. في المقابل، إن المراكز التجارية اليهودية في المستعمرات والمدن، حيث تقع أغلبية المؤسّسات الفوتوغرافيّة اليهودية، بقيت سالمة وأصبحت تحت سيطرة الدولة اليهودية حديثة النشأة.

المسألة الأخرى التي علينا أخذها بعين الاعتبار هي أن المصوّر المحلي عمل كصاحب مصلحة رأسمالية بهدف الربح ولخدمة الزبون بالأساس. كان همّه الأوّل تصوير ما يُطلب منه تصويره مقابل أجر ماليّ. وما طُلب منه كان صورًا عائلية لزبائنه وصور مناسبات سعيدة، كالأعراس وحفلات التخرج، واخرى مؤسفة، كتصوير الجنازات، أو صورًا رسميّة لجواز السفر او البطاقة الشخصية.

المصوّر الصهيوني، في المقابل، كان في الغالب جزءًا من المشروع الصهيونيّ. فقد جاء دخول التصوير إلى الاستيطان اليهودي على يد الحركة الصهيونيّة ومؤسّساتها ولخدمة أهدافها الدعائية. فالمصوّر الصهيونيّ لم يكن، في الغالب، كنظيره العربيّ، مجرّد مصوّر يعمل وحيدًا في سوق يغلب عليه طابع المنافسة، بل كان مصوّرًا صاحب رؤية وهدف وفي خدمة مشروع سياسيّ محدّد. ولهذا، فالمصوّر اليهودي لم يهتمّ، غالبًا، بتصوير المجتمع العربيّ بقدر اهتمامه بتصوير

تطوّر المجتمع اليهودي في فلسطين. وهو بذلك تجاهل المجتمع والوجود الفلسطينيَّيْن مثلما فعل المصوّر الأوروبيّ قبله، وإن اختلفت الأسباب. وقد كان للصور الفوتوغرافيّة دور هام في الملصقات الصهيونيّة التي صوّرت العمل العبري في أرض خالية، او صوّرت فلسطين أرضًا خالية بلا شعب تنتظر من يستوطنها. من هنا، لا يجدر بنا استهجان غياب الصدمة اليهودية نتيجة غياب شعب بأكمله، ذلك أنّ هذا الشعب الذي غُيّب عام ١٩٤٨ كان، في الأساس، غائبًا من الوعي الصهيوني. ولا ينبغي استغراب غياب المصوّر العربيّ عن توثيق النكبة، إذ لم يرَ ذاته كموثق للتاريخ، ولم يجد المؤسّسة السياسية والعسكرية التي ألّحت عليه ان يرافقها ويوثق أنشطتها خلال المعارك وغيرها من الأحداث.

وهكذا، وبما أن المصوّرين الفوتوغرافيّين العرب والأرمن فقدوا القدرة على الوصول إلى مراكز رزقهم وعملهم، بقي التسجيل للأحداث المحيطة بسقوط المدينة محصورًا في المصوّرين الإسرائيليّين. لذا، فإن إعادة تمثيل الأحداث المحيطة باختفاء فلسطين العربيّة وشعبها عام ١٩٤٨ من وجهة نظر فلسطينيّة بالاستناد إلى المحفوظات الفوتوغرافيّة الإسرائيليّة، أمر في غاية الصعوبة. فبالإضافة إلى عدد من الإشكاليات الأخرى، نجد أن معظم ما التقطه المصوّرون الإسرائيليّون كان صورًا لمواقع مُخلاة من سكانها الأصليّين. أي أن الصور قد التُقطت بعد فرار أو تهجير السكان العرب. والمشكلة الأخرى تكمن في طبيعة التمثيل التصويري ذاته. ففي الصور، عمومًا، وبالضرورة، يُلتقط ما تراه عدسة الكاميرا؛ وما تراه هذه العدسة يعكس ما يراه من يقف خلفها. فالمصوّر الإسرائيلي رأى الأمور وصوّر الأحداث من زاوية واحدة فقط؛ الزاوية التي كان هو فيها وهي زاوية المحارب الصهيونيّ، لا زاوية الفلسطينيّ المشرّد. فهو قد رأى الأمور بعين المراقب الخارجي للمشهد الفلسطينيّ الذي كان أمام أعينه، لا بعين المشارك الداخلي فيه وهو بذلك قد عكس ما يراه طرف واحد في الصراع آنذاك.

لا يعني ذلك أن المصادر الفوتوغرافيّة الإسرائيليّة والصهيونيّة ليست مفيدة في دراسة الخسارة التي كابدها الفلسطينيّون، بل على العكس تمامًا إذا ما أدركنا حقيقة أن التقاط المصوّرين الإسرائيليّين صورًا للمواقع أو الأحداث كانت غالبًا تتمّ "بعد الحدث". فبرغم أن تجربة التشرد الفلسطينيّة قد بقيت خارج إطار الصورة في غالب الحالات – أحد الاستثناءات يمكن معاينته في صور طرد السكان من قرية عراق المنشية الواقعة بين غزة والخليل الواردة أدناه – من الممكن تمامًا الاستخلاص أن هذه الصور الصهيونيّة تمثل شهادة درامية عن تجربة التشرد. فمجرد رؤية

المحيط أو "العالم" الفلسطينيّ، والشوارع، والأبنية التي عمرها قرون، والمفروشات المتروكة بدون رؤية السكان، هو التعبير الدقيق لعملية استعمار فلسطين عام ١٩٤٨. تشكّل الصور الواردة أدناه مثالاً جيّدًا على الفوتوغرافيا الصهيونيّة التي يمكننا القول انّها تمثل النكبة كحدث بطريقة صارخة. ففي صور عين كارم، على سبيل المثال، وهي الأولى في الترتيب، نجد في إحداها نبع القرية وبقربه عدد من المهاجرين اليهود ذوي القسمات الشرقية وهم يحضرون الماء. لقد وصل المهاجرون إلى القرية للتو، والدلاء التي يستعملونها تبدو جديدة، وتحمل شعار الدولة الجديدة، وتقدم الدليل على ذلك. لكن النبع نفسه الذي يملؤون منه الماء، وهو أقدم بكثير من الدلاء التي يحملون والدولة التي دمغت شعارها عليها، يشكّل شهادة لحياة وتاريخ سابق لم يظهر في الصورة. إن سكان عين كارم المطرودين و المغيّبين من إطار الصورة موجودون برغم ذلك في صلب الحدث في الصورة، وهم باقون هكذا في مركز موضوع الصورة طالما بقي النبع نفسه قائمًا. إن المقارنة، التي يجريها أي شخص مطّلع على تاريخ المكان، بين المنازل التي عمرها قرون، والشوارع، والنبع، وبساتين الزيتون، وبين المهاجرين اليهود الوافدين حديثًا ذوي القسمات التي توحي بأنهم يهود شرقيّون، هي، أولاً، وبشكل رئيسيّ، إشارة ضمنية صارخة لعملية تحويل الملكية والإخلاء التي تعرّضت لها القرية. وبهذا المعنى فإنّ غياب الفلسطينيّين أنفسهم من الصور هو بحدّ ذاته إشارة ضمنية لإقامتهم الدائمة في جميع الصور.

يشبه أصحاب المنازل في الصور الأحدب الصغير في الأغنية الشعبية الألمانية التي علّق عليها ذات مرة والتر بنيامين:"هذا الرجل الصغير"، كتب بنيامين، "موجود في المنـزل [ولكن] بطريقة مموّهة". وعندما يحاول قاطن المنـزل الحاليّ الإخلاد إلى النوم، كما تقول الأغنية، تواجهه الحقيقة المخيفة: هذا الانسان غير المرئيّ حاضر فيه (Benjamin 1969, 134).

أفراد من القوات الإسرائيليّة ينقلون، على ما يبدو، أثاثًا قد يكون من المنازل العربيّة المهجورة، وذلك بعد ثلاثة أشهر من سقوط عين كارم وطرد سكانها العرب. الصورة التُقطت في الأوّل من تشرين الأول عام ١٩٤٨؛ والمصوّر غير معروف. المصدر: أرشيف الصحافة الحكوميّ الإسرائيليّ.

مهاجرات يهوديّات ينقلن بعض الأثاث من منزل إلى آخر بعد وصولهن لقرية عين كارم لاستيطانها سنة ١٩٤١. المصوّر غير معروف. المصدر: أرشيف الصحافة الحكوميّ الإسرائيليّ.

مهاجرون يهود جدد يملأون دلاءهم ماءً من العين في قرية عين كارم غربيّ القدس بعد احتلالها وإخلائها من سكّانها الفلسطينيّين. الصورة التُقطت في الأوّل من حزيران عام ١٩٤٩. المصوّر غير معروف. المصدر: أرشيف الصحافة الحكوميّ الإسرائيليّ.

طرد السكان من قرية عراق المنشية عام ١٩٤٩. المصوّر هو بن روثنبرغ.

المصدر: أرشيف دولة إسرائيل.

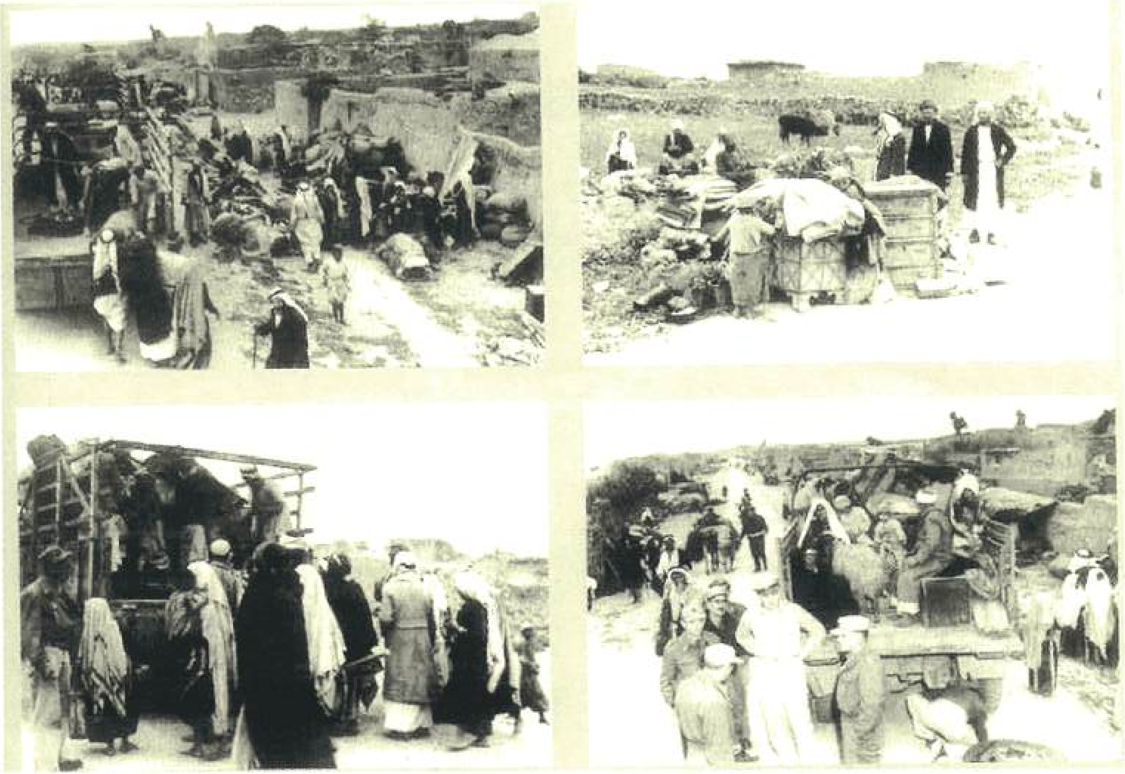

طرد السكان من قرية عراق المنشية عام ١٩٤٩. المصوّر هو بن روثنبرغ.

المصدر: أرشيف دولة إسرائيل.

هوامش

١ يشير بدر الحاج (٢٠٠١، ٤٠) إلى أنّ لويس صابونجي قد تعلّم التصوير في روما خلال دراسته اللاهوت في "مجمع نشر الإيمان" في روما، وأنّ جزءًا من عائلة صابونجي، وهي من بلدة ديريك في منطقة ديار بكر، قد تفرّق بين بيروت وحلب ويافا والقاهرة والهند في مطلع خمسينيّات القرن التاسع عشر.

٢ بدأت الجمعية الدينية المسيحية المتزمتة المعروفة بالكولونية الأمريكية بتكوين محترف تصوير ودكان لبيع الصور في القدس بهدف بيع صور البلاد المقدّسة للزّوار. من المصوّرين المؤسّسين لهذا المحترف السويدي لارسن الذي سرعان ما تخلّى عن العمل بعدما أصبح قنصل السويد في القدس وأريك ماتسون المصوّر الشهير. وقد استمر استوديو الكولونية بالانتاج لفترة تقارب النصف قرن ابتداءًا من زيارة الامبروطور الالماني غليوم إلى القدس في عام ١٨٩٨ وانتهاءًا بتقسيم فلسطين ومغادرة مصوّري الكولونية أرض فلسطين قبيل وقوع النكبة.

٣ وهذا ما يؤكّده دليل فلسطين لعام ١٩٣٢ الذي يحوي بداخله أسماء وعناوين لمؤسّسات وحرفيّين ومهنيّين في فلسطين (وتحديدًا اليهود).

٤ المعلومات الواردة هنا حول حياة عيسى الصوابيني هي وليدة اتصالاتي مع ابنه وزوجته وحفيده وديع الصوابيني.

٥ استنادًا على "دليل فلسطين" لعام ١٩٢٦ فقد كان هناك اثنى عشر مصوّرًا في تل ابيب واثنين في يافا.

٦ المعلومات الواردة هنا حول صافيه هي وليدة بحث تستند إلى مقالة سابقة باللغة الانجليزية (Nassar 1999).

٧ اعتمادًا على معلومات توّلدت نتيجة مقابلة مع ابن حنا صافية الذي أعلمني أنّ أباه حاول انقاذ المجموعة من المنطقة التي خضعت للسيطرة الأسرائيلية، لكن مسلحون لم تُعرف هويتهم استوقفوا صافيه وصادروا السيارة التي كان يستقلها ومعها كل ما محتواياتها من صور وأفلام.

٨ ما زال استوديو إيليا فاعلاً في القدس في حيّ النصارى، وقد صدر حديثًا كتاب يتضمن على عدد كبير جدًا من صور ايليا. تعتمد المعلومات المتوفرة لديّ على مقابلة اجرتها رونا سيلا مع ابنه كيفورك وحفيده ايليا قهوجيان.

القدس ١٩٤٨
الأحياء المهجّرة والعمق القروي[1]

سليم تماري

سليم تماري هو أستاذ علم الاجتماع في جامعة بير زيت. ويعمل كمدير مشارك لمؤسّسة الدراسات المقدسية ومحرّر مجلة "حوليات القدس". له عدّة مؤلفات في التاريخ الاجتماعي الفلسطيني وعلم الاجتماع الحضري وقضية اللاجئين الفلسطينيّين.

الطالبية والبقعة والقطمون وعين كارم ولفتا، إلى جانب قرى كثيرة ضمن المنطقة المجاورة للقدس الغربية، دُمرت وأُجلي سكانها، وكاد يغمرها النسيان بعد احتلالها واستيطانها إثر نكبة ١٩٤٨.

وعلى مدى أكثر من خمسين عامًا بقيت ذكراها مشتعلة في أذهان عشرات الآلاف من الفلسطينيّين المقتلَعين من جذورهم، الذين وجدوا أنفسهم فجأة في الجانب الآخر من حدود الهدنة، أو ألقت بهم النكبة إلى المنافي الاضطرارية في عمان وبيروت ودمشق، وإلى شتات عربي وأجنبي أبعد من ذلك. وكما حدث في الساحل، قامت القوات اليهودية بإجلاء جميع السكان العرب عن الضواحي والقرى الغربية وطردهم شرقًا. واستثني من ذاك المصير قريتا أبو غوش وبيت صفافا فقط.

وقد انفرد جون روز، الكاتب المقدسي الأرمني الذي استطاع البقاء في البقعة بعد الاحتلال، بالكتابة عن مصير هذه الأحياء والقلة القليلة من العائلات غير اليهودية – معظمها من حراس الأديرة والعاملين فيها في المنطقة – التي تمكّنت من البقاء هناك.

يقول روز: "في نهاية عام ١٩٤٨ تمّ نهب جميع البيوت العربية التي أُجلي سكانها ولم يبق فيها شيء يُذكر. أمّا نحن البقية الباقية فقد شارفت أعصابنا على الانهيار وأصبحت حياتنا أشبه بمعسكرات اعتقال على حافة ميدان المعركة" (Rose 1993). أربعة أعوام أمضاها روز في حي البقعة حتّى عام ١٩٥٢، ثم اجتاز بوابة مندلباوم الفاصلة لخط الهدنة وانتقل إلى ما أصبح يسمى فيما بعد القدس الشرقية. وبقيت قصة حياته شهادة فريدة لمصير أحياء القدس العربية في زمن الحرب.

في الجانب الآخر، وفي عملية اقتصرت على بضع مئات من السكان اليهود، تمّ إجلاء القاطنين في الحي اليهودي إلى الجانب الإسرائيلي. بعدها، ولأول مرة في التاريخ الحديث، أصبحت خطوط الهدنة للمدينة هي الحدود الفاصلة بين التجمعات الإثنية، حدود العرب واليهود.

تتعارض حيوية الأحياء الغربية مع النمو التقليدي الحديث للمدينة خارج أسوار البلدة القديمة في اتجاه الشرق والشمال (وادي الجوز وباب الساهرة والطور والشيخ جرّاح). هنا بدأت عائلات أعيان المدينة وأشرافها بناء منازلها الفخمة مع نهاية القرن التاسع عشر. واتجهت قلة منها نحو الغرب (الشيخ علي الخليلي وآل النمَّري وآل الوعري)، حيث وجدت أيضًا بعض الأحياء اليهودية الحديثة والسابقة للمشروع الصهيوني (من أهمها مشروعا البارون دي روتشيلد في حي مونتفيوري، وحي يمين موشيه قبالة جبل النبي داود). وقد جاء النمو الحقيقي لهذه الأحياء الغربية مع النهضة الاقتصادية التي رافقت المشاريع العامة لحكومة الانتداب وتبلور طبقة جديدة من التجار وأصحاب المهن وموظفي الدولة. واستفادت الطبقة الوسطى الفلسطينية من هذا التوسع، وخصوصًا عندما برزت أجهزة الدولة والجيش والشرطة داخل العاصمة في العشرينيّات وساعدت على انتقالها من اكتظاظ البلدة القديمة وتخلفها إلى الضواحي البرجوازية الحديثة في القطمون والطالبية والبقعة. كما استفادت الجالية اليهودية في القدس من اقتصاد الانتداب، وعزّزت نموها في رحافيا وميكور حاييم وتالبيوت. وتكوّنت أحياء مؤلفة من عائلات ممتدة (النمَّري، الوعري، الشماعة) إلى جانب أحياء تعايش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون في جيرة حميمة ووئام (روميما، المصرارة، مئاه شعاريم).

تكوّنت الأحياء العربية من عدة تشكيلات ارتبطت بشبكات التضامن العائلي، وبعلاقتها بالسلطة العثمانية، وبمشايخ القرى المجاورة للقدس غربًا. ونستطيع هنا أن نشير إلى ثلاثة عوامل تضافرت على دفع حركة الهجرة والعمران إلى هذه الأحياء الجديدة: ١) إقطاعات الدولة العثمانية لعائلات معينة في مقابل خدماتها للدولة؛ ٢) توطيد الوضع العائلي في أراض متروكة غربي المدينة؛ ٣) تخصيص أراض من وقف الكنائس المسيحية – معظمها من أملاك دير الروم الأورثوذكس – لأتباعها من الطائفة لإسكان العائلات التي ضاقت بها حارات المدينة داخل السور. ورافق مشاريع العمران العائلي العربي، في هذه الفترة، نمو عمراني مطّرد قامت به مؤسّسات الأديرة المسيحية (يوناني وفرنسي وإيطالي)، والمؤسّسات الخيرية اليهودية، وتجمعات أعضاء جمعية الهيكليين الألمانية التي بدأت ترسيخ وجودها في التلال الغربية قبيل بداية القرن.

يعتبر حيّا آل النمَّري وآل الوعري في البقعة الفوقا والبقعة التحتا من أقدم مشاريع العمران الموثقة في أحياء القدس الغربية. بينما نجد أن أعيان القدس، أمثال الحسينية وآل النشاشيبي والخطيب،

امتدوا بسكناهم نحو الأحياء الشمالية، في اتجاه طريق نابلس. وقد استحوذ آل النمَّري على أراض جديدة في العقد السابع من القرن التاسع عشر من مشايخ المالحة وبيت جالا الذين ارتبطوا معهم، كما يبدو، بعلاقات تجارية. أمّا آل الوعري، فقد أقنعوا المتصرّف العثماني بنقل أراضي ميري في البقعة الجنوبية (التحتا) إليهم، ومن ثم تسجيلها كوقف ذرّي للوعرية كما هو الحال بالنسبة إلى النمامرة (النمَّري ١٩٩٥). وفي نهاية العشرينيّات ظهرت في الحي سوق النمَّري، التي تطوّرت فيما بعد إلى سوق جملة لتبضع فلاحي القرى المجاورة، والبيع بالمفرق لحيي النمامرة والوعرية.

أحدثت ملكيات الأديرة والأوقاف المسيحية زخمًا جديدًا في نمو الأحياء العربية غربي المدينة، واعتمد معظمها على ملكيات الكنائس الأرثوذكسية، الروسية واليونانية، في المصرارة والطالبية والقطمون. ونجد هنا نموذجين من التصرّف في العقارات: الأوّل يتشكّل من عائلات تسجل أراضيها الموروثة كوقف كنسي لحمايتها من السلطة الحكومية (وخصوصًا في العهد العثماني)، والثاني قيام الأديرة بتحويل ملكيات كنسية عن طريق تأجير طويل الأمد أو تمليكها لأفراد من الطائفة التابعة لها.

وما أن حلّت سنوات الأربعينيّات حتّى بدأت هذه الأحياء تتلاصق بالقرى المحيطة بها. وقد أدّى هذا الامتداد إلى تبلور نمطين من العمران الجديد: الأوّل بروز ضواح مدينة مريَّفة، أو بالأحرى، قرى أصبحت تشكّل حارات ممتدّة للمدينة، كما هو الحال بالنسبة إلى لفتا والمالحة ودير ياسين وعين كارم. أمّا النمط الآخر فهو تلاصق هذه الأحياء العربية ومستعمرات يهودية أشكنازية، مثل "ميكور حاييم" و"مئاه شعاريم" و"رحافيا".[٢] وقد ساعد في اندماج اقتصاد القرية الفلسطينية ضمن البناء الحضري لمدينة القدس ازدياد الطلب على الأيدي العاملة الماهرة في قطاع البناء، واستيراد المادة الخام من محاجر هذه القرى. وفي مقابل ذلك، ازداد تدفّق المحاصيل الزراعية لهذه القرى على أسواق المدينة مع تحسّن الطرق ووسائل النقل، وخصوصًا مع إنشاء خط سكة الحديد بين يافا والقدس (مرورًا بقرية بتّير)، وتدشين خطوط جديدة للحافلات، ومدّ شبكة معبّدة من الطرق تربط المدينة بلوائها.

وشكّلت مناطق "التماس" بالأحياء الجديدة (وهي المناطق المحاذية لأحياء المصرارة وروميما والطالبية) بدايات تجمعات يهودية – عربية مشتركة، فعزّزت أنماط التبادل والاعتماد الاقتصادي

والمؤسّساتي أشكالاً من التعايش الاجتماعي. وفي خريطة الملكيات العقارية لعام ١٩٤٦، التي أعدّها سامي هداوي، يتجلّى هذا الحيّز المشترك بوضوح، وتظهر حقائق اجتماعية جديدة بشأن التوليفات الإثنية للمدينة. وتعكس هذه الخريطة واقع مدينة ما زالت منقسمة إلى مجموعات إثنية (ومن السابق لأوانه استعمال تعبير "قومية" في هذا المجال)، لكنها تقسيمات تبرز من طياتها أنماط اجتماعية مختلفة ومشتركة.[٣]

نرى في كتابات المؤرخين العرب العلمانيّين نزعة مبالغًا فيها إلى تصوير حالتي الانسجام والإخاء بين عرب القدس ويهودها قبل حرب فلسطين عامّة، وبروز التيار الاستيطاني الصهيوني خاصّة.[٤] في الجانب الآخر نرى في التأريخ الصهيوني نزعة إلى تصوير الصراع بين العرب واليهود كأنه تناقض أزلي يعود إلى غابر العصور. وفي أحسن الأحوال يُظهر هذا أن المجموعات اليهودية كانت محمية بصفتها من أهل الذمة في الدولة العثمانية وفي عهود الخلافات الإسلامية الأخرى في مصر وبلاد الشام. وفي واقع الأمر تُظهر العلاقات اليومية بين الجوالي اليهودية الفلسطينية والمواطنين العرب، من مسلمين ومسيحيّين، في نهاية القرن الماضي، كما جُمعت من مصادر معاصرة، أن الصورة أكثر تعقيدًا، لكنها حتمًا ليست سلبية.

ساهمت سلطات الانتداب في تهيئة الظروف للاندماج الاجتماعي بواسطة أنماط الاستثمار والتوظيف والمشاريع العامّة. ومع ظهور سمات الحداثة الثقافية وعولمة أنماط الحياة الأوروبية في الشرق الأوسط نلاحظ بداية "الحارات المختلطة" في يافا وحيفا وفي أحياء كثيرة من القدس، مثل "روميما" و"الشماعة" و"المصرارة". وفي مقابل هذه الأنماط أدى انتشار الأيديولوجيا والثقافة الصهيونيتين في أوساط المهاجرين اليهود إلى إحداث ردّة فعل قومية في الأوساط العربية، الأمر الذي أضعف العلاقات الاجتماعية بين العرب واليهود بصورة عامّة، وعزّز العلاقات فوق – الطائفية (القومية) بين المسيحيّين والمسلمين العرب. وسمح بتقوية هذه النزعة غياب الخلفية العربية واللغة العربية كلغة للتخاطب في أوساط يهود القدس خلافًا للوضع السائد في الخليل وطبرية وصفد، حيث وُجدت أغلبية من الطائفة اليهودية المتكلمة بالعربية.

كانت قضية تنظيم الأراضي وترسيم حدود البلدية في فترة الانتداب في جوهر الصراع الإقليمي في القدس. ففي حين شكّل الفلسطينيّون العرب من مسيحيّين ومسلمين أغلبية في لواء القدس كوحدة تشمل القرى والبلدات المحيطة بالمدينة، استطاع اليهود (عربًا وأشكنازًا) أن يصبحوا أغلبية سكانية

داخل حدود البلدية (عام ١٩٤٧ نحو ٩٩،٤ ألف يهودي في مقابل ٦٥،١ ألف عربي) (مصطفى ١٩٩٧)، وَقد راجع المؤرخ البريطاني مايل دمبر الأدبيات الديموغرافية لفترة الانتداب ووصل إلى تفسيرين لهذا التمايز في نسب السكان:

الأوّل: اعتادت إحصاءات الانتداب احتساب المهاجرين الذين وصلوا إلى القدس قبل عام ١٩٤٦، ثم انتقلوا إلى تل أبيب ومناطق أُخرى، كأنهم ما زالوا في القدس.

الثاني: استثنيت هذه الإحصاءات سكان الأرياف المحيطة بمدينة القدس الذين يعملون فيها (منهم، مثلاً، العاملون في المدينة من سكان لفتا ودير ياسين)، بينما احتسبت في الوقت ذاته اليهود القاطنين خارج حدود البلدية وكأنهم من سكان المدينة (مثلاً سكان "بيت فيغان" و"رمات راحيل" و"مقور حاييم") وهي عملية التفافية مسيَّسة يسميها دمبر "الإحصاء الديموغرافي الهيكلي" (Dumper 1997, 61-62).

لم تكن عملية الدمج والاستثناء الانتقائي العامل الحاسم في التمييز بين تنظيم الحارات اليهودية والعربية في فترة الانتداب، فالعنصر الأهم نجده في طريقة تنظيم الأحياء؛ ذلك بأن مؤسّسات التجمع اليهودي كانت حريصة على تنظيم الأحياء اليهودية الجديدة داخل حدود البلدية في المناطق الغربية والشمالية الغربية للمدينة. وكان يوضع لهذه الأحياء مخطّطات هيكلية مدروسة مسبقًا. هكذا كان الحال مع الكثير من "الأحياء الحدائق"، كما كانت تسمى، مثل حي "تالبيوت" وحي "رحافيا"، من تصميم المهندس ريتشارد كوفمان (Bahat 1990, 131-2). وتشير روشيل ديفيس، في دراستها عن نشوء هذه الأحياء، إلى الطابع المنظّم والمبرمج لهذه الأحياء اليهودية، في مقابل أنماط البناء غير المنظّم والمشيّد بمبادرات فردية وعائلية في الأحياء العربية الحديثة (ديفيس ٢٠٠٢).

من القضايا المنهجية التي واجهتها هذه الدراسة مشكلة تكوين التجمعات العربية في القدس في فترة ما قبل الحرب. ذلك بأن تعبير "القدس الغربية" في حد ذاته إشكالي، إذ إنه يشير إلى حيّز جغرافي تكوّن نتيجة ترسيم خطوط الهدنة عام ١٩٤٩ وليس له وجود اجتماعي قبل ذلك. فالأحياء العربية التي أُقيمت في الجهة الغربية للمدينة في العشرينيّات والثلاثينيّات من القرن العشرين، كما هو الحال بالنسبة إلى امتدادات قرى عين كارم ولفتا والمالحة، لم تتبلور كجسم اجتماعي أو إداري مستقل خارج علاقتها الإدارية بالبناء الحضري للمدينة ككل، وخارج شبكة العلاقات الاقتصادية التي ربطت القدس بمدينتي حيفا ويافا. وبما أن من أهداف هذه الدراسة معاينة مصير هذه الأحياء وسكانها بعد الحرب، فقد قررنا أن نستعمل تعبير "القدس الغربية" بمعناه الحالي، والذي ظهر بعد

عام ١٩٤٨، بهدف إعادة صوغ تشكيل هذه الأحياء وتقويم مصير لاجئيها وأملاكهم.

وتظهر مشكلة أُخرى جرّاء استعمال إشارات الهوية القومية. فكلمة "فلسطيني" في الفترة الانتدابية كانت تشير إلى المواطنين العرب واليهود من سكان المدينة، وطبعًا فإن كلمة "عربي" تبلورت لتشير إلى السكان المسيحيّين والمسلمين معًا، في مقابل يهود فلسطين، حيث أخذ هؤلاء بالتماثل مع الحركة الصهيونية وأهدافها، وخصوصًا بعد ثورة ١٩٣٦ وازدياد الهجرة اليهودية من أوروبا الفاشية. وممّا زاد في تعقيد هذه المسألة أن أعدادًا كثيرة من يهود فلسطين، وخصوصًا يهود صفد وطبرية والخليل، وقسمًا لا يستهان به من سكان يافا وحيفا والقدس اليهود كانوا يتكلمون العربية بصفتها لغتهم الأم. ومن ناحية أُخرى، عاشت في القدس مجموعات فلسطينية أُخرى لم تُعرِّف نفسها ضمن المجموعات اليهودية أو العربية - لكنها كانت فلسطينية قبل كل شيء، ومنها الأرمن واليونان والسريان والحبش في البلدة القديمة، وأعضاء جمعية الهيكليّين الألمانية في المدينة الجديدة. فهؤلاء كلهم كانوا مقدسيّين وفلسطينيّين وإن لم يحصلوا على الجنسية الانتدابية، ولا يجوز أن نستعمل تعبير "فلسطيني عربي" في الإشارة إليهم. والحل الأمثل لهذه الحالات أن نستعمل تعبير "عربي" إشارة إلى المقدسيّين المسيحيّين والمسلمين الناطقين بالعربية بصورة عامّة، وأن نستعمل التعبير المذهبي (مسلم، يهودي، كاثوليكي، أورثوذكسي) عند معالجة أوضاعهم الطائفية، كما هو الحال، على سبيل المثال، في الملكيات الوقفية. وبما أن المؤسّسات المذهبية أدّت دورًا حاسمًا في نمو أحياء القدس في الاتجاه الغربي وامتدادها، فإن هذا الاستعمال مبررًا تاريخيًا وإن بدا إشكاليًا بمقاييس اليوم. ولا شك في أن "الضحية الأولى" لهذه الإختزالات في استعمال المفاهيم الإثنية هي الأقليات الفلسطينية من غير العرب واليهود (مثل الأرمن واليونان) الذين سرعان ما تذوب هويتهم ضمن المجموعات الدينية والإثنية الأخرى.

إن احتفال الحركة الصهيونية بالذكرى الخمسين لإنشاء دولة إسرائيل، وإحياء الفلسطينيّين ذكرى النكبة يثيران الجدل مجدّدًا في شأن أسباب هجرة اللاجئين وظروف تشتتهم. وهذه الدراسة تعالج بالتفصيل الأوضاع التي سبقت الحرب، والعمليات العسكرية التي أدّت إلى اقتلاعهم من أحيائهم وقراهم وتشتيتهم في أنحاء المعمورة كافة. وفي النهاية تحلّل الدراسة مسألة الأراضي والملكيات الأُخرى التي صنفتها لجنة التوفيق التابعة للأمم المتحدة والخاصّة بفلسطين. ولا شك في أن مسائل كثيرة تواجه أي محاولة للوصول إلى تقويم شامل لهذه الملكيات، ذلك بأن التسوية التي بدأها العثمانيون لتسجيل أراضي فلسطين عام ١٨٥٨ لم تكن قد

اكتملت في فترة الانتداب، وبالتالي فإن سجلات الطابو لا تغطي هذه العقارات كافة. وعلى الرغم من ذلك، فإن في الإمكان توثيق معظم هذه الملكيات من خلال سجلات الضرائب المدفوعة، حتّى في الحالات التي تغيب فيها سجلات الطابو. وقد قام الباحث سلمان أبو ستة بتوفير ملخصات إجمالية لهذه العقارات من خلال بحثه الدقيق بشأن أملاك اللاجئين الفلسطينيّين (Abu Sitta, forthcoming).

أمّا العملية الأصعب فهي تتبُّع مصير اللاجئين وأماكن توزعهم. ولدى وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيّين في الشرق الأدنى (الأونروا) سجلات مفصّلة عن كل اللاجئين المستحقين للخدمات الاجتماعية والمسجلين في مناطق خدماتها الخمس (الضفة الغربية وقطاع غزة والأردن ولبنان وسورية). وبما أن قسمًا كبيرًا من لاجئي الضواحي الغربية للقدس ينحدر من الطبقة الوسطى، فإن أعدادهم لا تظهر بدقة في هذه السجلات نتيجة عزوفهم عن تسجيل أنفسهم في سجلات الأونروا، وعليه فإن الأرقام التي نوردها أدناه يجب أن تعامل بحذر.

يحتوي نظام التسجيل الموحّد (URS)، الذي أنشأته الأونروا عام ١٩٧٩ في فيينا، على معطيات بشأن أربع فئات من لاجئي الضواحي الغربية للمدينة وفئة خامسة من لاجئي قرى اللواء.٥ أمّا الفئات المدينية فهي: "لاجئو المدينة الجديدة"، و"القدس – عام"، و"فقراء القدس"، و"القدس – البلدة القديمة". وتشمل آخر فئتين سكان القدس الذين قضت الحرب على مصادر دخلهم من دون أن تشردهم من مساكنهم (وهم بذلك أقرب إلى وضع القرى الحدودية في الضفة الغربية وقطاع غزة). ولمعرفة مصير أهالي المدينة في حرب ١٩٤٨، قمنا بعزل أول فئتين وتحليل معطياتهما في الجدول التالي:

لاجئو مدينة القدس (الضواحي الغربية) في حرب ١٩٤٨
بحسب منطقة اللجوء، ١٩٩٧

مكان اللجوء الحالي	مولود قبل كانون الثاني/يناير ١٩٤٨	مولود بعد كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧	المجموع
الضفة الغربية	١٢,٤٢٧	٤١,٢٢٦	٥٣,٦٥٣
غزة	٦٩٢	٥١٥	٨١١

لبنان	٧٠٧	٧٠٣	١,٤١٠
الأردن	٨,٤٢٠	١٨,٠٧٧	٢٦,٤٩٧
سورية	٩٧٨	٩١٩	١,٨٩٧
المجموع الكلي			٨٤,٢٦٨

المصدر: المعطيات مستقاة من الأونروا ١٩٩٧، وهي تشمل "المدينة الجديدة" و"القدس"، وتستثني "البلدة القديمة" و"فقراء القدس". تشمل هذه الإحصاءات جميع اللاجئين المسجلين وذريتهم ممن هم في قيد الحياة اليوم ولا تشمل الذين تُوفوا.

تُظهر هذه المعطيات أن لاجئي مدينة القدس في حرب ١٩٤٨ ما زالوا، في معظمهم، يقطنون في الضفة الغربية. ويوجد معظم هؤلاء اليوم في القدس العربية وضواحيها، وفي رام الله وبيت لحم (الأونروا ١٩٩٧).[٦] ويضم الأردن ثاني أكبر تجمع، أي نحو نصف ما تحتويه الضفة الغربية. أمّا قطاع غزة وسورية ولبنان فتحتوي باقي هذه التجمعات. وتُظهر إحصاءات الأونروا، في المقابل، أن مجمل عدد اللاجئين من القرى المقدسية وأبنائهم من الأحياء قد بلغ ١١٠,٤٣٩ لاجئًا عام ١٩٩٧، ومن هؤلاء يقطن نحو الثلثين (٧٣,٩٠٨ لاجئين) في الأردن، والثلث (نحو ٣٦,١٣٠ لاجئًا) في الضفة الغربية (الأونروا ١٩٩٧).[٧] ماذا تعني هذه الإحصاءات؟

أولاً: لقد استقر لاجئو القدس، في معظمهم، بمناطق محاذية أو قريبة من بيوتهم الأصلية. وهذا ينطبق بصورة خاصة على اللاجئين من الضواحي الغربية للمدينة الذين هم أفضل حالاً من إخوتهم الريفيين، وبالتالي أكثر قدرة على توثيق أملاكهم المصادرة. وبقي هؤلاء على مقربة من أراضيهم الأصلية.[٨]

ثانياً: تظهر المعطيات أن اللاجئين الأكثر فقرًا من قرى لواء القدس – وعددها ٣٩ قرية – اختاروا في معظمهم طريقاً أكثر تعقيداً في النزوح سعيًا وراء خدمات الأونروا في الأردن، حيث كانت إمكانيات العمل أكثر توفرًا في عمان وإربد والزرقاء، وخصوصًا بعد عام ١٩٦٧ حين إنتشرت الهواجس في أوساط اللاجئين بشأن استمرار أعمال الأونروا وخدماتها في المناطق التي سيطر عليها جيش الاحتلال الإسرائيلي. ويضاف إلى ذلك الخوف التقليدي من العمليات الحربية التي

تدفع بالمدنيين العزّل إلى البحث باستمرار عن مناطق أكثر أمانًا.

لهذه الأرقام دلالات مهمة تتعلق باستحقاقات اللاجئين المقدسيّين، ولا سيما عند بداية مفاوضات الحل النهائي. وبغض النظر عن تراجعات الوضع السياسي في هذا المجال، فمن واجبنا أن نضع الأدلة والبيانات في موضعها تمهيدًا لتحضير ملفات لهذه المستحقات. والاستنتاج الأساس لهذه المعطيات أن قسمًا كبيرًا من المهجرين ما زال يقطن في القسم العربي من المدينة المحتلة، أو في ضواحي المدينة، في الوقت الذي قامت السلطات الإسرائيلية بإنشاء أو توسيع مناطق استيطانية يهودية في البلدة القديمة (الحي اليهودي)، وفي سلوان وراس العمود والنبي يعقوب وعطروت والثوري، وكلها مناطق كان لليهود فيها بعض الملكيات قبل عام ١٩٤٨، أو كان لهم مطالب مبنية على أحياز مُستأجَرة. هذا التباين في المطالب والاستحقاقات يأتي على خلفية مفارقة مهمة وهي أن الاستحقاقات الفلسطينية العربية من الأراضي والعقارات في غربي المدينة المحتلة، وفي القرى المحيطة والمهدمة، موثقة تمامًا، كما يظهر في هذه الدراسة، سواء في سجلات الأراضي (الطابو) أو في سجلات الضرائب، أو في وثائق لجنة التوفيق التابعة للأمّم المتّحدة والخاصة بفلسطين (١٩٥١-١٩٦٤).

وبما أن الحكومة الإسرائيلية لا تكلّ عن إعلان القدس مدينة "موّحدة وغير قابلة للتقسيم"، وما يتبع ذلك من أن قوانين الدولة تطبق على شقي المدينة، الغربي والشرقي منها، فقد أصبحت هذه المفارقات في التطبيق الإنتقائي والعنصري للحقوق التاريخية مثيرة للسخرية.

المدينة وعمقها الريفي

كان الإقطاع في القدس إبان القرن التاسع عشر أقل انتشارًا منه في أي مدينة من المدن الرئيسة في فلسطين. ذلك بأن موقعها الديني وفعاليتها حددا إلى حد كبير طبيعة استثمارات العائلات الحاكمة وعلاقة هذه العائلات بريف المدينة. وقام الحج وإدارة الأماكن المقدسة بالدور الحاسم في حياة أشراف القدس وحلفائهم من القوى الريفية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

تزودنا "حوليات فلسطين" (Annals of Palestine)، وهي سرد لسَير الحياة في القدس في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بقلم الراهِب نيوفيتوس من طائفة الروم الأورثوذكس، تفصيلات وفيرة (وإن تكن منحازة) عن العلاقة بين الريف والمدينة. ونلاحظ في هذه اليوميات عنصرين يتحكمان في هذه العلاقة:

إن قرى القدس كثيرًا ما كانت مسرحًا لحركات تمرد متكررة ضد السلطة المركزية، وبصورة خاصّة ضد الإدارة المصرية لإبراهيم باشا. ولم تكن الضرائب السبب الرئيسي في حركات التمرد هذه، كما يمكن أن يظن المرء، وإنما التجنيد الإجباري. وغالبًا ما تحالف أعيان القدس مع الفلاحين في تظلماتهم ضد الباب العالي، ولاحقًا، ضد محمد علي وربيبه إبراهيم باشا.

يدّعي نيوفيتوس أن تجار القدس، مسيحيّين ويهودًا، غالبًا ما كانوا هدفًا لحركات التمرد بين الفلاحين. لكن محاولات الأقليات للحصول على الحماية من إدارة إبراهيم باشا (وقد منحها لها) لم تمتد إلى الفلاحين المسيحيّين. وكان بعض أقسى العقوبات التي أنزلها إبراهيم باشا بالمتمردين موّجهًا ضد الفلاحين المسيحيّين في بيت جالا وبيت لحم والكرك (الأخيرة في شرق الأردن).

في نيسان/أبريل – أيار/مايو ١٨٣٤ حدثت أبرز ثورات الفلاحين، وانضم فيها قطاع مهم من أعيات القدس إلى الفلاحين ضد أوامر التجنيد في الجيش المصري، لمحاربة أعدائه العثمانيين والأوروبيين. وقد حوصرت القدس في ٨ أيار/مايو، وانضم إلى المتمردين من الفلاحين المحليّين (بحسب تقدير نيوفيتوس) عشرة آلاف فلاح من الخليل ونابلس وقرى القدس الأُخرى (Neophytos 1938, 75). وفي غياب إبراهيم باشا (الذي هرب إلى يافا إثر شائعات عن انتشار وباء الطاعون)، انضم كثير من المقدسيين إلى الثورة داخل المدينة. وعلى الرغم من مناشدة نائب إبراهيم المقدسيين الدفاع عن المدينة، فإنهم عمليًا ساعدوا الثوار على إقتحامها:

سارع سكان القدس إلى كسر أقفال باب العمود وفتحوه. واندفع آلاف الفلاحين إلى الداخل واحتلوا المدينة المحيطة بالقلعة، بعد أن أمطروها بزخات متلاحقة وكثيفة من النيران. ثم انهمكوا، شيبًا وشبانًا، في النهب، بادئين بمنازل الأميرلايات، حيث أخذوا الأشياء الثقيلة المتروكة فيها، مثل الوسائد والأغطية والمناضد الخشبية. ومن ثم نهبوا المنازل اليهودية بالطريقة نفسها. وفي الليلة التالية بدأ الفلاحون، مع بعض الرعاع من أهل القدس، نهب دكاكين اليهود والمسيحيّين والفرنجة، ثم المسلمين. وقد عانى الجميع على حد سواء، من البقالين إلى صانعي الأحذية، مرورًا بمختلف المهن. وخلال يومين أو ثلاثة لم يسلم دكان في السوق، إذ كسروا الأقفال والأبواب واستولوا على كل شيء ذي قيمة (Neophytos 1938, 75).

كان من المعتاد في مثل هذه الأوضاع أن يستأجر أعيان القدس ميليشيات فلاحية مسلحة لحماية أملاكهم

من النهب. وكان هؤلاء الحراس يُجندون عادة من المالحة وعين كارم. أمّا الأديرة فيحميها عادة فلاحو العبيدية، وهم مسيحيون كانوا سابقًا عبيدًا ألحقوا بدير مار سابا ثم أسلموا. وبصورة مماثلة كان بدو التعامرة يحمون أديرة بيت لحم (Neophytos 1938, 64, 75, 80).

عندما قُمع التمرد في النهاية، نعمت القدس بعدة عقود من الاستقرار النسبي والأمن والازدهار الاقتصادي، امتدت حتّى الحرب العالمية الأولى ودخول جيش أللنبي إلى المدينة المقدسة. وأدّت التجارة والمصالح التجارية في المدينة إلى زيادة التعاون فيما بينها وبين يافا (المدخل الرئيسي للحجاج الأوروبيّين واليونان والروس إلى فلسطين) ومدينة السلط في شرق الأردن، التي كانت المُزود الداخلي بالبضائع. لكن القدس، خلافًا لنابلس أو يافا، لم تكتسب قط شهرة كمركز لإنتاج البضائع أو توزيعها (Neophytos 1938, 86-87). كما أدت الطمأنينة الناجمة عن الإصلاحات العثمانية والامتيازات التي مُنحت للأجانب إلى زيادة في عدد الأوروبيّين، بمن فيهم اليهود الأوروبيون، الذين بدأوا السكن في القدس بعد الستينيّات من القرن التاسع عشر. وأدى الازدهار في البناء إلى نشوء طلب كبير على البنائين والحرفيين المهرة، وهذا بدوره عزّز العلاقة بين المدينة وبلدتي بيت لحم وبيت جالا (وهما المصدران الرئيسان لتزويد القدس بحاجاتها من البنائين)، وأيضًا بينها وبين قرى جبل الخليل. لكن التوسع الفعلي للمدينة خارج الأسوار كان في اتجاه الشمال نحو وادي الجوز والشيخ جرّاح والطور، حيث بدأ الأعيان المسلمون بناء بيوتهم الفخمة. كما أنشأت الطبقة الوسطى المسيحية واليهودية في الأراضي الواقعة جهة الغرب تجمعات سكنية عصرية في اتجاه قرى لفتا ودير ياسين والمالحة.

كانت السمة الغالبة على العلاقة بين أعيان المدينة والقرى المحيطة بها هي الرعاية والحماية المتبادلة، وليس حكم أرستقراطية غنية لفلاحين خاضعين لها. وأحيانًا كانت العلاقة التاريخية النموذجية القائمة بين الأعيان والفلاحين في المدن الاقطاعية في فلسطين (نابلس وعكا) تتخذ وضعًا معكوسًا عما هو الحال في القدس، كما كان عليه الأمر بالنسبة إلى شيوخ أبو غوش في العرب وعشائر اللحام في بيت لحم. وقد وصفها شولش (Scholch 1993, 124-25) بعلاقة استمد فيها أعضاء مجلس القدس قوتهم وثروتهم من إدارة الأوقاف الدينية في المدينة، ومن استخدام نفوذهم لدى الباب العالي لتقديم خدمات وامتيازات لشيوخ القرى والتوسط لحل النزاعات بينهم. ومع تزايد الهجرة والاستيطان الأوروبيّين امتدت هذه الرعاية لتشمل حماية الأقليات الدينية والإثنية في المنطقة (Scholch 1993, 232-34).

لفترة طويلة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، انشغل ريف القدس الغربي بالنزاعات بين الملتزمين[٩] الكبار في المنطقة (سمحان ولحّام وأبو غوش) ، بشأن السيطرة على توكيل جباية الضرائب الزراعية، من خلال تحالفات مع أعيان القدس في كثير من الأحيان. وكانت العصبية الفلاحية، التي تقسم الأهلين إلى قيس ويمن، البوتقة التي استخدمها الشيوخ لتعبئة فلاحي قرى القدس وبيت لحم في عصاباتهم المسلحة. وكان شيخ أبو غوش (أبرز اليمنيّين) مستقرًا بمنطقة استراتيجية بفعل سيطرته على طريق القدس – يافا الذي كان يسلكه الحجّاج المسيحيون الأوروبيّين. وكان عمليًا في وضع يسمح له بجباية "أتاوة" من الحجاج الأوروبيّين والتجار العرب الذين كانوا يستخدمون الطريق. ولم يفرض حاكم القدس العثماني سيطرة الحكومة المركزية على هؤلاء القبضايات إلاّ في أوائل الستينيّات من القرن التاسع عشر (Scholch 1993, 229).

وفي أواخر الحكم العثماني تمكن باشا القدس، بمساعدة مجلس المدينة، من إعادة تنظيم العلاقة بين الحاكم والقرى المجاورة، من خلال تعيين مخاتير القرى ممثلين محليّين للدولة، وكان ذلك تتويجًا للاصلاحات الإدارية التي أدخلها العثمانيون استجابة لما فرضته الدول الأوروبية، وشملت مركزة الجهاز البيروقراطي الإداري، وخصخصة الأراضي (من خلال قانون الأراضي لعام ١٨٥٨ ومحاولة إلغاء نظام المشاع)، وأخيرًا الإلغاء الرسمي للمشيخات وجبايتها للضرائب الزراعية. وفي مدينة القدس، ازداد بروز المجلس البلدي، وارتقت مكانة عائلات القدس الحاكمة من أشراف المدينة إلى طبقة مهيمنة في فلسطين بأكملها، وهو وضع ورثه الانتداب البريطاني.

القرى الغربية قبل الحرب

مع تحوّل القدس إلى عاصمة لفلسطين بعد الحرب العالمية الأولى طرأ تحوّل على العلاقة بين المدينة وقرى قضاء القدس. وهنا يجب أن نميز بين ما أصبح قرى ضواحي (بيت حنينا ولفتا والمالحة ودير ياسين والعيزرية وسلوان وعين كارم) وبين تلك التي بقيت في عمق الريف.

إن "القدس الغربية" نفسها مصطلح يعود إلى عام ١٩٤٨، ويرسم الحدود المعينة في إتفاقية الهدنة لعام ١٩٤٩ للفصل بين ذلك الجزء من القدس الذي سيطرت عليه إسرائيل، وبين القسم الشرقي الذي أصبح جزءًا من الضفة الغربية تحت الحكم الأردني (١٩٤٨-١٩٦٧). مهما يكن الأمر، فحتّى قبل عام ١٩٤٨، كان للقرى الواقعة إلى الغرب والجنوب من المدينة خصوصيتها المستمدة

من أهميتها الطوبوغرافية والتجارية. فقد اتصفت القرى الغربية بقربها من طريق يافا الرئيس، واندماجها في أحياء الطبقة الوسطى في المدينة التي أخذت في التوسع في اتجاه الغرب.

وللحصول على صورة أفضل للطبيعة المغايرة لقرى غربي القدس عن باقي القضاء، يجب مقارنة وضع هذه القرى بتلك التي بقيت في أيدي العرب. فالمنحدرات الغربية لهضاب القدس تتميز بخصوبة التربة وبنسبة أعلى من كميات الأمطار والغطاء النباتي. وتوجد في المنطقة جداول دائمة الجريان، كما تتميز الأرض بانحدارها المتدرج في اتجاه اللد والرملة والسهول الساحلية. في المقابل، فإن المنحدرات الشرقية قاحلة وشبه قاحلة، التربة فيها فقيرة، وهي شديدة الانحدار نحو وادي الأردن، وهذا ما يجعل من الصعب تدرجها كسلاسل. والنتيجة هي (أو كانت) كثافة سكانية أعلى وتركُّز للقرى في المنطقة الغربية التي وقعت تحت السيطرة الإسرائيلية.

أحد العوامل الحاسمة التي أثرت في التغيرات التي طرأت على البنية الزراعية لهذه القرى هو قربها من المنحدرات الغربية للمدينة، ومن مستعمرات الضواحي اليهودية تحديدًا. ويقترح الجغرافي عزيز دويك أربع حلقات متداخلة تتسع باطراد ومركزها القدس، على أن تعتبر خطوط هذه الدوائر "حدودًا فاصلة" لبنية هذه القرى (دويك ١٩٩٦): ١١٢

أوّلًا، القرى الواقعة في نطاق الحلقة الداخلية الممثّلة بالحدود البلدية (على بعد أقل من ٥ كم من مركز المدينة)، بما فيها العيسوية والطور وأبو ديس وسلوان وصور باهر. وهذه بقيت جميعًا في أيدي العرب بعد الحرب.

ثانيًا، القرى الواقعة قريبًا من مركز المدينة (٥–١٠ كم). وتشتمل في الجهة الغربية على لفتا والمالحة وقالونيا والقسطل ودير ياسين وبيت صفافا والولجة والجورة وعين كارم. وهذه كانت في طريقها لأن تصبح ضواحي مدينية، وثبتت أسعار الأراضي الزراعية فيها كالأراضي العقارية.

ءرابعًا، قرى الحلقة الخارجية (أكثر من ٢٠ كم عن المركز)، وتشتمل على نطاف وبيت محسير ودير الهوا وإشوع وعرطوف وعسلين وصرعة وخربة اسم الله ودير آبان ودير رافات وبيت عطاب وسُفلى وجرش وبيت جمال والبريج. وهذه أيضًا مُحيت تمامًا عن وجه الأرض وأُنشئت مستعمرات إسرائيلية فوق أنقاضها.

بلغت مساحة قضاء القدس ١,٥٧ مليون دونم، ٨٨,٤٪ يملكها عرب، و٢,١ ٪ يملكها يهود،

و ٩,٥٪ أراضي عامة. وبلغ عدد السكان ٢٧٤,٩٥٠ نسمة، ٥٩,٦٪ منهم عرب، و ٤٠,٤٪ يهود (أرقام عام ١٩٤٥) (Nijim and Muammar 1984). وكان مجموع مساحة أراضي قرى القدس الغربية التي دمرت ٢٥١,٩٤٥ دونمًا، منها ٢٣١,٤٤٦ دونمًا للعرب (٩١,٨٪)، و ٦,٨٩٧ دونمًا لليهود (٢,٧٪)، و ١٤,٦٢٩ دونمًا أراضي عامّة (٥,٨٪). وكان مجموع السكان العرب الذين شردوا من تلك القرى ٢٣,٦٤٩ نسمة، يضاف إليهم ٢٥ ألف نسمة شردوا من أحياء القدس الغربية (الخالدي١٩٩٧, ٥٩٠-٦٦١, ٧٤٤). وإحتوت المنطقة على إثنتين من أكبر ثلاث قرى في القضاء (عين كارم ١,٠٢٤ دونمًا، ولفتا ٣٢٣ دونمًا من الأراضي المبنية)، وعلى المالحة وقالونيا وبيت محسير التي كانت تعد بين أكبر عشر قرى في القضاء (دويك ١٩٩٦, ١٤٥, ١٥٠).[١٠] وأدّى تشريد السكان من قراهم إلى ضغط سكاني على القرى الشرقية التي كان عليها استيعاب الكثيرين من اللاجئين على أراضيها التي أُفردت كمخيمات لهم.

إن القرى الواقعة في الحلقتين الداخليتين هي التي طرأ عليها أكبر قدر من التحوّل، كونها أصبحت ضواحي للمدينة وللتصاعد في مكانة القدس كعاصمة مركزية للبلد. ويعبرّ وضع لفتا عن ذلك خير تعبير. ففي أواسط الثلاثينيّات أصبحت هذه القرية مصدرًا رئيسًا لأنشطة البناء في المدينة (مقالع أحجار) والمهارات المرتبطة به، واندمجت لفتا الفوقا في روميما، الضاحية العربية - اليهودية الجديدة. وجعل اتساع أراضيها منها مركز جذب أساسيًا للاستثمار في العقارات، وأوجد تفاوتًا في الثروات ضمن القرية؛ إذ كانت حدود لفتا تنتهي عند صور باهر وبيت صفافا في الجنوب، والطور في الشرق، وبيت حنينا وشعفاط في الجهة الشمالية الشرقية، وعين كارم والمالحة في الجهة الجنوبية (كناعنة وعبد الهادي ١٩٩١ب).

أخذت العمارة في القرية تعكس طراز البناء في ضواحي القدس وتعقيداته. وبدأت البيوت الفخمة المكوّنة من طبقتين مع ساحات داخلية وحدائق وبساتين ممتدة تُرقط منحدرات لفتا التحتا (كناعنة وعبد الهادي ١٩٩١ب). وأدى إنشاء طريق للحافلات وتوسُّع شبكة النقل إلى زيادة قدرة القرية على الحركة في اتجاه العالم الخارجي. وتلقى عدد كثير من شبان القرية العلوم في كليات القدس وجامعات بيروت ودمشق والقاهرة وغيرها. وتأسّست في عام ١٩٣٥ شركة باصات لفتا - دير ياسين، وامتلكت ثلاث حافلات وعددًا من سيارات الأجرة الخاصة (كناعنة وزيتاوي ١٩٩١أ، ٢٧-٢٨). وخلافًا للوضع في القرى الأبعد، كان يوجد في لفتا مقهيان ومنجرتان، وصالونات

حلاقة، وملحمة (قصاب)، بالإضافة إلى عيادة طبية وطبيبين (درسا في الجامعة الأميركية في بيروت) وممرضتين محترفتين.

كان لأهل القرية علاقات ودية واقتصادية جوهرية بالجالية اليهودية في القدس، وذلك بسبب قرب قريتهم من الأحياء اليهودية والمختلطة ("روميما" و"غفعات شاؤول" و"محانيه يهودا" و"مئاه شعاريم"). وربما كانت لفتا القرية الوحيدة بين قرى القدس التي نشأ تداخل مادي بينهما وبين التجمعات السكنية اليهودية في القدس. فقد بنيت مدرسة لفتا الأميرية المختلطة على أرض مشاع ملاصقة لروميما، الحي اليهودي، من أموال تبرع بها أهل القرية (كناعنة وعبد الهادي ١٩٩١ب، ٢٤–٢٥). لكن هذه التطوّرات لم تكن مقصورة على لفتا وحدها، إذ حدثت تطوّرات مماثلة في عين كارم ودير ياسين، وبدرجة أقل، في المالحة.

شهدت دير ياسين، التي أصبحت أكثر القرى الأربع شهرة، تحوّلات مشابهة في الثلاثينيّات. وقد إرتبط مصيرها بثراء المستعمرة اليهودية "غفعات شاؤول" التي نمت، في نهاية المطاف، بضم أراضي دير ياسين إليها بعد تدمير الأخيرة جزئيًا في عام ١٩٤٨. وبدأت القاعدة الزراعية لدير ياسين تتحوّل في العشرينيّات المبكرة عندما شرع عدد كثير من شبانها في العمل في صفوف الجيش والشرطة البريطانيّين، وفي مجال البناء. فقد بدأت استثمار مقلع الحجارة الأول فيها عام ١٩٢٧، وكانت تعتز بوجود عشرة أنواع من حجارة البناء الفائقة الجودة (كناعنة وزيتاوي ١٩٩١، ٢٨). واستُخدم قسم كبير من القوى العاملة في أعمال البناء في الضواحي اليهودية والأحياء العربية في القدس الغربية. وكان التمييز في الأجور بين العمال العرب واليهود، الذي مارسته سلطات الانتداب رسميًا، من أبرز شكاوى القرويّين المتكررة. يعلق عامل دير ياسين (كاعنة وزيتاوي ١٩٩١، ٢٨):

> اشتغلت مع الجيش البريطاني عشر سنين من عام ٣٨ لعام ٤٨، وبقوا يعطونا ٢٠ قرشًا ويعطوا اليهودي ٤٠ قرش، ولما بقينا نسألهم ليش اليهود بتعطوهم أكثر بقولولنا انتو بتروحوا على داركم عندكم بندورة، كوسا في أرضكم بس هدول مساكين ما عندهم ايشي.

ويُذكرنا هذا الشرح للفوارق في الأجور بين اليهود والعرب (حتّى عندما يكون هؤلاء مدينيّين ولا يملكون أرضًا)، والذي تم تبريره أيديولوجيًا، بإشارة كارمي وروزنفلد، في دراستهما لهذه الظاهرة، إلى أن العمال العرب لديهم "خط أنابيب إلى حقول القرية" وهي مسألة ظلّت مدار

خلاف طوال فترة الانتداب (Carmi and Rosenfeld 1980). وحتّى عام ١٩٤٧، كانت النشرات الرسمية للحكومة تصدر قائمة بمعدلات أجور مختلفة للعرب واليهود في مجالات العمل المتعدّدة (Stationery Office 1947, 2, 735-774).

بحلول الأربعينيّات، كانت الحياة اليومية في لفتا وعين كارم ودير ياسين والمالحة قد أصبحت متداخلة بصورة متزايدة مع النسيج الاجتماعي في الأحياء اليهودية المتنامية: "بيت هكيرم" و"غفعات شاؤول" و"كريات موشيه"، على الأغلب بصورة تعامل تجاري وأنشطة بناء. وشكّل بيع الخضروات والفاكهة، ولا سيّما من قِبل نساء القرية، وشراء مواد البناء من القرى، الجزء الأكبر من الصفقات التجارية (كناعنة وزيتاوي ١٩٩١أ، ٤٦). واستفاد القرويّون، أيضًا، من الخدمات الطبية التي قدمها الأطباء اليهود، منهم أخصائي العيون دكتور تيخو، الذي اكتسب شهرة كبيرة وأصبح أسمه يتردد في البيوت (كناعنة وعبد الهادي ١٩٩١ب، ٢٣؛ كناعنة وزيتاوي ١٩٩١أ، ٣١). ومع أن التواصل الاجتماعي بين الجماعتين كان محدودًا، فقد كانت العلاقات العامة المتبادلة فيما بينهما على وجه الإجمال ودية كما وصفها كناعنه في دراسته عن لفتا: "ويقال إنه لا تزال صداقات قديمة قائمة بين أهل لفتا اليوم وبين يهود روميما [...]. قبل إقامة روميما كانت أقرب تقطة إلى لفتا هي مكان يسمونه محانيه يهودا [...]. وغالبًا ما كان أهل لفتا يتسوقون من ذلك السوق ويبيعون منتوجاتهم من الخضار والفواكه فيه، وسكان ذلك المكان هم من اليهود الشرقيّين، من الأكراد والبخاريّين وكانوا يتكلمون اللغة العربية" وتدلل المقابلة التالية مع إحدى نساء لفتا على طبيعة العلاقات:

> كنا نشتري من عندهن، ويأخذوا منا حجارة، معاملة عادية زي الجيران، ما كانش منافسات، كلنا واحد، يوم السبت بنزلوا اليهود والعرب [...]. في واحد لفتاوي تجوز وحده يهودية منهم وهو فهمي إبراهيم أبو سعد (كناعنة وعبد الهادي ١٩٩١ب، ٢٩).

أمّا التناحرات التي ولّدتها ثورة ١٩٣٦، التي شارك فيها عدد من فلاحي لفتا والمالحة ودير ياسين، فما لبثت أن هدأت، إلاّ إنها عادت لتطفو على السطح خلال ١٩٤٧-١٩٤٨ بعد إعلان خطة التقسيم.

حرب ١٩٤٨

تضمنت العمليات العسكرية التي تلت خطة التقسيم في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ مواجهات بين القوات العربية واليهودية استمرت عامًا واحدًا (من كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧ حتّى تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨). تجمّع في الجانب العربي "الجهاد المقدّس" بقيادة عبد القادر الحسيني، وجيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي، وقوات من الجيش المصري، والفيلق العربي (الأردني) بقيادة عبد الله التل. ولم تشتبك القوات الرسمية العربية مع القوات اليهودية إلّا بعد انتهاء الانتداب البريطاني في ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨، أي بعد أن حُسم الصراع العسكري في فلسطين لمصلحة الصهيونيّين. وقبل ذلك حمل "الجهاد المقدّس" وحده عبء القتال. كما أن عددًا من القرى (مثل المالحة ولفتا ودير ياسين) كان لديه بعض المدافعين المسلحين من سكانه.

في الجانب اليهودي كانت الهاغاناه، القوة العسكرية الرئيسة، بقيادة دافيد بن - غوريون، بالإضافة إلى قوات اليمين "التصحيحي": المنظمة العسكرية القومية، "إرغون تسفائي ليئومي"، وعصابة "شتيرن"، المعروفة أكثر باسم "ليحي".

قامت القوات الصهيونية بثلاث عشرة عملية لاحتلال القدس. وكان هدف هذه العمليات مزدوجًا:

(١) فتح طريق تل أبيب - يافا - القدس الرئيسي لتأمين حرية الحركة للقوات اليهودية؛

(٢) إخلاء القرى العربية الواقعة في نواحي القدس الغربية من سكانها الفلسطينيّين، لتوفير عمق ديموغرافي وتواصل بين الدولة اليهودية المقترحة وبين مدينة القدس في إطار خطة "دالت" (Khalidi 1987).

وفي الفترة الفاصلة بين كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧ وفترة الانسحاب البريطاني (١٥ أيار/مايو ١٩٤٨)، قام الصهيونيون بسبع عمليات عسكرية في القدس، وهي: براك ونحشون وهرئيل ومكابي ويبوسي وشفيفون وكلشون (المذراة) (الخالدي ١٩٩٧، ٦٦٣). وقد جرت هذه العمليات كلها داخل حدود الدولة العربية المقترحة من جانب الأمم المتحدة، وجرت العمليات الثلاث الأخيرة جزئيًا داخل الحدود الدولية المقترحة للقدس. واستمرت السلسلة الثانية من الهجمات (عمليات بن

– نون ويورام وكلشون) بعد نهاية الانتداب (١٥ أيار/مايو ١٩٤٨) حتّى الهدنة الأولى (١١ حزيران/يونيو ١٩٤٨). ووقع الهجوم الثالث، أيضًا، في المناطق المقترحة للدولة العربية (عمليتا داني وعنبار)، في الفترة ما بين الهدنتين، واستغرق عشرة أيام (٨–١٨ تموز/يوليو). وكان الهجوم الرابع الأخير (الذي استمر فترة طويلة، ما بين ١٨ تموز/يوليو حتّى تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨)، والمعروف باسم عملية ههار، حاسمًا في إجلاء وتهجير سكان القرى العربية الواقعة غربي القدس (الخالدي ١٩٩٧، ٦٦٣).

أظهرت المواجهة بين القوات العربية واليهودية المتحاربة ضعف الطرف العربي وقلّة استعداده. فأغلبية القوات الفلسطينية المحلية إمّا سُحقت وإمّا ضعفت جرّاء حملة القمع البريطانية التي وُجهت ضد ثورة ١٩٣٦–١٩٣٩ قبل فترة لا تتعدى ثمانية أعوام. وكان جيش الإنقاذ غير موجود عمليًا في منطقة القدس، هذا الجيش الذي أنشأته اللجنة العسكرية المنبثقة من جامعة الدول العربية في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٧ من أجل الدفاع عن فلسطين، وتألف من متطوعين عرب (معظمهم من السوريّين والعراقيّين والفلسطينيّين)، وقاتل في الجليل والشمال. وبسبب غياب جيش الإنقاذ عن وسط فلسطين، اعتبرت اللجنة العسكرية، بحكم الأمر الواقع (de facto). القائد عبد القادر الحسيني قائدًا لمنطقة القدس ورام الله، والقائد الشيخ حسن سلامة قائدًا لمنطقة يافا – اللد وتابعين لها (أبو غربية ١٩٩٣، ٢٥٠). وفي القدس، وقبل انسحاب القوات البريطانية، كانت قوات "الجهاد المقدّس" عمليًا وحدها في ساحة القتال، وجرى تعزيزها خلال أيار/مايو ١٩٤٨ بسرية واحدة من جيش الإنقاذ تعدادها ٣٠٠–٥٠٠ مقاتل (يبدو أن العدد كان يتأرجح زيادة ونقصانًا) بقيادة فاضل عبد الله رشيد، وبسبعين متطوّعًا من الإخوان المسلمين من سورية بقيادة الشيخ مصطفى السباعي (أبو غربية ١٩٩٣، ٢٦٦). وفي المقابل، كانت القوات اليهودية أكثر عددًا ومتفوقة جدًا من ناحيتي التسليح والتدريب (كثير من أفرادها خدم في فرق الجيش البريطاني، وفي جبهات القتال في أوروبا). وكانت قوات المنشقين التابعة لإرغون تسفائي ليئومي، التي نشطت بكثافة في منطقة القدس–يافا، متفوقة وحدها في العدد والعدة على القوات العربية، إذ قُدر عدد مقاتليها في عام ١٩٤٦ بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ مقاتل، بينما كان العدد الإجمالي لقوات جيش الإنقاذ، بقيادة القاوقجي، ٣،٨٣٠ مقاتلًا، وعدد مقاتلي "الجهاد المقدّس" ١،٥٦٣ مقاتلًا (Khalidi 1987, 860).

في البداية، كان عدد المقاتلين بقيادة عبد القادر الحسيني في "الجهاد المقدّس"، الذي أنشأته الهيئة

العربية العليا في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧، ٢٥ مقاتلاً فقط (الحوت ١٩٨١، ٦١٥)، سرعان ما انضم إليهم متطوعون من المدن وميليشيات القرى. ويذكر بهجت أبو غربية، الذي كان ترتيبه الثالث في التسلسل الهرمي لقيادة "الجهاد المقدّس"، أن عدد سرايا "الجيش" في إبان ذروة القتال من أجل القدس، كان مجرد ١٥ سرية، تشكّلت خمس منها من ميليشيات المتطوعين المجندين من قرى الحلقة الداخلية (أبو ديس والعيزرية وصور باهر وعين كارم وبيت صفافا)، أي ما يسميه الخالدي "القوات الريفية" (Khalidi 1987, 859). أمّا السرايا العشر الباقية فهي ميليشيات مجندة من المدينة بقيادة قادة فرعيّين (رابطت في البلدة القديمة ووادي الجوز والشيخ جرّاح والقطمون وماميلا والمصراوة ... إلخ) (أبو غربية ١٩٩٣، ٢٤٧). وكان المجموع العام لهذه القوات كلها لا يتجاوز ٧٤٠ مقاتلاً، بالإضافة إلى ١,٢٠٠ مقاتل تابعين للقوات العربية المشتركة (جيش الإنقاذ والفيلق العربي والجيش المصري) (أبو غربية ١٩٩٣، ٢٤٦-٢٤٧، ٢٦٥-٢٦٦). وكانت القوات سيئة التنظيم والتسليح. وتشير بيان نويهض الحوت إلى درجة عالية من التوتر ودرجة منخفضة من التنسيق بيت القوتين العربيتين الرئيسيتين: "الجهاد المقدّس" وجيش الإنقاذ، جزئيًا بسبب العداوة الشخصية التي كان القاوقجي يكنها للحسينيّين، وأساسًا بسبب الرؤى المتباينة لدول الجامعة العربية والفلسطينيّين (الحوت ١٩٨١، ٦١٥-٦١٦).

حسمت مواجهتان عسكريتان رئيسيتان مصير أحياء القدس الغربية وقراها. الأولى، المعركة الاستيراتيجية بشأن قرية القسطل (٣-٩ نيسان/أبريل ١٩٤٨)، والأُخرى تطويق قرية دير ياسين (٩ نيسان/أبريل ١٩٤٨) وتدميرها. وفي الصراع الدامي بشأن القسطل، تبادل العرب واليهود السيطرة مرتين على هذه القرية المشرفة على طريق القدس - يافا، لكن مقتل عبد القادر الحسيني، القائد الأعلى لقوات "الجهاد المقدّس"، في ليلة ٨ نيسان/أبريل، أدى إلى تدهور معنويات القوات الفلسطينية وإخلاء المنطقة بالغة الأهمية الواقعة في الجهة الشرقية منها (الحوت ١٩٨١، ٦٢٣-٦٢٤؛ أبو غربية ١٩٩٣، ٢٠٤-٢٠٩).[11] أمّا معركة دير ياسين فكان تأثيرها النفسي بالنسبة إلى نزوح السكان أخطر من نتائجها العسكرية. فالقتال نفسه جرى بين بضعة مسلحين من القرية وبين القوات المشتركة من "الارغون" ومجموعة "شتيرن". ولم يكن هناك أي وجود لقوات من "جيش الإنقاذ" أو من "الجهاد" (الحوت ١٩٨١، ٦٢٥؛ أبو غربية ١٩٩٣، ٢٢١-٢٢٢). وفي إثر استسلام القرية أُعلنت المجزرة وجرى تضخيم كبير من جانب القوات اليهودية (من أجل ترويع المقاومة في المنطقة وخارجها)، ومن جانب القادة السياسيّين الفلسطينيّين (من أجل استثارة ضغط

دولي غربي ضد الصهيونيّين). وبالغت الدعاية العربية كذلك في عدد ضحايا المجزرة من المدنيين (رفعت العدد من ١٢٠ إلى أكثر من ٤٠٠)، في البداية بسبب سوء تقدير عدد الضحايا، ولاحقًا، من أجل تأكيد هول المأساة (أبو غربية ١٩٩٣، ٢٢٢؛ كناعنة وزيتاوي ١٩٩١أ، ٥٧–٦١).[١٢] ونتيجة لذلك أصبحت القرية والمجزرة رمزًا للنكبة الفلسطينية، وتولّدت روح انهزامية شديدة الوطأة ساهمت في إخلاء القرى المجاورة. وكانت أحداث دير ياسين حاسمة في إخلاء لفتا وعين كارم والمالحة وغيرها. كما أدت، لاحقًا، في أيار/مايو، دورًا حاسمًا في سقوط القطمون والبقعة وماميلا والمصرارة.

نجد في كتاب "كي لا ننسى" وصفًا منهجيًا لعملية الطرد والنزوح هذه. والكتاب المذكور هو بمثابة مسح لما تعرضت له القرى الفلسطينية المدمَّرة، يستند إلى روايات شهود العيان العرب، ووثائق عسكرية إسرائيلية، وتقارير فلسطينية وأجنبية معاصرة للأحداث. وبين العمليات العسكرية الثلاث عشرة اليهودية المشار إليها أعلاه، كان لعمليتين دور حاسم في المحاولات الناجحة لإجلاء السكان الفلسطينيّين؛ الأولى، عملية نحشون (بدأت في ليلة ٣٠ آذار/مارس – ١ نيسان/أبريل ١٩٤٨)، التي وضع خطتها بن–غوريون نفسه، وشاركت فيها ثلاث كتائب من "الهاغاناه" و"البلماح"، ونُفذت في الإطار العام لخطة "دالت". وبحسب بني موريس، فقد تميزت العملية بأنها كانت "بِنيَّة بذل الجهود لتطهير منطقة بأسرها، وبصورة دائمة، من القرى العربية والقرويّين المعادين، أو الذين يمكن أن يصبحوا معادين" (Morris 1987, xvii-xviii, 111-115). وقد نجحت العملية في احتلال وتطهير قرى دير محيسن وخلدة (كلتاهما في قضاء الرملة، على حدود قضاء القدس) وقالونيا. وفي إطار عملية نحشون، وبالتنسيق مع "الهاغاناه"، هاجمت قوات "إرغون تسفائي ليئومي" و"ليحي" دير ياسين، وأسفرت المجزرة في القرية عن حالة ذعر واسعة النطاق وإخلاء عدة قرى مجاورة، منها لفتا وعين كارم (الخالدي ١٩٩٧، ٥٩٤–٥٩٥).

العملية الثانية، "ههار" (بدأت في ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨، بعد الهدنة الثانية)، شكّل رأس الرمح فيها لواءا "هرئيل" و"عتسيوني"، قادها يغآل ألون. وكان هدف العملية "توسيع الممر الإسرائيلي إلى القدس ووصله بالمنطقة المحتلة [من قبل القوات اليهودية] في هضاب الخليل" (الخالدي ١٩٩٧، ٦٣٧). ويعتقد موريس أن سكان المنطقة التي نُفذت فيها هذه العملية (بما فيها قرى علار ودير آبان وبربرة) طُردوا بأوامر ضمنية (أي غير مكتوبة) أصدرها يغآل ألون (Morris 1987, 217, 219-221). وقد إنتهى المطاف باللاجئين من هذه المناطق إلى بيت لحم وهضاب الخليل.

نتائج التشريد

أُجلي سكان ٣٨ قرية كبيرة وصغيرة من مجموع ٤٠ قرية من قرى قضاء القدس، بقيت في يد الجانب الإسرائيلي بعد إتفاقية الهدنة في عام ١٩٤٩، إلى الشرق من الحدود الجديدة (أنظر الخريطة والجدول المتعلق بقرى قضاء القدس). وفي حالات نادرة جدًا، مثل قريتي العنب وقالونيا، سُمح لعدد قليل من السكان بالتوطن في قرى مجاورة مثل أبو غوش. ولم يُسمح، عمليًا، لأي من لاجئي القدس بالعودة، على الرغم من بعض العروض الشكلية لإعادة اللاجئين، وقرارات الأمم المتحدة بهذا الشأن. وقد مكّن دمج القدس الشرقية والضفة الغربية، بعد حرب ١٩٦٧، في المناطق التي تسيطر عليها إسرائيل، الآلاف من لاجئي القدس من العودة في الفترة الأولى من الاحتلال لزيارة خرائب قراهم الأصلية. لكن هذه الزيارات أصبحت أشد صعوبة يومًا بعد يوم مع تشديد إسرائيل لحصارها على الفلسطينيّين ومنعهم من دخول المناطق التي تحت سيطرتها.

ماذا حدث لهؤلاء اللاجئين؟ من الملاحظ أن الأغلبية الساحقة من لاجئي القدس واصلت العيش في مناطق الجوار المباشر لبيوتها الأصلية، أي في نطاق يقل عن ١٠٠ كم من تلك القرى. وقد تحدثنا أعلاه عن بيانات تسجيل الأونروا، كمصدر رئيس للمعلومات بشأن عدد لاجئي القدس وأماكن إقامتهم. ونقطة الضعف الرئيسة في نظام السجل الموحَّد للأونروا ذات شقين: أولاً، بما أن الهدف الأساس لتسجيل الأونروا هو أن يكون إطارًا لتقديم خدمات الإغاثة، فإنه يخفض بصورة جوهرية عدد اللاجئين المدينيّين من الأحياء الغربية، وهم الذين لم يكونوا بحاجة إلى هذه الخدمات أو رفضوا تلقيها. وثانيًا، إنه لا يتضمن عدد اللاجئين الذين استقروا خارج نطاق حقل أنشطة الأونروا ولا يحدد وضعهم.[١٣] لكن هذه الفجوة هي أقل فيما يتعلق بلاجئي القدس الريفيّين الذين كانوا، في أغلبيتهم، بحاجة إلى الإغاثة، ونزعوا إلى الاستقرار في المخيمات وأماكن لجوء أُخرى واقعة ضمن نطاق مناطق خدمات الأونروا الخمس. ويبين الجدول ١ المناطق المتعدّدة لهذه التحركات:

الجدول ١

لاجئو ١٩٤٨ من القرى الغربية، الأحياء منهم في عام ١٩٩٧، بحسب البلد المضيف

مكان اللجوء	عدد اللاجئين	النسبة المئوية	عدد القرى المحتلة
الضفة الغربية	٣٦,١٣٠	٣٢,٧٪	٣٨
الأردن	٧٣,٩٠٨	٦٦,٩٪	٣٧
غزة	٩٩	٠,١٪	٦
سورية	٢٢١	٠,٢٪	٧
لبنان	٨١	٠,١٪	٦
العدد الإجمالي	١١٠,٤٣٩	١٠٠٪	٣٨

المصدر: معطيات استخلصها المؤلف من الأونروا ودائرة الإغاثة والخدمات الاجتماعية ونظام السجل الموحّد (المقر الرئيس في عمان)، ٢٢ أيار/مايو ١٩٩٧؛ أو قرى قضاء القدس التي وقعت تحت السيطرة الإسرائيلية في عام ١٩٤٨، بما في ذلك أبو غوش، ومع إستثناء بيت صفافا (أنظر الجدول ٣). تشمل الأرقام لاجئي عام ١٩٤٨ الذين ما زالوا وذريتهم على قيد الحياة.

إن مثال تشرّد اللاجئين الريفيّين جرّاء حرب ١٩٤٨ هو نمط مضاد لمصير اللاجئين المدينيّين. فقد انتهى المطاف بأغلبية الريفيّين الساحقة (٦٧٪) إلى الاستقرار بالأردن، بينما واصل ثلثهم (٣٣٪)، فقط، العيش في مخيمات الضفة الغربية للاجئين وأماكن أُخرى. وتتضمن النسبة الأعلى من اللاجئين، الذي انتهى بهم الأمر إلى الإقامة بالأردن (على الأغلب في عمان ومخيمات اللاجئين المحيطة بها)، عددًا كثيرًا من اللاجئين الذين شُردوا في حرب ١٩٦٧. وربما تفسرٌ الدرجة الكبيرة لاعتماد لاجئي المخيمات على خدمات الأونروا لماذا كان اللاجئون من أصول ريفية الذين استقروا بالأردن أكثر عددًا، في نهاية المطاف، من اللاجئين من أصل مديني. أمّا عدد لاجئي القدس من الريف الذين استقروا بسورية ولبنان وغزة، فلا يعتد به؛ إذ يشكّل أقل من نصف في المئة من المجموع.[١٤] ويواصل لاجئو القدس، في معظمهم، العيش على بُعد ساعات سفر فقط من مساكنهم السابقة، وغالبًا، على مرمى نطاق رؤية قراهم وبلداتهم.

الجدول ٢

البلدات والقرى المهجرة عام ١٩٤٨، قضاء القدس

الاسم	السكان العرب	مساحة الأرض ١٩٤٨ (بالدونمات)	تربيع الإجمالية (الإحداثيات)
إشوع	٧١٩	٥,٥٢٢	١٥١١٣٢
البُريج	٨٣٥	١٩,٠٨٠	١٤٣١٢٧
بيت أم الميس	٨١	١,٠١٣	١٥٧١٣١
بيت ثول	٣٠٢	٤,٦٢٩	١٥٧١٣٦
بيت عطاب	٦٢٦	٨,٧٥٧	١٥٥١٢٦
بيت محسير	٢,٧٨٤	١٦,٢٦٨	١٥٣١٣٣
بيت نقوبا	٢٧٨	٢,٩٧٩	١٦١١٣٤
جرش	٢٢٠	٣,٥١٨	١٥١١٢٦
الجورة	٤٨٧	٤,١٥٨	١٦٤١٢٩
خربة اسم الله	٢٣	٥٦٨	١٤٥١٣٢
خربة التنور	٠		١٥٤١٢٤
خربة العمور	٣١٣	٤,١٦٣	١٥٩١٣٣
خربة اللوز	٥٢٢	٤,٥٠٢	١٦٠١٣٠
دير آبان	٢,٤٣٦	٢٢,٧٣٤	١٥١١٢٧
دير رافات	٤٩٩	١٣,٢٤٢	١٤٦١٣١
دير الشيخ	٢٥٥	٦,٧٨١	١٥٦١٢٨
دير عمرو	١٢	٣,٠٧٢	١٥٩١٣١
دير الهوا	٧٠	٥,٩٠٧	١٥٣١٢٨
دير ياسين	٧٠٨	٢,٨٥٧	١٦٧١٣٢
راس أبو عمار	٧١٩	٨,٣٤٢	١٥٨١٢٧
ساريس	٦٥٠	١٠,٦٩٩	١٥٧١٣٣
سُفلى	٧٠	٢,٠٦١	١٥٣١٢٦

صرعة	٣٩٤	٤,٩٦٧	١٤٨١٣١
صطاف	٦٢٦	٣,٧٧٥	١٦٢١٣٠
صوبا	٧١٩	٤,١٠٢	١٦٢١٣٢
عرطوف	٤٠٦	٤٠٣	١٥٠١٣٠
عسلين	٣٠٢	٢،١٥٩	١٥٠١٣٢
عقّور	٤٦	٥،٥٢٢	١٥٧١٢٩
علّار	٥١٠	١٢،٣٥٦	١٥٥١٢٥
عين كارم	٣٦٨٩	١٥,٠٢٩	١٦٥١٣٠
قالونيا	١٠٥٦	٤,٨٤٤	١٦٥١٣٣
القبو	٣٠٢	٣,٨٠٦	١٦١١٢٦
القدس (المدينة الجديدة)	٤٥,٠٠٠	٢٠,٧٩٠	١٧٢١٣٢
القسطل	١٠٤	١,٤٤٦	١٦٣١٣٣
كسلا	٣٢٥	٨,٠٠٤	١٥٤١٣٢
لفتا	٢٩٥٨	٨,٧٤٣	١٦٨١٣٣
المالحة	٢٢٥٠	٦,٨٢٨	١٦٧١٢٩
نطاف	٤٦	١,٤٠١	١٥٦١٣٨
الولجة	١٩١٤	١٧,٧٠٨	١٦٣١٢٧
المجموع: ٣٨ قرية	٧٣,٢٥٦	**٢٧٢,٧٣٥**	

المصدر: Abu Sitta (1998).

الجدول ٣

أحداث عام ١٩٤٨ واللاجئون، قضاء القدس

الاسم	تاريخ التهجير في عام ١٩٤٨	النزوح والأسباب	العملية الإسرائيلية	المدافعون	درجة التدمير	اللاجئون المسجلون في الأونروا، ١٩٩٧
إشوع	١٨ تموز/أيلول	هـ			٦	٢,٩٤٣
البُريج	١٩ تشرين الأول/أكتوبر	هـ	هـ ل			٦,٠٩٩
بيت أم الميس	٢١ تشرين الأول/أكتوبر	هـ	هـ ل		٣	٢٦٢
بيت ثول	١ نيسان أبريل		ن ن		٣	١,٨٠٢
بيت عطاب	٢١ تشرين الأول/أكتوبر	هـ	هـ ل		٣	٤,٠٨٩

بيت محسير	١٠ أيار/مايو	هـ	م ك	ج إ	٦	١٧,٢٢٧
بيت نقوبا	١ نيسان/أبريل	هـ	ن ن		٦	٦٩٨
جرش	٢١ تشرين الأول/أكتوبر	هـ	هـ ل		٢	١,٣٤٣
الجورة	١١ تموز/يوليو		د ن		٤	٢,١١٠
خربة اسم الله	١٧ تموز/يوليو	د ن			٥	٤
خربة التنور	٢١ تشرين الأول/أكتوبر		هـ ل		٤	
خربة العمور	٢١ تشرين الأول/أكتوبر	هـ		ج م	٢	١,٦٤٦

خربة اللوز	١٣ تموز/يوليو		د ن		٢	٣,٦٩٩
دير آبان	١٩ تشرين الأول/أكتوبر	هـ	هـ ل	ج م	٣	١٤,٩٩٧
دير رافات	١٨ تموز/يوليو	هـ	د ن		٢	٤٩٢
دير الشيخ	٢١ تشرين الأول/أكتوبر				٢	٨٨٥
دير عمرو	١٧ تموز/يوليو	ط	د ن		٦	٢٤٧
دير الهوا	١٩ تشرين الأول/أكتوبر	هـ	هـ، ل	ج م	٢	٢٦٥
دير ياسين	٩ نيسان/أبريل	هـ/ط			٦ هـ + مدبحة	٣,٣٦٣

راس أبو عمار	٢١ تشرين الأول/أكتوبر	هـ	هـ ل		٢	٤,٠٣١
ساريس	١٦ نيسان/أبريل	هـ	ن ن	ج إ	٢	٣,٣٣٣
سُفلى	١٩ تشرين الأول/أكتوبر	هـ	هـ ل		٢	٣٨٣
صرعة	١٨ تموز/يوليو	هـ			٢	٢,٦٩٤
صطاف	١٣ تموز/يوليو	هـ	د ن		٣	٣,٧٧٧
صوبا	١٣ تموز/يوليو	هـ	د ن		٣	٣,٧٧٠
عرطوف	١٨ تموز/ يوليو	هـ			٥	٢,٧٦٦

عقّور	١٣ تموز/ يوليو	هـ			٣	١٠٩
علاّر	٢٢ تشرين الأول / أكتوبر	هـ	هـ ل	ج م	٤	٢,٧٢٣
عين كارم	١٨ تموز/يوليو	ت، هـ			٦	١٣,٩٧٨
قالونيا	٣ نيسان /أبريل	هـ	ن ن		٥	٥,٣٣٩
القبو	٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر	هـ	هـ ل		٢	٢,١٠٥
القدس (المدينة الجديدة)	٢٨ نيسان/ أبريل	هـ	ي ب، ك ن، ش ن، ك، د			١٠٢,١١٦
القسطل	٣ نيسان/ أبريل	هـ			٢	٧٣١

كسلا	١٧ تموز/ يوليو	هـ			٢	١,٢٣١
لفتا	١ كانون الثاني/ يناير	هـ			٦	١٣,٣٩٢
المالحة	١٥ تموز/ يوليو	ت، هـ	د ن	٦		١٠,٢٠٨
نطاف	١٥ نيسان / أبريل				٤	٢٢٦
الولجة	٢١ تشرين الأول/ اكتوبر	هـ	هـ ل		٤	٩,٥٠٤
المجموع						٢٤٦,٣٣٢

المصدر: Abu Sitta (1998).

مفتاح الجدول ٣

نزوح / الأسباب

ط = طرد

هـ = هجوم عسكري

ت = تأثير سقوط بلدة أُخرى

العملية الإسرائيلية

ن ن = نحشون (٦ – ١٥ نيسان/أبريل)؛ طريق تل أبيب – القدس

هـل = هرئيل (١٣ – ٢٠ نيسان/أبريل)؛ ضد القرى على طريق القدس

د ن = داني (٧ – ١٨ تموز/يوليو)؛ ضد اللد والرملة والقرى المجاورة

م ك = مكابي (٨ – ١٦ أيار/مايو)؛ ضد القرى في منطقة اللطرون

ي ب = يبوسي (٢٦ – ٣٠ نيسان/أبريل)؛ ضد القرى في منطقة القدس

ك ن = كلشون (١٤ أيار/مايو)؛ ضد القدس الغربية العربية والبلدة القديمة

ش ن = شفيفون (١٤ أيار/مايو)؛ ضد البلدة القديمة للقدس

ك د = كيدم (١٧ تموز/يوليو)؛ ضد البلدة القديمة للقدس

المدافعون

ج م = الجيش المصري

ج إ = جيش الإنقاذ

درجة التدمير

١ = محو شامل

٢ = تدمير، أنقاض ظاهرة

٣ = إزالة، جدران قائمة

٤ = إزالة معظم البيوت، بيت واحد قائم

٥ = إزالة شبه كاملة، حتّى لعائلتين يهوديتين تقطنان في الموقع

٦ = أكثر من عائليتين يهوديتين يحتل بيوتًا في الموقع.

هوامش

١ يجب الحذر هنا من الإستعمال المغلوط لكلمتي عربي ويهودي؛ فكثيرون من اليهود كانوا عربًا (بالمعنى اللغوي على الأقل)، ونسبة ليست قليلة من الفلسطينيين العرب كانت في الواقع تشكل من أقليات غير عربية، مثل اليونان والأرمن. إلا إن المستعمرات المشار إليها هنا كانت في الغالب، تتكوّن من اليهود الأشكناز الذين يستعملون الايديش في تعاملهم اليومي، ولا يمكن اعتبارهم عربًا في هذا الحال.

٢ يُلفَت نظر القارئ إلى أنه يجب الحذر من إقامة إفتراضات بشأن التطابق بين حيازة الملكية في القدس وبين استئجارها أو استعمالها من قِبل مجموعات إثنية أو طائفية.

٣ راجع، على سبيل المثال: العارف ١٩٦١؛ العامري ١٩٧١.

٤ راجع: UNRWA Registration Manual (Codes), 95. 10 (Amman: HQ, no date).

٥ لقد استثنينا من هذه الأرقام فئتي "فقراء القدس" و"القدس القديمة"، وعليه، فإن النتيجة تشمل النازحين الذين طُردوا من المناطق التي احتلتها إسرائيل في عام ١٩٤٨.

٦ لقد استثنينا من هذه البيانات جميع القرى التي لم تحتلها إسرائيل في لواء القدس عام ١٩٤٨، لكننا شملنا اللاجئين من قريتي أبو غوش وبيت نقّوبا.

٧ للحصول على معلومات عن مواطني القدس الشرقية الذين لجأوا من القدس الغربية ومن مناطق أُخرى احتلتها إسرائيل في عام ١٩٤٨، أنظر: دولة إسرائيل ١٩٦٨، الجدول رقم ١٧ والجدول رقم ١٨ ("عدد السكان الذين هم فوق سن ١٥، بحسب منطقة السكن قبل حرب ١٩٤٨").

٨ ملتزمون: محصلو الضرائب، وهو منصب كان يمنح لمن يدفع أكثر، أو للعائلات المسيطرة.

٩ أقتسم العرب واليهود السيطرة على بيت صفافا فقط. والمساحة المشار إليها هنا هي مساحة الأرض المقام عليها الأبنية، لأن مساحة الأراضي التي كانت تملكها القرية أوسع من ذلك كثيرًا. وترد في "كي لا ننسى" أرقام مختلفة بعض الشيء: ٤٢٦ دونمًا (مساحة مبنى عليها) بالنسبة إلى قرية لفتا، و١٠٣٤ دونمًا بالنسبة إلى عين كارم. وربما كانت الأرقام الأدنى تشير فقط إلى المساحة المملوكة لعرب.

١٠ شارك أبو غربية شخصيًا في معركة القسطل.

١١ وتدعي الدراسة الثانية، المستندة إلى شهادات شفهية، أن قائمة أسماء القتلى في دير ياسين المنشورة فيها هي القائمة الأشمل، وذلك بناء على إفادات الناجين.

أداء المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ في حرب عام ١٩٤٨

"السنديانة" نموذجًا

نمر سرحان

نمر سرحان هو باحث متخصص في التاريخ والفولكلور الفلسطيني، وكاتب للقصة القصيرة والرواية. أصدر العديد من الدراسات المهمة في هذين المجالين. حاصل على الدكتوراه من جامعة بيروت العربية. عضو مؤسّس في اتحاد الكتاب الفلسطينيّين. أشغل منصب مدير دائرة الفنون الشعبية في وزارة الثقافة الفلسطينية (١٩٩٨-٢٠٠٥).

١. السنديانة

هجر والدي محمّد سرحان قرية السنديانة مع عائلته في ٢٥ نيسان عام ١٩٤٨، وكنت إذ ذاك مع العائلة التي سارت على الأقدام من السنديانة إلى قنير وكفر قرع وباقة الغربية وطولكرم، وصولاً إلى الطيّبة. خرجنا ونحن نحمل طمأنات بأنّنا سنعود إلى قريتنا، بعد أن تدخل الجيوش العربيّة وتحرّر فلسطين بعد الخامس عشر من أيّار. لقد كتبتُ تفصيلات كثيرة عن حدث الخروج من السنديانة في أعمال أدبية نشرتها، كالقصص القصيرة، والبحث الفولكلوري وروايتي "النـزلة" التي نشرت في عمّان عام ١٩٩٥.

قبل الخروج بأيّام، كنت أراقب تصرّفات والدي وأعماله. كان يبدو عليه القلق والخوف والتحسّب. كان متردّدًا، ولم يكن قد حسم أمره. قبل يوم الخروج، ٢٥ نيسان، كان يحمل بندقيّته، ويضعها في جواره عند نومه. وذات صباح، نهض ليحفر استحكامًا بين بيته ودكانه، وبالفعل حفر الاستحكام. الرجل كان يعيش حالة من عدم الحسم، وكان يتّخذ قراراته بمفرده، ولا يتشاور مع أية جهة سواء عشائرية كانت أم سياسيّة أم عسكريّة. بدأ يتحدّث لزوّاره في الدكّان عن عزمه على مقاومة اليهود حين مجيئهم المرتقب، من خلال هذا الاستحكام، وحماية الحارة الشرقيّة في القرية. كان والدي قد سمع بالمجزرة التي حلّت بقرية دير ياسين (القدس)، في ٩ نيسان عام ١٩٤٨، بفعل منظّمتي إرغون وشتيرن، والتي ذبح رجال هاتين المنظّمتين خلالها رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخًا دون تمييز، ثم حملوا الأسرى وطافوا بهم في شوارع القدس في موكب نصر. وراجت الإشاعات عن اعتداءات وحشيّة على السكّان واغتصاب للنساء. وبلغ عدد الضحايا من كلّ فئات السكّان ٢٤٥، هذا مع العلم بأنّ دير ياسين كانت قد وقّعت مع اليهود اتّفاق عدم اعتداء. وبعد ورود هذه الأخبار، كان والدي في غاية القلق على مصير عائلته التي تضمّ زوجته وابنه (أنا) وأربع بنات تتراوح أعمارهنّ بين ١٣ وَ ٢٢ عامًا.

وكان من الواضح أن والدي قد رسا على قرار جديد ثالث، وهو أن يقتل زوجته وبناته الأربع بالرصاص، لئلاّ يقعن في أيدي الأعداء. ولم يكن هذا القرار بينه وبين نفسه، بل تحدَّث عنه، وسمعته منه. ولكن والدي سرعان ما غيرَّ رأيه وتوصَّل إلى قراره الثالث والأخير، والذي حدَّد فيه فجر الخامس والعشرين من نيسان ليهاجر مع عائلته إلى الطيّبة عند أبناء شقيقته من آل البرانسي. وقد حاول بعض الجيران أن يثنوه عن قراره، ولكنّه كان مصمِّمًا على ذلك.

ويجوز لنا الاعتقاد بأنّ هذا التردُّد والتناقض واتّخاذ القرارات المرتجلة كان سائدًا، ربمّا في كلّ قرية فلسطينيّة. كثيرون جدًّا من القرويّين الفلسطينيّين أرسلوا النساء والشيوخ والأطفال إلى مواقع أكثر أمنًا، ثم عادوا إلى قراهم يحملون بنادقهم ليشاركوا في أعمال الدفاع عن قراهم، وهكذا فعل والدي؛ فبعد أن أوصل عائلته إلى الطيّبة (في المثلّث) عاد إلى السنديانة مع بندقيته "العصمليّة" ونحو ١٠٠ طلقة من نوع إف.إم.

عندما عاد والدي إلى السنديانة، بعد تأمين عائلته في الطيّبة، وجد أن بعض العائلات قد حذت حذوه، وهاجرت بكاملها، أو أرسلت النساء والشيوخ والأطفال إلى مكان آمن، مثلما فعل بعض أفراد عائلة النزازلة بترحيل نسائهم وأطفالهم إلى قباطية. استمرّ هذا الوضع على شكل هجرة جزئيّة وفرديّة حتّى ٨ أيّار عندما حدثت معركة كفر قرع، حيث ذهب عدد من مقاتلي السنديانة إلى المعركة وشاركوا فيها، ثم عادوا إلى السنديانة وسط مخاوف من أنّ اليهود سوف ينتقمون من أهل السنديانة لاشتراكهم في معركة كفر قرع.

كانت السنديانة لا تزال تعيش ذكريات الصراع العائليّ الذي مزّق القرية خلال ثورة ١٩٣٦–١٩٣٩، عندما قامت عناصر مشبوهة بقتل الشيخ محمّد المقبل، زعيم البواقنة، وولده عبد الكريم، مما أدَّى إلى ظهور "فصيل سلام" (ثورة مضادّة) بقيادة مقبل الشيخ محمّد المقبل الذي كان حتّى تاريخ مقتل والده (١٩٣٩/١/٥) يقاتل مع الثوّار ضمن فصيل السنديانة. وبعد وقت قصير، قام مجهولون بقتل الحاجّ مرشد نزّال، زعيم النزازلة، العائلة المقابلة، دون التأكّد من هويّة الجهة التي قتلت الشيخ محمّد المقبل من قبل. وعليه، فقد كانت قرية السنديانة تعيش حالة من عدم الثقة وعدم الأمن، بل حالة عداء عشائريّ مستحكم. فكيف، إذًا، ستقاتل قرية يسودها مثل هذا الجوّ العدائيّ بين العشيرتين الرئيسيّتين؟ وكانت العشيرة التي شكّلت فصيل السّلام خلال ثورة ١٩٣٦–١٩٣٩ تراهن على تعاطف "يعقوب المختار" من زمّارين (زخرون يعقوب حاليًّا)، كي يتوسّط

لدى السلطات اليهوديّة لتسمح لسكّان السنديانة بالبقاء في بلدتهم بسلام. لقد عرضت فئة من أهل السنديانة على مختار زخرون يعقوب التفاهم واتّفاق السلام، ولكنّ اليهود اجتاحوا السنديانة وهي في أضعف نقطة من موقفها، عندما هجرها معظم سكّانها قبيل الخامس عشر من أيّار.

راجت شائعات مفادها أنّ جواسيس من أهل السنديانة ذهبوا إلى زمّارين، وأخبروا اليهود بمشاركة أهل السنديانة في معركة كفر قرع. وهكذا بدأت عمليّة رحيل مكثّف من سكّان السنديانة، بعد المعركة، وخاصّةً أنّ ٢٤-٤٠ مقاتلاً من أهل السنديانة قد شاركوا في المعركة المذكورة، وكان من بينهم مقاتلون من عائلتين رئيسيّتين من عائلات القرية: شفيق شريف الحاجّ حسين، محمّد عبد العبد الله الميتاني، محمّد العبد الحسين الميتاني، محمّد إبراهيم العلي، داهود محمّد الميتاني، ابن أبو شحادة أبو الشلاحيط. والسؤال المهمّ هو: لماذا لم يساعد يعقوب، مختار زمّارين، أهل السنديانة، على البقاء في قريتهم؟ يقال إنّه كان راغبًا في ذلك، باعتبار أنّه كان المشرف والمموّل لفصيل السلام في السنديانة خلال ثورة ٣٦-٣٩، لكنّ القوّة التي احتلّت السنديانة وصبّارين والقرى المجاورة كانت من عصابة الإرغون، التي لا يستطيع يعقوب المختار أن يتفاهم معها، أو يضغط عليها من أجل بقاء أهل السنديانة في بلدهم.

يوم احتلال القرية

جاء في معرض سرد رواية لسعيد الشريف عن يوم التهجير ما يلي: "أوّل يوم لرحيلنا[1] كان الحادي عشر من أيّار. خرج أبو الأديب (المختار) وأخوه شريف، وقد ركبنا الخيل وحملنا جزءًا من الأثاث والمتاع على متن جملين. بقيت أنا حتّى تعود الخيل والجمال في اليوم التالي، فنكمل عمليّة النقل، وحمّلنا الجمل الثاني. وعندما عادوا في اليوم الثالث وجدوا البلد محتلاً. كان أخي معين وأبو ابريموس والجمّال أبو عطية وعدد قليل من الناس لا يزالون في القرية.

وعندما رحلنا إلى دير الغصون،[2] عرفنا أنّ كيلو القمح بِيعَ بـ ٣٥ قرشًا - وهو سعر عالٍ. ونحن كنّا نملك عشرين طنًّا من القمح (بقيمة سبعة آلاف جنيه فلسطينيّ؛ وهو مبلغ كبير جدًّا). لذلك قرّرنا أن نواصل عمليّة نقل القمح إلى دير الغصون. طلب منّا أبي أن نعود إلى السنديانة لنقل القمح. رجعت مع ابن عمّي سعيد الشريف، وحملنا أكياسًا على ظهور البغال، في الليل، من السنديانة، وعدنا إلى دير الغصون، وفي صباح اليوم التالي عاد ابن عمّي سعيد الشريف إلى

السنديانة، وكان ابن عمّي معين قد عاد إلى القرية، بعد أن رأى وعورة جبال دير الغصون وصعوبة العيش فيها، فقال: أموت في السنديانة. وعندما وصل إلى "ظهرة العين" (مقابل البلد، جنوبًا)، وجد اليهود في "مقام العلّام"، ولم يجرؤ على دخول البلد. كان ابن عمّي معين وأمّه وآخرون لا يزالون في البلد. هرب بعض الناس، ورفض آخرون مغادرة البلد، وأقاموا يومين فيه. كان بعضهم في زخرون يعقوب يبيعون الجبن، وعندما عادوا كان المحتلّون في القرية. قام المحتلّون بجمع من تبقّى في البلد وسألوهم عمّا إذا كانوا سيبقون فيه، وحين أجابوا بالإيجاب قال لهم المحتلّون: المختار خرج وعليكم أن تخرجوا. وجمع رجالُ العصابة اليهوديّة مَن تبقّى في البلد في دار طالب، في أقصى جنوب القرية، وحجزوهم مدّةً ما، وفتّشوهم تمهيدًا لطردهم.[٣]

سمعنا[٤] أنّ اليهود قد جاؤوا وطوّقوا السنديانة. خرجت مع أسرتي إلى حاكورة "أبو عثمان" لنختفي في "الوعر". زوجتي قالت لي: اذهب إلى الوعر، ونحن نعود إلى القرية. قلت لها: كيف أذهب؟! إمّا أن نموت معًا أو نعيش معًا. عدنا إلى دار المختار. كان هناك مسلّحون يهود يطلقون النار. رفعنا أيدينا لنشير بذلك إلى التسليم. كان هناك ضابط يهوديّ اسمه غزال (من زمّارين)، وكان يعرف حسن السرحان. خاطبتُ غزال قائلًا: مرحبًا خواجا غزال. وردّ غزال: مرحبًا، وين حسن السرحان؟ قلت (كاذبًا): إنّه في زمّارين (زخرون يعقوب). قلت ذلك على أمل أن يبقينا غزال في البلد. ولكنه لم يفعل شيئًا. اكتفى بإصدار أمر بإيقاف إطلاق النار. ثمّ طلب منّا أن نضع كلّ ما لدينا على الأرض. وضع الناس علب السجائر والولّاعات على الأرض، ثم اقتادونا إلى جنوبي القرية (إلى دار طالب، حيث الجيش)، وهناك مكثنا في الدّار يومًا أو يومين، ثم أخذونا إلى دار أبو الحبنطر، وسألونا عمّا إذا كنّا نحمل سلاحًا، فقلنا لهم إننا أناس مسالمون. ثم سألَنا الضابط إذا كنّا نملك فلوسًا. وأخذوا منّي ليرتين فلسطينيّتين، وهويّتي. وحينها قال لنا الضابط: الآن تذهبون إلى الملك عبدالله (ملك الأردنّ). قلت: نحن أناس مسالمون، اتركونا في بلدنا. سأل الضابط: أين ذهب الآخرون من أهل البلد؟ قلت له: هربوا. قال: إذن عليكم أن تذهبوا إلى الملك عبدالله! قلت له: إذًا اتركونا نذهب إلى الفريديس، فهناك أقاربنا. قال: عليكم أن تذهبوا إلى الملك عبدالله. وبعد ذلك سرنا باتجاه الجنوب، وعندما وصلنا إلى وادي الخضيرة، بدأ اليهود بإطلاق الرصاص علينا من جبال صبّارين، بهدف التأكّد من دفعنا للهجرة جنوبًا. وعندها، اضطُررنا إلى أن نجلس عند حافة الوادي، قرب الماء. كان وادي الخضيرة في ذلك الوقت من السنة يفيض ماءً. ثم جاء اليهود إلى حيث نجلس، وطلبوا منّا أن نعبر الوادي قائلين: يجب أن تذهبوا إلى الملك عبدالله.

وسرنا بعد ذلك إلى قرية أم الشوف. كان الوقت عصرًا، وكانت أم الشوف قد خلت من سكّانها.

عند مساء الليلة الأولى لاحتلال السنديانة، وصل محمّد الإبراهيم بن الحاجّ علي المسعود الميتاني وأخوه أبو عقل من قلنسوة إلى السنديانة. وصف جولته في القرية على النحو التالي:

دخلنا السنديانة من جهة دار مقبل الشيخ، وسرنا إلى البيادر التحتى. ووصلنا مراكيس الشيخ عبد [.....] وإلى حيث مَقيل العجّال، عند دار الحاجّ مرشد نزّال. كان هناك ضوء ينبعث من دار الحاجّ مرشد، من العلّيّة. كان اليهود مقيمين في تلك الدار. وعند المقيل وقفت الدوابّ التي عادت من المرعى دون أن تعي أنّ أصحابها قد غادروا السنديانة إلى غير رجعة. وعبرنا إلى الشارع حيث تقع دار حسن الصالح. كان الدجاج يهيم على وجهه في الطرقات، وأمّا الحمير فكانت تنهق، والكلاب تنبح. وعبرنا من شارع دار الزرزوري الى جامع السنديانة. كان الزقاق صامتًا صمت القبور. وعندما بلغنا ساحة الجامع، وجدنا المصاحف مبعثرة في ساحته. وعند باب الجامع كانت هناك مصاحف ممزّقة، وأخرى ملقاة في كلّ مكان. صعدت الدرجات إلى ظهر الجامع، وصعد معي أخي "أبو عقل". ذهبنا إلى دار صبري الحمد عصفور، وسرنا باتّجاه البيادر الفوقى. عدنا إلى ساحة الجامع، ودخلنا الزقاق المؤدّي إلى حوش جدّي الحاجّ علي المسعود الميتاني. رأينا الأبواب مفتوحة. وبسبب العتمة لم نرَ ما إذا كان هناك أمتعة أم لا. وعندما خرجنا من الحوش قلت لنفسي: هذه آخر مرّة أرى فيها حوش جدّي.

بعد هذا الاستعراض لذكريات احتلال السنديانة يمكن أن نصل إلى عدد من الاستنتاجات:

١) لقد تصرّف أهل القرية كلٌّ بناء على تقديره للأمور، إذ لم تكن هناك قيادة موحّدة في القرية. هناك من فرّ بعائلته، وهناك من فرّ تحسّبًا لانتقامٍ يهوديٍ لأنه شارك في الدفاع عن قرية كفر قرع المجاورة. أمّا مختار القرية وعشيرته البواقنة، فقد تأخّروا في الرحيل عن القرية حتّى الثالث عشر من أيّار، وربما كان هناك حوار مع مختار زمّارين وعرض للاستسلام بهدف البقاء في القرية، ولا شكّ أنه اكتشف، لاحقًا، أن البقاء في القرية غير ممكن.

٢) كان هناك ما بين ٢٤-٤٠ مقاتلاً مسلّحًا ببنادق ورشاش واحد. كانوا مستعدّين للدفاع عن القرية، والانطلاق لنجدة قرية مجاورة. تلك هي قوة بسيطة لا قِبَل لها بمقاومة الهاغاناة التي

تملك المدافع والسلاحين الجوّيّ والبحريّ، ولها قيادة عسكريّة منظّمة وعناصر مدرّبة على فنون القتال.

٣) إنّ ما ذكرته عن تردّد والدي، وعدم تيقّنه ممّا يجب أن يفعله، ربّما كان نموذجًا عامًّا لأمثاله في العديد من القرى الفلسطينيّة التي كانت ريشةً في مهبّ الريح، لا تملك خطّة ولا قيادة ولا برنامجًا مؤكّدًا.

٤) بعض سكّان السنديانة ظلّوا فيها حتّى آخر لحظة. أحدهم (زيدان سوالمة) ذهب، يوم الاحتلال، إلى زمّارين لبيع الجبن. ومعنى ذلك أنّه كان قد قرّر عدم الخروج من القرية. وفي المقابل، كان هناك المحتلّون اليهود الذين أصرّوا على طرد السكّان الذين رجوهم أن يُبقوهم في القرية، أو أن يسمحوا لهم بالبقاء في الفريديس. ولحق المحتلّون بالمطرودين، وأطلقوا الرصاص باتّجاههم لدفعهم إلى بلاد "الملك عبد الله" في إصرار على احتلال قرية خالية من سكّانها.

وسنجد، عند دراستنا لأداء المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ، أنّ أداء قرية السنديانة يمكن، في الكثير من ملامحه، أن يكون نموذجًا للأداء في سائر قرى فلسطين: استعداد للمقاومة، واستعداد للاستسلام، وغياب القيادة الموحّدة، وطرد للسكّان، من جانب المحتلّين، حتّى بعد تلقّي هؤلاء الأخيرين عرضًا من جانب القرويّين بالاستسلام وتوقيع اتّفاق سلام. كان الاحتلال يعرف جيّدًا ما يريد، وينفّذ قرارًا مركزيًّا: طرْد السكّان – وإنِ استسلموا.

٢. أداء المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ في حرب عام ١٩٤٨

لم يكن المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ موحّدًا قبيل عام ١٩٤٨ وبُعيده، من حيث أداؤه في الدفاع عن نفسه ودرء الهجوم عنه، ، ولم تكن لديه قيادة سياسيّة أو عسكريّة واحدة، على النقيض من المجتمع اليهوديّ الذي كانت له قيادة سياسيّة وعسكريّة قبل ١٥ أيّار عام ١٩٤٨، ثم بعد ذلك أصبحت له دولة وحكومة شكّلت استمرارًا للقيادة السياسيّة قبل ١٥ أيّار. صحيح أنّه كانت هنالك في فلسطين قيادات عسكريّة للدول العربيّة التي دخلت جيوشها فلسطين عشيّة ١٥ أيّار، بعد دخول قوّاتها، ولكنّها لم تكن توجّه المسلّحين الفلسطينيّين في القرى بصورة منظّمة وكاملة. وكانت هناك قيادة لتنظيم فلسطينيّ هي "الجهاد المقدّس"، بقيادة عبد القادر الحسيني، ولكن هذا التنظيم لم يكن يوجّه كلّ القرى الفلسطينيّة ومسلّحيها، بل كان هذا التنظيم يعمل، بصورة أساسيّة، في منطقة القدس فحسب.

كانت القرى الفلسطينيّة الأخرى تدافع عن نفسها، أو تقاتل كلٌّ بمفردها، وفي أحسن الأحوال كان مسلّحون من مجموعة قرى متجاورة يتعاونون، أو كانت هناك نجدات تأتي للدفاع عن قرية تهاجمها الهاغاناة أو المنشقّون (الإرغون وسواها). وفي غالبيّة الأحوال، كان التعاون يجري بصورة عفويّة وارتجاليّة، وبدافع ذاتيّ. القيادة السياسيّة الفلسطينيّة بزعامة الحاجّ أمين الحسيني واللجنة العربيّة العليا كانت خارج فلسطين. وفي حين اجتمعت القيادة السياسيّة عشية ١٥ أيّار وأعلنت قيام دولة فلسطين، مُنِعت القيادة السياسيّة الفلسطينيّة من الدخول إلى فلسطين من غزّة ومن الأردنّ. وهكذا بقيت القرى الفلسطينيّة بلا قيادة، أو تحت جناح هذه الدولة العربيّة أو تلك. ومن الناحية العمليّة، كانت كلّ قرية تعالج مشاكلها وحدها، سواء في أمور الدفاع أو الهجوم أو التفاوض من أجل حفظ السلام (اتّفاقات لتجنّب الحرب)، إضافة إلى أنّ المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ كان قد خرج من ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ منهكًا مهزومًا محطّم القوى، وقد خسر أعدادًا كبيرة من الأرواح، وأصيب آلاف الجرحى، وتعطّلت حركة نموّه، كما خرج منقسمًا، إثر صراع مُرّ بين المعارضة والمجلسيّين، ولم يأخذ مكانه على الساحة السياسيّة، وعلى الساحة العسكريّة.

وهكذا، كان هناك بون شاسع بين وضع المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ ووضع "الييشوف". الأول كان محطّمًا منهكًا، بلا قيادة حقيقيّة تحيا بين ظهرانيه، والثاني كان قد أنضج قيادته العسكريّة، وبنى جيشه وقيادته السياسيّة، وأعلن دولته. وكان على القرى الفلسطينيّة، التي لا تملك سوى النزر اليسير من السلاح، أن تخوض حربًا دفاعيّة غير متكافئة مع جيش الهاغاناة الذي كان لديه المُدافع والقوّة البحريّة والقوّة الجوّيّة كذلك، وكانت لديه بنية عسكريّة منظّمة، وألوية قتاليّة تدرّبت على أحدث الأسلحة مع الحلفاء في الحرب العالميّة الثانية.

لقد قام كاتب هذه السطور بدراسة الظروف التي أفضت إلى احتلال ٤٢٠ قرى فلسطينيّة في حرب عام ١٩٤٨، وتدميرها وطرد سكّانها (بصورة مباشرة أو غير مباشرة). وكان ذلك بغية استخلاص النتائج للتعرّف على حقيقة ما حدث، وكيفيّة أداء المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ، ومعرفة ما أثّر على هذا الأداء – سواء في دعمه أو الضغط عليه ممّا أدّى إلى انهياره.

فيما يتعلّق بتهجير الفلسطينيّين وطردهم، دأبت الرواية الرسميّة الإسرائيليّة، ورواية الجيل الذي حارب عام ١٩٤٨ وأقام دولة إسرائيل، على القول إنّ الفلسطينيّين غادروا قراهم بمحض إرادتهم وأحيانًا بتحريض من الدول العربيّة، والجيوش العربيّة التي أعلمتهم بأنّهم يجب أن يهجروا قراهم

ريثما تدخل الجيوش العربيّة وتهزم إسرائيل وتعيدهم.[5] الأسئلة التي تثار هنا هي:

- هل فرّ الفلسطينيّون من قراهم بمحض إرادتهم؟

- هل فرّوا خوفًا من الهجوم والعنف، وتساقط القذائف؟

- هل فرّوا في خضمّ حرب نفسيّة، وإشاعات، ونصائح ودّية من اليهود مغرِضة؟

- هل فرّوا، أم طُردوا بالقوّة، أم دُفعوا دفعًا للخروج من قراهم بإطلاق الرصاص من فوق رؤوسهم؟

- هل طلب القرويّون الاستسلام، وعرضوا اتّفاق سلام، ومع ذلك رُفض طلبهم، ثم طُردوا بالقوّة؟

- هل فرّ الفلسطينيّون بعد مجزرة في بلدهم أو بلد مجاور، وهل جاء الفرار إثر سقوط قرية مجاورة أو مدينة كبيرة من حولهم؟

- وهل ما حصل في بعض القرى هو "غير معروف"؟

- وهل ما حصل كان بناءً على خطة إسرائيليّة وقرارات حكوميّة؟

إنّ ما حصل هو عمليّة طرد وفرار اختلفت أشكالها ودوافعها وأسبابها، ولكنّها لم تكن طوعيّة وغير مبرَّرة.

وفيما يتعلّق بمسألة فرار السكّان وجدنا الحالات التالية (الخالدي ١٩٩٧):[6]

	عددالقرى
قرى فرّ منها السكّان بعد سقوط مدينة مجاورة أو قرية مجاورة	٢٠
قرى فرّ منها السكّان خوفًا وذعرًا	٣٠
قرى فرّ منها السكّان بعد نصيحة مغرضة من اليهود	١٠

قرى فرّ منها السكّان بعد معركة كبيرة	٣٠
قرى فرّ منها السكّان بعد مشاركتهم في نجدة قرية مجاورة	٣٠
قرى فرّ منها السكّان خوفًا من هجوم يهوديّ	١٨
قرى فرّ منها السكّان إثر مجزرة وبسببها، أو إثر سماعهم أخبار مجازر	٧٠
قرى أُخليت من النساء والأطفال قبل الهجوم	١٧
قرى فرّ منها سكانها بعد إنذار، وشائعات وحرب نفسيّة وإرهاب	١٠
قرى فرّ سكّانها تحت القصف	٥٠
قرى فرّ سكّانها بعد فظائع ومجازر ارتكبت فيها	٤٠
قرى بُطش بها بغيةَ إرهاب قرية أخرى وفرّ سكّانها	٦٠
قرى فرّ سكّانها برفقة جيوش عربيّة منسحبة	١٢

وهكذا، فإنّ ٢٦٪ من القرى الفلسطينيّة قد فرّ سكّانها تحت ضغوط شتّى، ولم يكن من بين أسباب الفرار سبب يؤيّد الرواية الإسرائيليّة التقليديّة التي مفادها أنّ العرب قد فرّوا بمحض إرادتهم. كان طرد السكّان ودفعهم إلى الفرار عملاً محسوبًا ومدروسًا -وإنْ أراد الفارّون غير ذلك.

وقد قمنا بإحصاء قرى طُرد سكّانها رغم أنّهم عرضوا التفاهم من أجل السلام، كقرية الخالصة -على سبيل المثال. وفي قرية الفراضية (صفد)، جرى احتلال القرية رغم استسلامها. واحتلّ اليهود قرية كفر سابا، رغم الاتّفاق على السلام. وعرض سكّان قرية كوفخة في غزّة طلب استسلام قدّمه السكّان مرارًا مقابل أن يبقوا في قريتهم. وقد رأينا، عند استعراض ما حدث في قرية السنديانة، أنّ إبراهيم سرحان طلب من الضابط غزال (تسفي) الذي يعرفه جيّدًا أن يسمح لمن تبقّى من أهل السنديانة بالبقاء في بلدهم، ورفض المحتلّون. ولم يشفع لإبراهيم سرحان أنّه كان قبل أقلّ من عشر سنوات عضوًا في فصيل السلام (الثورة المضادّة). وفي قرية اجْليل (يافا) طلب

السكّان السلام، بيد أنّ ذلك كان دون جدوى. أمّا زعماء الشيخ مؤنس الذين فاوضوا من أجل السلام فقد اختطفوا. ولم نسمع بمفاوضات نجحت في إبقاء السكّان وإعادتهم إلى قريتهم، سوى ما حدث في كفر قرع وعيلبون وحالات أخرى قليلة.

هناك شواهد أخرى تدل على أنّ أسلوب الاحتلال وكثافة النيران يشيران إلى أن دفع الناس للفرار كان مقصودًا. إنّ قوات الهاغاناة التي احتلّت قالونيا (القدس) فجّرت مجموعة من المنازل، وخلّفت وراءها القرية كلّها طعمة للنيران، مما جعل الناظر الى القرية يظنها بركانًا ثائرًا. هذا التدمير أثناء الهجوم ليس له سوى تفسير واحد، وهو: دفع الناس للفرار بهدف التخلّص منهم. وكذلك يتّضح من مهاجمة قرى قبّاعة وفرعم ومغر الخيط التي قُصِفت بمدافع الهاون لليلة من القصف بهدف حمل العرب على مغادرتها والفرار تحت وطأة النيران، ويبدو الإصرار الإسرائيليّ على طرد السكّان ودفعهم للفرار واضحًا، إذ طردت إسرائيل ٢٢٠٠ نسمة من سكّان كراد البقّارة وسواها ممّن وقعوا في المنطقة المجرّدة من السلاح، عام ١٩٥٦، مستعملة ضغوطًا شتّى. ومن الشواهد الناصعة على ما ذكرناه أنّ شاحنات الجيش الإسرائيليّ قد أرغمت سكّان الجاعونة وقدّيثا والخصاص على الصعود إلى الشاحنات بالرفسات والشتائم والإهانات –كما ذكر المؤرخ الإسرائيليّ بيني موريس. ويقول موريس إن الجيش الإسرائيليّ أكرهَ السكّان على تهديم منازلهم بأيديهم وعاملهم معاملة البهائم، ثم أنـزلوهم من الشاحنات على سفح تل أجرد في جوار قرية عكبرة، وتُركوا هناك تائهين في البرّيّة عطاشًا وجياعًا. ولا بد من الإشارة، لتعزيز ما نقول، إلى ما ذكره المؤرخ الإسرائيليّ موريس ممّا كتبه يغئال ألون حول أنّ طرد السكّان في الجليل كان يهدف إلى خلق تواصل بين المستوطنات اليهوديّة، وإلى تطهير المنطقة من القوّات العربيّة والسكّان معًا لأغراض أمنيّة؛ إذ كان الطرد ودفع السكّان للفرار مبرمَجا.

وفي حالات أخرى، دُفِع القرويّون الفلسطينيّون إلى الفرار بإطلاق النار فوق رؤوسهم، مثلما حصل لسكّان الطابغة وإِجْزِم والطيرة (حيفا) وجبع وعين غزال والسنديانة وسواها. بل إنّ فرار السكّان، في حالات كثيرة، كان بقرارات حكوميّة. والمعروف أنّ دافيد بن غوريون، رئيس حكومة إسرائيل، قال عندما رأى أهل حيفا يرحلون عبر البحر: "ما أجمل هذا المنظر!". ولا يستبعد المؤرّخ الإسرائيليّ بيني موريس أنّ يغئال آلون أعرب لضبّاطه عن رغبته في طرد السكّان. وفي حالات أخرى، طلب بن غوريون من حكومته اتّخاذ قرار بهدم السافريّة، إضافةً إلى ١٣ قرية مجاورة، وعلى أن يكون الطلب باسم قائد الجبهة الوسطى، لا باسمه!! كما طلب بن

غوريون، في ١٣ أيّار ١٩٤٨، الإذن من حكومته بالموافقة على تدمير العبّاسيّة. وكانت الأوامر الصادرة إلى قيادة سرايا البالماح تقضي بوجوب مهاجمة الزنغريّة والطابغة وعرب الشمالنة، وطرد سكّانها ونسف منازلهم (موريس ١٩٩٣، ٦٦ وما بعدها).

وقد جاء في مذكرات بن غوريون (يوميّاته) أنّ تدمير مسكة (طولكرم) كان جاريًا على قدم وساق، على الرغم من أنّ بن غوريون كان يتجنّب إصدار أوامر هدم للقرى بإذن خطّيّ، لئلاّ يورّط نفسه بذلك.

وقد ظلّ الجيش الإسرائيليّ يشنّ الغارات بين الحين والآخر، للتأكّد من أن سكّان القرى الفارّين والمطرودين لن يعودوا إلى قراهم، وذلك ابتغاءَ طرد السكّان ودفعهم إلى الفرار ومنعهم من العودة.

عندما قمنا بإحصاء القرى التي قاومت بدرجات متفاوتة، وجدنا ما يلي (الخالدي ١٩٩٧):

	عدد القرى
قرى قاومت الاحتلال ببسالة، ومع ذلك سقطت	٤٤
قرى احتُلّت بالقوّة وطُرد السكّان (بعد مقاومة غير ناجحة)	٥٩
قرى قاومت وصمدت حتّى بعد ١٥ أيّار ١٩٤٨	٣١
قرى لم يُعرف مدى مقاومتها	٢١

وتدلّ هذه الإحصائيّة أنّ ١٣٤ قرية على الأقلّ من مجموع العيّنة (٤١٠ قرى) - أي ٣٢٪ من المجموع- قد قاومت بصورة أو بأخرى، في ظروف حربيّة غير متكافئة. تبقّى هناك ٢٧٦ قرية من قرى العيّنة- لا شكّ أنّها كانت تملك الوسائل البدائيّة للدفاع عن نفسها، ولكنّ سكّانها فرّوا إبّان الهجوم أو قبله، ولدوافع، أهمّها: الخوف، وضعف الروح المعنويّة، وتوقّع الهزيمة.

لقد دافع سكّان عدد من القرى، ووقفوا في وجه الهجمة اليهوديّة وسط ميزان عسكريّ مختلّ لصالح اليهود، ووسط حملة كان من أهدافها طرد السكّان والاستيلاء على الأرض بدون سكّانها. كان في حوزة اليهود سلاح جوّيّ وسلاح بحريّ ودبّابات ومشاة، بينما كان القرويّون

يتسلّحون بالأسلحة الخفيفة وبقوّات متطوّعين غير نظاميّين، فالمتطوّعون الذين صدّوا الهجوم عن الكويكات كانوا ستّين رجلاً مسلّحين بخمس وثلاثين بندقيّة من مختلف الأنواع وبرشّاش برن واحد. وقد جاء في ذكريات أحد القرويّين من الكويكات عن الهجوم على بلدتهم التي رفضت الاستماع إلى طلب بعض المتعاونين مع إسرائيل للاستسلام، إذ قال: "أفقنا من النوم على ضجة لم نسمع لها مثيلاً من قبل، فإذا بالقنابل تنفجر، وأصوات المدفعية، وانتاب سكّان القرية الذعرُ، وتعالى صراخ النسوة، وبكاء الأطفال، وبدأ سكّان القرية في معظمهم بالهرب وهم في ملابس النوم، وهربت زوجة قاسم أحمد سعيد وهي تحتضن الوسادة بدلاً من طفلها".

وليس ثمّة أدلّ على التفوّق العسكريّ الإسرائيليّ من أن نذكر أنّ "بيت طيما" (غزّة) قصفت من الجوّ ومن المدافع في ١٩/١٨ تشرين الأول. هذه القرية كانت قد صدّت هجومًا يهوديًّا في ٩ شباط ١٩٤٨، أي قبل ذلك بنحو عشرة أشهر. كما قصفت الطائرات اليهوديّة قرية الجورة (غزّة)، وكذلك المجدل ودير سنيد وهربيا. كما أنّ دير طريف (الرملة) قصفت من الجوّ في ١٤ نيسان ١٩٤٨، مما أدّى إلى جرح خمسة أشخاص، بينهم طفل في الثانية من عمره، ممّا يذكر أن التفوّق الإسرائيليّ على المدافعين الفلسطينيّين كان قد بدأ منذ أكثر من خمسين سنة.

كما عمد الإسرائيليّون إلى القصف من البحر لتوفير غطاء من النار ضدّ عين حوض (حيفا) والقرى التي صمدت حولها، في حين أنّ أفضل سلاح لدى الفلسطينيّين في ذلك الوقت كان البرن والرشاشات الصغيرة –بالإضافة إلى البنادق.

استنتاجات

يبدو لي أنّ أداء المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ، في حرب عام ١٩٤٨، كان متخلّفًا جدًّا، وضعيفًا، وغير ذي جدوى من الناحية العسكريّة، في مقابل أداء الجيش الإسرائيليّ المنظّم والمدرّب والمدجّج بالسلاح، والمتسلّح أيضًا بأدوات الحرب النفسيّة: الإشاعات، والإرهاب بقصف المدافع والطائرات والسلاح البحريّ، والترهيب. كان أداء المجتمع الريفيّ الفلسيطيني، في الأغلب الأعمّ، دفاعيًّا، فيما كان أداء الجيش الإسرائيليّ هجوميًّا ومخطّطًا ضمن عمليّات محدّدة لاحتلال مناطق محدّدة. كان الهجوم الإسرائيليّ هجومًا من أجل الاحتلال، وطرد السكّان أو دفعهم للفرار، كما لخّص قائد لواء إسرائيليّ، موشيه كرمل، الأمر بقوله: "إنّ تدمير القرى كان لمعاقبة سكّانها، والتأكّد

من أنّهم لن يتمكّنوا من العودة إليها". وخلال العقود الخمسة اللاحقة، ظلّت سياسة إسرائيل هي نفسها: مواصلة تدمير القرى والحيلولة دون عودة اللاجئين إلى قراهم، حتّى أولئك الذين لجأوا إلى أماكن أخرى داخل فلسطين المحتلّة عام ٤٨ نفسها، مثل أهل إقرث وكفر برعم وصفّورية وغيرها.

كان المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ، في حرب عام ١٩٤٨، يحاول أن يتلقّى الضربة من عدوّ كان يعرف ما يريد، ويعمل بطريقة الغزو الأمريكيّ للهنود الحمر- حرب اقتلاع وتدمير، وإقامة مجتمع يهوديّ بديل. ولم يكن المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ قادرًا ولا واعيًا لحجم الضربة التي تنتظره، بل كان واهمًا ومتواكلًا على العون العربيّ والقيادات العربيّة التي كانت:

أ- تقاتل فقط من أجل ما خُصّص للدولة العربيّة من فلسطين.

ب- منعته من إعلان الدولة الفلسطينيّة، وحاولت أن تحتفظ بأرض فلسطينيّة ضمّتها إليها (مثل الضفّة الغربيّة).

جـ- كانت تلك القيادات عاجزة عن مواصلة القتال، لاعتمادها على مصادر السلاح الغربيّة، ولخضوعها سياسيًّا للدول الغربيّة المؤيّدة لإسرائيل.

كانت الهزيمة جاهزة ومتوقّعة ولكنّها مغطّاة بستار من الأمل والوهم.

أمّا المفاجأة الكبرى، فكانت أنّ المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ لم يهزم فقط، بل اقتُلع من جذوره ودمّرت أكثر من ٤٠٠ قرية من قراه، وتحوّل إلى شعب من اللاجئين.

كيف نفسّر مسألة أنّه لم يجرِ سوى إخلاء مستوطنات يهوديّة قليلة نتيجة الحرب، خلافًا لمئات القرى والمدن العربيّة التي هجرها سكّانها العرب. وبعبارة أخرى: لماذا هُزم العرب وفرّوا؟ ولماذا انتصر اليهود؟

١. كان هناك دفاع مستميت من جانب اليهود عن مستوطناتهم، باعتبار أنّهم يحاربون وظهرهم الى الجدار، في حين أنّ الفلسطينيّين كانوا متواكلين على حضور الجيوش العربيّة وقيامها بالدور الأكبر.

٢. الدفاع اليهوديّ المستميت كان يسنده تفوّق عسكريّ لجيش منظّم ومسلّح بالدبّابات والطائرات وسلاح البحريّة، خلافًا للقرويّين الفلسطينيّين المسلّحين بالبنادق الخفيفة ورشّاش البرن (في بعض الأحيان).

٣. الفوارق التنظيمية بين اليهود والعرب جعلت اليهوديّ يقاتل ضمن خطّة وقيادة واحدة، في حين قاتلت القرى الفلسطينيّة في الأغلب كوحدات متباعدة ومستقلة، واضطُرّت إلى التصدّي لقوّات تفوّقها عددًا وعتادًا.

٤. لقد عمل سقوط المدن وارتكاب اليهود للمجازر على بدء عمليّة فرار القرويّين، وكان الفرار يتزايد بمرور الوقت.

٥. لم تشكّل المناطق القرويّة تمهيدًا استراتيجيًّا للمستوطنات اليهوديّة، بسبب طبيعة التصدّي الدفاعيّ للقرويّين الفلسطينيّين، بخلاف الطبيعة الهجوميّة للقوات اليهوديّة التي استهدفت احتلال القرية وتدميرها للتفرّغ للجيوش العربيّة.

٦. بدأت أعمال النزوح في شباط-آذار ١٩٤٨، عندما نزح ٧٥ ألفًا من أثرياء حيفا ويافا والقدس، خوفًا على أرواحهم وأموالهم، الأمر الذي أثّر على معنويّات المقاتلين والقرويّين.

٧. كان، من خشية قطاع واسع من الفلسطينيّين ممّا يمكن أن يحدث للنساء والشيوخ والأطفال، أن بدأ النزوح بإرسال أمثال أولئك إلى مناطق أكثر أمنًا، وهذا ما فتح الباب لنزوح أوسع.

٨. عمل هروب زعماء سياسيّين وعسكريّين على خلخلة معنويّات المقاتلين. وكان أكبر مثال لهروب القادة وجود الحاجّ أمين الحسيني خارج البلاد، الذي فرّ من وجه سلطات الانتداب البريطانيّ خلال ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩. لم يكن الحاجّ أمين، إبّان حرب ١٩٤٨، على رأس رجاله. ولو كان مع اللجنة العربيّة العليا، لأعلن دولة فلسطين مثلما فعل بن غوريون. ولذلك، كان هروب العرب للاحتماء بالجيوش العربيّة تعويضًا عن عدم وجود قيادة سياسيّة على الأرض الفلسطينيّة. لقد كان هروب الحاجّ أمين خارج فلسطين نقطة مفصليّة في مصيره ومصير الوطن، فقد كان الحاجّ أمين يرسل التعليمات من الخارج؛ أمّا بن غوريون فكان على رأس النشاط اليوميّ الحربيّ لليشوف داخل المستوطنات اليهوديّة.

٩. كانت هناك أزمة ثقة عميقة في المجتمع الريفيّ الفلسطينيّ بين العائلات الرئيسيّة في القرى، وهي أزمة ثقة قديمة، غذّتها الاستخبارات البريطانيّة واليهوديّة خلال ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، وعملت التصفيات الجسديّة خلال الثورة على تعميقها، وآخر العوامل القويّة لتكريسها عن تشكيل فصائل السلام عام ١٩٣٨، الذي عمّق الخلافات، لا بين القرويّين أنفسهم فحسب، بل بينهم وبين العائلات البرجوازيّة التي

تعاونت مع الاحتلال البريطاني، ضدّ المجتمع الريفيّ، الذي قاد ثورة ١٩٣٦ ورفدها بكل ما يستطيع من قوّة. أزمة الثقة هذه بين المجتمع الريفيّ، من جهة، وبين العائلات البرجوازية في القرية والمدينة وبين عائلات في المجتمع الريفيّ نفسه، من جهة أخرى، عملت على خلخلة الجبهة الداخليّة.

وقد رأينا شعارات تخرج في حرب ١٩٤٨، تقول إنّ العائلة الفلانيّة حملت السلاح للدفاع عن نفسها، وخوفًا من العائلة المقابلة. وهكذا، بينما قاتل اليهود صفًّا واحدًا تحت لواء جيش منظّم وقيادة سياسيّة.

١٠. لقد هُزمنا وانتصروا هم بسبب قيمنا العشائريّة والرجعيّة، فقد فضّلنا أن نفرّ بعِرضنا،

ملحق

أسماء القرى الفلسطينيّة، قضاءاتها، وسبل احتلالها ومصير سكّانها

الرقم	اسم القرية	القضاء	توضيح
١	حمامة	بئر السبع	احتلال بالقوّة، وطرد السكّان
٢	خَلصة	بئر السبع	احتلال بالقوّة، وطرد السكّان
٣	الإمارة	بئر السبع	تعرّضت لعمليّة تطهير وطرد السكّان خلال الهدنة
٤	الأشرفية	بيسان	احتلّت بالقوّة وطُرد السكّان
٥	أمّ عجرة	بيسان	غير معروف
٦	تلّ الشوك	بيسان	غير معروف
٧	جبّول	بيسان	غير معروف
٨	حمرة	بيسان	غير معروف
٩	حميدية	بيسان	هرب السكّان بعد سقوط بيسان
١٠	خربة أمّ صابونة	بيسان	احتُلّت القرية وطُرد السكّان
١١	خربة الزاوية	بيسان	احتلّت القرية وطرد السكّان
١٢	خربة طاقة	بيسان	احتلّت القرية وطرد السكّان
١٣	خنيزير	بيسان	احتلّت القرية وطرد السكّان
١٤	دغة	بيسان	احتلّت القرية وطرد السكّان

١٥	ساخنة	بيسان	احتلّت القرية وطرد السكّان
١٦	سيرين	بيسان	هرب السكّان خوفًا من اليهود
١٧	الطيرة الزعبيّة	بيسان	هرب السكّان بعد نصيحة وديّة من اليهود
١٨	عرب البواطي	بيسان	غير معروف
١٩	عرب الصفا	بيسان	طرد السكّان بعد مقاومة لم تصمد
٢٠	عرب عريضة	بيسان	غير معروف
٢١	الغزّاوية	بيسان	طرد السكّان مبكّرًا – شباط ٤٨
٢٢	فزونة	بيسان	طرد السكّان بعد مقاومة غير ناجحة
٢٣	قومية	بيسان	طرد السكّان بعد مقاومة غير ناجحة
٢٤	كفرة	بيسان	غير معروف
٢٥	كوكب الهوا	بيسان	هرب السكّان بعد سقوط بيسان
٢٦	مسيل الجزل	بيسان	هرب السكّان بعد سقوط بيسان
٢٧	ليلة	بيسان	غير معروف
٢٨	خربة جوفة	بيسان	هرب السكّان بعد سقوط بيسان
٢٩	زرعين	بيسان	قاوم السكّان بشراسة وهزموا ثم طردوا
٣٠	عين مَنسِة	جنين	خرج السكّان خلال معركة مشمار هعيمق
٣١	اللجّون	جنين	خرج السكّان في خضم معركة بيسان ومعركة جنين
٣٢	المزار	جنين	خرج السكّان بعد سقوط نورس وزرعين

٣٣	نورس	جنين	قاوم السكّان مع أهل زرعين، وهُزموا
٣٤	المرصّص	بيسان	غير معروف
٣٥	أبو زريق	حيفا	احتلّت بالقوّة. طرد السكّان. نُسفت
٣٦	أبو شوشة	حيفا	احتلّت بالقوّة. وطرد السكّان
٣٧	إجزم	حيفا	قاومت مع عين غزالٍ وجبعٍ حتى ٢٤ تمّوز ٤٨، ثم طرد السكّان
٣٨	أمّ الزينات	حيفا	قاومت– احتلّت وطرد السكّان
٣٩	أمّ الشوف	حيفا	غير معروف
٤٠	برّة قيسارية	حيفا	غير معروف
٤١	بُريكة	حيفا	غير معروف
٤٢	البطيمات	حيفا	غير معروف
٤٣	بلد الشيخ	حيفا	جرت فيها مجزرة. احتلّت. طُرد السكّان
٤٤	جبع	حيفا	قاومت مع إجزم وعين غزال/ انظر: إجزم –رقم ٧
٤٥	الجلمة	حيفا	سقطت بعد احتلال حيفا
٤٦	خبيزة	حيفا	احتُلّت وطرد السكّان
٤٧	خربة البرج	حيفا	احتلّت وطرد السكّان في شباط ٤٨
٤٨	خربة الدامون	حيفا	احتلّت وطرد السكّان
٤٩	خربة السركس	حيفا	غير معروف
٥٠	خربة سعسع	حيفا	احتلّت بعد سقوط حيفا وطرد السكّان

٥١	خربة الشونة	حيفا	احتلّت وطرد سكّانها
٥٢	خربة قمبازة	حيفا	احتلّت وطرد سكّانها
٥٣	خربة الكساير	حيفا	قاومت بشراسة واحتلّت وطرد سكّانها
٥٤	خربة لدّ العوادين	حيفا	احتلّت وطرد سكّانها
٥٥	خربة المنارة	حيفا	قاومت واحتلّت وطرد سكّانها
٥٦	خربة المنصورة	حيفا	سقطت بعد سقوط حيفا
٥٧	دالية الروحة	حيفا	طرد السكّان في نيسان ٤٨
٥٨	الريحانية	حيفا	احتلّت بعد معركة مشمار هاعيمق. طرد السكّان
٥٩	السنديانة	حيفا	هرب السكّان تدريجيًا، بعد مشاركتهم في معركة كفر قرع
٦٠	السّوامير	حيفا	سقطت بعد سقوط قرية الطنطورة
٦١	صبّارين	حيفا	مثلما حصل لجارتها السنديانة (رقم ٥٩)
٦٢	الصرفند	حيفا	هوجمت من البر والبحر واحتلّت. طرد السكّان
٦٣	الطنطورة	حيفا	هوجمت وجرت مذبحة وطرد السكّان.
٦٤	الطيرة	حيفا	قاومت حتى ١٦ تمّوز ٤٨ وفرّ السكّان
٦٥	عتليت	حيفا	احتلّت وهُجِّر سكّانها
٦٦	عرب الضميري	حيفا	غير معروف
٦٧	عرب الفقراء	حيفا	غير معروف
٦٨	عرب النفيعات	حيفا	احتلّت وطرد السكّان

٦٩	عين حوض	حيفا	احتلّت وطرد السكّان
٧٠	عين غزال	حيفا	انظر إجزم رقم٣٧
٧١	الغُبية التحتى	حيفا	احتلّت وفرّ سكّانها
٧٢	الغبية الفوقى	حيفا	احتلّت بعد معركة مشمار هاعيمق
٧٣	قنّير	حيفا	نزح السكّان خوفًا من هجومٍ يهوديّ
٧٤	قيرة	حيفا	أُخرج السكّان لأنهم كانوا مزارعين في أرض ليست لهم. خرجوا بناءً على نصيحة من اليهود
٧٥	قيسارية	حيفا	احتلّت وطرد السكّان
٧٦	قيسارية	حيفا	احتلّت وطرد السكّان
٧٧	كفر لام	حيفا	احتلّت في سياق احتلال الطيرة، وطرد السكّان
٧٨	الكفرين	حيفا	احتلّت بعد معركة مشمار هاعيمق
٧٩	المزار	حيفا	احتلّت في سياق معركة طيرة الكرمل وطرد السكّان
٨٠	المنسة	حيفا	احتلّت بعد مقاومة وطُرد السكّان
٨١	النغنغية	حيفا	احتلّت وطرد السكّان
٨٢	هوشة	حيفا	احتلّت بعد مقاومة
٨٣	وادي عارة	حيفا	فرّ السكّان خوفًا من هجوم إسرائيليّ
٨٤	وعرة السريس	حيفا	احتلّت وطرد السكّان
٨٥	ياجور	حيفا	احتلّت بعد سقوط حيفا

٨٦	بَرْ قوسيا	الخليل	احتلّت وطرد السكّان
٨٧	بيت جبرين	الخليل	احتلّت بعد مقاومة
٨٨	بيت نتّيف	الخليل	احتلّت بعد مقاومة خفيفة
٨٩	تلّ الصافي	الخليل	احتلّت وطرد السكّان
٩٠	خربة أمّ بُرْج	الخليل	احتلّت. جرت مذبحة
٩١	الدوايمْة	الخليل	احتلّت. جرت مذبحة
٩٢	دير الدُّبان	الخليل	احتلّت بالقوّة وطرد السكّان
٩٣	دير نخّاس	الخليل	احتلّت وفرّ السكّان متأثرين بمجزرة الدوايمة
٩٤	رَعْنا	الخليل	احتلّت. نـزح البعض قبل المعركة
٩٥	زكريا	الخليل	احتلّت. طرد السكّان عام ٤٩
٩٦	زكرين	الخليل	احتلّت- غادر بعض السكّان قبل الغزو وطُرد الباقون
٩٧	زيتا	الخليل	احتلّت بالقوّة وطرد السكّان
٩٨	عجّور	الخليل	احتلّت و نـزح معظم السكّان قبل الهجوم
٩٩	القبيّة	الخليل	احتلّت في وقت تزامن مع مجزرة الدوايمْة. فرّ الناس ذعرًا.
١٠٠	كدنا	الخليل	احتلّت في ٢٢ تشرين الأوّل. كان هناك مَن نـزح قبل ذلك
١٠١	مُغلّسْ	الخليل	احتلّت في تمّوز ٤٨
١٠٢	أبو شوشة	الرملة	قاومت وردّت الغزاة. قُصفت بالهاون. احتلّت
١٠٣	أبو الفضل	الرملة	سقطت ونـزح السكّان بعد سقوط بير سالم

١٠٤	اذْ نبّة	الرملة	احتلّت في تمّوز بين الهدنتين
١٠٥	أم كلخة	الرملة	احتلّت وطرد سكّانها
١٠٦	البرج	الرملة	احتلّت بين الهدنتين
١٠٧	بَرْفيلية	الرملة	احتلّت في تمّوز ٤٨ وطرد السكّان
١٠٨	البريّة	الرملة	احتلّت في تمّوز ٤٨ وطرد السكّان
١٠٩	بَشّيت	الرملة	احتلّت ونـزح السكّان قبل الهجوم
١١٠	بيت جيز	الرملة	قاومت مع مجاهدين عرب ثم احتلّت
١١١	بيت سوسين	الرملة	قاومت وصدّت الهجوم الأوّل- احتلّت
١١٢	بيت شفّة	الرملة	غير معروف
١١٣	بيت نبالا	الرملة	قاومت ثم احتلّت
١١٤	بير سالم	الرملة	غير معروف
١١٥	بير معين	الرملة	احتلّت في تمّوز ١٩٤٨
١١٦	التينة	الرملة	احتلّت في تمّوز ١٩٤٨
١١٧	جِليا	الرملة	احتلّت بين الهدنتين- تمّوز ١٩٤٨. نـزح السكّان بعد احتلال تلّ الصافي
١١٨	جمزو	الرملة	احتلّت خلال عمليّة اللد والرملة
١١٩	الحديثة	الرملة	احتلّت خلال عمليّة اللد والرملة
١٢٠	خربة البويرة	الرملة	احتلّت خلال عمليّة اللد والرملة
١٢١	خربة بيت فار	الرملة	احتلّت وطرد سكّانها

١٢٢	خربة زكريّا	الرملة	غير معروف
١٢٣	خربة الضهيريّة	الرملة	غير معروف
١٢٤	خرّوبة	الرملة	احتلّت في تمّوز ١٩٤٨
١٢٥	خلدة	الرملة	احتلّت بلا قتال – تمّوز ١٩٤٨
١٢٦	الخيمة	الرملة	احتلّت في تمّوز ١٩٤٨
١٢٧	دانيال	الرملة	احتلّت في تمّوز ١٩٤٨
١٢٨	دير أبو سلامة	الرملة	احتلّت في تمّوز ٤٨ خلال عمليّة اللد
١٢٩	دير أيّوب	الرملة	احتلّت مرّات، وكانت السيطرة عليها سجالا لقربها من خطّ الهدنة
١٣٠	دير طريف	الرملة	احتلّت في تمّوز ١٩٤٨، قصفت بالطائرات!
١٣١	دير محيسن	الرملة	قاومت ثم احتلّت
١٣٢	زرْنوقة	الرملة	احتلّت. جرت فظائع أثناء ذلك وطُرد السكّان
١٣٣	سَجَده	الرملة	احتلّت وطرد سكّانها في تمّوز ١٩٤٨
١٣٤	سَلبيت	الرملة	احتلّت ضمن عمليّة اللد والرملة – تمّوز ١٩٤٨
١٣٥	شحمة	الرملة	غير معروف
١٣٦	شِلْتا	الرملة	احتلّت ضمن عمليّة اللد
١٣٧	صرفند الخراب	الرملة	نـزح السكّان خوفًا من هجوم إسرائيليّ
١٣٨	صرفند العمار	الرملة	احتلّت وطرد السكّان
١٣٩	صيدون	الرملة	نـزح السكّان قبل الهجوم، احتلّت في نيسان

١٤٠	الطيرة (دندن)	الرملة	احتلّت في تمّوز ١٩٤٨ لعزل اللد عن الشمال
١٤١	عاقر	الرملة	نزح سكّانها ولاجئون آخرون قبل الاحتلال
١٤٢	عجنجول	الرملة	غير معروف
١٤٣	رعّنابه	الرملة	أخلى السكّان إيّاها من النساء والأطفال خوفًا عليهم قبل أن تسقط البلدة في تمّوز ١٩٤٨
١٤٤	القباب	الرملة	سقطت في حزيران ١٩٤٨ وفرّ السكّان الى رام الله
١٤٥	القبيْبة	الرملة	قاومت ثم احتلّت
١٤٦	قزازة	الرملة	قاومت منذ كانون الأوّل ١٩٤٧ وسقطت في تمّوز ١٩٤٨
١٤٧	قطرة	الرملة	احتلّت وطرد السكّان
١٤٨	قولة	الرملة	قاومت. نقلت السيطرة فيها أربع مرات قبل احتلالها
١٤٩	الكنيِّسة	الرملة	قاومت واحتلّت
١٥٠	اللّطرون	الرملة	قاومت وصدّت المحتلّين ٦ مرات
١٥١	مجدل يابا (مجدل الصادق)	الرملة	احتلّت في تمّوز ١٩٤٨ من أيدي العراقيّين
١٥٢	المخيْزن	الرملة	احتلّت وطرد سكّانها
١٥٣	المزيرعة	الرملة	احتلّت وطرد سكّانها
١٥٤	المغار	الرملة	احتلّت وطرد سكّانها
١٥٥	المنصورة	الرملة	احتلّت وطرد سكّانها
١٥٦	النّبي روبين	الرملة	احتلّت وطرد سكّانها
١٥٧	النعانة	الرملة	سلّمت القرية بعد إنذار

١٥٨	وادي حُنين	الرملة	نـزح السكّان بعد الاستيلاء على بلدة مجاورة
١٥٩	يبنة	الرملة	هجرها السكّان بسبب الذعر من زحف حشود اليهود
١٦٠	آبل القمح	صفد	احتلّت وطرد سكّانها
١٦١	البطيحة	صفد	احتلّت وطرد سكّانها بسبب مضايقتها لسكّان المنطقة.
١٦٢	البويزية	صفد	نـزح سكّانها بسبب سقوط قرية الخالصة
١٦٣	بيريا	صفد	احتلّت لتسهيل عمليّة احتلال صفد
١٦٤	بيسمون	صفد	نـزح السكّان إثر حملات شائعات
١٦٥	تليل	صفد	سقطت ونـزح السكّان جرّاء القصف بالهاون والحرب النفسيّة
١٦٦	جاخولا	صفد	احتلّت وطرد السكّان
١٦٧	الجاعونة	صفد	نـزح السكّان – طرد آخرون منها بالقوّة
١٦٨	جب يوسف	صفد	قاومت، واعترضت قوافل اليهود ثم أحتلت
١٦٩	الحسينيّة	صفد	نـزح السكّان بعد المقاومة وحدوث مجزرة
١٧٠	الحمراء	صفد	نـزح السكّان خوفًا من هجوم القوات الصهيونيّة
١٧١	الخالصة	صفد	طرد السكّان رغم طلبهم التفاهم – هرب السكّان بعد سقوط صفد
١٧٢	الدّويْر	صفد	استهدفت ضمن عمليّة يفتاح
١٧٣	خربة كرّازة	صفد	غير معروف
١٧٤	خربة المنظار	صفد	من قرى المنطقة المجرّدة من السلاح. طردت إسرائيل سكّانها بين العامين ١٩٤٩ وَ ١٩٥٦

١٧٥	الخصاص	صفد	نـزح السكّان بسبب الإرهاب والحرب النفسيّة وطردوا بالقوّة
١٧٦	خيام الوليد	صفد	نـزح السكّان خوفًا من هجوم عسكريّ
١٧٧	الدِّرْباشية	صفد	احتلّت اثناء عمليّة يفتاح
١٧٨	الدِّردارة	صفد	احتلّت لتستعمل قاعدة لعمليّة عسكريّة اسمها بروش
١٧٩	دلاّتة	صفد	احتلّت في سياق عمليّة يفتاح
١٨٠	الدوّارة	صفد	احتلّت في سياق عمليّة يفتاح
١٨١	ديشوم	صفد	احتلّت في سياق عمليّة ديشوم
١٨٢	الرأس الأحمر	صفد	نـزح السكّان عندما سمعوا بأنباء المجازر
١٨٣	الزاوية	صفد	أخلي السكّان بعد هجوم عسكريّ مباشر
١٨٤	الزّنغريّة	صفد	احتلّت وطرد السكّان بالأوامر
١٨٥	الزوق التحتاني	صفد	نـزح السكّان بعد سقوط صفد
١٨٦	الزوق الفوقاني	صفد	نـزح السكّان بسبب الشائعات والحرب النفسيّة
١٨٧	سَبلان	صفد	احتلّت في سياق عمليّة حيرام
١٨٨	سعسع	صفد	احتلّت في سياق عمليّة حيرام، وبعد مجزرتين
١٨٩	السَموعي	صفد	قاومت ثم فرّ السكّان بعد سقوط صفد
١٩٠	السِنبرية	صفد	احتلّت في سياق عمليّة يفتاح
١٩١	الشوكة التحتى	صفد	نـزح السكّان بعد سقوط صفد وفي سياق عمليّة يفتاح
١٩٢	الشونة	صفد	نـزح السكّان في سياق عمليّة يفتاح

١٩٣	الصالحيّة	صفد	احتلّت في سياق عمليّة يفتاح
١٩٤	صفصاف	صفد	احتلّت في سياق عمليّة حيرام
١٩٥	صَلحة	صفد	أحتلت في سياق عملية حيرام
١٩٦	طَيْطبا	صفد	هرب السكّان بعد فظائع جرت في عمليّة عين الزيتون
١٩٧	الظاهرية التحتى	صفد	نـزح السكّان بعد سقوط صفد
١٩٨	العابسيّة	صفد	نـزح السكّان من جرّاء الحرب النفسيّة
١٩٩	عرب الزبيد	صفد	نـزح السكّان خوفًا من هجوم يهوديّ
٢٠٠	عرب الشمالنة	صفد	احتلّت بتعليمات واضحة لطرد السكّان
٢٠١	العريفيّة	صفد	احتلّت في سياق عمليّة يفتاح
٢٠٢	عكبرة	صفد	نـزح السكّان متأثرين بما حصل في عين الزيتون ودير ياسين
٢٠٣	عَلْما	صفد	قاومت، رغم حدوث مجازر
٢٠٤	العلمانيّة	صفد	كان نزوح سكّانها بعد مجزرة وعمليّة يفتاح
٢٠٥	عمّوقة	صفد	كان نزوح سكّانها بسبب الخوف من القصف، والوقوع بين الجيوش المقاتلة
٢٠٦	عين الزيتون	صفد	انسحب المقاتلون انسحابًا تكتيكيًا، وجرت مذبحة
٢٠٧	غبّاطية	صفد	احتلّت في نطاق عمليّة حيرام
٢٠٨	غُرابة	صفد	نـزح السكّان خوفًا من هجوم اليهود
٢٠٩	فارة	صفد	نـزح السكّان خوفًا من المجازر التي سمعوا عنها
٢١٠	الفرّاضية	صفد	احتلّت القرية رغم استسلامها

٢١١	فِرْعم	صفد	احتلّت بعد قصف ابتغى حمل السكّان على النزوح
٢١٢	قبّاعة	صفد	احتلّت بعد قصف ابتغى حمل السكّان على النزوح
٢١٣	قَدَس	صفد	احتلّت وطرد سكّانها
٢١٤	قديثا	صفد	احتلّت بعد سقوط صفد
٢١٥	القديرية	صفد	احتلّت في سياق عمليّة يفتاح
٢١٦	قَيْطية	صفد	احتلّت وهرب السكّان بسبب الحرب النفسيّة
٢١٧	كراد البقارة	صفد	نـزح بعض السكّان بسبب القصف اليهوديّ وطرد الباقون حتّى بعد الحرب
٢١٨	كراد الغنّامة	صفد	نـزح بعض السكّان بعد مجزرة في الحسينيّة وطرد الآخرون حتّى بعد الحرب
٢١٩	كفر برعم	صفد	طرد السكّان لسبب أمنيّ ومؤقّت، ثم استمرّ الوضع
٢٢٠	لزّازة	صفد	نـزح السكّان رضوخًا لحملة الشائعات
٢٢١	ماروس	صفد	احتلّت وطرد السكّان بالقوّة
٢٢٢	المالكية	صفد	تنقلت ٥ مرات بين الطرفين/احتلّت بالقوّة
٢٢٣	مَداخل	صفد	نـزح السكّان خوف الهجوم والقصف الفعلي
٢٢٤	مغر الخيط	صفد	نـزح السكّان بعد قصف لإجبار الناس على النزوح
٢٢٥	المفتخرة	صفد	نـزح السكّان خوفًا من الغارة اليهوديّة
٢٢٦	ملاّحة	صفد	نـزح السكّان بفعل الحرب النفسيّة
٢٢٧	المنشيّة	صفد	نـزح السكّان بفعل الحرب النفسيّة
٢٢٨	المنصورة	صفد	نـزح السكّان بسبب الحرب النفسيّة والهجوم الفعليّ

٢٢٩	منصورة الخيط	صفد	صمد السكّان طويلاً ، ثم طُردوا بعد أن وقعوا في المنطقة المنزوعة السلاح
٢٣٠	ميرون	صفد	صمد السكّان طويلاً ثم احتلّت القرية بالقوّة
٢٣١	النّاعمة	صفد	احتلّت بعد سقوط صفد
٢٣٢	النبي يوشع	صفد	احتلّت بعد هجوم كاسح
٢٣٣	هرّاوي	صفد	احتلّت عند نهاية يفتاح
٢٣٤	هونين	صفد	احتلّت بعد هجوم كاسح
٢٣٥	الويزية	صفد	احتلّت أثناء الهجوم على صفد
٢٣٦	يَرْدا	صفد	احتلّت في سياق عمليّة يفتاح وطُرد السكّان لأنّهم في المنطقة المنـزوعة السلاح
٢٣٧	حدثا	طبريّة	نـزح السكّان خوفًا من هجوم، وقع بالفعل
٢٣٨	حطين	طبريّة	قاومت ثم اضطرّت إلى الاستسلام
٢٣٩	الحمّة	طبريّة	طرد السكّان بعد وقوع القرية في المنطقة المنزوعة السلاح
٢٤٠	خربة الوعرة السودا	طبريّة	احتلّت القرية بين الهدنتين، تمّوز ٤٨
٢٤١	الدّهمية	طبريّة	احتلّت بعد الهجوم على طبريّة
٢٤٢	سمخ	طبريّة	هجر السكّان البلدة بعد الهجوم عليها ثم استرُدّت ثم احتلّت
٢٤٣	السّمرا	طبريّة	فرّ بعض السكّان بعد سقوط طبريّة، ثم طرد الباقون لوقوعهم في المنطقة المنزوعة السلاح
٢٤٤	السمكيّة	طبريّة	طرد السكّان بالقوّة بعد عمليّة يفتاح
٢٤٥	السجرة	طبريّة	سقطت القرية بعد سقوط طبريّة، قاومت بشراسة
٢٤٦	الطّابغة	طبريّة	احتلّت في سياق عمليّة المكنسة، بدأت هجرة جزئية

٢٤٧	العبيدية	طبريّة	فرّ السكّان خوفًا من هجوم مرتقب
٢٤٨	عَوْلم	طبريّة	هجرها السكّان خوفًا من الهجوم
٢٤٩	غوير أبو شوشة	طبريّة	قاومت، ثم أدّى الذعر إلى النـزوح
٢٥٠	كفر سَبْت	طبريّة	نـزح السكّان بعد وجرّاء استيلاء الهاغاناة على طبريّة
٢٥١	لوبْيا	طبريّة	فرّ السكّان بعد سقوط الناصرة
٢٥٢	المجدل	طبريّة	نـزح السكّان بعد سقوط طبريّة، وإثر هجوم عليها
٢٥٣	مَغْذر	طبريّة	احتلّت بغية السيطرة علي وادي بيسان، ونـزح السكّان خوفا من اليهود
٢٥٤	المَنارة	طبريّة	احتلّت القرية في سياق الهجوم على طبريّة
٢٥٥	المنشيّة	طبريّة	هُجّر السكّان حين تهجير سكّان البندقية
٢٥٦	المنصورة	طبريّة	فرّ سكّانها بعد استسلام المغار
٢٥٧	ناصر الدين	طبريّة	هوجمت وبطشت الهاغاناة بسكّانها وحرقت منازل فيها لإرهاب طبريّة
٢٥٨	النّقيب	طبريّة	هُجّر السكّان بعد أن وقعت القرية في المنطقة المنزوعة السلاح
٢٥٩	نمرين	طبريّة	سقطت بين الهدنتين /تمّوز ٤٨
٢٦٠	وادي الحمام	طبريّة	غير معروف
٢٦١	ياقوت	طبريّة	احتلّت بعد سقوط طبريّة
٢٦٢	أمّ خالد	طولكرم	فر السكّان جرّاء الخوف ووقوعهم وسط مستعمرات إسرائيليّة
٢٦٣	بيّارة حنون	طولكرم	فرّ السكّان بالغارات والإرهاب اليهوديّ ولوقوعها وسط مستعمرات إسرائيليّة
٢٦٤	تبصر	طولكرم	فر السكّان بالغارات والإرهاب اليهوديّ ولوقوعها وسط مستعمرات إسرائيليّة

٢٦٥	الجّلمة	طولكرم	قاومت وانتزعت من أيدي القوات العراقيّة
٢٦٦	خربة بيت ليد	طولكرم	فرّ السكّان جرّاء الخوف والعزلة
٢٦٧	خربة الزبابدة	طولكرم	احتلّت وطرد سكّانها
٢٦٨	خربة زلفة	طولكرم	خرج السكّان مع وعد بالعودة بعد الحرب ثم دُمّرت البلدة
٢٦٩	خربة المجد	طولكرم	غير معروف
٢٧٠	رمل زيتا (قزازة)	طولكرم	احتلّت وطرد سكّانها
٢٧١	غابة كفر صور	طولكرم	غير معروف
٢٧٢	فرديسيا	طولكرم	غير معروف
٢٧٣	قاقون	طولكرم	دافع سكّانها والجيش العراقيّ بشراسة، احتلّت رغم ذلك
٢٧٤	كفر سابا	طولكرم	وافق زعماؤها وزعماء يهود على السلام لكن القوات اليهوديّة احتلّتها
٢٧٥	مِسكة	طولكرم	احتلّت ضمن عمليّة إخلاء القرى العربيّة من سكّانها – من تل أبيب حتّى زخرون يعقوب
٢٧٦	المنشيّة	طولكرم	خرج السكّان على أمل العودة بعد الحرب
٢٧٧	وادي الحوارث	طولكرم	فرّ السكّان إثر حرب نفسيّة وهجوم عسكريّ
٢٧٨	وادي القبّاني	طولكرم	احتلّت ضمن عمليّة إجلاء القرى العربيّة بين تل أبيب والخيرة
٢٧٩	إقرث	عكّا	طرد السكّان لأن الجيش أقرّ مبدأ "الشريط الحدوديّ الخالي من العرب"
٢٨٠	أمّ الفرج	عكّا	احتلّت تحت أوامر الجيش الإسرائيليّ بقتل الرجال وتدمير القرى وحرقها
٢٨١	البرْوة	عكّا	قاومت بشراسة. سقطت في تّموز ٤٨
٢٨٢	البصّة	عكّا	احتلّت ضمن عمليّة بن عمي. أعدم عدد ممّن تبقوا في القرية

٢٨٣	تربيخا	عكّا	احتلّت ضمن عمليّة حيرام
٢٨٤	التلّ	عكّا	احتلّت ضمن عمليّة بن عمي
٢٨٥	خربة جدّين	عكّا	احتلّت بالقوّة
٢٨٦	خربة عرببنّ	عكّا	احتلّت ضمن عمليّة حيرام
٢٨٧	الدامون	عكّا	سقطت ضمن عمليّة ديكل
٢٨٨	دير القاسي	عكّا	سقطت ضمن عمليّة حيرام
٢٨٩	الرُّميس	عكّا	احتلّت بالقوّة، وبعد سقوط الناصرة
٢٩٠	الزّيب	عكّا	احتلّت لدى هجوم الهاغاناة الصاعق
٢٩١	سُحماتا	عكّا	احتلّت في سياق عمليّة حيرام
٢٩٢	سُروح	عكّا	احتلّت ضمن عمليّة تطهير الحدود الشماليّة
٢٩٣	السميريّة	عكّا	احتلّت ضمن عمليّة بن عمي، أجْلَوا النساء والأطفال أوّلاً وقاوموا
٢٩٤	عرب السّمنيّة	عكّا	سقطت عند انتهاء عمليّة حيرام
٢٩٥	عَمْقا	عكّا	احتلّت ضمن عمليّة ديكل، القرية الدرزيّة الوحيدة التي قصفت وطرد سكّانها
٢٩٦	الغابسيّة	عكّا	سقطت عند انتهاء عمليّة بن عمي
٢٩٧	الكابري	عكّا	سقطت في سياق عمليّة بن عمي
٢٩٨	كفر عنان	عكّا	سقطت خلال عمليّة حيرام
٢٩٩	كويكات	عكّا	قاومت، احتلّت بالقوّة
٣٠٠	مِيعار	عكّا	احتلّت ضمن عمليّة ديكل، فرّ السكّان من قسوة الهجوم

٣٠١	المنشيّة	عكّا	قاومت، سقطت أثناء عمليّة بن عمي
٣٠٢	المنصورة	عكّا	سقطت خلال عمليّة حيرام
٣٠٣	النبي روبين	عكّا	طرد السكّان في تشرين الثاني ٤٨ عبر الحدود اللبنانيّة
٣٠٤	النهر	عكّا	سقطت خلال عمليّة بن عمي
٣٠٥	إسدود	غزّة	سقطت مع خروج القوات المصريّة في تشرين الأوّل ٤٨
٣٠٦	بربرة	غزّة	سقطت خلال عمليّة يوآف وطرد أو فرّ السكّان بعد سقوط المجدل
٣٠٧	برقة	غزّة	سقطت ضمن عمليّة براك
٣٠٨	برير	غزّة	احتلّت بالقوّة، قاومت
٣٠٩	البطاني الشرقي	غزّة	احتلّت بالقوّة
٣١٠	البطاني الغربي	غزّة	احتلّت خلال عمليّة براك
٣١١	بِعْلين	غزّة	احتلّت خلال عمليّة يوأف
٣١٢	بيت جرجا	غزّة	احتلّت في آخر عمليّة يوآف، السكّان فرّوا أو طردوا
٣١٣	بيت دراس	غزّة	قاومت، هوجمت بالمدافع، فر السكّان خلال الهجوم
٣١٤	بيت طيما	غزّة	احتلّت في سياق عمليّة يوآف، فرّ السكّان بعد مقاومة
٣١٥	بيت عَفّا	غزّة	قاومت وانتُزعت من أيدي المجاهدين الفلسطينيّين، ثم استعيدت وسقطت خلال عمليّة يوآف
٣١٦	تل الترمس	غزّة	سقطت في سياق عمليّة يوأف
٣١٧	جُسير	غزّة	احتلّت في تمّوز ١٩٤٨
٣١٨	الجلدية	غزّة	احتلّت في الهجوم على الجبهة الجنوبيّة

٣١٩	الجورة	غزّة	احتلّت عند نهاية عمليّة يوآف حين احتلّت المجدل ، نـزح السكّان الى غزّة
٣٢٠	جولس	غزّة	احتلّت خلال عمليّة براق
٣٢١	الجيّه	غزّة	سقطت وقت سقوط المجدل ، نـزح السكّان أو طُردوا
٣٢٢	حَتّا	غزّة	احتلّت ضمن عمليّة التوسّع الى الجنوب والشرق
٣٢٣	حليقات	غزّة	احتلّت خلال عمليّة براك . فرّ السكّان باتّجاه جبل الخليل
٣٢٤	حمامة	غزّة	احتلّت في المرحلة الثالثة من عمليّة يوآف
٣٢٥	الخصاص	غزّة	احتلّت وقت سقوط المجدل ، عند نهاية عمليّة يوآف
٣٢٦	دِمْرَة	غزّة	احتلّت خلال المراحل الأولى من عمليّة يوآف
٣٢٧	دير سنيد	غزّة	احتلّت في أواخر تشرين الثاني ١٩٤٨
٣٢٨	سمسم	غزّة	احتلّت بالقوّة وطرد سكّانها
٣٢٩	السوافير الشرقية	غزّة	احتلّت خلال المرحلة الثانية من عمليّة براق
٣٣٠	السوافير الشمالية	غزّة	احتلّت خلال المرحلة الثانية من عمليّة براق
٣٣١	السوافير الغربية	غزّة	احتلّت خلال المرحلة المبكّرة من عمليّة براق
٣٣٢	صُمّيل	يافا	قاومت وسقطت في تمّوز ١٩٤٨
٣٣٣	عِبدسر	غزّة	قاومت ، ودافع عنها الجيش المصريّ ، ثم احتلّت في تمّوز ١٩٤٨
٣٣٤	عِراق سويدان	غزّة	دافع عنها الجيش المصريّ ، واصبحت جيب الفالوجة
٣٣٥	عراق المنشيّة	غزّة	دافع عنها الجيش المصريّ ، واصبحت جيب الفالوجة
٣٣٦	عرب سقرير	غزّة	احتلّت بواسطة لواء جفعاتي ، بعدها نـزح السكّان الى غزة

٣٣٧	الفالوجة	غزّة	قاومت، وحوصر فيها المصريّون ونزح السكّان إلى الخليل
٣٣٨	قسطينة	غزّة	احتلّت في ٩ تّموز ١٩٤٨ بعيد انتهاء الهدنة الأولى
٣٣٩	كرتيا	غزّة	احتلّت في تّموز ١٩٤٨ قبل الهدنة الأولى
٣٤٠	كوفخة	غزّة	احتلّت ورفض اليهود طلب استسلام من السكّان في مقابل السماح لهم بالبقاء
٣٤١	كوكبا	غزّة	نزح السكّان بعد تدمير قرية برير المجاورة، ولكن القرية تنقلت ٣ مرات بين أيدي العرب واليهود
٣٤٢	المحرّقة	غزّة	احتلّت بالقوّة وطرد سكّانها ودمِّرت ولغِّمت
٣٤٣	المسميّة الصغيرة	غزّة	احتلّت بالقوّة وطرد سكّانها
٣٤٤	المسميّة الكبيرة	غزّة	احتلّت بالقوّة وطرد سكّانها
٣٤٥	نجد	غزّة	احتلّت بالقوّة وطرد سكّانها
٣٤٦	نعليا	غزّة	احتلّت بالقوّة وطرد سكّانها
٣٤٧	هربيا	غزّة	احتلّت بالقوّة وطرد سكّانها وذلك بعيد احتلال المجدل
٣٤٨	هوج	غزّة	طلب لواء جبعاتي السكّان بمغادرة القرية، ورفض المسؤولون العسكريّون عودتهم
٣٤٩	ياصور	غزّة	أحتلت وهجّر سكانهاوحُوِّل اسمها الى حتسور
٣٥٠	إشوَع	غزّة	احتلّت وقُصفت بالهاون وأُجبر السكّان على الرحيل
٣٥١	البريج	القدس	احتلّت بالقوّة وطرد سكّانها
٣٥٢	بيت أمّ الميس	القدس	احتلّت في عمليّة ههار
٣٥٣	بيت ثول	القدس	احتلّت وتأثّر السكّان بما جرى في دير ياسين القريبة
٣٥٤	بيت عطاب	القدس	احتلّت في عمليّة ههار

٣٥٥	بيت محسير	القدس	قاومت طَوال ثلاث ليالٍ
٣٥٦	بيت نقّوبا	القدس	احتلّت في سياق عمليّة نحشون
٣٥٧	جرش	القدس	احتلّت في سياق عمليّة ههار
٣٥٨	خربة اسم الله	القدس	احتلّت في سياق عمليّة داني
٣٥٩	خربة التنور	القدس	احتلّت في سياق عمليّة ههار
٣٦٠	خربة العمور	القدس	احتلّت في سياق عمليّة ههار
٣٦١	خربة اللوز	القدس	احتلّت بالقوّة
٣٦٢	دير آبان	القدس	احتلّت في سياق عمليّة ههار، وهجّر سكّانها
٣٦٣	دير رافات	القدس	احتلّت في سياق عمليّة توسيع ممرّ القدس
٣٦٤	دير الشيخ	القدس	احتلّت في سياق عمليّة ههار
٣٦٥	دير عمرو	القدس	احتلّت وتأثّرت بما جرى في دير ياسين
٣٦٦	دير الهوا	القدس	احتلّت في بداية عمليّة ههار
٣٦٧	دير ياسين	القدس	ارتكب الإرغون مجزرة، وعرض ما حدث على الصحف، حينما احتلّوا القرية
٣٦٨	راس أبو عمّار	القدس	احتلّت في سياق عمليّة ههار
٣٦٩	ساريس	القدس	احتلّت بالقوّة وطُرد سكّانها
٣٧٠	سُفلى	القدس	احتلّت في سياق عمليّة ههار
٣٧١	صَرْعة	القدس	احتلّت في إطار عمليّة داني
٣٧٢	صطاف	القدس	احتلّت في إطار عمليّة داني

٣٧٣	صوبا	القدس	ردّ المدافعون عن صوبا بعد معركة القسطل، ورُدّت محاولتان أخريان على الهجوم. نزح الناس من القصف أو طردوا
٣٧٤	عَرطوف	القدس	أجلى البريطانيون السكّان بعد الهجوم على هرطوف اليهوديّة، ثم عاد السكّان، احتلّت ضمن عمليّة داني وطرد السكّان
٣٧٥	عِسْلين	القدس	احتلّت في سياق عمليّة داني بعد قصف بالهاون
٣٧٦	عقور	القدس	احتلّت في سياق عمليّة داني
٣٧٧	علّار	القدس	احتلّت في سياق عمليّة ههار في تشرين الأوّل ١٩٤٨
٣٧٨	عين كارم	القدس	احتلّت القرية بين الهدنتين (١٩٤٨) بمشاركة من الإرغون وجدناع وقوّة الحراسة
٣٧٩	قالونيا	القدس	عند احتلالها نُسفت المنازل وسُوّيتْ بالأرض وتركت القرية كلّها طعمة للنيران
٣٨٠	القبْو	القدس	احتلّت بُعيد عمليّة ههار، قاومت وتنقّلت بين المتحاربين
٣٨١	القسطل	القدس	احتلّت بعد مقاومة شديدة، وبعد استشهاد عبد القادر الحسيني
٣٨٢	كسلا	القدس	نزح السكّان جرّاء القصف المدفعيّ أو طُردوا بالقوّة
٣٨٣	لفتا	القدس	احتلّت لتأمين المدخل الغربيّ لمدينة القدس
٣٨٤	المالحة	القدس	احتلّت بعد معركة ضارية استمرّت عدّة أيّام
٣٨٥	نطاف	القدس	احتلّت لتأمين ممرّ القدس خلال المرحلة الثانية من عمليّة داني
٣٨٦	الولجة	القدس	قاومت، سُلّمت لاحقًا لإسرائيل حسب اتّفاقيّة الهدنة
٣٨٧	إندور	الناصرة	سقطت جرّاء هجوم عسكريّ ونتيجة سقوط بيسان
٣٨٨	صَفّورية	الناصرة	قاومت ببسالة، احتلّت للتمهيد لاحتلال الناصرة
٣٨٩	المجيدل	الناصرة	احتلّت خلال عمليّة ديكل

٣٩٠	مَعلول	الناصرة	احتلّت خلال عمليّة ديكل وطرد سكّانها ودمِّرت
٣٩١	أبو كشك	يافا	احتلّتها قوات الإرغون، نـزح السكّان بعد الاحتلال
٣٩٢	إجليل الشماليّة	يافا	احتلّت مع إجليل القبليّة، المخاتير رغبوا في السلام - دون جدوى
٣٩٣	بيار عدس	يافا	هوجمت، سارع السكّان للنزوح خوفًا من الهجوم
٣٩٤	بيت دجن	يافا	نـزح السكّان بعد سقوط يافا
٣٩٥	جريشة	يافا	نـزح السكّان - مثلهم في ذلك كمثل سكّان الساحل بعد خطف زعماء "الشيخ مؤنس" الذين فاوضوا من أجل السلام
٣٩٦	الجمّاسين الشرقي	يافا	احتلّت وطرد سكّانها في ظروف احتلال مدن الساحل
٣٩٧	الجمّاسين الغربي	يافا	احتلّت وطرد سكّانها في ظروف احتلال مدن الساحل
٣٩٨	الحرم (سيدنا علي)	يافا	احتلّت وطرد سكّانها في ظروف احتلال مدن الساحل
٣٩٩	الخيريّة	يافا	احتلّت في سياق عمليّة حميتس بعد مقاومة
٤٠٠	رَ نْتية	يافا	احتلّت بعد سقوط يافا
٤٠١	السافريّة	يافا	احتلّت في سياق عمليّة حميتس
٤٠٢	ساقية	يافا	احتلّت في سياق عمليّة حميتس
٤٠٣	سَلمة	يافا	قاومت بشراسة، ولم تُحتلّ الّا بعد خروج السكّان منها
٤٠٤	السوالمة	يافا	احتلّت في نهاية الانتداب بعد سقوط الكثير من القرى
٤٠٥	الشيخ مؤنس	يافا	احتلّت في نهاية الانتداب بعد سقوط الكثير من القرى، وكان اتّفاق جرى مع السكّان للسلام، واختُطف زعماء القرية ثم فرّ السكّان

٤٠٦	العبّاسيّة	يافا	قاومت طويلاً ثم احتلّت ضمن تصفية قرى الساحل
٤٠٧	فجّة	يافا	قاومت وسقطت نتيجة لشائعات بعد أن تبقّى عدد قليل من سكّانها
٤٠٨	كفرعانة	يافا	احتُلّت في سياق عمليّة حميتس
٤٠٩	المِرّ	يافا	نزح السكّان من الذعر لأنهم يعيشون شرقي بيتح تكفا ومنطقة مستعمرات صهيونيّة
٤١٠	المسعوديّة	يافا	نزح السكّان من الذعر لأنّهم عاشوا وسط المستعمرات الصهيونيّة
٤١١	المويلح	يافا	احتُلّت وطُرد سكّانها
٤١٢	يازور	يافا	احتُلّت وطُرد سكّانها بعد مقاومة واعتداءات مستمرّة

هوامش ١٧٢

١ رواية سعيد الشريف، ابن شقيق المختار.

٢ تقع قرية دير الغصون في قضاء طول كرم.

٣ رواية سعيد الشريف.

٤ رواية إبراهيم سرحان.

الذاكرة وتأريخ أحداث النكبة
مجد الكروم نموذجًا[1]

عادل مناع

عادل مناع هو باحث متخصّص بتاريخ فلسطين في العهد العثماني، وحصل على شهادة الدكتوراه من الجامعة العبرية في القدس. له دراسات عديدة منشورة باللغات العربية والعبرية والإنجليزية. يشغل، بالإضافة إلى عمله محاضرًا في جامعات فلسطينية وإسرائيلية متعدّدة، في العقدين الأخيرين، منذ عام ١٩٩٥ منصب مدير مركز دراسات المجتمع العربي في إسرائيل.

فاتحة

على خلفيّة اجتياح إسرائيل للبنان في حزيران ١٩٨٢، وأعمال القتل والتدمير التي تعرّضت لها بيروت ومخيّمات اللاجئين الفلسطينيّين في هذا البلد، اعتملت في نفسي شديدًا شجونُ ذاكرة أحداث النكبة مجدَّدًا. في تلك الفترة التي كنت مشغولاً إبّانها بإعداد رسالة الدكتوراه في الجامعة العبريّة حول القدس في أوائل القرن التاسع عشر، اعترى قدرتي على الكتابة عن العهد العثمانيّ شللٌ تامّ. وبدل الانشغال بوثائق العهد العثمانيّ وسياساته، وجدت نفسي مهمومًا بأحداث الساعة ومستقبل عائلتي وولديّ الصغيرين في وطني المسلوب. انشغلتُ بالمظاهرات والاجتماعات السياسيّة، وخاصّة تلك المتعلّقة منها بالانتخابات المقبلة التي تمّ الإعلان عن أنّها سوف تجري في إسرائيل في صيف عام ١٩٨٤،[٢] حتّى قراءاتي انحرفت عن مسارها، فرحت أطالع وأقرأ الصحف والروايات والمذكرات والسيرَ الذاتية بشكل لم أعهده في نفسي قبل ذلك.

واستفزّني في تلك الفترة كتاب لأندريه شوراكي تُرجم إلى العربيّة مع مقدّمات وملحق وخاتمة لا تقلّ استفزازًا عن فحوى الكتاب الأصل الذي صدر بالفرنسيّة عام ١٩٦٩. ففي الملحق، على سبيل المثال، ردّ المؤلف على أسئلة المعلّقين على كتابه بالفرنسيّة بقوله: "متى سنرى كاتبًا عربيًّا يؤلّف رسالة إلى صديق يهوديّ؟" ثم اقتبس شوراكي قولاً نشر – على حدّ قوله – في مجلّة "الأوريان" في بيروت (١٩٧٠/٩/١٢) جاء فيه ما يلي: "لا ريب أنّ هذه الرسالة الموجّهة إلى صديق عربيّ تمسّ العديد من العرب، والكثيرون من العرب سيردّون عليها إلاّ عربيًّا واحدًا هو العربيّ الفلسطينيّ". فهل كانت هذه العبارة هي التي استفزّتني إلى كتابة "رسالة إلى صديق إسرائيليّ"؟ ربّما، ولكن المؤكّد هو أنّني اخترت عنوان مقالتي التي نشرتها في صحيفة "هآرتس" (في حزيران ١٩٨٤) متأثّرًا بقراءة كتاب شوراكي "رسالة إلى صديق عربيّ" (شوراكي ١٩٨٣، ٢١٣).

كنّا في أيلول عام ١٩٨٢ قد استضفنا عمّي الذي جاءنا من مخيّم عين الحلوة زائرًا، بعد أن سمح كرم الاحتلال الإسرائيليّ الجديد، في جنوب لبنان، لبعض اللاجئين الفلسطينيّين بزيارة بلدهم وأهلهم في الجليل؛ وسمعنا معًا اخبار مجزرة صبرا وشاتيلا وقصف بيروت. وسمعنا منه عمّا قام به الجيش الإسرائيليّ من أعمال القتل والتشريد والاعتقالات التي طالت أولاد عمي في مخيّم عين الحلوة. وشغلتني مجدّدًا فكرة مصير الإنسان ودوره في تحديد ذلك المصير. فماذا يا ترى كان مصيري ومصير عائلتي، لو لم يقرّر والدي، في ربيع ١٩٥١، أن يعيد عائلته من مخيّم عين الحلوة إلى مجد الكروم التي طردنا منها في كانون الثاني عام ١٩٤٩؟[٣] كنت أفكّر مجدَّدًا في مثل هذا السؤال على خلفيّة تجربة الفلسطينيّين المرّة في لبنان منذ عام ١٩٤٨ وقصص الوالد حول ما حدث لنا منذ طُردنا من القرية حتّى عودتنا إليها.

عاد عمّي إلى عائلته في لبنان، بعد انتهاء مدّة تصريح زيارته لمجد الكروم. وخرجت المقاومة الفلسطينيّة من بيروت إلى ملاجئ عربيّة جديدة. ولم تنتهِ الحرب في لبنان بسرعة. وفي جنوبه المحتلّ، نشأت مقاومة لبنانيّة أخرى أخذت تقارع الجيش الإسرائيليّ وأعوانه اللبنانيّين لعدّة سنوات. وامتدّ انشغالي بأحداث الساعة وذكريات الماضي القريب، فتراجع اهتمامي البحثيّ بتاريخ القدس في أوائل القرن التاسع عشر. على هذه الخلفيّة وجدت نفسي، لأول مرة في حياتي، أحاول مخاطبة جمهور كبير من الإسرائيليّين من على صفحات جريدة "هآرتس".

تحدّثت في "رسالة إلى صديق إسرائيليّ" عن واقع الفلسطينيّين تحت الاحتلال في غزّة والضفّة الغربيّة وواقع الأقلّيّة الفلسطينيّة داخل إسرائيل منذ عام ١٩٤٨. لكن ما يهمّني ذكره في هذا المقام هو تطرّقي في فاتحة ذلك المقال وباختصار إلى أعمال القتل والنهب التي قام بها الجيش الإسرائيليّ في مجد الكروم. كما أوردتُ، باقتضاب، قصّة طرد عائلتي مع طفلها الوحيد (هو أنا)، ضمن عمليّة طرد جماعيّة لمئات من سكّان القرية؛[٤] وذكرت كذلك قصّة عودة عائلتي إلى مجد الكروم بعد عامين وبضعة أشهر من تجربة اللجوء والتشرّد. كما تطرّقت هناك إلى الفجوة الكبيرة، التي لم تغب عن ملاحظة الصبيّ الذي كُنْتُهُ، بين تاريخ الصهيونيّة ودولة إسرائيل الذي درّسنا إيّاها أساتذة المدرسة الابتدائيّة، وبين رواية أحداث النكبة التي سمعناها من أهلنا في البيوت. وكانت قصّة ما جرى لي ولوالدي التي سمعتها، من جهة، والرواية الصهيونيّة عن "حرب التحرير" والاستقلال التي نسمعها في المدرسة، من جهة أخرى، دليلي القاطع على زيف الرواية الرسميّة التي تحاول بها السلطات الإسرائيليّة غسل دماغ الصغار والكبار.[٥]

ذاكرة الضحيّة والرواية الرسميّة

لم يحتلّ الجزء الأوتوبيوغرافيّ إلاّ حيّزًا صغيرًا من "رسالة إلى صديق إسرائيليّ"، لكنّه، كما يبدو، حمل في طيّات سطوره تحدّيًا استفزازيًّا كبيرًا للرواية الرسميّة الإسرائيليّة عن حرب عام ١٩٤٨ عمومًا، و بخاصّة أحداث الجليل ومجد الكروم. كما أنّ الاتّهامات لجيش الدولة اليهوديّة الفتيّة بتنفيذ أعمال القتل والنهب والطرد تنطوي على زعزعة للهويّة الجماعيّة التي تشكّلت في أذهان الإسرائيليّين عن الذات وعن الآخر. لذا، في الأيّام والأسابيع التالية لنشر مقالتي، وصلت إليّ أنا شخصيًّا، وكذلك إلى صحيفة "هآرتس"، ردودُ فعل معظمها غاضبة مستنكرة لتلك الاتّهامات. كان الهمّ الأساسيّ لمعظم الردود إنكار تلك الأعمال التي قام بها الجيش الإسرائيليّ في مجد الكروم خاصّة، وفي فلسطين عامّة. لا يتّسع المجال هنا لإيراد ردود الفعل الهاتفيّة والمكتوبة كافّةً. وأكتفي، في ما يلي، باقتباس جزء من رسالة أحد القرّاء إلى محرّر الصحيفة تمثّل جيّدًا التوجّهَ العامّ لتلك الردود النافية للرواية الفلسطينيّة عامّةً، ولروايتي عن أحداث مجد الكروم خاصّة، والمؤكّدة صدقَ الرواية الإسرائيليّة التي مُفادها أنّ الفلسطينيّين هربوا ولم يُطردوا.

عرّف كاتب الرسالة، زئيف يتسحاقي من تل ابيب، نفسه بأنّه كان ضابط الفرقة العسكريّة التي "كانت مسؤولة عن استسلام القرية في حرب الاستقلال"،[٦] ثم أضاف: "صحيح أنّه في المدخل الشرقيّ للقرية حدثت هناك حالات إطلاق نار قصيرة، بسبب خطأ في التعرّف بين فرقتي وفرقة من قوّات جولاني تقدّمت من الشرق. نتيجة لذلك، أصيب أحد جنودي بجروح بالغة، لكن لم تقع إصابات بين أهالي القرية نتيجة لهذه الحادثة. لقد انسحبت قوّات القاوقجي [التي كانت ترابط في القرية] قبل دخولنا القرية، ومن المحتمل أنّ بعض الأهالي تركوا القرية عن طيب خاطر مع تلك القوّات". ثم يختتم يتسحاقي ردّه بالكلمات التالية: "لكنّي أقول، وبشكل قاطع، إنّه "لم تكن هناك أعمال نهب ولا أعمال طرد ولا أعمال قتل او إعدام".[٧]

لم تكن ردود الفعل، بما فيها ردّ يتسحاقي، بغريبة أو مفاجئة. هذه الردود عادت وأكّدت أنّ المجتمع الإسرائيليّ كان ما زال يعيش مرحلة الإنكار والتنصّل من مسؤوليّته عن نكبة الفلسطينيّين، إلى حدّ اتّهام الضحيّة بالمسؤوليّة عمّا ألّم بها. وعبرّت تلك الردود عن الإجماع الإسرائيليّ في هذه القضيّة، مؤكّدةً – مرّة أخرى – الفجوةَ الواسعة القائمة بين ما يرويه الإسرائيليّون عن

حرب عام ١٩٤٨ من جهة، وما يعرفه ويرويه الفلسطينيّون عمّا ألّم بهم في عام النكبة وما بعده من جهة أخرى. ولم تكن أقسام التاريخ في جامعتَيْ حيفا والقدس، اللتين درست فيهما، تعالج هذه القضيّة بشكل مختلف. حتّى اليساريّون من الأساتذة والطلبة في الجامعة كانوا يتحاشون الخوض في الحديث عن النكبة ودلالاتها، ويفضلون الاتّفاق مع الطلبة العرب على الحديث عن سياسة إسرائيل في أعقاب حرب حزيران عام١٩٦٧. ورغم خيبة الامل التي شعرت بها من المناقشات القليلة وغير المثمرة التي أثارتها مقالتي في جريدة "هآرتس"، قرّرت متابعة هذا الملفّ وإجراء مقابلات مع شهود عِيان آخرين وتدوين ملاحظاتي حول تلك المقابلات.

ومرّت السنين، ووجدت نفسي أعود إلى الاهتمام بتوثيق وتأريخ أحداث النكبة في مجد الكروم. ففي أواخر الثمانينيّات برزت ظاهرة "المؤرّخين الجدد"، وأثار اهتمامي من بين منشوراتهم، بشكل خاصّ، كتاب بيني موريس بالإنجليزيّة حول نشوء قضيّة اللاجئين الفلسطينيّين (Moriss 1987). هذه الدراسة دحضت الدعاية الإسرائيليّة عن هرب الفلسطينيّين بتشجيع من الزعماء والقيادات العرب، وقدّمت بحثًا تاريخيًا مفصّلاً لأحداث النكبة ونتائجها في معظم القرى والمدن الفلسطينيّة. لقد وجد المؤلّف في أرشيفات الدولة والجيش وأجهزة الأمن الأخرى كمًّا كبيرًا من الوثائق تؤكّد ارتكاب المجازر وأعمال طرد السكّان في مناطق مختلفة من فلسطين. وإضافةً إلى توثيق مسؤوليّة الحكومة الإسرائيليّة وجيشها، وإنْ جزئيًا، عن نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيّين منذ عام ١٩٤٨، أدّى كتاب موريس دورًا مهمًّا في جَسْر الهوّة العميقة القائمة بين الروايتين الإسرائيليّة والعربيّة. وكان من الطبيعيّ أن توجَّه إلى موريس ودراسته انتقادات شديدة اللهجة من الجانبين العربيّ والإسرائيليّ. ورغم أنّ بعض تلك الانتقادات مُحِقّة، كانت أغلبيّتها الساحقة سياسيّة وأيديولوجيّة، دفاعًا عن الروايات الرسميّة، لا نصرةً للعلم وللحقيقة التاريخيّة.

رحت أقرأ في صفحات كتاب موريس بتلهّف وأفتّش عن تسجيل لأحداث النكبة في مجد الكروم، لكنّ خيبة أملي كانت كبيرة حين لم أجد في هذه الدراسة أيّ ذكر لتلك الأحداث. ولمّا تعرّفت بعد حين على مؤلّف الكتاب شخصيًا والتقيته مرّات في معهد ترومان بالجامعة العبريّة، صارحته بخيبة أملي، وسردت له بإيجازٍ ما سمعته من والدي وأقربائي. كان الاعتماد الكامل على الأرشيفات والمصادر الإسرائيليّة، وإهمالُ التاريخ الشفويّ والمصادر الفلسطينيّة، نقطةَ ضعف أساسيّة في تلك الدراسة المهمّة. وكانت أحداث مجد الكروم دليلي القاطع على أنّ الوثائق الإسرائيليّة – على أهمّيّتها – لا ترسم إلاّ جزءًا من الصورة، وتخفي أجزاءً أخرى. لكن موريس لم يغيّر من موقفه

غير المكترث بالرواية الشفويّة. وبعد سنوات، صدر الكتاب في إسرائيل باللغة العبريّة، فضمّ وثائق وتفاصيل جديدة لم تُنشر في الطبعة الإنجليزيّة (موريس ١٩٩١). وفي الطبعة العبريّة للدراسة، وجدتُ سردًا لحادثة المذبحة على ساحة العين (في تشرين الثاني عام ١٩٤٨) وقتل الجيش الإسرائيليّ لتسعة أشخاص من أهالي القرية. وقد اعتمد المؤلف في روايته لتلك الأحداث على تقرير لفريق الأمم المتّحدة زار القرية بعد المذبحة بأيّام، وذكر أنّ الفرقة العسكريّة التي نفّذت أعمال القتل قامت كذلك بنهب وسرقة المئات من رؤوس الماعز والخراف والبقر عند انسحابها من مجد الكروم مساء ذلك اليوم المشؤوم.[٨]

الصورة التي يرسمها بيني موريس لأحداث مجد الكروم في كتابه بالعبريّة ظلت جزئيّة. صحيح أنّها تكشف عن أحداث المجزرة، بيد أنّها لا تذكر شيئًا عن عمليّات الطرد التي قام بها الجيش الإسرائيليّ. والأدهى من ذلك أنّ المؤلّف الذي سمع منّي تفاصيل قصّة طرد عائلتي من القرية ظلّ على موقفه الرافض لاستعمال التاريخ الشفويّ لاستيفاء معلوماته عمّا جرى في قرى الشاغور على الأقلّ. لكنه، في المقابل، نقل معلومات شفوية أوردها نافذ نزّال على لسان لاجئين من القرية في لبنان (موريس ١٩٩١، ٣٠٤، ٥١٦). وحسب أقوالهم، إنّهم تركوا القرية "بسبب الخوف بعد انسحاب قوّات "جيش الإنقاذ" بينما بقي فيها مَن كان عاجزًا لتقدّم السنّ أو بسبب الخوف من المخاطرة بعيدًا عن الوطن" (موريس ١٩٩١، ٥١٦).[٩] هكذا قرّر الباحث، الذي لا يؤمن بأهمّيّة التاريخ الشفويّ، استعمالَ روايات من هذا النوع أوردها نزّال في دراسته دون أن يكون في مستطاعه التحقّق من منهج جمع المعلومات ومدى صدقيّتها. بالأحرى إنّ روايات أهل القرية التي نقلتها له اكثر من مرّة والحقائق القائمة عن بقاء أغلبيّة أهل مجد الكروم في بلدهم جرى تجاهلها تمامًا. في المقابل، اعتمد موريس على روايات شفويّة انتقائيّة وجزئيّة جمعها نزّال في مخيّمات اللجوء دون أن يمتحن تلك الروايات ويقارنها مع ما يرويه أهالي الجليل الذين صمدوا في قراهم ووطنهم (Nazzal 1978). في دراسته لنشوء قضيّة اللاجئين الفلسطينيّين، كان بيني موريس يصرّ على أنّ هذه القضيّة وُلدت من جرّاء ظروف الحرب، لا بسبب تخطيط من الطرفين العربيّ واليهوديّ. كذلك، باعتماده على الوثائق الإسرائيليّة، نفى ان تكون هناك خطّة أو أوامر من قيادات سياسيّة أو عسكريّة لطرد الفلسطينيّين من بلدهم. أمّا المجازر التي ارتُكبت وأعمال طرد السكّان التي تحدّث عنها ووثّقها في دراسته، فقد كانت (حسب رأيه) مجرّد مبادرات وقرارات لضبّاط صغار في الميدان. ورغم ملاحظته زيادة أعمال طرد الفلسطينيّين من وطنهم في العمليّات

العسكريّة الإسرائيليّة في شهرَيْ تّموز وتشرين الأوّل عام ١٩٤٨، لم يؤثّر ذلك على استنتاجاته حتّى ذلك الحين. وقد تراجع موريس عن ذلك الموقف جزئيًا بعد أن "اكتشف" أمرًا عسكريًّا لقائد منطقة الشمال العميد موشيه كرمل (موريس ٢٠٠٠، ١٩٩٨). لكن الباحث الذي اعترف بخطأ استنتاجاته السابقة، وإنْ جزئيًّا، اعتمادًا على وثائق عسكريّة جديدة، لم يغيرّ من موقفه السلبيّ تجاه التاريخ الشفويّ. هكذا ظلّت أحداث النكبة تُبحث وتُروى حتّى أواخر التسعينيّات من الجانب الإسرائيليّ بالاساس، دون ان تقابلها من الطرف الفلسطينيّ محاولات جادّة ومنظّمة لتوثيق تجربة الضحيّة وروايته حتّى تكتمل الصورة الحقيقيّة لأحداث حرب فلسطين عام ١٩٤٨.

اهتمّ باحثون فلسطينيّون بالتاريخ الشفويّ واستعملوه في دراساتهم الاجتماعيّة والتاريخيّة عن اللاجئين.[١٠] كما قام فريق من الباحثين بإشراف البروفيسور وليد الخالدي بجمع المعلومات عن مئات القرى التي دُمّرت أثناء حرب ١٩٤٨ وما بعدها (Khalidi 1992). وقام فريق آخر في جامعة بيرزيت بإصدار سلسلة من الدراسات الموثّقة بالروايات الشفويّة عن عدد من القرى المدمّرة. في الوقت ذاته، ازداد اهتمام الفلسطينيّين منذ أواسط التسعينيّات بنشر السِّيرَ الذاتيّة والمذكّرات وشهادات لشهود عِيان عاصروا النكبة وأحداثها[١١]. لكن مخزون الرواية الشفويّة ما زال غنيًّا بمعلومات ثمينة تجب الاستفادة منها قبل فوات الأوان. كما أنّ على الباحثين الفلسطينيّين – وعلى المؤرّخين منهم بخاصّة – أن يقوموا بالاستفادة من الكمّ الهائل من الدراسات والمنشورات الفلسطينيّة والإسرائيليّة لرسم صورة متكاملة ومتّزنة لأحداث حرب ١٩٤٨. ومن جهة أخرى، إنّ فتح الأرشيفات الإسرائيليّة أمام الباحثين واستعمال كلّ المصادر المنشورة، معزَّزةً بالرواية الشفويّة، يتيح القيام بدراسات عينيّة عن أحداث النكبة في قرية او منطقةٍ ما. وهذه الدراسة هي تجربة من هذا النوع لاستعمال ما اختزنته الذاكرة والرواية الشفويّة، مدعومةً ومقارَنةً بالوثائق والمصادر المكتوبة من الجانبين الفلسطينيّ والإسرائيليّ، لرسم صورة متكاملة عمّا حدث في مجد الكروم عام النكبة.

عمليّة حيرام واحتلال قرى الجليل الأوسط

كانت مجد الكروم واحدة من نحو خمسين قرية في الجليل الأوسط احتلّتها القوّات الإسرائيليّة في الأيّام الأخيرة من تشرين الأوّل عام ١٩٤٨، في عمليّة حيرام. وحيرام هذا (الذي أُطلق اسمه

على هذه العمليّة) هو ملك فينيقيّ حكمَ "صور" في القرن العاشر قبل الميلاد، ويقال إنّه أرسل عمّالاً وأخشابًا وموادّ بناء أخرى إلى الملك داود في القدس للمساهمة في بناء الهيكل. وقد أدّت هذه العمليّة إلى احتلال الدولة اليهوديّة الفتيّة لكامل قرى ومدن الجليل حتّى الحدود اللبنانيّة، بما في ذلك منطقة الجليل الأوسط التي كان من المقرّر أن تكون جزءًا من الدولة العربيّة الفلسطينيّة حسب قرار التقسيم في نهاية عام ١٩٤٧. وكانت مجد الكروم، حتّى أواخر تشرين الأوّل عام ١٩٤٨، على خطّ المواجهة مع القوّات الإسرائيليّة التي احتلّت قرى الجليل الغربيّ، وجعلت من قرية البروة قاعدة أماميّة لها. وقد رابطت، في قرى مختلفة من الجليل الأوسط، قوّات "جيش الإنقاذ"، منها في مجد الكروم فرقة بقيادة صلاح بك ترك. هذه الفرقة، بالتعاون مع عشرات المتطوّعين من القرية والبلاد المجاورة، رابطت في مناطق الطويل والليات ومنعت تقدّم القوّات الإسرائيليّة من البروة إلى قرى الشاغور. لكنّ الأوامر صدرت لقوّات جيش الإنقاذ في الجليل الأوسط بالانسحاب من مواقعها عشية البدء بعمليّة حيرام، فانسحبت كذلك من مجد الكروم في ١٩٤٨/١٠/٢٩.[١٢]

ويُجْمِع أهالي القرية، في روايتهم لما حدث ذلك اليوم، على التفاصيل والفحوى. فبعد ظهر ذلك اليوم، جمع ضابط الفرقة الأهاليَ في ساحة العين، وشكرهم على تعاونهم في الدفاع عن المنطقة، وأبلغهم أنّ قوّاته "سوف تنسحب من القرية هذا المساء حسب أوامر القيادة". وختم الضابط الذي وقف على منصّة في الساحة بالقرب من "قهوة عزّات" أقوالَه بنصيحة أخويّة لسكّان القرية في ما يتعلّق بمستقبلهم الغامض على ضوء انسحاب قوّاته. لقد نصح الأهاليَ أن يقوموا بالاتّصال بمن يعرفونه من اليهود أو وجهاء الدروز لعقد اتّفاقيّة تسليم تنقذ القرية وسكّانها من أعمال القتل والدمار والتشريد. وبالفعل انسحبت فرقة جيش الإنقاذ من مجد الكروم مساء الخميس الموافق ٢٩/١٠/ ١٩٤٨، حسب سجلّ بخطّ اليد لأحد شهود العِيان على تلك الأحداث.[١٣] ولم يخرج من أهالي القرية ذلك اليوم إلاّ عدد قليل من الشباب "الذين كانت العين عليهم" ذهبوا إلى البعنة أو إلى ملجأ قريب في الجبال المجاورة، حسب شهادات أهل القرية.

كان الخوف من نقمة السلطات الإسرائيليّة وجنودها شديدًا. وكانت الإشاعات الكثيرة، والتي بثّ بعضُها الرعبَ، تنتشر بين الأهالي انتشار النار في الهشيم.[١٤] لكنّ أخبارًا أخرى كانت تهدّئ من روع السكّان وتثير فيهم الأمل في أن يكون نصيبهم مثل قرى الجليل الغربيّ أو قرى البطّوف التي سلِمت من الدمار والتشريد. كذلك إنّ الأخبار الواردة من تجمّعات اللاجئين في لبنان،

وغيره من البلدان العربيّة المجاورة، كانت تشدّ من عزيمة السكّان وتدفعهم إلى تفضيل الإهانات والشقاء في الوطن، على التشرّد والهوان خارجه. ولمّا كانت لبعض أهالي مجد الكروم علاقات عمل أو صداقات قديمة مع يهود متنفّذين أو دروز من يركا والقرى المجاورة الأخرى، فقد عزموا على الاتّصال بهم لتسليم القرية دون قتال. وهكذا جرت الاتّصالات حقًّا حسب نصيحة صلاح بك ترك ضابط فرقة جيش الإنقاذ. وإن كانت الروايات التي سمعتها تختلف في تحديد الطرف الذي جرى الاتّصال به، إلاّ أنّ الكلّ يُجمِع على أنّ الاتّصالات تكلّلت بالنجاح، وجرى التسليم لفرقة عسكريّة إسرائيليّة جاءت من الغرب.[١٥]

تقدّمت الفرقة العسكريّة من منطقة البروة، ودخلت مجد الكروم بعد انسحاب قوّات جيش الإنقاذ بيوم، في ١٩٤٨/١٠/٣٠. وقد حصلتُ على نُسَخ من وثائق في أرشيف "الجيش وجهاز الأمن" توثّق عمليّة التسليم الذي حصل ظُهر ذلك اليوم. ففي وثيقة بتاريخ ٣١ تشرين الأوّل عام ١٩٤٨، لضابط مخابرات الفرقة ١٢٣، كُتِب في أعلاها "سرّيّ – مستعجل"، سُجِّلت تفاصيل دقيقة عن أحداث مجد الكروم في اليومين السابقين.[١٦] ذكرت الوثيقة "أنّ العدوّ انسحب من منطقة البروة – مجد الكروم [أي مناطق الليات وجبل الطويل] مساء يوم الخميس ١٠/٢٩". وقد وصلت إلى البروة بعثة من أهالي قرى مجد الكروم والبعنة ودير الأسد مساء ذلك اليوم نفسه، استقبلهم قائد الفرقة هناك.[١٧] في صباح اليوم التالي، وبعد معاينة الطريق، تقدّمت مجموعة عسكريّة ودخلت القرية في ساعات الصباح. "وعند ساعات الظهر تقريبًا شوهدت قوّة من المصفّحات تتّجه من الشرق باتّجاه مجد الكروم. هذه القوّة أخذت بإطلاق النار على القرية فقامت قوّاتنا بالردّ على النار بالمثل والانسحاب من مواقعها الشرقيّة باتّجاه الغرب". ولما وصلت القوّة المدرّعة إلى مجد الكروم ودخلتها، تبينّ أنّها من الفرقة ١٢٢ وأنّها تسلّمت أمرًا الساعة ١١ ظهرًا في الرامة أن تتقدم فورًا إلى مجد الكروم. تؤكّد هذه الوثيقة ما جاء في شهادات أهل القرية عن إطلاق نار بين الفرقة التي استلمت خضوع القرية وجاءت من الغرب، وفرقة أخرى جاءت من الشرق سبقتها الإشاعات أنّها ستفعل في مجد الكروم ما هو أعظم بكثير ممّا فعلته في عيلبون. وأكّد لي بعض أهالي القرية أنّ جنديًا قد قُتل في القرية نتيجة إطلاق النار، بينما قال آخرون إنّ جنديًا أو أكثر جُرحوا. ويتسحاقي الذي كتب رسالة لصحيفة "هآرتس" ذكرناها أعلاه يؤكّد كذلك هذه الحادثة، ويذكر أنّ أحد جنوده أُصيب إصابة بالغة ذلك اليوم. وعلى الجملة، إنّ الوثائق العسكريّة التي كُشِفت تطابق روايات أهل القرية عمّا جرى في مجد الكروم يومَيْ ٢٩–٣٠ من تشرين الأوّل عام ١٩٤٨.[١٨]

وفي وثيقة أخرى (١٩٤٨/١١/١)، قام ضابط مخابرات لواء حيفا بتلخيص معلومات سرّيّة ومفصّلة وردت في وثائق ضبّاط مخابرات الفرق المختلفة كتلك التي أشرنا إليها أعلاه.[١٩] تذكر هذه الوثيقة أنّه تبينّ من التحقيقات مع أهالي مجد الكروم أنّه بعد انسحاب قوّات جيش الإنقاذ في ١٩٤٨/١٠/٢٩ (المسمّى هناك بالجيش العربيّ) عُقدتْ وثيقة تسليم القرية في اليوم التالي (١٩٤٨/١٠/٣٠). كذلك ورد هناك "أنّ بعض الأهالي، خاصّة منهم الشباب، هربوا إلى الجبال المحيطة وسوف يحاولون الرجوع في الأيّام القريبة".[٢٠] أمّا الذين مكثوا في القرية، فقُدّر تعدادهم بألفَيْ نسمة يشملون أهالي القرية الأصليّين، إضافة إلى لاجئين من شَعَب والبروة والدامون وكفر عنان. هذا التقدير لعدد سكّان مجد الكروم بعد تسليم القرية يؤكّد الروايات الشفويّة التي مُفادها أنّ عددًا قليلاً من الشبّان غادرها بعد انسحاب جيش الإنقاذ، ويدحض الشهادات التي نقلها نزّال عن لاجئين في لبنان والتي اعتمد عليها بيني موريس أيضًا.[٢١] وأضافت هذه الوثيقة التلخيصيّة، نقلاً عن ضابط مخابرات الفرقة ١٢٢: "أنّ المنطقة المحتلّة مليئة بالشباب العرب ممّن هم في جيل التجنيد ويبدو على بعض هؤلاء أنّهم ممّن حاربوا مع جيش الإنقاذ لكنهم ظلّوا في المنطقة بلباسهم المدنيّ بعد انسحاب قوّات ذلك الجيش". لذا، يضيف ضابط المخابرات: "هناك ضرورة للقيام بعمليّة تمشيط صارمة سريعة والتفتيش عن الأسلحة وعناصر من جيش الإنقاذ في هذه المنطقة".[٢٢]

مثل هذه الوثائق العسكريّة، المحفوظة في أرشيفات الجيش والحكم العسكريّ وغيرهما من أجهزة الأمن، تؤكّد الرواياتِ الشفويّةَ التي استمعتُ أليها صبيًّا من والدي، ثم جمعتها فيما بعد من عدّة شهود عِيان في القرية؛ كما أنّ زئيف يتسحاقي، الذي اقتبستُ آنفًا من ردّه لجريدة "هآرتس"، والذي يبدو لي أنّه كان قائد الفرقة ١٢٣، أكّد كذلك اتّفاقيّة التسليم وحادثة إطلاق النار مع الفرقة ١٢٢ التي حضرت من الشرق. وكانت هذه الفرقة قد انسحبت من مجد الكروم شرقًا، ولكنّ ضابط مخابراتها، كما نرى، كان يخطّط "لعمليّة تمشيط صارمة وسريعة" وينصح بالقيام بها. أمّا أهالي القرية، فيُجمِعون على أنّهم نفّذوا في ١٩٤٨/١٠/٣٠ شروط اتّفاقيّة التسليم مع "فرقة الجيش الغربيّة"، وقاموا بتسليم السلاح لقائد تلك الفرقة في المدرسة الغربيّة. وتذكر الوثائق العسكريّة أنّ مختاري مجد الكروم وبعض وجهائها استلموا شروط التسليم الساعة ١٣:٣٠ في ذاك اليوم عينه (١٩٤٨/١٠/٣٠). بعد ذلك بنحو ساعة (وبالتحديد في الساعة ١٤:٢٥)، وقّعوا على شروط الاستسلام.[٢٣] هكذا مر ذلك اليوم بسلام، دون وقوع أعمال قتل أو تدمير ونهب للبيوت.

وفي أعقاب عمليّة التسليم نهار يوم الجمعة (١٩٤٨/١٠/٣٠)، أُعلن حظر تجوّل ليليّ ابتداءً من الساعة السادسة مساءً حتّى صباح اليوم التالي. وكان الأهالي في ذلك اليوم قد أُمهلوا حتّى الساعة الثانية عشرة ظهرًا لجمع الأسلحة، وتسليمها لفرقة الجيش المرابطة في القرية – حسب نصّ الوثائق العسكريّة. وحتّى تلك الساعة، جرى تسليم عشرين بندقيّة من صُنع ألمانيّ وفرنسيّ وإنجليزيّ مع ذخيرتها.[٢٤] لكنّ ضغوطًا وتهديدات قامت بها قيادة الفرقة ١٢٣ على الأهالي أدّت إلى تسليم خمس عشرة بندقيّة إضافيّة في الساعات التالية من اليوم ذاته (١٠/٣١). وبعد عصر ذلك اليوم، وصل قائد الفرقة ١٢٢ مع رجاله، وتسلّم المسؤوليّة في مجد الكروم. أمر هذا القائد بجمع نحو مئة عامل سِيقُوا إلى غربيّ القرية (منطقة الليات)، حيث قاموا بتنظيف الشارع من الصخور وتجهيزه لسير المركبات. كذلك استلمت الفرقة ١٢٢ من الفرقة المنسحبة من القرية (فرقة ١٢٣) ٣٥ بندقيّة (معظمها قديم) مع ذخيرتها، كان الأهالي قد سلّموها حسب اتّفاقيّة تسليم القرية في اليوم السابق.[٢٥]

هكذا انتهت عمليّة تسليم مجد الكروم إلى الجيش الإسرائيليّ مع نهاية تشرين الأوّل عام ١٩٤٨، واعتقد العديد من أهالي القرية حينها أنّهم نَجَوْا من أعمال الانتقام الدمويّة التي كانت من نصيب قرى أخرى، نحو: عيلبون والصفصاف وفرّاضية وكفر عنان وغيرها.[٢٦] أمّا قادة إسرائيل التي لم يمرّ على الإعلان عن قيامها إلاّ نصف عام، فكان لهم حسابات وأفكار أخرى في ما يتعلّق بهذه المنطقة من الجليل الأوسط، التي كان من المفروض أن تكون جزءًا من الدولة العربيّة بحسب قرار التقسيم. فرئيس حكومة إسرائيل، بن غوريون، الذي أدار الحرب بصفته كذلك وزيرًا للأمن، كتب في يوميّاته، بعد انتهاء عمليّة حيرام، ذاكرًا أنّ نصف سكّان منطقة الجليل الأوسط "قد هربوا وسيهربون بأعداد أكبر" (بن غوريون ١٩٨٢، ٣: ٧٨٨–٧٨٩؛ بن غوريون ١٩٩٨). ثم سجّل بن غوريون، في يوميّاته بتاريخ ١٩٤٨/١٠/٣١، أنّ موشيه كرمل، قائد منطقة الشمال، أخبره بأنّ المنطقة الوسطى من الجليل (جيب الجليل)، التي جرى احتلالها في عمليّة حيرام، ضمّت نحو ٦٠ ألف نسمة هرب نصفهم حتّى الآن.[٢٧] وكما سوف نوضّح لاحقًا، إنّ أقوال بن غوريون، في معرض تعليقه على تقرير كرمل بأن عددًا أكبر من سكان هذه المنطقة سيهربون، لم تكن ضربًا من التنبّؤ، ولا مجرّد تعبير عن آمال وأحلام، بل كانت تخطيطًا انتقل إلى حيّز التنفيذ عن طريق الجيش الإسرائيليّ بأوامر من القيادة.

ففي اليوم نفسه الذي سجّل فيه بن غوريون تعليقه على نتائج عمليّة حيرام بناءً على ما سمعه من موشيه كرمل، كان هذا يُبرق إلى كلّ ضبّاط الفرق العسكريّة التابعة لمنطقة الشمال ما يلي: "اعملوا ما بوسعكم لتطهير سريع وحاليّ للمناطق المحتلّة من جميع الأطراف المعادية. حسب الأوامر التي أصدرناها، تنبغي مساعدة السكّان على ترك المناطق التي احتُلّت" (موريس ٢٠٠٠، ١٤٣).

ويضيف موريس معلّقًا: بدون شك، على خلفية الظروف السائدة في نهاية ١٩٤٨، إنّ ضبّاط الفرق العسكريّة المختلفة فهموا هذا الأمر الذي أصدره كرمل في ٣١ من تشرين الأوّل على أنّه أمر بطرد جماعيّ للسكّان العرب (موريس ٢٠٠٠، ١٤٣).[٢٨] هذا الأمر العسكريّ لقائد منطقة الشمال، ثم تسلسل الأحداث في مجد الكروم وقرى أواسط الجليل الأعلى خلال الاسابيع والاشهر التالية، جعلا موريس يعترف بأنّه أخطأ حين كتب سابقًا قائلًا إنّ طرد الفلسطينيّين لم يكن مخطّطًا ولا تنفيذًا لأوامر عليا من القيادات السياسيّة والعسكريّة الإسرائيليّة.[٢٩] وقد قامت القوّات الإسرائيليّة، في الأسبوع الأوّل من تشرين الثاني عام ١٩٤٨ والأسابيع والأشهر التالية، بعمليّات قتل وإرهاب للسكّان الفلسطينيّين لحملهم على الرحيل عن بيوتهم ووطنهم. وعندما لاحظت السلطات الإسرائيليّة أنّ تلك الأعمال لم تؤدِّ إلى "تطهير سريع" للمنطقة من سكّانها العرب، قامت بحملة منظّمة لطرد الفلسطينيّين من الجليل إلى ما وراء الحدود. وقد نالت مجد الكروم نصيبها من سياسة القتل والإرهاب، ثم الطرد بالقوّة كما سيجيء تفصيله في ما يلي.

مذبحة ساحة العين

بعد ستّة أيّام من تسليم القرية، أي في ١٩٤٨/١١/٥، جاء وغيابَ الشمس ضابطٌ وبرفقته ثلاثة جنود إلى ساحة العين، وسأل عن مختار القرية. فقام أبو جميل، الذي يسكن قرب ساحة العين، بإرسال مَن يفتّش عن المختار الحاجّ عبد الذي حضر للتوّ.[٣٠] فلمّا وصل المختار قال له الضابط: "أنا نازل مع الجيش بالقرب من الرامة. غدًا الساعة الثامنة صباحًا سأحضر ثانية إلى هذه الساحة، حيث أريد أن يكون ما تبقّى عند الأهالي من سلاح جاهزًا للتسليم. وبالفعل، جاء الجيش من الشرق في اليوم التالي، وفرض أفراده طوقًا على القرية، وجمعوا الرجال في ساحة العين. ثمّ خطب أحد الضبّاط مهدِّدًا ومحذّرًا أنّ الجيش سوف يبدأ عمليّة تفتيش في بيوت القرية، وأنّ من يُعثَر في بيته على بندقيّة سوف يُقتل إن لم يُحضرها ويسلّمها قبل ذلك. ثم توجّه الضابط إلى الحاجّ

عبد قائلاً إنّ عليه أن يسلّم السلاح الذي في القرية حالاً، وإلاّ فإنّه سيبدأ بقتل الرجال خلال نصف ساعة. واعترض المختار بقوله إنّ هذا الوقت غير كافٍ لمهمّة جمع السلاح إنْ وُجد منه ما لا زال مخبّأً في بيوت القرية. وكرّر المختار حجّته القوية، بإشارته أنّ السلاح الذي في القرية قد سُلّم قبل أسبوع، بموجِب اتّفاقيّة التسليم مع الجيش. ولكنّ أقوال المختار – الحاج عبد – لم تزد الضابطَ إلاّ انفعالاً وغضبًا.[٣١]

وقبل أن تمرّ نصف ساعة على تهديدات الضابط، كان الجنود يسوقون خمسة من سكان القرية اختيروا ليُعدَموا على مسمع ومرأى من الأهالي.[٣٢] ثم صدر الأمر للجنود بإطلاق النار عليهم دفعةً واحدة، فسقطوا قتلى إلى جانب حائط العين. ودبّ الرعب والذعر في رجال القرية الذين حافظوا، حتّى ذلك الحين، على رباطة جأشهم. أمّا الجنود، فقد تفرّقوا في طرقات القرية وبيوتها يفتّشون عن السلاح المزعوم وجوده في القرية. ويضيف موريس، اعتمادًا على وثائق كتبها فريق مراقبة من الأمم المتّحدة في ١٣–١٤ تشرين الثاني، أنّ الجيش قتل أيضًا رجلين وامرأتين في ذلك اليوم. كما قام الجنود، خلال تفتيشهم، بعمليّات نهب واسعة. وعندما قامت فرقة الجيش بمغادرة مجد الكروم عند المساء، كانت تسوق معها مئات رؤوس الماعز والغنم والبقر المنهوبة (موريس ١٩٩١، ٣٠٤). وينهي موريس ما كتبه عن هذه الحادثة بقوله إنّ الجيش لم يأمر السكّان بمغادرة القرية. هذه الجملة الخاتمة لحوادث القتل والنهب في مجد الكروم هي دليل الباحث على ما قاله في فاتحة تقريره عمّا حدث في مجد الكروم. وبعد الحديث عن القتل والطرد في البعنة ودير الأسد المجاورتين، يضيف موريس أنّ "بعض القرى بقيت قائمة لم يمسّها سوء، رغم أنّ سكّانها أكثروا من الاعتداءات على اليهود مثل مجد الكروم".[٣٣]

رواية الأحداث في مجد الكروم بتاريخ ١٩٤٨/١١/٦ في دراسة بيني موريس لا تختلف جوهريًّا عمّا سمعته شفهيًّا من شهود العِيان الذين قابلتهم وسمعت شهاداتهم حول ما حدث من أعمال قتل ونهب في ذلك اليوم. ويعود سبب تطابق الروايات في هذه الحالة، كما في التقارير عمّا حدث في البعنة ودير الأسد، إلى أنّ المصدر واحد: شهادات أهل القرى لفريق الأمم المتّحدة مباشرة بعد الأحداث، ثمّ تكرارها أمامي بعد عشرات السنين.[٣٤] في هذا الحدث، وفي ما رواه الأهالي وحفظوه ونقلوه بدقّة عشرات السنين، ما يؤكّد أهمّيّة الرواية الشفويّة وضرورة استخدامها كأحد مصادر تاريخ النكبة وأحداثها. فشهادات الطرف المهزوم في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ توفّر

للباحث أو الدارس البعدَ الإنسانيَّ وتفاصيلَ تغيَّب، في المعتاد، في التقارير والوثائق العسكريّة والرسميّة. فوثائق المنتصرين ومذكّراتهم تسرد قصة الانتصارات وتفاصيلها وتختزل مآسي المهزومين وعذاباتهم (حتّى حين تذكرها) إلى أرقام وتقارير تغيِّب أسماء الضحايا وتفاصيل المعاناة التي لا ينساها المنكوبون، وإنْ بعد عشرات السنين. وفي التفاصيل الوفيرة التي سمعتها من شهود العيان في مجد الكروم ما يؤكّد هذه المقولة، ممّا يستوجب نقل بعضها إلى القرّاء.

محمّد الحاجّ (أبو معيوف)، أحد الخمسة الذين أُعدِموا، رأى بأمّ عينه كيف يقوم الجنود بوضع الديناميت في بيته قبل نسفه. وكان أبو معيوف زوج جدّتي زهرة الجاعونيّة التي عاشت حتّى أواخر الستّينيّات. لكنها كانت قليلة التحدّث عن قتل زوجها وهدم بيتها، بعكس والدي الذي كان يُكثِر من سرد ما رآه وعاناه. كانت زهرة الجاعونيّة تعرف بغريزتها أنّ إيواء زوجها لحامية من شعَب تابعة لجيش الإنقاذ وجعْل داره السفلى مخزنًا لمؤنهم سوف يجرّ على عائلتها انتقام الطرف الإسرائيليّ. ولما كانت هي وأهلها في الجاعونة على علاقة جوار قديمة وحميمة مع مانو فريدمان ابن "روش بينه" (الجاعونة)، أرسلت من يستعطفه باسمها ليمنع الشرّ القادم أو يخفّف من حدّته. وقد أرسل فريدمان بالفعل ورقة باسمِه وبتوقيعه إلى جارته أيّام الطفولة، بل وأخته في الرضاع (كما سمعت من جدّتي) تقول: "الرجاء عدم المسّ بهذه السيدة حاملة الورقة وبأولادها".[٣٥] وبالفعل إنّ الجيش لم يمسّ زهرة الجاعونيّة وأولادها بأيّ أذى؛ واكتفى الجنود بنسف البيت الذي كانت تسكنه مع أولادها، وبقتل الرجل الذي كان زوجها ومعيلها. أمّا الأربعة الآخرون الذين جرى إعدامهم في ساحة العين، فهم: إبراهيم نجم (أبو نظمي) وأحمد محمود كيّال (وهما من قرية البروة)، ومحمّد محمود طه وأحمد العرابي (من شعَب).

أمّا في ما يتعلّق بالرجلين الآخرين اللذين قيل إنّهما قُتلا خلال التفتيش، فتروي عمّتي سعدة التي كانت شاهدة عِيان على طريقة قتلهما ما يلي: "كنت في دار زوجي السابق، ومن شبّاك المطبخ رأيت أربعة جنود كانوا يفرضون منع التجوّل على القرية من الجهة الجنوبيّة. ثم رأيت بعد حين شابّين قادمين كما يبدو من شعب إلى مجد الكروم لزيارة أقارب لهم لجأوا إلى قريتنا. كان الجنود والشابّان على بعد نحو خمسين أو مئة متر من بيتنا. ورأيت الجنود يغرزون سنجات بنادقهم في أماكن مختلفة من أجسام الشابّين. استمروا في هذا العمل أكثر من نصف ساعة على الاقل والشابّان ينـزفان ويتألّمان دون أن يصرخا أو يستغيثا. بعد ذلك، أطلق الجنود النار عليهما، فسقطا جثّتين

هامدتين، فارتعبت من المنظر، وابتعدت عن الشباك خشية أن يراني الجنود فيطلقوا النار عليّ أنا كذلك".[٣٦] وتبينّ، فيما بعد، أنّ القتيلين هما علي أسعد العبد وابن محمد طه الخطيب من قرية شعب اللذين ما زال بعض أقاربهما يعيشون في مجد الكروم منذ عام ١٩٤٨. لم يعرف المسكينان ما كان يجري في القرية من أحداث مؤلمة، فساقهما حتفهما إلى ذلك الموقع حيث قُتلا بتلك الطريقة.

اما المرأتان اللتان قيل إنّهما قُتلتا خلال عمليّة تفتيش الجنود في البيوت، فإحداهما كانت في الجامع، صوّب جنديّ سلاحه وقتلها عندما أطلّت على فرقته من وراء حائط الجامع. أمّا الأخرى، فيقال إنّها صبيّة خرجت هاربة من ساحة بيتها خوفًا من الجنود الذين قاموا بعمليّة التفتيش، فأطلق أحدهم النار عليها وأرداها قتيلةً. وتقول روايات أخرى إنّ أحد الجنود حاول الاعتداء على تلك الصبية، ولّما هربت أطلق النار عليها. وقد سمعتُ من أمّي وجدّتي وعمتي وغيرهنّ عن مجريات ذلك النهار، فكان التركيز في رواياتهنّ على ما حدث للرجال. فرغم الخوف والرعب الذي اصاب النساء في البيوت خلال تفتيش الجنود، كان خوفهنّ على الرجال في ساحة العين أشدّ وأهمّ. وعلى الجملة، لم أسمع عن حوادث اعتداءات جنسيّة على نساء القرية، عدا حادثة تلك الصبيّة التي تختلف الروايات حولها. وكما يقول ابن قرية البعنة المجاورة لمجد الكروم في مذكراته المنشورة عن تلك الايام العصيبة: كانت الفكرة السائدة بين الناس أنّ العِرْض أهمّ من الأرض والوطن. ولكن تبينّ أنّ جنود الدولة الجديدة لم يكونوا معنيّين بسبي النساء أو الاعتداء على عرضهنّ، بل بتصيّد الرجال وتخويفهم لحملهم على مغادرة الوطن (ابراهيم ١٩٩٦، ١٣٣).

وفي ساحة العين، كان ضابط الفرقة العسكريّة قد اختار ثلاثة رجال كدفعة أخرى مصيرها الإعدام، لولا وصول شفيق أبو عبده من الدامون ومعه ضابط يهوديّ. كان شفيق أبو عبده متزوّجا من يهوديّة، ويسكن معها في حيفا، ويخدم منذ سنوات مع قوّات الهاجاناه. كما أنّ أولاده خدموا، فيما بعد، في الجيش الإسرائيليّ، وظلّوا على علاقة مع بعض أقاربهم من قرية الدامون التي دُمّرت وتشرّد أهلها في قرى الجليل المختلفة. فلمّا وصل شفيق أبو عبده ورأى ما قامت به الفرقة العسكريّة، تقدّم من الضابط غاضبًا، وطالب حازمًا بوقف تلك المذبحة المنافية لاتّفاق التسليم قبل أسبوع. وذكرت روايات أخرى اسم حاييم أورباخ كوسيط في الوصول إلى اتّفاقيّة التسليم، وأنّ له ضلعًا في إيقاف المذبحة المنافية للاتّفاقيّة والوعود التي قُدّمت قبل أسبوع لسكّان مجد الكروم. وتنفّس رجال القرية الصعداء حين رأوا أنّ قدوم شفيق أبو عبده ونقاشه مع قائد الفرقة العسكريّة قد أثمر بسرعة، فتوقّف القتل وحتّى التهديد به. أمّا الموثوقون فأُطلق سراحهم،

وكُتبت لهم الحياة بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من موت محقّق. وكان هؤلاء الثلاثة: مختار القرية الحاجّ عبد؛ أحمد ذياب من مجد الكروم؛ مصطفى نجم من أهالي شعَب. أمّا جثث القتلى الخمسة، فطُلب من الأهالي أن يحضروا حميرًا لينقلوها إلى المقبرة القريبة ويدفنوها بسرعة، ففعلوا ذلك. وتنفّس أهالي القرية الصعداء وحمدوا الله وشفيق أبو عبده على أنّ المصيبة لم تكن أكبر من ذلك، وعاد الرجال إلى بيوتهم صاغرين.

صحيح أنّ الجيش بعد وقفه لأعمال القتل في مجد الكروم لم يقم بطرد السكّان ذلك اليوم كما فعل في بعض القرى المجاورة،[٣٧] لكن العديد من الشبّان والعائلات فقدوا ثقتهم في وعود الدولة الفتيّة واتّفاقيّاتها فقرّر بعضهم الاختفاء في الجبال أو الوصول إلى ملجأ آمن في لبنان. ورغم أنّ شهادات الأهالي تذكر تقديرات مختلفة، في ما يتعلّق بعدد الذين نـزحوا بعد مجزرة ساحة العين، يتّفق الجميع حول أنّ هذه العمليّة أرعبت السكّان وأفقدتهم الطمأنينة لفترة غير وجيزة. هكذا حقّقت هذه العمليّة الأهداف المرجوّة لمخطّطيها، فدفعت بأعداد جديدة من الأهالي إلى النـزوح عن بيوتهم ووطنهم. وبعد هذه المجزرة في مجد الكروم بأسابيع قليلة، قامت السلطات الإسرائيليّة بإحصاء للسكّان في قرى الشاغور والمناطق المجاورة لها في الجليل (كيمن ١٩٨٤؛ Kamen 1988, 1987). فمن ترك بيته وقريته، وإنْ لأيّام او أسابيع، أصبح في عُرف السلطات الإسرائيليّة لاجئًا، ومتسلّلًا إذا حاول العودة إلى بيته وقريته. هؤلاء الذين أرهبهم القتل والتنكيل بالسكّان، فتوارَوْا عن الأنظار، وإنْ إلى حين، صاروا خارجين عن القانون يعاقَبون بالقتل على الحدود أحيانًا، وبالسجن والتعذيب في أحيان أخرى. أمّا الذين قاموا بالمذابح الكبيرة والصغيرة، كما في مجد الكروم والبعنة ودير الأسد ونحف وعيلبون وغيرها، فلم يسمع الأهالي أنّ أحدهم قُدّم إلى أيّة محاكمة؛ بل إنّ منفّذي تلك الأعمال أصبحوا، في كثير من الأحيان، حكّامًا عسكريّين ومسؤولين عن ملاحقة "المتسلّلين" ومعاقبة من يُؤويهم أو يساعدهم بأيّ شكل من الأشكال.

وحين انتشرت أخبار ما جرى في مجد الكروم ووصلت إلى آذان فريق الأمم المتّحدة المرابط في ميناء حيفا، قام المسؤولون الإسرائيليّون بإنكار حصول تلك الأحداث إنكارًا تامًّا، واتّهموا الأهالي بإشاعة أكاذيب واتّهامات لا أساس لها من الصحّة. وفي حالة مجد الكروم بخاصّة، إنّ ضابطًا اسمه باروخ برتبة مقدّم، وهو مسؤول عن الارتباط بأجهزة الأمن، كتب رسالة "سرّيّة" بهذا الشأن (من يوم ١٩٤٨/١١/١٨). في رسالته القصيرة يشكو باروخ من أنّ "مجد الكروم مهملة من قبل قوّاتنا، وليس فيها حاكم عسكريّ ولا حتّى ضابط".[٣٨] ثم يضيف أنّه في زيارة فريق

مراقبي الأمم المتّحدة للقرية في ١١/١٠، أكثرَ السكّان من اتّهامنا بأعمال النهب والقتل. ومن شبه المؤكّد أنّه لو كان هناك "تعامل مناسب" معهم لما أثيرت مثل تلك الاتّهامات. "وعندما تصل هذه الروايات (التقارير عمّا حدث) إلى باريس وتضخّم هناك، فإنّها سوف تسبّب لنا ضررًا بالغًا. لذا، نريد إثارة انتباهكم إلى هذا الوضع الذي يتطلّب إصلاحًا سريعًا".[٣٩]

لقد قام فريق من الأمم المتّحدة بزيارة مجد الكروم بالفعل، وقدموا بعدئذٍ بأيّام تقريرًا إلى الأمم المتّحدة حول ما حدث في مجد الكروم بناءً على ما سمعوه من الأهالي (موريس ١٩٩١، ٣٠٤). أمّا الطرف الإسرائيليّ، كما تشير رسالة باروخ المذكورة أعلاه إلى المسؤولين، فقد أنكر مسؤوليّته عن أعمال القتل في مجد الكروم وغيرها من القرى المجاورة.[٤٠] لكنّ بعض الأهالي الذين كانوا شهود عيان لمجزرة ساحة العين اقترحوا إخراج الجثث من القبور لإثبات صحّة أقوالهم. وبالفعل، إنّ جثث الرجال أُخرجت من قبورها، فعاينها إفراد فريق الأمم المتّحدة وصوّروها بكاميراتهم. لكنّ المسؤولين الإسرائيليّين ظلّوا على إنكارهم لما جرى. والأدهى من ذلك أنّ السلطات العسكريّة حاولت بشتّى الطرق إخفاءَ آثار الجريمة (بدلاً من معاقبة المجرمين)، وإرهاب الأهالي لكتمان شكواهم. هذا التصرّف، في مجد الكروم وغيرها من قرى الجليل، يؤكّد أنّ تلك الأعمال الدموية لم تكن تصرّفًا شاذًّا لضبّاط ميدانيّين، بل كانت سياسة عليا لتفريغ الجليل الأوسط (على الأقلّ) من السكّان في شتاء عام ١٩٤٨. وأمّا ما يتعلّق بمحاولات إخفاء الجريمة في ساحة العين وما جرى للصور التي التقطها فريق الأمم المتّحدة، فسنعود إلى ذلك فيما بعد.

عمليّات طرد السكّان من مجد الكروم

ومرّت الأيّام والأسابيع، واطمأنّ مَن بقي في مجد الكروم، بعد مذبحة ساحة العين، إلى أنّ تسجيل السكّان يعني استقرار بقائهم في وطنهم، وأنّ ما حدث في ١٩٤٨/١١/٦ كان سحابة صيف. ولكن السلطات الإسرائيليّة، التي أجْرت إحصاء السكّان في أواخر عام النكبة، لم تكن راضية – كما يبدو – عن بقاء عدد كبير من العرب في قرى الجليل. وبينما كانت مؤسّسات للأمم المتّحدة تتّخذ قرارات تحفظ حقوق الإنسان وتمنح اللاجئين الفلسطينيّين حقّ العودة أو التعويضات عن ممتلكاتهم كانت الدولة اليهوديّة الفتيّة، التي قامت بقرار من هيئة الأمم، تخطّط لإبقاء أقلّ عدد ممكن من العرب داخل حدودها.[٤١]

ومن ناحية أخرى، كانت الدولة الفتيّة، التي ما زالت بحاجة ماسّة إلى دعم دول العالم وتأييدها، تسمح لصحيفة "الاتّحاد" الأسبوعيّة أن تجدّد صدورها في ١٩٤٨/١٠/١٨. وقد جاء هذا القرار بعد موافقة نشطاء عصبة التحرّر الوطني الاندماج مع تنظيم الشيوعيّين اليهود وإقامة الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ. كان الشيوعيّون الفلسطينيّون الذين صاروا إسرائيليّين يشنّون، من على صفحات جريدتهم الأسبوعيّة، هجمات شرسة ضدّ الرجعيّة العربيّة والاستعمار البريطانيّ ويفخرون بأنّهم مع قرار التقسيم وإقامة الدولة اليهوديّة التي أضحوا من مواطنيها. ولكنّ هذه الصحيفة العربيّة غير الحكوميّة لم تأتِ في أعدادها الأولى على ذكر أعمال القتل والإرهاب وطرد السكّان في أعقاب احتلال إسرائيل لقرى الجليل الأوسط. وكان الخبر الأوّل المنشور في "الاتّحاد" عن تلك الأعمال – وجاء باقتضاب واستحياء – قد جاء في العدد الخامس (١٩٤٨/١١/١٥). هذا الخبر جاء نقلاً عمّا كُتب في صحيفة "عل هامشمار" وتضمّن نقدًا "لأعمال السلب والنهب والإجرام ضدّ العرب العزّل في الجليل ومناطق أخرى".[٤٢] وعدا نقل الخبر والاقتباس عن صحيفة حزب "مبام"، لم يورِد القائمون على إصدار وتحرير "الاتّحاد" أيّ تعليق أو إشارة إلى تلك الأعمال في مجد الكروم وعيلبون وغيرهما من قرى الجليل الأوسط.

كان الشيوعيّون، في الشهر الأخير من العام ١٩٤٨، ينظّمون صفوفهم في حزبهم الموحّد ويُعِدّون العدّة لخوض الانتخابات التي أُعلن أنّها ستجري في الشهر التالي. ورغم الإعلان عن يوم ١٩٤٩/١/٢٥ موعدًا للانتخابات البرلمانيّة الأولى والسماح للسكّان العرب في الجليل بالمشاركة فيها، لم تتوقّف محاولات طرد السكّان. وكان للرقابة – كما يبدو – دور في شحّ ما نشرته صحيفة "الاتّحاد" عن أعمال "التمشيط" وطرد السكّان من قرى الجليل. لكن هذه الصحيفة كانت تُظهر شجاعتها وتنشر أخبارًا وتعليقات عن تلك الأعمال حين يكون الأمر متعلّقًا بسَجن الشيوعيّين أو محاولات طردهم في أعقاب عمليّات التمشيط إلى ما وراء الحدود.[٤٣] وعلى كلّ الأحوال، إنّ ما جرى في مجد الكروم وقرى الجليل الأوسط بعد احتلالها من أعمال قتل ونهب وطرد للسكّان، حتّى بعد إجراء الانتخابات الأولى، لم يُكشف النقاب عنها في صحيفة "الاتّحاد" إلاّ في ما ندر.[٤٤] وقد طال مجد الكروم، عشيّة الانتخابات، من عمليّات "التمشيط" وطرد السكّان حصّةُ الأسد كما سيأتي بيان ذلك في ما يلي.

قامت السلطات الإسرائيليّة، في ١٩٤٩/١/٩، ممثّلةً بفرق عسكريّة وقوّات من الشرطة وممثّلين عن الحكم العسكريّ ورجال المخابرات، بعمليّة كبيرة في مجد الكروم طُرد خلالها مئات من

سكّان القرية. كنت اسمع عن ذلك اليوم المشؤوم كثيرًا من والديّ اللذين قرّرت قوّات الأمن الإسرائيليّة أن يكونا ضمن مئات المطرودين من بيتهم ووطنهم. لم يروِ الوالد أمام أطفاله قصّة الطرد والنزوح والعودة كضحيّة لا حول ولا قوّة لها، وإنّما رواها كمغامرة ذات نهاية سعيدة، ذلك أنّه كان المسؤول عن عودتنا إلى البيت والوطن بعد عامين ونيّف من اللجوء. قضت العائلة معظم فترة اللجوء البائس في مخيّم عين الحلوة القريب من صيدا مع طفلها الوحيد الذي كُنْتُهُ آنذاك. وقرّر الوالد، بعد أكثر من عامين قضيناها في لبنان، المغامرةَ بالعودة إلى الوطن عبرْ طريق البحر، مع عدد من العائلات الفلسطينيّة من مجد الكروم والقرى المجاورة. وتفاصيل تلك الرحلة، التي امتدّت منذ طردنا من القرية حتّى ربيع ١٩٥١، مثيرة يجدر تسجيلها وتوثيقها نموذجًا لعائلات كثيرة قاومت اللجوء والطرد وحقّقت العودة إلى الوطن بطرقها الخاصّة.[٤٥]

ولّما كانت هذه الورقة لا تتّسع لرواية تفاصيل ما حفظتْه الذاكرة من تجربة عائلة فلسطينيّة في مخيّمات اللجوء، نعود إلى موضوع الدراسة الأساسيّ؛ وهو عمليّة طرد السكّان من مجد الكروم. وبما أنّ عمليّات الطرد لم تكن عشوائيّة، بل وفق مخطّط وأوامر وتوقّعات القيادات، فقد وُثّقت تلك العمليّات وقُدّمت تقارير رسميّة إلى المسؤولين عن "مدى نجاحها". ومن هذه التقارير حول ما جرى في مجد الكروم، يوم طرد المئات من سكّانها، تقرير كتبه ضابط مخابرات لواء حيفا حينذاك (المدعوّ تسفي ربينوفيتش).[٤٦] أمّا هدف عمليّة "التمشيط" في مجد الكروم، يوم ١٩٤٩/١/٩، فكان – كما ورد في الوثيقة – "الإمساك بمتسلّلين ومجرمين في القرية". وقد سألت نفسي مرارًا حول المقصود بالمفردة "مجرمين" في تلك الوثيقة. فالمفردة "متسلّلين" دخلت حتّى قاموس الضحايا أنفسهم، وصار يُطلق على كلّ فلسطينيّ يحاول العودة إلى بلده ووطنه بعد أن نزح او طُرد منه. أمّا "المجرمين" فهم أناس يعرّفهم القانون والأعراف الدوليّة عادة. وبما أنّ والديّ والعشرات من المطرودين لم يكونوا متسلّلين، ولم يقوموا – حسب معلوماتي – بأيّ جرم حسب العرف والقانون، فلماذا أُطلق عليهم ذلك النعت؟ ألأنّهم شاركوا أحيانًا في الدفاع عن قريتهم ووطنهم، وبعضهم لم يفعل ذلك أصلًا؟ أم لمجرّد كونهم من الشبّان والشابّات الذين سينجبون أطفالًا فيزيدون عدد العرب في الدولة اليهوديّة الفتيّة؟ فهاجس (أو بعبع) الميزان الديمغرافيّ الذي يدفع بعض زعماء إسرائيل، حتّى هذه الأيّام، إلى بثّ سموم العنصريّة والتحريض على العرب، لم يكن غريبًا على قيادات الدولة الفتيّة. هؤلاء نظروا إلى وجود الفلسطينيّين كمشكلة قبل قيام دولتهم اليهوديّة، وبعد قيامها رأوا في تمسّك العرب ببيتهم ووطنهم جريمة.

لخّص تسفي ربينوفيتش عمليّة "تمشيط القرية" وطرد ٣٥٥ من سكّانها بالقليل من الكلمات والأسطر التي لا تملأ أكثر من نصف صفحة بكثير. فوفق تقريره، قامت مجموعة جنود من "فرقة الأقلّيّات" بتطويق القرية. وبعد الساعة الثالثة صباحًا، قطَعت كلّ الطرق المؤدّية إلى القرية. وفي الساعة السابعة، وصلت إلى القرية "شرطة إسرائيل وشرطة عسكريّة" وقوّات أخرى. ثمّ "صدرت الأوامر لوجهاء القرية أن يجمعوا كلّ الرجال من جيل ١٢ عامًا [هكذا] فما فوق خلال نصف ساعة. وفي الساعة الثامنة، أُعلن منع التجوّل وبدأت أربع فرق بتمشيط عملها في التفتيش عن المختبئين. وقد ضمّت كلّ فرقة تمشيط شرطيًّا مدنيًّا وشرطيًّا عسكريًّا وجنديَّين. في الوقت نفسه، شرع رجال الشرطة والمخابرات العسكريّة (ש.מ.3) في التحقيق مع الرجال الذين (تجمّعوا حسب الأوامر). وقد جرى التأكّد من هويّة ٥٠٦ من الرجال. وبعد التحقّق من هويّة هؤلاء، أُبعِد ٣٥٥ منهم إلى ما وراء الحدود". وبعد إنهاء العمليّة وإبعاد الناس، حُذِّر المختار والوجهاء وأُبلِغوا أنّ عليهم الإبلاغ عن أيّ متسلّل يصل إلى القرية.

وقبل أن يوقّع ضابط المخابرات المسؤول عن هذه العمليّة على التقرير الذي أرسله إلى المسؤولين، كتب تحت عنوان "تلخيص" ما يلي:

١. المواصلات (أي المركبات) لم تصل في الوقت المحدَّد من أجل نقل الموقوفين. وقد أدّى ذلك إلى عدم نقل ٣٠٠ شخص إضافيّ (أي إضافة إلى ٥٥٣ شخصًا طُرِدوا بالفعل حسب التقرير).

٢. قام جنديّان من فرقة تابعة للكتيبة ١٢٣ بأخذ بعض الأغراض من إحدى الحوانيت. وبعد تحقيق قصير أُعيدت الأغراض إلى أصحابها. هؤلاء سوف يقدَّمون إلى المحاكمة.

من الواضح، إذًا، أنّ ضابط المخابرات ربينوفتش كان راضيًا بشكل عامّ عن تنفيذ عمليّة التمشيط وإبعاد السكّان إلى ما وراء الحدود. والأمور التي لم تعجبه كانت قيام جنديّين بسرقة بعض الأغراض التي أُعيدت – حسبما ذكر في تقريره. أمّا الأمر الثاني، فكان عدم وصول المركبات الكافية وفي الوقت المناسب لطرد عدد أكبر من الأهالي. أمّا المكان الذي طُرد إليه سكّان القرية وراء الحدود، فلم يُحدَّد في هذه الوثيقة المخابراتيّة. ما كان يهمّ المسؤولين هو أنّ عربًا أقلّ ظلّوا في الجليل بعد تلك العمليّة. أمّا الأهالي الذين طُردوا إلى منطقة غير معروفة في برد الشتاء القارس، فكان للمكان بالنسبة إليهم أهمّيّة فائقة. لقد أوصلت المركبات العسكريّة المطرودين إلى قرية زبوبا (بالقرب من أمّ الفحم)، وهناك أُطلقت النار فوق رؤوسهم لتأكيد قول الجنود إنّ من سيحاول

الرجوع إلى الوراء سيلاقي حتفه. أمّا جنود الملك عبد الله الذين كانوا يحتلّون تلك المنطقة، فقد أخذوا يطلقون من جهتهم النارَ على هؤلاء المطرودين من وطنهم،[٤٧] واضطُرّ الرجال أن يخلعوا كوفيّاتهم البيضاء (حطّاتهم) ويلوّحوا بها للجنود الأردنيّين حتّى يوقفوا إطلاق النار. بعد ذلك، كان على الأهالي أن يسيروا مسافات طويلة مشيًا على الأقدام في الجبال والسهول التي ارتوت من أمطار كوانين. ولم يتحمّل بعض الشيوخ والأطفال البرد والمطر وعناء الطريق، ففارقوا الحياة. أمّا الباقون، فوصلوا بأغلبيّتهم الساحقة إلى نابلس، وآخرون إلى جنين. أمّا تفاصيل ما جرى لهم بعد ذلك في رحلة النزوح، فتخرج عن نطاق هذه الدراسة.[٤٨]

وإذا عدنا إلى بعض تفاصيل ما حدث في مجد الكروم في عمليّة التمشيط وطرد السكّان، نجد أنّ تسفي ربينوفيتش لم يكن الوحيد الذي كتب تقريرًا عمّا حدث؛ فأرشيف الجيش وأجهزة الأمن (وبضمنها الحكم العسكريّ) حفظ تقريرًا آخر مكتوبًا بخطّ اليد (وليس بآلة طابعة كتب بها تقرير ربينوفيتش). وتحمل هذه الوثيقة التاريخ ١٩٤٩/١/١٢ – أي أنّها كُتبت بعد القيام بعمليّة طرد السكّان من مجد الكروم بثلاثة أيّام. أمّا موضوع الوثيقة، فهو تقرير عن عمليّة التمشيط في مجد الكروم. هذه الوثيقة (التي كتبها أحد الجنود أو الضبّاط المشاركين في العمليّة – واسمه شلومو) موجّهة إلى الحاكم العسكريّ في منطقة الجليل الغربيّ. يقول كاتب الرسالة، في بداية كلامه، إنّ تقريره هذا هو استمرار لرسالته حاملة الرقم ٢٥ (بتاريخ ١٩٤٩/١/١٠) في الشأن ذاته. وفي تقريره هذا يقول شلومو إنّه يودّ أن يلفت انتباه الحاكم العسكريّ إلى الأمور التالية:

١. إنّ معاملة الجنود للأهالي كانت وحشيّة. فالعمليّة برمّتها رافقتها الشتائم والإهانات الكلاميّة والضرب من قِبل الجنود، بدءًا من ضابط العمليّة تسفي ربينوفيتش. فبعد التحقّق من هويّة كلّ واحد من السكّان الذين تقرّر طردهم (وإنْ كان لسبب كونه لاجئًا)، أُخرج من غرفة التحقيق بالضرب والركل. وكانت قمّة الفظاظة متمثّلة في تصرف الجنود تجاه مختار القرية الحاجّ عبد سليم. فالمذكور كان مريضًا ذلك اليوم. ورغم مرضه جاء إلى ساحة التحقيقات، وأُطلِق سراحه هناك بأمر من ضابط الشرطة السيد شويلي. وبينما كان في بيته، دخل إليه جنود؛ ودون أن يهتمّوا بأقواله ضربوه ضربًا مبرّحًا بأعقاب بنادقهم وركلوه في بطنه. ونتيجة لذلك، أصيب بالتهاب داخليّ وإصابة في الكبد، نقلتُه على أثرها أنا شخصيًّا إلى مستشفى في الناصرة، وهو يرقد هناك في حالة الخطر.[٤٩]

٢. خلال العمليّة، اقتحم جنود الفرقة ١٢٣ حانوتين. كذلك حدثت أعمال سرقة من بيوت خاصّة: ساعات منبّه، ملابس وأغراض صغيرة مختلفة أخرى رغم تحذيراتي المتكرّرة للمسؤول عن هذه الفرقة الضابط شلومو أنّه لا يجب المسّ بأموال الناس وأغراضهم. وبعد العمليّة، أصدرت أمرًا للشرطة العسكريّة بأن يفتّشوا الجنود، فوجدت معظم الأغراض المسروقة وأعيدت إلى أصحابها (وما زالت هناك بعض الأغراض لم تضبط، وسوف يقدّم المعنيّون بالأمر شكاوى بها).

وينهي شلومو رسالته إلى الحاكم العسكريّ بقوله إنّه لا ينبغي السكوت عن مثل هذه التصرّفات، وإنّه يجب تقديم المسؤولين للمحاكمة. وفي نهاية الرسالة يشير كاتبها إلى وثيقة أخرى تحمل الرقم ٣٤ م/٤٤ كتبها بتاريخ ١٩٤٩/١/١٣. وتُظهِر مقارنة سريعة بين الوثيقتين اختلافًا كبيرًا في وصف العمليّة ومجرياتها والموقف المختلف من السكّان من جهة، ومن الجنود وتصرّفاتهم مع الأهالي من جهة أخرى. فالمطرودون من مجد الكروم ليسوا "متسلّلين ومجرمين" كما جاء في تعريف ربينوفيتش، بل من سكّان القرية واللاجئين إليها من القرى المجاورة. وما يتذكّره ويرويه أهالي القرية الذين قابلتهم وسمعت شهاداتهم فيه تأكيد لما كتبه شلومو في الرسالة. فوالداي، وبعض أقربائي، وغيرهم من أهالي القرية الذين طردوا ذلك اليوم (ورجعوا إليها فيما بعد)، يؤكّدون أنّهم لم يكونوا متسلّلين ولا مجرمين طبعًا. وذنبهم الوحيد أنّهم كانوا من فئة الشبّان معظمهم في العشرينيّات من العمر. وكان الخواجه غزال (تسفي ربينوفيتش) وغيره من المحقّقين والجنود بعد التحقيق مع أيّ شخص يخرجونه بالإهانات والركلات إلى الساحة. ومن تقرّر طرده يُسأل في ما إذا كان متزوّجًا ام أعزب. فإن كان من الفئة الاولى، أمروه أن يذهب لإحضار عائلته في الحال؛ وإن كان أعزب، ساقوه إلى إحدى المركبات الجاهزة لطرد السكّان. كما أنّ العدد الضخم للمطرودين ذلك النهار (٣٥٥ شخصًا) وتخطيط ربينوفيتش ونيّته طرد ثلاثمئة آخرين ينفيان إمكانيّة أن يكون كلّ هؤلاء من "المتسلّلين أو المجرمين"[٥٠].

لا حاجة إلى الإطالة في المقارنة بين الوثيقتين، ذلك أنّ مضمونهما كما أوردتُه آنفًا يكشف النقاب عن التفاوت الكبير في وصف ما حدث بالفعل. هذا الامر يذكّرنا مرّة أخرى بإشكاليّة الاعتماد الحَصْريّ على الوثائق العسكريّة التي كتبها عادة المسؤولون عن أعمال القتل وطرد السكّان – أمثال ربينوفتش. كذلك إنّ العديد من الوثائق "الحسّاسة" التي تتحدّث عن أعمال القتل وطرد السكّان ما زالت مغلقة في ملفّات لا يسمح للباحثين بمطالعتها.[٥١] يضاف إلى هذا أنّ أقوال ضحايا تلك العمليّات وشهاداتهم هي مصدر مهمّ لرسم صورة كاملة وحقيقيّة لما حدث خلال احتلال قرى

الجليل الأوسط وما بعدها. فالرواية الشفويّة لشهود العيان الذين ما زالوا على قيد الحياة تشكّل، إذًا، مصدرًا في غاية الأهميّة يجدر بالباحثين والمؤرّخين الاستفادة منه قبل فوات الأوان.

استمرار عمليّات التمشيط والطرد

وإذا عدنا مرّة أخرى إلى ما ترويه الوثائق عمّا جرى في مجد الكروم وقرى الجليل، نجد أنّ عمليّات الطرد للسكّان (بحجّة أنّهم متسلّلون أو بدعوى حيازتهم السلاح) لم تتوقّف حتّى بعد إجراء الانتخابات البرلمانيّة في ١٩٤٩/١/٢٥، والتي شارك فيها المواطنون العرب. ففي العاشر من شباط عام ١٩٤٩، كتب العميد أفنير ضابط الحكم العسكريّ في المنطقة التي تمّ الاستيلاء عليها تقريرًا شهريًّا عمّا أسماه عمليّات ضدّ المتسلّلين. وُجِّه هذا التقرير إلى وزير الدفاع وقائد الأركان. وهو تقرير مقتضب قليل المفردات، لكنّه غنيّ بالأرقام والمعلومات عن أعداد المطرودين من قرى مختلفة في الجليل.

يقول الحاكم العسكريّ أوّلاً إنّه "بناءً على محادثتنا يوم ١٩٤٩/١/٤، قد أصدرت أوامر لتنفيذ عمليّات تمشيط وتحقيق مع السكّان. ثانيًا، خلال كانون الثاني نفّذت عمليّات تمشيط في إحدى عشرة قرية أدّت إلى النتائج التالية:

١٠٣٨ شخصًا طُردوا إلى ما وراء الحدود

٢٠ شخصًا نُقلوا إلى معسكر الأسرى

٦٩ اعتُقلوا بغية إجراء تحقيق إضافيّ معهم

١٢٨ نُقلوا إلى قرى أخرى.

أمّا القرى التي طالتها عمليّات التمشيط وطرد السكّان واعتقالهم، فكانت حسب الترتيب التالي في الوثيقة: شفاعمرو، عبلّين، كابول، مجد الكروم، البعنة، دير الأسد، معليا، ترشيحا، صفّورية، فرّادة وعنان [هكذا] والمجدل. ومن المجموع الكلّيّ للمطرودين (١٠٣٨ شخصًا)، كان ٥٣٦ منهم من مجد الكروم لوحدها. هذا التقرير وهذه الأرقام تؤكّد ما قلناه سابقًا: إنّ عمليّات التمشيط وطرد السكّان في مجد الكروم لم تَطَلْ مَن صاروا يُعرفون بـِ "المتسلّلين" فحسب، بل

شملت الشبّان من أهالي القرية، الذين لم يغادروها بتاتًا. هذه الوثيقة تؤكّد أيضًا روايات أهالي القرية التي مفادها أنّ عمليّات الطرد حصلت مرّتين في أسبوعين متتاليين. وكما رأينا سابقًا، إنّ تسفي ربينوفيتش كان قد خطّط لطرد ثلاثمئة آخرين يوم ١٩٤٩/١/٩، ولم يقم بذلك لعدم وصول المركبات الكافية وفي الوقت المناسب. لكن الجيش عاد في الأسبوع التالي لذلك التاريخ وطرد ١٨١ شخصًا، ليصبح مجمل مَن طُردوا من مجد الكروم ٥٣٦ حسب تقرير الحاكم العسكريّ.[٥٢] وينهي أفنير، تقريره بقوله "إنّ عمليّة إعادة تنظيم قوّات الجيش في الشمال قد أدّت إلى وقف العمليّات [مؤقّتًا] وإنّها تجدّدت بتاريخ ١٩٤٩/٢/٤".

وتثبت الوثائق العسكريّة والمصادر الأخرى المتوافرة لدراسة ما حدث لسكّان الجليل في تلك الفترة أنّ عمليّات التمشيط وطرد السكّان إلى منطقة الضفّة الغربيّة استمرّت بالفعل في الأشهر التالية. وقد نقلت صحيفة الاتّحاد خبرًا مطوّلًا نسبيًّا حول عمليّة تمشيط وطرد للسكّان من قرية كفر ياسيف في آذار عام ١٩٤٩,[٥٣] هذه العمليّة طالت المئات من سكان القرية الذين كانوا قد شاركوا في الانتخابات البرلمانيّة التي أُطلقت فيها شعارات عن المساواة القوميّة في الدولة اليهوديّة الفتيّة؛ وتساءلت الصحيفة إنْ كانت "المساواة القوميّة في شعارات الانتخابات تعني تصفية القوميّة؟". ويضيف التقرير الصحافيّ حول ما جرى في كفر ياسيف: "إنّ السلطات ألقت القبض أيضًا على عدد كبير من أعضاء عصبة التحرّر الوطنيّ ووضعتهم في السيّارات لأنّها اتّهمتهم بحيازة السلاح. ولولا تدخّل رئيس المجلس المحلّيّ ومختار القرية لذهبت بهم السيّارات إلى حيث ذهبت بغيرهم".[٥٤] وتختتم الصحيفة تعليقها على هذه الحادثة في كفر ياسيف بقولها: "إنّ الاتّهام بحيازة السلاح أصبح اليوم هو الموضة الرائجة في قرى الجليل والقرويّون في همّ مقيم من جرّاء هذه الموضة".

ويؤكّد حنّا إبراهيم الذي كان نشيطًا في الحزب الشيوعيّ في البعنة، والذي كان على علاقات مع رفاق الحزب الشيوعيّ في كفر ياسيف وفي قرى أخرى: "إنّ عمليّات التمشيط غدت في تلك الأيّام أمرًا مألوفًا في قرانا العربيّة" (ابراهيم ١٩٩٦، ١٣٣). ثم يضيف في وصفه لتلك العمليّات: "كانت القرية تطوّق في الساعات الأولى من الصباح ويؤمَر الأهلون بالتجمّع في ساحة أو على بيدر. وكان مزاج قائد القوّة هو القانون الوحيد في أثناء العمليّة". أمّا المطرودون من القرى في تلك العمليّات كما حدث للمئات في مجد الكروم فكانوا يُبعَدون إلى الضفّة الغربيّة. وكان عليهم أن يمرّوا بالأردن فسوريّا ولبنان في طريق العودة إلى بيوتهم في الجليل" (ابراهيم ١٩٩٦، ١٣٣).

والظاهرة المثيرة للانتباه بالفعل هي أنّ المئات من سكّان مجد الكروم وقرى الشاغور وغيرها قد كابدوا مشاقّ هذه الرحلة الطويلة، وعادوا إلى بيوتهم ووطنهم خلال عام ١٩٤٩ والأعوام التالية رغم المصاعب والأخطار. هذه المقاومة، وطريق العودة الصعب الذي سلكه مئات وآلاف العائدين، يفسّران بقاء عدد كبير نسبياً من سكّان قرى الجليل في قراهم رغم عمليّات التمشيط وطرد السكّان المتكرّرة.

وإذا عدنا إلى عمليّات طرد السكّان من الجليل إلى الضفّة الغربيّة، فإنّ مصادر مختلفة تؤكّد استمرارها في النصف الأوّل من عام ١٩٤٩. ففي النصف الثاني من كانون الثاني عام ١٩٤٩، ذكر أحد رؤساء طائفة الروم الكاثوليك في عمّان – ميخائيل عسّاف – أنّه وصل إلى عمان عشراتٌ من سكّان شفاعمرو ومعليا وترشيحا (سيغف ١٩٨٤، ٦٦؛ سيغف ١٩٨٦). بعد ذلك بأيام، اُضطرّ نحو ٥٠٠ شخص من قريتَيْ فرّاضية وكفر عنان الواقعتين بين الرامة وصفد إلى مغادرة بيوتهم. وقد طُرد نصفهم إلى منطقة المثلّث إلى ما وراء الحدود، بينما نُقل النصف الآخر إلى قرى أخرى في الجليل. وبعدها بأسبوعين، طُرد ٧٠٠ شخص من كفر ياسيف. هؤلاء كانوا قد وصلوا القرية من قرى مجاورة. وقد حُمّلَ معظمهم على مركبات نقلتهم إلى حدود الأردنّ، حيث أُمِروا بعبور الحدود.[٥٥]

وتسجّل وثائق عسكريّة حصلتُ على نسخ منها أنّ عمليّات طرد السكّان في الجليل استمرّت عام ١٩٤٩، وحتّى ما بعد ذلك. ففي ١٩٤٩/٣/٢٩ – على سبيل المثال – يذكر أحد تقارير الحكم العسكريّ أنّه جرت عمليّة تمشيط وطرد للسكّان في قرية أبو سنان. يقول التقرير "في الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم، طُوّقت القرية وقامت فرق من الجيش والشرطة ورجال المخابرات بعمليّة التمشيط والتحقيق مع السكّان. وقد جرى التحقّق من هويّات ٣٤٦ رجلاً طُرد منهم ٧٤ مع عائلاتهم إلى المثلّث، فكان مجموع المطرودين من القرية ذلك اليوم ٢٥٠ شخصًا".[٥٦]

وفي التقرير نفسه معلومات أخرى عن عمليّات تمشيط وطرد مئات السكّان من قرى أمّ الفرج والبعنة والجديّدة وجولس ودير الأسد وحرفيش وطمرة ويركا والمزرعة والمكر وعبلّين وكابول وفسّوطة. وفي كلّ واحدة من تلك العمليّات، جُمع الرجال وحُقّقَ معهم، ثم طُرد العشرات منهم مع عائلاتهم. وقد جرت تلك العمليّات في القرى المذكورة سالفًا حسب التقرير في الفترة الممتدّة بين آذار وأيّار ١٩٤٩.[٥٧]

وذكر التقرير نفسه عمليّة تمشيط جرت في قرية كفر ياسيف بتاريخ ١٩٤٩/٣/١ ، هي التي أشارت اليها صحيفة الاتّحاد بعد حدوثها بأسبوعين. وكما في التقارير الكثيرة التي اوردنا بعضها في ما سلف، هناك ذكْر للفرق العسكريّة والشرطة والمخابرات التي شاركت في تنفيذ عمليّة التمشيط والطرد. ففي الساعة السادسة صباحًا، طُوِّقت القرية وقامت فرق الجيش والشرطة بعمليّة التمشيط ثم بالتحقيق مع الرجال الذين أُمِروا بالتجمّع في ساحة القرية. وحسب التقرير، جرى التحقّق من هويّة ٤٠٠ رجل ذلك اليوم، من بينهم مئة رجل لم يكن في حوزتهم قسائم تسجيل للسكّان، فأُبعدوا. وكان مجموع المبعدين ٢٥٠ شخصًا. وثمّة عشر عائلات من اللاجئين ممّن يحمل أبناؤها قسائم تسجيل، نُقلوا إلى مجد الكروم، كما بقي في القرية ١٥عائلة لم يُبْعَد أفرادها لعدم توافر المواصلات الكافية.[٥٨] وقد رأينا في ما سبق، حسب تقرير صحيفة الاتّحاد حول هذه العمليّة، أنّه كانت هناك نيّة لطرد عشرات رفاق عصبة التحرّر أيضًا؛ لكن تدخّل رئيس المجلس والمختار أبقى عليهم في بيوتهم وقريتهم. فهل كانت العائلات الخمس عشرة من ضمن هؤلاء الذين قيل إنّهم لم يُبعدوا لعدم توافر مواصلات كافية؟

وأكّدت الأخبار الواردة من الضفّة الغربيّة وصول مئات المطرودين من الجليل إلى الأردنّ. ففي أواسط نيسان عام ١٩٤٩، أرسل القنصل الأمريكيّ في القدس تقريرًا قال فيه: "إنّ بضع مئات من عرب الجليل كلُّهم من مواطني إسرائيل ويحملون هويّات طُردوا إلى ما وراء الحدود مع المتسلّلين" (نقلاً عن سيغف ١٩٨٤، ٦٨). ثم يضيف القنصل في تقريره أنّه يظنّ أنّ هذا الطرد نُفّذ بمبادرة من ضبّاط جيش محلّيين بدون أخذ رأي الحكومة. لكن هذا الاعتقاد الذي ربّما بناه على أساس معلومات من الجانب الإسرائيليّ لم يكن في محلّه. فالحكومة كانت تعلم بما يجري منذ عمليّة حيرام في الجليل في أواخر تشرين الأوّل عام ١٩٤٨. وقد أُثير هذا الموضوع في التقارير العسكريّة الرسميّة ومناقشات الكنيست وصحافة مبام والحزب الشيوعيّ على الأقلّ. كما أثار بعض الوزراء هذه القضيّة، وسجّلها بن غوريون نفسه في يوميّاته – وإنْ باقتضاب شديد (بن غوريون ١٩٩٨، ٨٢٠، ٨٣٢–٨٣٣، ٩٢٦). واستمرّت أعمال الطرد مَن سُمُّوا "المتسلّلين" وغيرهم، لا في الجليل فحسب، وإنّما في مناطق أخرى صارت تحت السيطرة الإسرائيليّة. وربما كانت عمليّة طرد آلاف السكّان الباقين في مدينة مجدل عسقلان من أبرز تلك الأمثلة التي جرت دراستها وتوثيقها (موريس ٢٠٠٠). وكانت الحكومة قد شكّلت لجنة لأمور "الاقتلاع والطرد" شملت، إضافة إلى بن غوريون نفسه، كلاً من وزراء الخارجيّة والأقلّيّات والماليّة والزراعة والعدل.

أعمال طرد السكّان هذه بعد انتهاء العمليّات العسكريّة عام ١٩٤٩ ما زالت بحاجة إلى مزيد من البحث والدراسة؛ والأهمّ من ذلك أنّها، بخلاف عمليّات الطرد المشهورة في اللدّ والرملة وغيرها، غير معروفة حتّى الآن لجمهور كبير من الإسرائيليّين والفلسطينيّين.

الخلاصة

تمحورت هذه الدراسة، بالأساس، في ما طال مجد الكروم من عمليّات قتل ونهب وطرد للسكّان في أعقاب احتلالها مع سائر قرى الجليل الأوسط. وقصّة مجد الكروم هي نموذج مصغّر وغَيض من فيض أحداث نكبة الشعب الفلسطينيّ عامّة وما جرى من عمليّات وأحداث في الجليل بشكل خاصّ. هذه النكبة لم تكن زلزالاً أو كارثة من عمل الطبيعة، بل من عمل أناس عَرفَ أبناء شعبهم – قبل ذلك بسنوات – هولَ إبادة الملايين في معسكرات النازيّة. ورغم الاختلاف الكبير كمًّا وكيفًا بين الحدثين المتقاربين، ظلّت نكبة الشعب الفلسطينيّ منذ حرب ١٩٤٨ حتّى الآن تؤثّر بتداعياتها وانعكاساتها المأساويّة على حياة ملايين الفلسطينيّين. وإذا كان زعماء إسرائيل (من السياسيّين وقادتها العسكريّين الذين نفّذوا أعمال القتل والإرهاب والطرد المباشر) المسؤولين الأوائلَ عمّا جرى لأبناء الشعب الفلسطينيّ، فإنّ المسؤوليّة الكاملة لا تقع عليهم فقط. فالحرب التي حصلت خلالها تلك الأعمال الإجراميّة شارك فيها العرب واليهود. ومسؤوليّة القيادات والزعماء العرب (وعلى رأسهم الفلسطينيّون، بقيادة الحاجّ أمين الحسيني) في دفع الشعب الفلسطينيّ إلى حرب خاسرة لم يستعدّوا لها ما زالت قضيّة تجب إثارتها ومناقشتها بجرأة وحزم، لئلّا تتكرّر المصائب والكوارث الفلسطينيّة. أشير إلى ذلك هنا بإيجاز، وأترك معالجة هذه المسألة الحسّاسة والمهمّة إلى سياق آخر ومؤرّخين آخرين حان الوقت أن يحاسبوا قياداتهم وينقدوها بجرأة وصدقيّة سياسيّة وأكاديميّة.

ومن واجب الباحثين الفلسطينيّين، والمؤرّخون في طليعتهم، أن يقوموا، أيضًا، بدراسة وتأريخ ما حدث لكلّ قرية او مدينة فلسطينيّة، حفظًا للذاكرة، وتثقيفًا للأجيال القادمة، كي يكونوا على علم ودراية بما جرى لشعبهم وآبائهم في حرب عام ١٩٤٨. واستعمال جميع المصادر الأوّليّة والثانويّة المنشورة والمخطوطة، الشفويّة منها والمكتوبة، يرسم صورة متكاملة، جادّة ومتّزنة، لما حصل بالفعل لكل منطقة وكلّ قرية ومدينة في أنحاء فلسطين. والقيام بهذا العمل على مستوى

الوطن بحاجة إلى طواقم وطاقات يعجز عنها باحث أو مؤسّسة واحدة. لكن إتمام هذا العمل لا يحتمل التأجيل والتسويف كثيرًا، ذلك أنّ الحافظين لذاكرة الأحداث يتضاءل عددهم يومًا إثر يوم، لأسباب طبيعيّة معروفة. وما قُدِّم في هذه الدراسة هو مجرّد نموذج صغير لما يمكن فعله من رسم صورة متكاملة للأحداث التي جرت في قرية واحدة أيّام حرب عام ١٩٤٨ وما بعدها.

حاولتُ في هذه الدراسة أن أؤكّد أهمّيّة استعمال التاريخ الشفويّ لدراسة أحداث النكبة وتوثيقها. وقد قمت، بعد إجراء معظم المقابلات مع أهالي مجد الكروم حتّى عام ١٩٩٨، بمقابلة تسفي ربينوفيتش ضابط المخابرات لمنطقة حيفا، الذي كان مسؤولاً عن العمليّات في مجد الكروم وغيرها من قرى الجليل. وقد عثرت على اسم عائلته الجديد ورقم هاتفه وعنوان بيته بعد جهد جهيد وبمساعدة باحثين وعسكريّين متقاعدين عاصروه.[٥٩] وبعد مقابلته "والتحقيق" معه، قرّر في نهاية المقابلة التي أجريتها معه في ١٩٩٨/٥/١٦ أن يفاجئني بشهادة شخصيّة عن "شيء" لن أعثر عليه في الوثائق أو في مصادر أخرى –على حدّ تعبيره. أبديت اهتمامي مشجِّعًا وفتحت أذنيّ مصغيًا. قال تسفي (الذي عرفه شهود العيان في مجد الكروم باسم "الخواجا غزال"): علِمنا بحضور فريق الأمم المتّحدة للتحقيق في ما جرى على ساحة العين في القرية بعد أيّام قليلة من تلك الأحداث، وكنا قد أنكرنا القيام بقتل عدد من سكّان القرية كما ادّعى الأهالي. لكنّ بعضهم اقترح فتح القبور وإخراج جثث القتلى لإثبات دعواهم. وبالفعل أخرجوا الجثث، وقام فريق الأمم المتّحدة بأخذ الصور. بلغني أمر، وأنا بالقرب من قرية الرامة، بالتوجّه فورًا إلى مجد الكروم ونـزع الأفلام من أيدي فريق الأمم المتّحدة بأيّ شكل من الأشكال. وبالفعل وصلت مع بعض الجنود إلى موقع في المدخل الغربيّ للقرية، وأقمنا هناك حاجزًا عسكريًّا.

ولم ننتظر هناك طويلاً حتّى وصل بعد قليل أعضاء فريق الأمم المتّحدة في سيّاراتهم. "أوقفناهم على الحاجز وطلبنا من الركّاب النـزول من مركباتهم دون أخذ أيّ شيء معهم. ورغم اعتراضهم على إجراء التفتيش لطاقم من رجال الأمم المتّحدة، نفّذوا الأوامر ونـزلوا من السيّارات. قمت مع رجالي بالتفتيش عن الكاميرات التي وجدناها، وأخرجنا الأفلام التي كانت داخلها. وعلت احتجاجات فريق الأمم المتّحدة واعتراضاتهم على تصرّفنا. لكنّنا أجبنا بحزم قائلين إنّ تصويرهم في القرية كان غير قانونيّ، ذلك أنّ المنطقة عسكريّة. هكذا أتلفنا الأفلام والصور التي تضمّنتها، فكان باستطاعة فريق الأمم المتّحدة كتابة تقرير طبعًا، ولكن بدون صور الجثث". وأنهى الخواجا غزال (الذي كان يبدو عليه الفخر لتنفيذ عمله هذا) حديثه بسؤال وجّهه إليّ بعد أن شعر بسكوتي ووجومي. طبعًا كان علينا أن نقوم بهذا العمل لئلاّ يستعمل الأغيار (غوييم) مثل هذه الصور في الدعاية ضدّنا؛ أليس كذلك؟ ولم يكن

هوامش

١ نشرت صياغة أولية ومختلفة من هذه المقالة في مجلة "الكرمل" (مناع ١٩٩٧).

٢ جرت الانتخابات بالفعل في ١٩٨٤/٧/٢٣. ووجدت نفسي عشيّة تلك الانتخابات نشيطًا في صفوف الحركة التقدميّة (بقيادة محمّد ميعاري وماتي بيلد وغيرهما).

٣ في تلك الأيّام، لم أكن أعرف بالضبط تاريخ طردنا من مجد الكروم. ولكن شهادات الوالدين، أو حكاياتهما المتكرّرة عن ذلك الحدث والمدعومة بما كنت ألتقطه من الأقرباء والجيران، كانت تؤكّد حدوث عمليّة الطرد في "كوانين، في عزّ الشتاء". وفيما بعد، عندما قرّرت دراسة الموضوع وتوثيقه، تبيّن لي أنّ طردنا كان في ١٨٤٩/١/٩ كما سيجيء تفصيل ذلك فيما بعد.

٤ صحيفة "هآرتس" (١٩٨٤/٦/٢٤)، ص ٩.

٥ أذكر مثلا الحفلات التي كانت تقام كلّ عام بمناسبة "عيد الاستقلال" في مدرسة القرية الابتدائيّة، كما في المدارس العربيّة الأخرى. كانت المدرسة تزيَّن بالأعلام الإسرائيليّة ويجري التحضير ليوم الاحتفال الذي تُلقى فيه الخطابات، ويكال فيه المديح لدولة إسرائيل وقياداتها. كما تعزف الموسيقا وتنشد الأناشيد التي يحفظها أبناء جيلي حتّى بعد مرور ما ينيف عن أربعين عامًا؛ ومنها:

بعيد استقلال بلادي ... غرّد الطير الشادي
عمّت الفرحة البلدان ... بين السهل والوادي

٦ نشرت صحيفة هآرتس هذه الرسالة ضمن رسائل القرّاء إلى المحرّر بعد بضعة أيّام من نشر مقالتي المشار اليها أعلاه في أواخر حزيران عام ١٩٨٤.

٧ كما سنرى لاحقًا، إنّ تقريره الحازم والقاطع أنّه لم تحدث أعمال قتل ونهب أو طرد للسكان صحيح بالنسبة لما حدث يوم تسليم القرية الذي شهده يتسحاقي بعينيه. لكن جرأته على تكذيب ما كتبته، والقول بالمجمل إنّه لم تكن في مجد الكروم أعمال قتل ونهب ولا طرد للسكان، وإنّهم هربوا بمبادرتهم الخاصّة بعد انسحاب قوّات القاوقجي، هي المسألة المهمّة في أقوال يتسحاقي. هذه الأقوال كانت حتّى ذلك الحين – على الاقلّ – هي الاعتقاد السائد بين الإسرائيليّين عامّة، لا حصرًا في أوساط المسؤولين عن الدعاية والإعلام وتشكيل رواية إسرائيليّة بعيدة عن الواقع حول ما حدث للفلسطينيّين عام النكبة.

٨ United Nation Archives (New York) Dag-13/3.3.1-11, “Daily Report” Haifa, 14 November 1948, By Captain David Penson’ U.S. Army (Haifa Obervers Group; Dag - 13/3.3.1-11” Report of the Master Sergeant Pallemans Concerning his Investigation in Majd-el-kurum” To Deputy Chief of Staff, UN Mediator-headquarters Advance Post, 13 November 1948; Dag – 13/3.3.1-11” Statement by UN Observer, Major Stewart M.f. Luce (U.S. Army) To Chief Of Staff, Haifa, 13 Noveber 1948.

٩ كما سنرى لاحقًا، إنّ هذه الأقوال الصادرة، كما يبدو، عن لاجئين يبرّرون لأنفسهم ولغيرهم نزوحهم الناتج عن الخوف، تروي أمورًا غير دقيقة حول عدد النازحين مثلهم من جهة، وعن عدد الباقين في القرية من جهة أخرى. تلك قضايا كان في مستطاع موريس التأكّد منها وذكر الحقيقة حول أقوال تلك الشهادات التي أوردها نافذ نزّال لو شاء. بيني موريس نفسه أعطاني نسخًا من وثائق عن مجد الكروم تنفي صحّة تلك الشهادات التي نقلها نزّال. وسوف نعود إلى هذه القضيّة لاحقًا ونذكر تلك الوثائق وكذلك شهادات أهالي مجد الكروم الباقين في وطنهم وحقيقة عددهم.

١٠ بالإضافة إلى كتاب نافذ نزّال، تجدر الإشارة إلى دراسة روزماري صايغ عن الفلاّحين الفلسطينيّين من الاقتلاع إلى الثورة، التي صدرت بالعربيّة (صايغ ١٩٨٠) وبالإنجليزية (Sayegh, 1979). كما قام، بعد ذلك، جيل جديد من الباحثين أجْرَوا دراسات ونشروا أبحاثًا عن النكبة وقضيّة اللاجئين، مستعملين التاريخ الشفويّ مصدرًا مهمًا في كتابتهم. وإذا لم يكن المجال يتّسع هنا لذكر كلّ هذه الدراسات، فإنّه تجدر الإشارة إلى العمل المهمّ الذي قام به الروائيّ اللبنانيّ إلياس خوري بجمع شهادات الفلسطينيّين في لبنان واستعمالها كموادّ خامّ لروايته الرائعة "باب الشمس" (خوري ١٩٩٨).

١١ مرّة أخرى، لا يتّسع المجال هنا لتسجيل أو ذكر كلّ ما نُشر من مذكّرات أو شهادات وسيَر ذاتيّة. وتجدر الإشارة إلى أنّ مجلّة "الكرمل"، التي يحرّرها الشاعر محمود درويش، نشرت عام ١٩٩٨ عددًا خاصًّا بمناسبة مرور خمسين عامًا على النكبة، تضمّن مذكّرات وأبحاثًا وشهادات تتعلّق بالذاكرة والتاريخ لأحداث عام ١٩٤٨ وما بعده. وقد نشرتُ مقالة عن مجد الكروم في ذلك العدد (مناع ١٩٩٨).

١٢ هذه المعلومات تؤكّدها الوثائق الإسرائيليّة ومصادر مكتوبة ومنشورات فلسطينيّة وإسرائيليّة، وكذلك روايات أهل مجد الكروم وشهاداتهم كما سيجيء بيان ذلك في الصفحات التالية.

١٣ كان السيد محمّد حيدر أبو جميل، الذي قابلته في نهاية حزيران عام ١٩٤٨ في بيته، الوحيد من سكّان القرية الذي احتفظ بسجلّ يتضمّن تحديدًا لتاريخ الأحداث وعدد السكّان والمطرودين من مجد الكروم عام ١٩٤٩ وغيرها من الأمور المهمّة.

١٤ أشار الكثير من الباحثين إلى استعمال بثّ الإشاعات والتهديدات لدفع الأهالي إلى ترك قراهم قبل وصول الجيش الإسرائيليّ إليها. وفي حالة مجد الكروم، وصلت الى السكّان أخبار وتهديدات عن نيّة الجيش تدمير القرية ("عدم إبقاء حجر على حجر")، والانتقام من الأهالي بإعدام الناس وقتلهم.

١٥ بعض الروايات تقول إنّ محمّد حيدر وآخرين ذهبوا إلى كفر ياسيف ويركا، واتّصلوا بالشيخ مرزوق معدّي وعلي ملحم وبغيرهما للتوسّط لدى اليهود في شأن تسليم مجد الكروم. وثمّة روايات أخرى أكّدت أنّ حاييم أورباخ، الذي كان يعمل في جهاز المخابرات (الـ"شاي") قبل قيام الدولة، والذي كان على علاقات صداقة ببعض أهالي مجد الكروم، هو الذي تدخّل وحمى هذه القرية من الخراب. وهنالك روايات من نوع ثالث أكّدت أنّ فريقًا من أهالي القرية "نزل" إلى البروة رافعين أعلامًا بيضاء، واتّفقوا مع الجيش على تسليم البلد. وقد تكون الروايات كلّها صحيحة؛ ذلك أنّ أناسًا شتّى أجْرَوْا اتّصالات بأطراف مختلفة لحماية أنفسهم من الانتقام الإسرائيليّ.

١٦ الوثيقة موقّعة باسم "حنان ليفي" ضابط مخابرات الفرقة العسكريّة رقم ١٢٣، وموجّهة إلى قيادة أركان لواء حيفا (دائرة الاستخبارات). هذه وثيقة طويلة نسبيًا تمتدّ على صفحة ونصف وتتضمّن معلومات مهمّة ومفصّلة، بعكس معظم الوثائق الأخرى المقتضبة.

١٧ بما أنّ قائد الفرقة ١٢٣ هو الذي وقّع اتّفاقيّة التسليم مع أهالي مجد الكروم، كما سنرى لاحقًا، فمن المحتمل أن يكون زئيف يتسحاقي، صاحب الرسالة إلى جريدة "هآرتس" ردًا على مقالتي المذكورة أعلاه، هو قائد هذه الفرقة آنذاك.

١٨ يؤكد هذا التقرير أقوال يتسحاقي حول أنّ أحد جنود فرقته جُرح في إطلاق النار مع فرقة جولاني التي تقدمت إلى القرية من الشرق. ويضيف هذا التقرير اسم الجنديّ المجروح وهو أ. وايزر.

١٩ الفرقتان اللتان تُذكران في هذه الوثيقة هما الفرقة ١٢٢ والفرقة ١٢٣؛ ورقم هذه الوثيقة التي في أرشيف الجيش وجهاز الأمن هو ٦٣٢.

٢٠ تُطابق هذه المعلومات ما جاء في الروايات الشفويّة في ما يتعلّق بأنّ العشرات من الشبّان فقط غادروا القرية بعد انسحاب جيش الإنقاذ، وأنّهم اختبأوا في القرى والجبال القريبة تحسّبًا وخوفًا من عمليّات الانتقام والقتل. انظر بهذا الشأن أيضًا مذكّرات حنّا إبراهيم (ابراهيم ١٩٩٦).

٢١ التقديرات المخابراتيّة بوجود ألفي شخص في مجد الكروم تؤكّد بقاء معظم السكّان بعد انسحاب جيش الإنقاذ وتسليم القرية في ١٩٤٨/١٠/٣٠. بل إنّ هذا العدد يفوق تقديرات عدد سكّان مجد الكروم قبل بدء الحرب عام ١٩٤٨ الذي لم يتعدَّ ١٨٠٠ نسمة. والسبب في ذلك هو لجوء مئات الأشخاص إلى مجد الكروم من البروة وشعَب وغيرهما إلى مجد الكروم وبقاءهم بأغلبيّتهم الساحقة فيها بعد التسليم.

٢٢ هذه الأقوال تثبت تخطيط المخابرات العسكريّة (على الأقلّ) لعمليّات تمشيط وطرد للسكان بعد أن تبيّن عدم نزوح العديد من الأهالي وبقاءهم في بيوتهم ووطنهم. وتجدر الإشارة كذلك إلى لغة ضابط مخابرات لواء حيفا العدوانيّة تجاه السكّان العرب واختياره للمفردات؛ فالمنطقة، على حدّ تعبيره، تزخر بالعرب الشبّان، واستعماله لكلمة "شوريتس" التي تطلق عادة على الزواحف والحشرات تُظهر عنصريّة ضابط المخابرات وعدوانيّته الواضحة تجاه العرب ومستقبلهم في المنطقة.

٢٣ وثيقة ضابط المخابرات للفرقة ١٢٣، حنان ليفي رقم ٣١/٦١٦ – أشرنا إليها سالفًا في الملاحظة الهامشية رقم ١٦.

٢٤ ثمّة وثيقة أخرى لضابط مخابرات الفرقة ١٢٣ (מודיעין/אד/211) بتاريخ ١٩٤٨/١٠/٣١. وقد جرى تسليم هذا السلاح إلى قائد الفرقة ١٢٢ حسب نصّ الوثيقة في الساعة الخامسة بعد الظهر. وتؤكّد هذه الوثيقة أيضًا التقديرات السابقة أنّ عدد سكّان مجد الكروم نحو ألفي نسمة.

٢٥ الوثيقة أعلاه نفسها.

٢٦ حول أعمال القتل وطرد السكّان في تلك القرى وغيرها في الجليل، انظر موريس ١٩٩١، ٣٠٠–٣٠٦، وموريس ٢٠٠٠.

٢٧ ملاحظة هامشيّة تعليقًا على أقوال موشيه كرمل وبن غوريون (حول أنّ النصف هربوا وسيهرب عدد أكبر) هو ما يلي: في الحقيقة بقيت أغلبيّة السكّان القرويّة في أماكنها. هذا الكلام ينطوي على مغالطة بالطبع؛ لأنه صحيح في ما يتعلّق ببعض القرى، وغير صحيح في ما يتعلّق بقرى أخرى. لكن المجال لا يتّسع هنا للتعليق بتوسّع على هذا، أقوال المحرّرين (بن غوريون ١٩٨٢، ٧٨٨).

٢٨ وقد سمح بيني موريس لنفسه في مقابلة نُشرت في ملحق صحيفة "هآرتس" (٢٠٠٤/١/٩) أن يقول بصراحة إنّ بن غوريون كان من وراء أمر طرد السكّان الفلسطينيّين في الجليل وغيره. والأدهى من ذلك أنّ الباحث أعلن بصراحة ووقاحة عن فهمه وتأييده لأعمال طرد الفلسطينيّين؛ بل وانتقد القيادة حينها لعدم إتمام المهمّة بطرد كلّ الفلسطينيّين من البلاد من البحر إلى النهر.

٢٩ من الجدير ذكره أنّ بيني موريس (الذي ارتبط اسمه بكشف النقاب عن زيف المزاعم الإسرائيليّة التي مفادها أنّ الفلسطينيّين هربوا لوحدهم، أو بأمر قيادات عربيّة؛ كما كشف عن العديد من المذابح وأساليب التنكيل وإرهاب السكّان لحملهم على النزوح) أخذ، في السنوات الأخيرة، يبرّر تلك الأفعال عام ١٩٤٨ ويعطيها الشرعيّة. وقد نشر آراءه الاستفزازيّة والعنصريّة تلك في الصحافة العالميّة والمحلّيّة، وكان آخر ما نُشِر مقابلة في ملحق جريدة "هآرتس" (٩/١/ ٢٠٠٤).

٣٠ حسب شهادة المرحوم محمّد حيدر (أبو جميل) في مقابلتي له في بيته، في نهاية حزيران عام ١٩٨٤.

٣١ بالإضافة إلى والدي وأبي جميل، سمعت تفاصيل هذه الحادثة في ساحة العين من عشرات أهالي القرية الذين كان معظمهم شهود عيان على ما حدث ذلك اليوم، وبعضهم سمع الحكاية من آخرين بعد أن رجع إلى القرية من مخبأه في الجبال.

٣٢ في كتابه بالعبريّة عن نشوء مشكلة اللاجئين، يذكر موريس (موريس ١٩٩١، ٣٠٤) أنّ الضابط أعطى المختار ٢٥ دقيقة فقط لجمع السلاح من الأهالي؛ بعدها قام الجنود بإطلاق النار على خمسة من شبّان القرية.

٣٣ من الجدير بالإشارة إليه، في هذا الصدد، أنّ موريس لا يذكر أيّ تفاصيل حول تلك الاعتداءات وحول زمن حدوثها وحول فحواها. كما أنّ قوله إنّ مجد الكروم هي نموذج لقرية بقيت قائمة لم يمسّها سوء رغم تلك الاعتداءات قول ينطوي على مغالطة كبيرة. فإضافة إلى المذبحة والنهب يوم ١٩٤٨/١١/٦، جاء دور الطرد للسكّان بعد ذلك بشهرين كما سيأتي الحديث عن ذلك في ما يلي.

٣٤ لقد اعتمد موريس، كما ذكرنا، على تقارير لفريق من الأمم المتّحدة في حيفا. وكان الفريق يصل إلى قرى الجليل الأوسط لتقصّي الحقائق بصدد ما يجري، وبخاصّة في القرى التي تعرّضت لأعمال القتل والنهب وطرد السكّان. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المنطقة من الجليل كانت، وفق قرار التقسيم، تتبع للدولة العربيّة؛ ولذا سُمّيت بـ"المناطق المحتلّة" في وثائق الجيش، ثم صار اسمها "المناطق التي تقع تحت التصرّف"، ثم سقط هذا الوصف وصارت جزءًا من دولة إسرائيل في نفس عام ١٩٤٩، بعد عقد اتّفاقيات وقف إطلاق النار.

٣٥ هذا النصّ، أو ما يشبهه، سمعته من والدي وعمّاتي وآخرين من أقربائي. واعتقد البعض أنّ هذا النصّ كان مقصودًا؛ وفسّروه على أنّه حمى زهرة الجاعونيّة (جدّتي) وأولادها، ولكنّه سمح بنسف البيت وإعدام الزوج.

٣٦ سمعت هذه الرواية من عمّتي أكثر من مرّة؛ الأخيرة كانت في معرض مقابلة يوم ٢٠٠٤/٢/١.

٣٧ انظر، موريس ١٩٩١، ٣٠٤، وكذلك الهامش رقم ٤٣. لكن هذا القول الذي يتجاهل ما حدث فيما بعد من طرد للسكّان يؤكّد أيضًا خطر الاعتماد على وثيقة دون رؤية الصورة بشموليّتها.

٣٨ ثيقة مقتضبة لا تتعدّى خمسة أسطر مطبوعة كُتب في أعلاها أنّها سرّيّة مرسَلة إلى أركان حكم مناطق محتلّة من מסכל/אגם/ברוך (بتاريخ ١٩٤٨/١١/١٨).

٣٩ المصدر نفسه. مرّة اخرى ضابط مسؤول ينفي "التهمة" بالنسبة لما حدث في مجد الكروم ويطالب بمعالجة الموضوع بسرعة حتّى لا تسمع مثل هذه "الاتّهامات" وتسيء الى سمعة إسرائيل في باريس وغيرها.

٤٠ حدث هذا أيضًا في قريتي البعنة ودير الأسد المجاورتين لمجد الكروم، حيث وصل فريق الأمم المتّحدة إليهما وكتب تقريرًا عن قتل أربعة أشخاص: اثنين من كلّ قرية (موريس ١٩٩١، ٣٠٢-٣٠٣). وانظر كذلك مذكّرات حنّا إبراهيم الذي أكّد لي في شهادته أنّه حضر وشاهد قدوم رجال الأمم المتّحدة الى قريته. وقد قام بالترجمة من العربيّة إلى الإنجليزيّة وبالعكس لهذا الفريق. لكن أحد ضبّاط الجيش المرافقين لفريق الأمم المتّحدة "لم تعجبه الترجمة"، فمنعه من استمرار قيامه بنقل أقوال الأهالي إلى فريق التحقيق.

٤١ تجدر الإشارة هنا إلى أنّ بحث مسألة العرب في الدولة اليهوديّة والتخطيط لطردهم شغل زعامات الييشوف اليهوديّ منذ الثلاثينيّات. وقد قام المؤرّخ الفلسطينيّ نور مصالحة بدراسة هذه القضيّة ونشر كتبًا وأبحاثًا حول هذا الموضوع. وأحد هذه الكتب يحمل العنوان: "أرض أكثر وعرب أقلّ" (مصالحة ١٩٩٧).

٤٢ الاتّحاد (صحيفة)، ١٩٤٨/١١/١٥.

٤٣ الاتّحاد (صحيفة)، ١٩٤٩/٣/١٤. يتعلّق هذا الخبر بـ"محاولة لنفي الشيوعيّين من كفر ياسيف"، مثلا.

٤٤ هناك أخبار مستمرة في كلّ عدد تقريبًا عن الرفاق الشيوعيّين المعتقَلين والمطالبة بإطلاق سراحهم. وعندما نشرت صحيفة الاتّحاد خبرًا عن إطلاق سراح معتقلي عيلبون، على سبيل المثال، أشارت إلى استقبالهم ومسيرتهم نحو "مقبرة الشهداء"، حيث أقيمت الصلاة على أرواح الشهداء، وتكلّم الرفيق حبيب زريق أمام حشود المستقبلين.

٤٥ قد يكون الشكل الأدبيّ، والسيرة الذاتيّة بخاصّة، هو الأنسب لسرد مثل هذه التجربة الإنسانيّة الثريّة. وقد نشرت بالفعل بعض تفاصيل ما سمعته من الوالدين عن تلك التجربة في مجلّة "الكرمل" عام ١٩٩٨، كما أشرت الى ذلك سابقًا.

٤٦ يذكر بعض الأهالي الذين قابلتهم في مجد الكروم السيّد تسفي ربينوفيتش باسم "الخواجا غزال" الذي أطلقه على نفسه. وقد بدّل اسم عائلته فيما بعد، ولكنني نجحت في الوصول إليه ومقابلته، كما سيرِدُ في الصفحات التالية.

٤٧ تفاصيل عمليّة الطرد إلى منطقة أمّ الفحم في المثلّث تكرّرت في شهادات أهالي مجد الكروم الذين نجح عدد غير ضئيل منهم في العودة الى القرية. وقد تكرّرت أعمال الطرد إلى منطقة المثلّث من قرى أخرى في الجليل هي أقرب إلى الحدود اللبنانيّة كما سنرى في الصحفات التالية.

٤٨ في الروايات الشفويّة لبعض المطرودين من مجد الكروم في ١٩٤٩/١/٩ الذين نجحوا في "التسلّل" إلى القرية والعودة إليها، سلك هؤلاء إحدى طريقين: إمّا الوصول إلى جنين والتسلّل من هناك عن طريق مرج ابن عامر ومنطقة الناصرة – وهي الطريق الأقصر – وإمّا سلوك الطريق من نابلس إلى الأردن فسوريا ولبنان والعودة من هناك إلى الجليل. وقد سلك والدي هذه الطريق مع غيره "وتسلّل" إلى القرية مرّات لوحده، كما روى لنا. أمّا عودة العائلة في ربيع ١٩٥١ الى القرية، فكانت عن طريق البحر بقارب صيّادي أسماك (وهي طريق نادرًا ما سلكها العائدون من لبنان).

٤٩ المصدر السابق. وقد شُفي المختار الحاجّ عبد منّاع من إصاباته وعاش حتّى الستّينيّات. وكان الحاجّ عبد قد نجا من الموت مرّتين: مرّة عندما وصل شفيق أبو عبده إلى ساحة العين (وكان واحدًا من ثلاثة انتُخبوا كدفعة لإطلاق النار عليها في ١٩٤٨/١١/٦)؛ والمرّة الثانية بالطبع عندما اعتدى عليه الجنود ووصل إلى المستشفى في حالة الخطر في ١٩٤٩/١/٩.

٥٠ لم تكن حوادث طرد السكّان (خاصّة الشبّان الذين جرى إحصاؤهم وتسلّموا قسائم تعداد السكّان، ثم هويّات – فيما بعد) عملاً نادرًا أو فريدًا في مجد الكروم فقط. وقد أثار عضو الكنيست توفيق طوبي هذه القضيّة في الكنيست، كما فعل ذلك أحيانًا أعضاء كنيست آخرون من اليهود والعرب. انظر حول ذلك وقائع الكنيست، المجلد الأول، ١٦٣٤؛ كيمن ١٩٨٤، ٣٢–٣٥؛ موريس ٢٠٠٣.

٥١ نشرت بهذا الصدد صحيفة "هآرتس" خبرًا مهمًّا تحت العنوان "كذا كان من الممكن ان تنكشف بروتوكولات ٤٨" (٢٠٠١/٢/١٦). وَفق هذا الخبر أو التقرير، إنّ وزير العدل يوسي بيلين وافق على فتح ملفّات مغلقة عن مجازر وعمليّات طرد عام ١٩٤٨، لكنّها في النهاية ظلّت مقفلة.

٥٢ من الجدير ذكره أنّ معظم الروايات الشفويّة التي سمعتها في مجد الكروم ذكرت أنّ عدد المطرودين في المرّة الثانية كان عشرات الأشخاص فقط، أي أقلّ من الأرقام الواردة في الوثائق العسكريّة. وربّما كانت الفجوة في الأرقام تعود إلى أنّ السلطات أبعدت كذلك أشخاصًا "تسلّلوا" فاعتُقلوا ثمّ أبعدوا من المعتقل مباشرة إلى ما وراء الحدود. كما أنّ عمليّات طرد أخرى خلال العام ١٩٤٩ لم يذكرها الأهالي، بينما تذْكرها الوثائق والمصادر الأخرى. ففي تشرين الثاني عام ١٩٤٩، احتجّ عضو الكنيست توفيق طوبي على طرد نحو ٦٠٠ شخص من قرى أمّ الفحم وشفاعمرو ومجد الكروم والبعنة ودير الأسد وترشيحا، بحجّة أنّهم من المتسلّلين (وقائع الكنيست، المجلد الثالث، ٧١).

٥٣ الاتّحاد (صحيفة)، (١٤/٣/١٩٤٩). وقد أشار إلى هذه العمليّة كذلك صبري جريس في كتابه "العرب في إسرائيل" (Jiryis 1976, 81).
كذلك انظر الصفحتين ١٦-٢٦ في كتابه الصادر بالعبريّة، والذي كان أوّل دراسة جريئة حول هذا الموضوع وحول هموم أخرى للمواطنين العرب تحت الحكم العسكريّ صدرت بالعبريّة عام ١٩٦٦ تحت العنوان ذاته (جريس ١٩٦٦).

٥٤ لا يذكر الخبر الوارد في "الاتّحاد" أين ذهبت السيّارات العسكريّة بمئات غير الشيوعيّين من سكّان قرية كفر ياسيف. لكنّ المصادر الأخرى التي توثّق عمليّات الطرد تؤكّد إبعاد معظم الفلسطينيّين من قرى الجليل إلى منطقة المثلّث التي كانت تحت الحكم الأردنيّ حتّى ذلك الحين.

٥٥ وقائع الكنيست، المجلد الأول، ٨٥ (من يوم ٩/٣/١٩٤٩). هذه هي كما يبدو نفس حادثة طرد السكّان من كفر ياسيف التي أشارت اليها "الاتّحاد" وكذلك صبري جريس، والتي ذكرت أعلاه.

٥٦ هذه الوثيقة، التي تحمل العنوان "تقرير عمليّات في الجليل الغربيّ"، تحمل الرقم (61/קמ"ן/4264) بتاريخ ١/٦/١٩٤٩؛ وهي موجّهة إلى الحاكم العسكريّ في الجليل الغربيّ.

٥٧ المصدر السابق.

٥٨ في شأن عدد المطرودين، ثمّة تفاوت بين ما يذكره هذا التقرير العسكريّ (٢٥٠ شخصًا) وبين أقوال طوبي في الكنيست في ٩/٣/١٩٤٩ عن العمليّة نفسها كما يبدو، حيث ذكر العدد ٧٠٠. والأغلب أنّ تقرير ضابط مخابرات الحكم العسكريّ أدقّ في تحديده للعدد.

٥٩ أودّ أن أقدّم شكري إلى كلّ مَن قدّم مساعدة بهذا الشأن، دون ذكر للأسماء، فهم كثر. كما أودّ أن أشير إلى أنّ بعض الباحثين (ومنهم بيني موريس وهليل كوهين) قد ساعدوني في الوصول إلى وثائق عن مجد الكروم في الأرشيفات العسكريّة؛ فلهم شكري وتقديري.

الكتابة الجديدة للتاريخ والهُوية القومية

تحوّلات في الرؤية الذاتية للإسرائيلي والجديد في تعديل كتابة التاريخ[١]

موردخاي بار أون

مردخاي بار أون هو مؤرّخ إسرائيلي حامل شهادة الدكتوراه. نشرت له دراسات تاريخية عديدة حول تاريخ الحركة الصهيونية وإسرائيل. ناشط سياسي، من مؤسّسي حركة "سلام الآن" الإسرائيلية، شغل منصب عضو كنيست عن حركة "راتس" - الحركة للدفاع عن حقوق المواطن في منتصف الثمانينيّات ولكنه استقال بعد فترة وجيزة. إلى جانب ذلك، شغل مناصب رفيعة عدّة في مؤسّسة الجيش الإسرائيلي في الستينيّات والسبعينيّات، منها منصب كبير ضباط التربية في الجيش.

• نقله من الإنجليزية إلى العربية نبيه بشير.

بدايات تعديل كتابة التاريخ

لم يدوِّن التاريخ إقامة دولة إسرائيل وسنواتها الأولى استنادًا إلى منهج واحد وموحّد. فمنذ البداية ظهرت وفرة كبيرة من الروايات المختلفة، والمتناقضة أحيانًا، على شكل منشورات هدفها التأثير في تكوين ذاكرة إسرائيل الجماعيّة.[٢] إضافة إلى ذلك، لا يعدّ التعديل الصريح والواعي للتاريخ ظاهرة جديدة. ففي أوائل الستينيّات، نشر يسرائيل بير نقدًا لاذعًا لسياسات بن غوريون أثناء "حرب الإستقلال" ووضع تعديلات في الروايات التاريخية للحرب (بير ١٩٦٦). شغل يسرائيل بير منصب نائب رئيس العمليات في الجيش الإسرائيليّ أثناء الحرب، إضافة إلى كونه مؤرّخًا عسكريًا عريقًا مَثُلَ، لاحقًا، أمام القضاء بتهمة التجسّس لصالح الإتحاد السوفييتي وسُجِن وكتب كتابه سالف الذكر في السّجن. كذلك، نشرت أبحاثًا نقديّة وتعديلية أخرى في السبعينيّات (يتسحاكي ١٩٨٢). كما كتب سمحه فلابان كتابًا في الثمانينيّات تحدّى فيه الرواية الإسرائيليّة السائدة بشموليتها (Flapan 1987). يعتبر فلابان أحد قادة اليسار الإسرائيليّ الراديكاليّين، ومؤسّس "نيو أوتلوك"، المجلة الفصلية المشجِّعة للحوار والتفاهم بين اليهود والعرب في الستّينيّات والسبعينيّات، وشغل منصب رئيس تحريرها لفترة طويلة من الزمن.

لم تُثِر معظم هذه الكتابات إلا القليل من الجدل في المحافل الأكاديمية أو الجماهيرية. ولم يتأجّج الجدل حول ما يسمى اليوم بـ"التاريخ الجديد" إلا في أواخر الثمانينيّات، وظهر بأكثر حدّة في عقد التسعينيّات. وقف ثلاثة مؤرّخين في طليعة موجة التعديل التاريخي: بيني موريس وإيلان بابيه وآفي شلايم (Morris 1987; Pappe 1992; Shlaim 1988). إضافة إلى دراساتهم الجدّية، التي لفتت أنظار مجموعة قليلة العدد من القراء، فقد أثار المقال الذي نشره بيني موريس في مجلة "تِكون" جدلاً عظيمًا في نهاية ذلك العام (Morris 2000, 1990, 1-34, 1987; Pappe 1992; Shapira 1999; Shlaim 1999, 1988).

ونُشرَ، في التسعينيّات، العديد من المقالات الغاضبة من كلا طرفي الجدل في جميع الصحف والمجلات الإسرائيليّة.[3] وقام بعض المؤرّخين المرموقين بنشر مقالات صاخبة ينتقدون فيها تلك المقالات.[4] وكان لنقل هذا الجدل الأكاديمي إلى وسائل الإعلام دور هامّ في منحه بعدًا أكثر عمقًا واتّساعًا. وعرّف عالم الاجتماع أوري رام – الذي كتب مقالاً من منظار علم الاجتماع – هذا الجدل بأنه "يعكس الصراع حول الذاكرة الجماعية الإسرائيليّة ويوسّع مداه، صراع قد يُبشّر بحدوث تغيّرات متوقعة في تعريف الهُويّة الإسرائيليّة" (رام ١٩٩٦).

كان "المؤرّخون الجدد" مهتمين، بالدرجة الأولى، في الجوانب الدبلوماسية والإستراتيجية لحرب ١٩٤٨ وبالأعوام الأولى لقيام الدولة، وركّزوا في دراساتهم على سياسة الأمن الإسرائيليّة ومعالجتها لصراعها مع المحيط العربي. وبعد فترة وجيزة، تعرّضوا، أيضًا، لمواضيع وجوانب أخرى من مركّبات إسرائيل الاجتماعيّة والثقافيّة والأيديولوجية. وانضمّ عدد إضافيّ من المؤرّخين وعلماء الاجتماع والعلوم الإنسانيّة إلى "المؤرّخين الجدد" في نقدهم لسياسات إسرائيل ولوعيها لذاتها ولرواياتها التقليديّة حول ماضيها. وكما سنرى لاحقًا، فقد أصبح كل جانب، تقريبًا، من الروح الحاملة للمُثل الصهيونية والأيديولوجيات المهيمنة في إسرائيل، عرضة للفحص الدقيق والنقدي: الموقف المهيمن للمؤسّسة الإسرائيليّة ولطبقتها العليا من المهاجرين الجدد من البلدان الإسلامية؛ ومفاهيم وتفسيرات مؤسّسة لمعاني المحرقة النازية؛ ومكانة المرأة في المجتمع، والميثولوجيا القوميّة الراسخة؛ وركائز أخرى أساسية تقوم في صلب الصهيونيّة والثقافة الإسرائيليّة.[5]

يشير رد الفعل الغاضب لدى العديد من المثقفين الإسرائيليّين، ورفض شرائح واسعة من الجمهور الإسرائيليّ، وخاصّة بين المحاربين القدامى في حرب ١٩٤٨، إلى أنّ هذه التعديلات قد مسّت العصب الحسّاس في الوعي الإسرائيلي. والحقيقة أن الجدل الساخن المستمر ليس بمثابة مناظرة أكاديمية وحسب، بل هو صراع ثقافي ذو مضمون سياسي بالغ يدور حول موضوع الهُويّات والمفاهيم الذاتيّة. وقد لاحظ أحد المراقبين أنّ "المعارضة الحادّة والقضايا العميقة التي أثارها هؤلاء الباحثون [...] كانت نتيجة للادراك بأنهم يعرّضون بذلك حدود الهُويّة الإسرائيليّة الحالية للخطر، ويُنظر إليهم كخطر يهدّد الصورة الذاتيّة للإسرائيليّين" (راز كراكوتسكين ١٩٩٧، ١٢٣).[6] يرى أوري رام في "جدل المؤرّخ" هذا "تحدّيًا شاملاً للوعي التاريخي الرسمي والسّائد

شعبيًا لدولة إسرائيل" (رام ١٩٩٦، ١٢)، وذلك لأنّ رام يعرف أن الوعي التاريخي يزوّد المجتمعات المتطوّرة بشعور من التماسك الاجتماعي وبالمعنى الوجودي.

وفعلاً، فإنّ النبرات العالية التي استخدمها الطرفان في النقاش العلني أشارت، بكل وضوح، إلى وجود أزمة هُويّة، وما هذا الجدل الأكاديمي المفترض، إلا أحد تعابير هذه الأزمة. وبما أن الجدل قد خرج من إطار المحافل الأكاديمية الضيقة، فإنه من الممكن اعتباره أحد جوانب الصراع الثقافي (kulturkampf) بين الدولة القائمة على اسّس مدنية والسلطات الدينية الأكثر شموليّة، والذي فيه، كما وضّح البروفيسور كيمرلينغ: "يتم إبراز حدود اجتماعيّة كانت قائمة في الماضي، بينما يتم تكوين حدود اجتماعيّة جديدة لدعم هُويّات مجموعات جديدة. هذه الحدود والهُويّات تعيد بناء وتكوين الذاكرة الجماعيّة الخاصّة، والتي يعاد سردها في صيغ مختلفة عن تلك التي كانت مألوفة حتّى ذلك الحين. هذه الذاكرات تعيد بناء مكانة هذه المجموعات في المجتمع، وبهذا تعيد تشكيل تاريخ الدولة على وجه العموم" (كيمرلينغ ٢٠٠١، ٣١).

كي نحظى بفهم أفضل لكل هذه الأمور، يتحتّم علينا البحث في التساؤل التالي: لماذا انبثق هذا الجدل في التسعينيّات؟ هل يعود ذلك إلى ظهور جيل شاب من المؤرّخين وعلماء الاجتماع، المتحرّرين من القيود الفكرية التي عمل في ظلّها المؤرّخون "القدامى"، والذين شاركوا شخصياً، في أكثر الحالات، في صنع الأحداث التي وصفوها وحلّلوها، حيث كانوا معرّضين لضغوطات اجتماعيّة ونفسية قوية جعلت أعمالهم منحازة أيديولوجيًّا؟ أم أنّه يعود، ربّما، إلى وجود تفسير أعمق من شأنه أن يكون السبب للاستقبال الحار للتعديلات الجديدة الذي أبدته قطاعات متزايدة من الجمهور، وإن كانت وما زالت بمثابة أقليّة؟ ٢١٢

أحد التفسيرات التي يقدمها البروفيسور بيني موريس في مقالته – المنشورة في مجلة "تِكون" (Tikkun) المذكورة أعلاه– تربط بين تزامن ظهور مدرسة التعديل في أواخر الثمانينيّات مع فتح معظم الوثائق الأرشيفية ذات الصلة بهذا الموضوع، بعد وقوع الأحداث بثلاثين عامًا. وبالفعل، فان هذه الأمر حقيقي وشائع. إن فتح الأراشيف ورفع السريّة عن العديد من الوثائق يمكّن المؤرّخين من إلقاء نظرة أكثر عمقًا ودقّة على الأحداث التي يقومون ببحثها، وهو ما يسهّل عملية نقد الصياغات القديمة للرواية.[٧]

ولكن، لا يمكن أن يكون هذا هو التفسير الأساس في هذه الحالة. فأن غالبية التعديلات التي تقدّم

بها "المؤرّخون الجدد" في إسرائيل تعالج مفاهيم وتفسيرات لا حقائق. الجدل حول "التاريخ الجديد" هو، في الدرجة الأولى، جدل تأويلي (hermeneutic) في مضمونه. إضافة إلى ذلك، فإن العديد من "المؤرّخين القدامى" استعملوا المواد الأرشيفية في السنوات الأولى من عمر الدولة، إمّا لسبب حصولهم على امتياز حرية الوصول إلى بعض الأرشيفات، التي كانت مغلقة للجمهور الواسع، أو لأنّ عملهم على هذه الوثائق جاء قبل أن تصبح هذه الأرشيفات منظمة كما يجب واغلقت فيما بعد.[٨] إضافة إلى ذلك، فإنّ العديد من الحقائق التي "اكتشفها" المؤرّخون الجدد في الأرشيفات ليست بجديدة. لهذا، على سبيل المثال، فانّ الحقيقة القائلة إن القوّات الإسرائيليّة كانت متفوّقة على الجيوش العربية – على الأقل منذ نهاية الهدنة الأولى في بداية حزيران من عام ١٩٤٨– ليس في التنظيم والقدرات فحسب، وإنما في الأعداد أيضًا، كانت معروفة في شعبة التاريخ في الجيش الإسرائيلي منذ العام ١٩٥٥. وكذلك الأمر بالنسبة لغالبية تفاصيل المحادثات السرية بين الملك عبدالله والمثلين الصهيونيين/ الإسرائيليّين طوال الفترة ١٩٤٧–١٩٥٠.[٩]

وعليه، يبدو أنه علينا ان نموضع ظاهرة التعديل هذه ضمن خارطة مشهدية أكبر ترتبط بتطوّرات اجتماعية وروحانية أوسع والتي عظمت في إسرائيل في العقدين السابقين، والتركيز بشكل أقل على "المنتجين للتاريخ الجديد" والتشديد أكثر على فئة "المستهلكين". لهذا لا يكمن مفتاح هذه المسألة في التعديل بحدّ ذاته وانّما في الدائرة الأوسع التي تستوعبها وبردّ فعل عنيف عليها.

لقد ذكر العديد من المراقبين أن هدف حملة التعديل الحديثة ليس فعلًا تعديل ما كتبه المؤرّخون الأكاديميون السابقون، ولكنه يكمن في تغيير صور عامّة ومعتقدات وأساطير واسعة الانتشار، والتي أصبحت، مع مرور الوقت، مهيمنة في المجتمع الإسرائيلي. وتعتقد البروفيسور أنيطا شفيرا "أن الجدل حول كتابة التاريخ كان في الحقيقة حملة حول تشكيل الذاكرة الجماعية" (Shapira 1995)[١٠] ويذهب دكتور غوتْواين إلى أبعد من هذا ليدّعي أن كتابة التاريخ من جديد هي، على الجملة، ظاهرة أيديولوجية وسياسيّة وثقافية: "إن كتابة جديدة للتاريخ لا تكمن في عالم الأبحاث وإنما يتوجب أن البحث عنها في مملكة المعاني السياسيّة والجماهيرية الجديدة التي رُبطت بالمعطيات الجديدة". ويؤكد أن "المؤرّخين الجدد" "لا يهاجمون الأبحاث السابقة بل الذاكرات الحيّة". هم يحاولون اقتراح ذاكرات بديلة، وهدفهم "التأثير على الذاكرة الجماعية الإسرائيليّة [...] بتركيزهم على الشجب الأخلاقي وإلصاق الشعور بالذنب" (غوتواين ١٩٩٧، ٣١٦، ٣٢٤).[١١] ولهذا، لا نجد الروايات والصور التي يسلّط عليها "المؤرّخون الجدد" حملاتهم في أبحاث تاريخية

جدّية، وإنّما في الكتب المدرسية، في الاحتفالات التذكارية، في الصحافة الجماهيرية، في الأغاني الشائعة، وفي خطابات السياسيّين.[١٢]

الذاكرة الجماعية والهُوية

أصبح مفهوم "الذاكرة الجماعية" موضوعًا شائعًا لكل مناظرة جدية خلال العقدين الماضيّين، ولا تمكن معالجته بالتفصيل ضمن حدود هذا المقال.[١٣] ويذكر كيروين لي كلاين في دراسته المفصّلة لمجموعة التفسيرات الكبيرة المرتبطة بمفهوم "الذاكرة الجماعية" في الأعوام الأخيرة، ما يلي: "ظهر هذا التعبير مرات عديدة، وتفسيراته الواضحة لا تُعدّ ولا تحصى، حتّى إنه يتطلب جهد عمر بأكمله لنبدأ في حلّها" (Klain 2000).[١٤] ولغرض دراستنا سنكتفي بالتركيز على المعنى القديم بعض الشيء -ولكنّه ما زال صحيحًا- لمفهوم "الذاكرة الجماعية" كظاهرة سبقت كتابة التاريخ، أو يتحتّم فهمها فى أي حال على أنها تختلف تمامًا عنه.[١٥] يعتبر يوسف يروشالمي الكتابة الحديثة للتاريخ اليهودي وكأنه في الموضع المضاد للاسلوب التقليدي الذي عالجت فيه اليهوديّة ماضيها، وفي الدرجة الأولى من خلال مكائد "ذاكرة" مختلفة (Yerushalmi 1982). كذلك، يتعامل بيير نورا مع "الذاكرة" على أنّها بماهيّتها خطاب ما قبل التاريخ (ما قبل القرن الخامس أو السادس ما قبل الميلاد) مناوئ للتاريخ نجحت عقلانية العصر الحديث في إتلافه (Nora 1989). وعلى هذا النحو، يمكن لأي منّا تتبع الخطوات الأولى لانطلاق مدرسة التعديل الإسرائيليّة باعتبارها محاولة لخلق هوّة بين الأبحاث التاريخية وبين "ذاكرة جماعية" شعبية زائفة أو سيئة الفهم.

على الرغم من تصريحاتهم، يمكننا أن نستنتج، أيضًا، أن المؤرّخين المعدّلين منشغلون في مشروع طموح جدًا لتثقيف الإسرائيليّين من جديد. ومن الممكن للمرء أن يفترض أنّ ما يقف من وراء دوافعهم هو الافتراض أنّ الروح الصهيونيّة المشتركة الحاملة للمُثل العليا والوعي الإسرائيلي لماضيه يضع عقبات نفسيّة في طريق المصالحة مع العرب، ولهذا فإنه يقع على عاتقهم كمؤرّخين أن يصحّحوا هذه التشوّهات.[١٦]

بناءً على ذلك، يبدو أنّ طموحات هذا المشروع ليست إلاّ محاولة لتغيير الحدود المحيطة للوعي الإسرائيلي لهويّتهم الجماعية ولإعادة تشكيله. وقد اعترف كاتبو ورقة تمهيدية لسلسلة من نقاشات حول مائدة مستديرة بين مؤرّخين ومربين إسرائيليّين وفلسطينيّين بعنوان "الهُويّات الجماعية

وعملية السلام في الشرق الأوسط"، بصراحة تامّة، أن طموحهم كان يتمثل في البحث عن "ما نستطيع عمله [كمؤرّخين] بغية التخفيف من المطلق في الهُويّات [الإسرائيليّة والفلسطينيّة] ومن درجة إقصائها للطرف الآخر".[١٧]

كتب مايكل روث فيما مضى: "تعتبر الذاكرة، استنادًا إلى الحداثة، المفتاح للهُويّة الشخصية والجماعية [. . . وأنها] المهمّة الشاقّة الملقاة على الذات النفسيّة" (مقتبس عند: Klein 2000, 135). كذلك ذكر ميخائيل شودسون أن الذاكرة قد تميّز مجموعات من خلال الإفصاح عن "مدى دَينهم للماضي وبالتعبير عن تمسكهم الدائم بالأخلاق المتوارثة" (Schudson 1992, 51). ولكن التعبير "هُويّة المجموعة" لا يقلّ غموضًا وإرباكًا عن التعبير "ذاكرة جماعية". ومنذ أن كتب إريك إريكسون تقاريره المفصّلة حول "الهُويّة" ولاحظ وقتها (في منتصف الستينيّات) أن "الاستعمال الشائع لهذا التعبير أصبح كثير التنوّع وزاد من اتساع سياقه الاصطلاحي إلى حدّ بعيد" (Erikson 1968, 15)، ما جعل عددًا كبيرًا من الأدبيات تتناوله وتسيء استعماله.[١٨] ورغم كون مفهوم "الهوية" مركزيّ في بحثنا، لن نستطيع البحث هنا في التعقيدات الكبيرة لمعانيها.[١٩] دعني أضف، بإيجاز، بعض الملاحظات التمهيدية: بحثَ إريكسون، في الدرجة الأولى، أبعاد الهُويّة كظاهرة لتطوّر النفس الذاتية (الشخصيّة)، ولكنه أدلى، أيضًا، بملاحظات أولية مشتملة على بذور تطوّر الموضوع حول علاقات "الذات" ببيئتها وعن مكانة الفرد في "التاريخ". وكانت له ملاحظات لامعة وبالغة الأهمية في التعامل مع فكرة "هُويّة المجموعة" بصورة عامة. وتعريفه الأساس لـ"الهُويّة" على أنها "حسّ ذاتيّ بتشابه مُنشِّط واستمرار دائم" (Erikson 1968, 19, 31). يمكن لهذا التعريف أن يخدمنا جيدًا لتعريف هُويّة المجموعة، لأن التعبيرين "تشابه" (sameness) و"استمرار" (continuity) قد يشيران معًا إلى تصوّر الفردِ لذاته، وإلى التصوّر المشترك الذي يُعرِّف المجموعة. وبالفعل فقد أكّد لنا إريكسون "أننا نتعامل مع سيرورة 'متواجدة' في صميم الأفراد وكذلك في صميم ثقافته الجمعية المحيطة، وهذه هي السيرورة التي تؤسّس، في حقيقة الأمر، ماهيّة هاتين الهويتين (الذاتية والجماعية)". وهو ينظر إلى سيرورة توضيح الهُويّة بأكملها كعملية "تعزيز ثقافيّ" (Erikson 1968, 22-23).[٢٠] من الطبيعي أن يركّز علماء النفس الاجتماعيّون، وبخاصة ذوي الصلة بنظريات "الوظيفة" (role) و"مجموعة المرجع" (reference group)، في أبحاثهم على ما أصطلح عليه غوردون أولبورت "الحسّ باندماج عاطفي للذات مع الآخرين" (Allport 1954, 293-294; Gleason 1983,

(916. وكان بالفعل، كما كتب غليسون، "انسجامًا كلّيًّا مع هذا التحليل حيث تعامل مع الطريقة التي يتم فيها تكوين مواقف وقيم الفرد وإحساسه بالهُويّة إما عن طريق الاصطفاف مع – أو رفض – 'مجموعات المرجع التي كانت لها أهميّة، سلبية كانت أم إيجابية، بالنسبة للفرد'" (Gleason 1983, 917). ثمّة توضيح إضافي وضروري: من الممكن النظر إلى مصطلح "هُويّة المجموعة" عبر ثلاث وجهات مختلفة:

أ. العناصر الموضوعية التي تعرّف مجموعة ما على أنها فريدة من نوعها داخل المجتمع الواسع.

ب. الطريقة التي ينظر فيها "الآخرون" إلى هذه المجموعة ويميّزونها عن المجموعات الأخرى.

ت. الطريقة التي يرى فيها أعضاء مجموعة ما أنفسهم ومواقفهم مقارَنةً بـ"الآخرين".[٢١]

سنقوم، في هذا البحث، بالتطرّق بصورة سريعة إلى البعدين الأوّلين، وسنركز على الثالث لأننا سندرس التغييرات في فهم الذات بين الإسرائيليّين. ومن الممكن، فعلاً، النظر إلى هذا كخلاصة التعديل الاجتماعيّ والتاريخيّ. من الواضح أن المجتمع الإسرائيليّ يواجه اليوم "أزمة هُويّة" يواجه فيها الأفرادُ التحدّي ليقرّروا مواقفهم من قيم تقليدية ومعتقدات وتفسيرات متضاربة لماضيهم. دخل "التواريخ الجديدة" إلى "أرض المعركة" هذه في محاولة لترك بصماتهم عليها. إشارة إلى دور تعديل التاريخ هذا، كتبت البروفيسور شفيرا: "الذاكرة هي أرض معركة الهُويّة: من له الحصّة الكبرى في الصراع لتحقيق أسمى تطلعات المجتمع؟ من ثَبَتَ كونُه على حقّ؟ من كان الضحية ومن سبب الضحايا؟" (شفيرا ١٩٩٧، ١٦). كجزء من هذا الصراع، أعار المؤرّخون مهنتهم لذلك الجهد لكي "يكشفوا عن دَينهم للماضي"، وخاصّة لأحداث ذلك الماضي الأكثر تكوينية (فترة الاستيطان الصهيوني في فلسطين وحتّى السنوات الأولى بعد اقامة دولة إسرائيل).

ظهور ذاكرات عام ١٩٤٨

يمكننا الافتراض، بكل ثقة، أن شرائح واسعة من الجمهور الإسرائيليّ تحمل قناعات متشابهة بالنسبة لما جرى عام ١٩٤٨: صورة "داود الصغير" (اليهود) الذي سدّد ضربة قاضية إلى "جوليات العملاق" (العرب)، أو الصورة التي مفادها أن "انكلترا الخائنة بطبعها" (perfideous albion) لم تكن تنوي قَطّ مغادرة فلسطين، وعملت كل ما في وسعها لإفشال محاولات اليهود إقامة دولة

يهوديّة. هذان نموذجان لهذه الصور الرائجة في المجتمع اليهودي في البلاد لتطوّر الصراع الصهيوني بغية الاستقلال. الغضب الواسع الانتشار الذي تم إطلاق عنانه ضد "التاريخ الجديد" هو أفضل مؤشر على عمق هذه القناعات، لأنه لا يمكن فهمها إلا كردّ فعل ناتج عن الخوف من فقدان بعض المرتكزات العقديّة الأساسية التي تمسّك بها، على مر السنين، معظم الإسرائيليّين، والتي شكّلت المنهج الذي اتبعوه للتدليل على ذواتهم ولتحديد مكانتهم في العالم. هذه الأفكار المتعلقة بعقدة النقص العددي اليهوديّ الأبدية، إضافة إلى الحاجة الماسّة لعداء العالم الخارجي، هي كذلك مسالك اتبعها العديد من الإسرائيليّين لتحديد مصيرهم في الوقت الحاضر وحظهم في المستقبل، كما أنها تكوّن أحد الأبعاد الأساسية في المنهج الذي يتبعونه لفهم هويتهم الجماعية.

بالإضافة إلى اللغة المشتركة، والأرض الجماعية المشتركة، والتقاليد الثقافيّة المشتركة، التي تميل إلى رسم الحدود بين المجموعات البشرية، إن الشعور في الاشتراك في تاريخ – من معاناة وانهزامات أو انتصارات ونجاحات مضت– يميل أيضًا إلى تعريف الهُويّة المشتركة للمجموعات، وخاصّة للشعوب. ينمو معظم هذا الشعور بطريقة عفوية، ما يجعل إيريكسون يطلق عليه اسم "الإنتماء المخلص" (affiliate loyalty) الذي يتضمن "حب استثناء الآخرين". ولكن، ولهدف التأكّد، تعلم القيادات أنه من الضروري "مدّ الشبيبة، والمراهَقة الأبدية في البالغين، ببعض الأعداء المُبالَغ في تعريفهم وعندها يصبح في الإمكان الحفاظ على شعور من الهُويّة مقابل اولئك الأعداء"(Erikson 1974, 95-96).[٢٢]

لم يكن من دواعي الصدفة أن أكثر الهجومات غضبًا ضد المؤرّخين الجدد لم يشنّها مؤرّخ أكاديمي وإنما شنّها أهارون ميغيد، الروائي المعروف الذي ادّعى أن "التاريخ الجديد" قد يؤدي إلى انتحار قومي.[٢٣] لقد واجهتُ عبر السنوات القليلة الماضية ردود فعل غاضبة ومقاطعات كلامية صاخبة أثناء محاضرات فسرّتُ فيها واقع تخلخل ميزان القوى أثناء حرب ١٩٤٨. ولقد اتُّهمت بأني "مؤرّخ جديد"– وهو لقب لم يكن يقصد به الإطراء.

بناء على ذلك، يبدو أن السؤال المثير الذي ينبغي التوقف عنده هو ليس الظهور العادي والشائع لجيل جديد من المؤرّخين الشباب الذين يريدون، وبكل تفهّم، سرد الرواية من وجهة نظرهم، ويرفضون قبول الحقائق القائمة بدون نقد نزيه، وإنما السؤال عن حقيقة الأمر في أنه، بالرغم

من الصور الراسخة والعقائد الشائعة عن "حرب الاستقلال" الإسرائيليّة والأعوام الأولى من عمر الدولة، نرى شريحة نامية من الجمهور الإسرائيليّ متأثرة بغالبية التفسيرات التي يعبرّ عنها "المؤرّخون الجدد" في كتبهم ومقالاتهم ولديها الميل إلى الالتزام بها. وما هذا الجدل إلا واحد من جوانب "أزمة الهُويّة" العامّة التي نشهدها على مدار العقدين الأخيرين. قبل المضيّ قدمًا في تحليل الجدل المحدّد بالسرد العسكريّ والسياسيّ لحرب ١٩٤٨ وما نتج عنه، سنقوم بالتوقّف عند بعض الملاحظات العامّة حول هذه الأزمة.

توالد الهُويّات

بدأ في التسعينيّات تداول حول مفهوم جديد للهُويّة الجماعية الإسرائيليّة. من المتفق عليه، إلى حدّ بعيد، أنّه شاع في الأيام الأولى من عمر الدولة مستوى عالٍ من التجانس، ذلك أن أيديولوجيا واحدة محدّدة وبعض النماذج الثقافيّة حظيت بالهيمنة المطلقة نتيجة لسيطرة الحركة العمالية السياسيّة والثقافيّة على السياسة والمجتمع الإسرائيليّين، وبدون أي تحدٍّ باشرت في قمع وإقصاء جميع الأشكال البديلة للهُويّات الثقافيّة.[٢٤] ولكن، نجحت التعددية النامية، منذ أواسط السبعينيّات، في تحقيق بعض النجاح. ويبدو أن الهُويّة الجماعية الإسرائيليّة أصبحت، بصورة متزايدة، عرضة للتجزّؤ إلى تشكيلة من مجموعات فرعية ذات ثقافات وأيديولوجيات مختلفة تعيش جنبًا إلى جنب وتناضل من أجل استقلالها وقوتها الإيجابية وشرعنة تجلياتها وظهورها في الحيّز العام. هناك صراع دائم بين هذه المجموعات المختلفة للحصول على أفضليات سياسيّة واقتصادية واجتماعيّة، ولكن لم تنجح أيّ منهنّ في تحقيق الهيمنة على الآخرين. ووفق هذا التفسير، فقد خسرت الثقافة القديمة ذات الطابع الطلائعي- الاشتراكيّ قدرتها على التأثير في المجتمع بأكمله، وغدت منزلتها كمنزلة أية مجموعة أقلية فرعية. ويصف البروفيسور باروخ كيميرلنغ هذه العملية بايجاز شديد: "كتلة من المجموعات الفرعية في مرحلة التكوين، تقوم كل مجموعة بتعريف ذاتها بطريقة أخرى". وهو يعتقد أن "هُويّة إسرائيليّة جديدة تتشكّل أمام أعيننا، كتشكيلة بنيوية وكذلك كإمكانية كامنة لتكوين هُويّة جماعية ميتافيزيقية جديدة". ويضيف أن هذه الهُويّة الجديدة "ما هي إلا نتيجة متأخرة لوهن الهيمنة الثقافيّة–السياسيّة للعلمانية، لكل ما هو شبه غربي، وللتعريف الإشكنازي للهُويّة الإسرائيليّة".[٢٥]

إضافة إلى ذلك، فإنّ فكرة الهيمنة، بحدّ ذاتها، تصبح الآن عرضة للهجوم، ولا يُنظر إلى التعدّدية كأمر اعتياديّ فحسب، وإنما، كذلك، كنموذج مفضّل. ومن الواضح أن هذا الاتجاه متأثر بما هو رائج في المجتمعات الغربية عمومًا، حيث تمنح الأفضلية للخطابات التي تقوم على التعددية. أما في إسرائيل، فكثير من مدارس كتابة التاريخ والعلوم الاجتماعية تميل إلى التأكيد على التعدّد بدلاً من التوحّد والتماثل. ويحظى الولاء للهُويّات الفرعية في إسرائيل، كذلك، بأفضلية على الولاء للهُويّات التي تحتضن الهُويّات الأخرى. ولقد تمّ الحدّ من تألّق الذاكرة القوميّة الجماعية وإضعافها وتشظّيها إلى أطياف مختلفة من الخطابات.[٢٦] ويذهب دافيد أوحانا إلى أبعد من ذلك إذ يشكّك في ما "إذا كان من الممكن، من الناحية المبدئية، تعزيز هُويّة جماعية إيجابية داخل مجتمع متعدّد الثقافات وما بعد أيديولوجي، يتنازع حول قضايا أساسية ويتمزّق، مجتمع خالٍ من أي إجماع قومي، مجتمع أصبح سجينًا داخل قفص مؤلف من تحالف بين أقليات". يعرّف أوحانا الهُويّة الإسرائيليّة الجديدة على أنها "فسيفساء من الأحلام، وخشبة مسرح تحمل الاشواق جميعها، وتقاطع من الذاكرات" (أوحانا ١٩٩٨، ٢٥، ٥٣).

إضافة إلى المجموعات الإشكنازية، التي خسرت هيمنتها، والتي ينتمي غالبية أبنائها إلى الطبقة الوسطى المحنّكين والمتشبعين بنمط حياة المدينة، فإن هناك مجموعات فرعية اخرى تكوّنُ جميعها المجتمعَ الإسرائيليّ حاليًا، وهي: مجموعة الـ"مزراحيم"، والتي تضم يهودًا هاجروا في الخمسينيّات من بلاد إسلامية، وحافظوا كثيرًا على نمط حياتهم التقليدي الديني، ويعيشون، في أكثر الحالات، على هامش المجتمع الإسرائيليّ؛ المجموعة الأرثوذكسية النامية، والتي تنقسم إلى مجموعة المغالين الأرثوذكس وإلى مجموعة أكثر عصرية تدعى الأرثوذكسيّة القومية؛ مجموعة المهاجرين الجدد متكلمي اللغة الروسية القادمين من الاتحاد السوفييتي السابق؛ وبالطبع، مجموعة الأقليّة العربيّة- الفلسطينيّة.[٢٧]

إن ازدياد فلسطنة الأقليّة العربيّة نتيجة تجديد اتصالاتها مع إخوتها في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧؛ والتفوّق العددي والنوعي للمهاجرين الروس؛ والتماهي العظيم للأرثوذكسية الحديثة مع المستوطنين المتطرفين [سياسيًا] والمتعطشين للقتال، وكذلك تنامي مشاركة مجموعات الأرثوذكس في السياسة الإسرائيليّة، أدّت، جميعًا، إلى ازدياد متسارع في عملية التأكيد على الذات، التي تقوم بها هذه المجموعات. تشعر هذه المجموعات بأن عقيدة وسياسات "بوتقة الصهر"، والتي

طوّرها بن غوريون والحركة العمالية خلال العقدين الأولين من عمر الدولة، لم تكن إلا قناعًا للمحافظة على هيمنة النخبة الإشكنازية المحنّكة والعلمانية، وأدّت إلى قمع وطمس ثقافاتهم الفريدة وزعزعت مكاناتهم في المجتمع.[٢٨]

لقد ولّد هذا الفهم الجديد للهُويّة الإسرائيليّة سيلاً من الكتب والمقالات والأفلام التي تصف هذه الهُويّة وتحاول تحليلها، وبالتالي، تعزيز هذه الصور. ولكن يبدو لي أن التعددية الجديدة تعكس تنويعًا في فهم الذات والتأكيد على الذات (self assertion) لا تعدديّةً في أنماط الحياة الحقيقية والسلوكيات الثقافية. فمن الواضح أن العرب والأورثوذكس المغالين يحافظون على الميزات الفردية داخل نماذجهم الثقافية، وسيستمر الجمهور الكبير من المهاجرين الروس في "الوطن الجديد" برفع الهُويّات الخاصّة التي استوردوها من "الوطن القديم"، لجيل واحد على الأقل، مع أنني أعتقد أن الميل الإجمالي في المدى البعيد سيكون في اتجاه عملية مستمرة للتجانس. إن التعرض الكبير لوسائل الإعلام المشتركة،[٢٩] والخدمة العسكريّة الإجبارية الموحِّدة – للرجال على الأقل – ومركزية العسكرة في الوعي الإسرائيليّ، والفهم العميق للأخطار والتضحيات المشتركة، والاستعمال المتزايد للعبرية لغةً مشتركة، وعوامل أخرى كهذه تدفع المهاجرين والإسرائيليّين أبناء وأحفاد المهاجرين باتجاه ثقافة عبريّة متعدّدة المعتقدات تحرز تقدمًا حتّى داخل المجتمعين العربيّ والأرثوذكسي المغالي في صرامته الديني وانغلاقه الثقافي. إن استعمال العبرية لغة يومية داخل هذين المجتمعين يجعل الاتصال مع بقية السكان أسهل ويصبح الحوار بين المجموعات أكثر ترددًا وحِدّة. وقد يكون تزايد عدد الشبّان الأرثوذكس المغالين الذين يتطوّعون في اطار كتائب خاصّة، قام الجيش اللإسرائيلي بانشائها حديثًا، مؤشرًا آخر لهذه العملية.

وعليه، يبدو لي أن السيرورة التي صُوّرت على أنها تعدّدية نامية وتفتيت متزايدان لم تحدث فعلاً في نطاق "الهُويّة الموضوعية"، وإنّما في الطريقة التي بدأت المجموعات المختلفة – وخاصّة بين المتحدثين باسمها – بالنظر إلى نفسها. ولقد ميّز سايمون هيرمان، في دراسته الأولية للهُويّة الإسرائيليّة، بين السمات "المركزية" للهُويّة وبين "سمات بارزة" لجوانب معينة للهُويّة ذاتها. ويهدف الباحث من وراء تعبير "المركزية" جميع السمات التي تملأ بالفعل الحياة اليومية للفرد وتكوّن "هويته الحقيقية". أمّا تعبير "سمات بارزة"، فيعود إلى تلك السمات (المركزية أو غير المركزيّة) التي يعتبرها الفرد أكثر أهميّة وجاذبية، وجديرة بالاهتمام والتغذية والكشف.[٣٠] إذا اعتمدنا على مصطلحات هيرمان، نلاحظ تزايد حدّة "السمات البارزة والتكافؤ الإيجابي" التي

تُنسب إلى الجوانب الفريدة للهُويّات الثانوية الفئوية، ونلاحظ في نفس الوقت "مركزية" متزايدة لعدد أكبر من سمات الهُويّة المشتركة في "مجال الحياة" لغالبية الإسرائيليّين. بالرغم من ذلك، ولهدف دراستنا، فإن أبعاد هُويّات المجموعة التي تبدو سمات بارزة لأعضائها هي الأبعاد الأكثر صلة، وذلك لأننا بصدد التحقّق من موضوع التمثيل في الكتابة التاريخية واستيعابها، وهي جوانب مهمّة من الوعي والإدراك العقليّين.

في بداية الأمر لفت مصطلح "التاريخ الجديد" نظر الجمهور إلى التعديلات المقترحة في السجالات المتعلقة، بصورة خاصّة، بحرب ١٩٤٨ وبالنزاع العربيّ – الإسرائيليّ بصورة عامّة. ومع ذلك، انتشرت عملية تعديل كتابة التاريخ باتجاه العديد من السجالات ومجالات الاهتمام: مصادر التوتر بين الدوائر العلمانية والدينية؛ مكانة النساء وقضايا الجندر بصورة عامة؛ عملية بلورة الحدود الأيديولوجية والسياسيّة الفاصلة وقضايا اثنية وابتداعها.[٣١]

سنعود سريعًا لبحث إضافي في المغزى الأصلي للتعديل، ولكن يبدو أن هناك حاجة للقيام بمسح سريع لهذه الأبعاد الفئوية قبل أن نواصل التعامل مع الصراع حول الهُويّة الإسرائيليّة الشاملة وجوانب الذاكرة الجماعية المشتركة للأمة. سنركز في الفقرة التالية على السجال الخاصّ بالمهاجرين "المزراحيم" وذريتهم.

تأكيد المزراحي لذاته

بالرغم من تزايد المشاركة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة لدى اليهود المزراحيّين، الذين هاجروا في الخمسينيّات من البلاد الإسلامية وأولادهم وأحفادهم، في الحيّز الإسرائيليّ العام، الّا ان هناك اغتراب يتمّ التعبير عنه بين صفوف المتحدثين المزراحيّين مما يرونه كهُويّة إسرائيليّة محنّكة وطامسة وفارضة التجانس، ما يشير إلى قضية صعبة للغاية. ما من شأنه ان يفسرٍ النجاحَ المفاجئ لـ "شاس" (الحزب الأرثوذكسي الشرقي) خلال العقد الأخير[٣٢] وشعبية بعض الحاخامات الشرقيّين القدامى. يمكن تفسير مسألة التبجيل الواسع الانتشار للمرحوم بابا سالي ("وليّ" مشهور من أصل يهوديّ مغربي) على خلفية التقاليد المستوردة من "الوطن القديم". يشير يورام بيلو إلى أن "التبجيل الشعبي للأولياء كان مركّبًا مركزيًا –إن لم يكن المركزي– في الهُويّة الجماعية ليهود شمال إفريقيا" (Bilu and Ben-Ari 1995). فعلًا، فمنذ أن فتحت المغرب أبوابها لزيارات

المغتربين، زار العديد من الإسرائيليّين من أصول مغربية، بما في ذلك الجيلين الثاني والثالث، قبورًا قديمة لأولياء يهود أصحاب قدسية دُفنوا في المغرب. اصطلح يساخار بن عمي على هذه الظاهرة على أنها "انموذج مثالي لماضٍ ضائع ومقدّس يحتذى به" (بن عامي ١٩٨٤، ٢٥٣). هذه تشخيصات صحيحة، ولكن يبدو أنها لم تنجح في تفسير نجاح بابا باروخ الشاب، شخص سطحي وسجين سابق، في وراثة وقار ومهابة والده. علينا أن نفهم هذه الظاهرة ليس على خلفية التقاليد القديمة ولكن على خلفية صراعات جديدة للتأكيد على الذات داخل المجتمع الإسرائيليّ. ولتعزيز ذلك، فان هذه التقاليد تُفسّر في المغرب الحديث على أنها دفاعات ضد تقدّم الحداثة، ولكن هنا، في "الوطن الجديد"، يتمّ ربط الحداثة بشكل كبير بالتراتبية الاجتماعيّة وبالتباين الاثنيّ.

شرعت مجموعة مؤلفة من مثقفين وباحثين شبان، مركزهم في مؤسّسة "فان لير" في القدس، في عام ١٩٩١ بنشر مجلة فصلية بعنوان "تيئوريا وبيكوريت" (نظرية ونقد). على امتداد العقد الأخير، غدت هذه المجلة بيتًا لمعظم المتبنين للفكر ما بعد الحداثي، وما بعد الاستعماري، وما بعد الصهيونيّ ومنتقدي المجتمع الإسرائيلي. وكما أشار المؤسّسون في مستهل العدد الأولى من المجلة، فقد أقرّوا التركيز على "الأوجه التي يتم من خلالها تمثيل الواقع [الإسرائيليّ] وعكسه في حقول ثقافيّة متنوّعة ويودّون فضح السُبل التي تستعين بها الإرساليات الثقافيّة (cultural agencies) في تعاملها مع مهمة التمثيل. يتوجّب علينا البحث والتحقيق في أنماط مشارَكة تلك الإرساليات التمثيلية في تشكيل النظام الاجتماعيّ واستنساخه، أو في تأسيس وبلورة علاقات القوة داخل المجتمع" (أوفير ١٩٩١).[٣٣]

ظهرت في النصف الثاني من التسعينات مجموعة تطلق على نفسها اسم "هكيشت هامزراحيت" (القوس الشرقي)، تتألّف من المثقفين الشرقيين الأكثر علمانية وحداثة. هذا مؤشر إضافي يصبّ في صلب التيار العامّ. ان الهدف المُعلن لهذه المجموعة هو الصراع لتعديل مَظالم قديمة ولتسليط الضوء على قيمة ثقافتهم الفريدة من نوعها. وعليه، واذا استعنا ثانية بإريكسون، يمكننا تعريف هذه الخطوة، كما اقترح إريكسون، بأنها "مفخرة لاكتساب هُويّة قوية [تشير إلى] تحرّر داخلي من هُويّة أكثر هيمنة، مثل هيمنة 'الأكثريّة المتراصّة'" (Erikson 1968, 22).[٣٤]

الملاحظات الذكية التي يطرحها ألان ميغيل من شأنها ان تُسلّط بعض الضوء على هذه التطوّرات. يقترح ميغيل وجود رابطة قويّة بين "الهُويّات الاشكالية وغير الآمنة" وبين ما يسميه "جزع

الذاكرة" (memory of craze). وهو يشدّد على ذلك البعد للهُويّة الذي ليس بالضرورة يمكن "اثباته تجريبيًا"، ولكنه البُعد الذي يختاره الفرد لهدف "التدليل على الذات" (مشابهة لفكرة هيرمان بـ"سمات بارزة للهُويّة"). ولكن بما أن عملية التدليل على الذات "تتضمن قدرًا من الاعتباطية أو الصدفة [...] فهناك علاقة بالغة الأهمية بين سيرورة التدليل على الذات والتصوّرات حول الماضي. وتعلو مرتبة 'الذاكرة' لتصبح الهاجس المميَّز في أوضاع يجد الناس فيها أنفسهم منشغلين في التدليل على الذات، لأن ذلك يؤدّي دور الاتزان والاستقرار والتبرير لعملية التدليل هذه التي يدّعيها الناس" (Megill 1992, 40-42). قد يقف هذا التفسير وراء حقيقة أن معظم الانشغال الحالي للإسرائيليّين الشرقيين في موضوع "الجذور" يتولّد عند مهاجري الجيلين الثاني والثالث الذين اندمجوا بصورة جيدة في الثقافة الإسرائيليّة العامّة.

يتعامل بعض "المؤرّخين الجدد"، وبخاصة أولئك المناصرين لـ"السوسيولوجيا الجديدة"، بصورة مباشرة مع هذه القضايا، ويكرّسون بعضًا من أعمالهم لتوجيه نقدٍ حادٍّ للثقافة القديمة المهيمنة، ويحاولون فضح محاولات قمع الأقلّيات المختلفة في المجتمع الإسرائيليّ. في عملية تجميع لمقالات نقدية، كخطوة استهلالية، نشرت عام ١٩٩٣، أدرج أوري رام بعض الهجومات الحادّة على الروح الحاملة للمُثل الصهيونية العليا (ethos) المهيمنة ونفاقها المزعوم، كاشفًا بذلك تناقضات عظيمة بين الغايات المقدّسة المعلن عنها وبين ممارسات التمييز والقمع في القضايا الاثنية، الجندرية، والتوزيع غير المنصف لخيرات المجتمع وممتلكاته العامّة (رام ١٩٩٣). على هذه الشاكلة، على سبيل المثال، تفضح ثلاث مقالات المكانةَ الوضيعة للنساء اللواتي أبعدتهنّ الروح الحاملة للمُثل الرجولية العليا للصهيونيّة نحو دور ثانوي، حتّى داخل حركة الكيبوتس التي ادّعت دومًا أنها مثال للمساواة الاجتماعيّة بين النوعين الاجتماعيّين (برنشتاين ١٩٩٣؛ سفيرسكي ١٩٩٣؛ شوحاط ١٩٩٣). ومقال آخر يُظهر أنه، حتّى في الفترة التكوينية المبكّرة للاستيطان الصهيونيّ في فلسطين، تمّ فرض تراتبية اجتماعيّة واقتصاديّة تبعًا للحدود الاثنية (سفيرسكي وبرنشتاين ١٩٩٣).

وثمّة مثل آخر يتلخص في النقد اللاذع الذي وجّهه تسفي تساميريت، في أحد كتبه وفي مقالاته عن محاولات بن غوريون وأتباعه توحيد جهاز تعليم الدولة في أيامها الأولى وفرض عملية التجانس عليه؛ وهي سياسة تعتبر، فعليًا، بمثابة محاولة قسرية لعَلمنة أطفال المهاجرين الجدد الذين جاءوا من خلفية دينية (Zameret 2002). وثمّة انعكاس آخر لهذه الموجة، يتمثّل في بعض المحاولات

لبحث موضوع احتجاجات الشرقيّين التي وقعت أثناء اعمال الشغب في وادي الصليب في حيفا عام ١٩٥٩ وَ"ثورة" "الفهود السود" المقدسيّين في أوائل السبعينيّات.[٣٥]

بسبب وعيهم لوجود صلة حميمة بين الهُويّة والذاكرة، تحاول نخبة من المثقفين، تنتمي إلى مجموعات تسعى إلى إثبات نفسها كشريحة فريدة ومهمة من المجتمع الإسرائيليّ، إلى الركون إلى "سياسة هُويّات" خاصّة بها، وذلك عن طريق إعادة تشكيل الذاكرة الجماعية للمجموعات الاثنية التي تنتمي اليها. كتب جون غيليس في هذا الصدد: "يتمّ تعزيز المعنى الأساس لهُويّة أي فرد أو مجموعة ما، أي الشعور بالتشابه على مر العصور وفي حيّز محدّد، عن طريق التذكّر" (Gillis 1994a). كعادة مجموعات المهاجرين، يحاولون التركيز على قصص من "الوطن القديم"، وفي نفس الوقت يعيدون سرد تفاصيل المصاعب التي واجهوها والتمييز الذي عانوه في "الوطن الجديد".

جمعت كتابات يهودا نيني بشكل مثير بين نقد لاذع للأسلوب الذي تمّ من خلاله استيعاب اليهود الإشكناز المستوطنين الأوائل في فلسطين لليهود اليمنيين، من ناحية، وبين تبجيل ماضيهم في "الوطن القديم" من الناحية الأخرى. فقد كشف نيني النقاب عن التمييز القاسي ضد المهاجرين اليمنيين الذين هاجروا إلى فلسطين في بداية القرن العشرين؛ بينما كرّس في ذات الوقت جهدًا وفيرًا لدراسة تاريخ اليهود وحياتهم في اليمن قبل هجرتهم المكثّفة إلى إسرائيل في أوائل الخمسينيّات (نيني ١٩٩٦، ١٩٨٢). كذلك نجد مثالاً معبراً آخر في كتابات إستير مئير التي درست الجالية اليهوديّة العراقية في "الوطن القديم" وأثناء المراحل الأولى من استيعابهم في إسرائيل في أوائل الخمسينيّات (مئير ٢٠٠١أ، ١٩٩٣).[٣٦] كذلك وضع يارون تسور دراسة حديثة عن الجالية اليهوديّة المغربية ونشرها تحت عنوان "جالية ممزّقة: يهود المغرب والقوميّة ١٩٣٦–١٩٥٤". كتب تسور، كغيره من الباحثين، عن هجرة يهود المغرب وعذاب استيعابهم (تسور ٢٠٠١، ١٩٩٧).

إضافة إلى ذلك، ثمّة عدد متزايد من الأعمال الأدبيّة والشعرية التي تملأ رفوف الكتب الإسرائيليّة حول حياة اليهود في المغرب والعراق وبلاد إسلامية أخرى، من ناحية، واستحضار ذكريات من السنين المبكّرة لهم في إسرائيل، من الناحية الأخرى. على سبيل المثال، ثمّة روايتان من تأليف إيلي عمير: "وداعًا يا بغداد" التي تصف حياة اليهود في العراق؛ وَ"كبش الفداء"، السيرة الذاتية لسنين عمير المبكّرة في إسرائيل (عمير ١٩٩٢؛ ١٩٨٣).[٣٧] هذا الحصاد الأدبيّ يضرب أحسن مثل على ملاحظات نورا على أنّ "ما يسمّى بالذاكرة قد يصبح نوعًا من التاريخ المضادّ الذي يتحدّى

التعميمات الزائفة في 'التاريخ' الاقصائي" (Klein 2000, 137).[38] تصبح الذاكرة أداة لتحرير "الآخر الداخلي" من الإقصاء القامع الكائن في "النمط الشمولي للتاريخانية" (the totalizing variety of historicism) ولإعادة تعريف حدود هُويّة الفرد المستعادة، وبهذا فانها تدفع بها، بشكل مفارق، إلى مركز خشبة المسرح الإسرائيليّ متعدّد الثقافات (Klein 2000, 138).[39]

ويلاحَظ وجود شكل خاصّ للظاهرة ذاتها بين المثقفين والنشطاء السياسيّين الذين يحاولون الحفاظ على التراث الأوروبي ودمجه في التأكيد الشرقي الجديد على الذات. وقد تّم التوصل إلى حل لهذه الثنائية وذلك من خلال الترويج لـ"هُويّة" جديدة بالإمكان تسميتها "المتوسطيّة" (Mediterraneanism). كتب ديفيد أوحانا، أحد المروّجين لهذه "الهُويّة": "يُطرح بديل المتوسطيّة كحالة ثقافيّة تمكّن إسرائيل من عدم تغريب ذاتها عن الفضاء الذي تعيش داخله، وتمكّنها، في ذات الوقت، من عدم الانفصال عن الغرب" (أوحانا ١٩٩٨، ٢٧٦).[40] ليس في وسع المرء إلا أن يشعر بنوع من الهروب في هذا التوجّه. يعترف أوحانا بأنهم يطمحون إلى "نشر إطار ثقافيّ أوسع بحيث لا نبقى وحدنا مع جيراننا المباشرين، العرب والفلسطينيّين، وسنجد أنفسنا فيه شركاء معهم في إطار مشترك أوسع" (أوحانا ١٩٩٨).[41] وبالإمكان ملاحظة هذا الشّوق الجديد في الموسيقى الشعبية، بحيث نلمس جهدًا واضحًا، في العقدين الماضيّين، لمنح "الموسيقى الشرقية" الشرعية كشكل محترم من الفن، ومع هذا فان الشعبية الحقيقية هي للموسيقى اليونانية. ويبدو حقيقةً أن الإسرائيليّين قد يشعرون وكأنهم في بيتهم، كما عبرّ عن ذلك عاموس عوز، في بيريوس، وفي نابولي، أو في برشلونة، أكثر ممّا في دمشق وبغداد.[42] من شأن هذه المساعي ان تكون بمثابة دليل دامغ لمقولة ريتشارد هاندلير، الذي كتب: "تبنى الحضارات، وتُهدم، ويعاد بناؤها من جرّاء سعي البشر وراء هُويّاتهم" (Handler 1994, 27).

تتجلّى إحدى السمات الملازمة لظاهرة التأكيد على الذات، مؤخرًا، في نزعة شائعة تتلخص في تهشيم الرموز والثوابت المختلفة المهيمنة (iconoclasm) على يد ذات الأشخاص الذين يروّجون للهُويّة اليهودية الشرقية (مزراحي). ويقوم في صلب عملهم هذا ادّعاء مُفاده أنه أثناء عملية ذوبانهم، كخطوة نحو بناء "أمة جديدة"، قامت النخبة 'البيضاء' المهيمنة بفرض "ذاكرة جماعية صهيونيّة" على المهاجرين الجدد والتي سلّطت أضواءها على ذاكرات ذات صلة بأرض إسرائيل (وبخاصة الذاكرات التوراتية) وعلى الرواية الصهيونية للصراع على البلاد خلال القرن الأخير (والتي كانت في الحقيقة رواية النخبة

الصهيونية القديمة). فرضت هذه الرواية، بالدرجة الأولى، من خلال المدارس الحكومية وفي وسائل الإعلام، حطّت من منزلة وقيمة الوجود اليهوديّ في المهجر وحتّى أنّها شوّهت صورته، وقمعت الذاكرات المميّزة لكل فئة أو مجموعة يهودية تمّ استيعابها في إسرائيل. لقد فرضت على كلٍ منهم عملية "سحق جماعي لذاكرة" (collective amnesia) ماضيهم الخاصّ. وعليه، ولانجاز مهمة إعادة اكتشافهم لثقافتهم الفريدة واستعادة ذاكرتهم الجماعية، تحاول النخَب الجديدة الحطّ من منزلة الرواية الصهيونيّة القديمة وذلك عن طريق فضح جميع مصائدها وخطاياها وإعادة تشكيل تاريخ اليهود في فلسطين وإسرائيل من خلال الاستعانة بطيف ألوان أقلّ مداهنة.

تعديل الرواية حول الصراع العربيّ الإسرائيليّ

من العسير في نطاق هذا المقال الاستمرار في تحقيق أكثر تفصيلاً لجميع هذه الأبعاد المهمّة حول البحث الجديد عن الهُويّة والمدى الشامل لحركة التعديل الفكرية. يتوجّب علينا الآن المضيّ قدُمًا للتعريف بأهميّة عمليّة التعديل العينيّة التي تركّز على سياسات إسرائيل الخارجيّة والأمنيّة في الأعوام المبكّرة الأولى وبالمحاولات لإعادة تشكيل الروايات حول النزاع العربيّ- الإسرائيليّ بصورة عامّة. بينما تتوافق مدرسة التعديل هذه مع نقد القطاعات الفئوية، السابق ذكرها، والتي تعيد تشكيل الذاكرة الجماعية، وتغذّي النزعة الرائجة لتفكيك الرواية الصهيونيّة القديمة والمهيمنة، فانّ دافعياتهم متباينة، ذلك أنّهم جاءوا، في أكثر الأحوال، من قلب النخبة المهيمنة، وجلّ جهودهم غير مصوّبة نحو محاولة لتشكيل ذاكرة فئوية جديدة، وإنّما تهدف إلى تصويب ذاكرة الجمع الإسرائيليّ بأكمله كوحدة واحدة.

من شأن تآكل وقلّة هيبة واحترام النخب القديمة، الناتجين عن التوجّه الجديد في التأكيد على الذات إثنيًا، كما وصفنا سابقًا، أن يكونا مصدر إلهام لأولئك المؤرّخين الشبّان الذين تعاملوا مع قضايا الحرب والسلام، رغم أنّهم بدورهم، ربمّا، قد شاركوا في ظاهرة تهشيم الرموز والثوابت ذاتها وساهموا فيها. كلاهما يشكّلان انعكاسات للروح النقديّة الجديدة، كونها روحًا نقدية تحمل مُثلاً عليا، نمت في إسرائيل خلال العقدين الأخيرين. إنّ الجدل حول الـ"تاريخ الجديد"، بمفهومه الضيّق، يتقاطع مع جميع التصدّعات الاجتماعيّة الأخرى، حيث يتوجّب فهمه باعتباره وثبة جيليّة. كذلك ثمّة بُعد سياسي وأيديولوجي واضح لهذا الجدل، إذ يتقاطع هذا البعد، أيضًا، مع

تصدّعات أخرى. يخترق هذا الجدل المجتمع بأسره، ويبقي الطرفان الرئيسيّان المتنافسان في هذا النزاع – اليهود والعرب – متباعدين.

قبل أن ننتقل إلى نقاش دقيق حول هذا الجدل، يبدو من الجدير الاشارة إلى أنه بالرغم من احتدام الجدل وحدّته الواضحة في الصحافة ووسائل الإعلام الإسرائيليّة، إلاّ أنّ الخطاب بمجمله محصور داخل فئات ضيقة من الجمهور. إنه جدل يهم بالدرجة الأولى شرائح مثقفة من المجتمع، بينما يترك قطاعات مهمة اخرى من المجتمع خارجه. من الواضح أن هذه القطاعات تشمل قرابة مليون مهاجر جديد من الاتحاد السوفييتي السابق، وكثيرون منهم لا يقرأون باللغة العبرية؛ ونصف مليون شخص ينتمون إلى الفئات الدينية الأورثوذكسية، الذين لا يقرأون الكثير من النصوص العلمانية؛ وثمّة أجزاء كثيرة من الفئات الاجتماعيّة والاقتصادية الواقعة في هوامش المجتمع هم بالطبع خارج نطاق هذا الجدل. بالرغم من ذلك، فإنه نقاش مهمّ؛ ذلك أن الإرساليات المتواجدة في المواقع المركزية، والتي تملك القدرة على التأثير على الرأي العام وعلى التصوّرات العامّة حول المستقبل، منخرطون بمهارة في معاهد التعليم الإسرائيليّة، إلى حدّ أنّهم ينجحون، حسب بعض التقديرات، في اختراقه بشكل مثير. بعض المؤشّرات المهمّة لذلك الاختراق يتلخص في ذلك الهجوم المضاد والمكثّف الذي شنّه يورام حازوني ومعهد "شليم" – وهو معقل للنشاطات الفكرية المحافظة – حول النجاحات التي حقّقها التاريخ الجديد، حسب ادعاءاتهم، في العديد من الكتب التدريسية التي نشرت في الآونة الأخيرة (حازوني وآخرون ٢٠٠٠). ينظر حازوني إلى هذا الجدل على أنه "صراع حول روح إسرائيل".[٤٣]

برغم ذلك، يتوجب القول في هذه المرحلة إنّه، خلافًا للجدل القائم حول القضايا الاثنية، والاجتماعية، والاقتصادية والدينية، والذي يؤثر على حياة العديد من الإسرائيليّين بصورة فورية وشخصية، ما يثير صراعات عميقة حول طبيعة المجتمع الإسرائيلي العامّة والعناصر المركّبة لثقافته السياسيّة مستقبلاً، فإن الجدل حول قضايا الأمن والسياسة الخارجية، رغم حضوره المستهجن في وسائل الإعلام، يُطرَح، بالدرجة الأولى، في نطاق دوائر أكاديمية وفكرية محدودة. إنّ هذه الدوائر، وإن كانت تعكس بعض الخطوط السياسيّة والأيديولوجية وتتطابق معها، إلا أنها لا تمثّل مجموعة أو شريحة اجتماعيّة معينة.

القضايا الرئيسة المعدّلة

تقتصر التعديلات الأكاديمية، غالبًا، على الفترة التي فتحت فيها معظم وثائقها وأُزيلت عنها أوجه السرية وأصبحت في متناول يد الباحثين. وعليه، فانهم يعالجون، بالدرجة الأولى، الأعوام المبكّرة لدولة إسرائيل (حتّى عام ١٩٥٦ – بما في ذلك حملة سيناء العسكريّة). كما أُنجِزت، في فترة متأخرة أكثر، بعض الأبحاث حول الستينيّات وحول "حرب الأيّام الستّة".[٤٤] على الرغم من ذلك، فانّ الهجوم الرئيس صُوّب باتجاه الرواية المرتبطة بحرب عام ١٩٤٨ وبنتائجها الفورية. وتحديدًا، ركّز هذا الهجوم جلّ طاقاته على ستّة محاور رئيسة هي بمثابة معتقدات تدخل في صميم الوعي الإسرائيلي العام إلى حدّ بعيد، ويعتبرها المؤرّخون الجدد معتقدات زائفة أو، كما يحبون تسميتها، غالبًا، أساطير زائفة:

١. أنّ العرب، الذين رفضوا قرار الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين وإقامة دولة يهوديّة إلى جانب دولة عربيّة، هم الذين بادروا إلى شنّ الحرب في عام ١٩٤٨. وعليه، فان الحرب كانت بمثابة محاولة يائسة من طرف اليهود للدفاع عن أنفسهم ضد الانقضاض العربيّ عليهم.

٢. أنّ القوات الإسرائيليّة كانت أقل تفوّقًا من حيث عدد الجنود والسلاح من المعتدين العرب. لقد كان هذا صراعًا بين "داود قليل العدد والماهر" وبين "جولياث المارد غير الناجع".

٣. أنّ البريطانيّين وقفوا إلى جانب العرب، مما زاد الأعباء الملقاة على كاهلي القوات اليهوديّة. إضافة إلى ذلك، فإن البريطانيّين لم يعتزموا أبدًا التنازل عن سيطرتهم على فلسطين، ولكنهم قرّروا حاليًا، وبعد أن نشبت الحرب، التخلي عن سيطرتهم هذه عن طريق أُجيريهم العرب.

٤. أنّ الحرب انتهت بانتصار مذهل تحقّق بفعل التفوّق اليهودي في الفضائل الأخلاقية والكفاءات القتالية. أرسل الإسرائيليّون للمعركة قوات في غاية الروعة تترأسها قيادة مميزة ومقاتلون متفوّقون في شجاعتهم وصمودهم وحكمتهم.

٥. أنّ المسؤولية الكاملة لخلق مشكلة اللاجئين الفلسطينيّين تقع على عاتق القيادة العربيّة، حيث نتجت عن فرار الفلسطينيّين، وذلك بالرغم من مناشدة السلطات الإسرائيليّة طالبة منهم البقاء في أماكنهم.

٦. أنّ الحرب انتهت، فقط، من خلال اتفاقيات هشّة لوقف إطلاق النار، وليس من خلال سلام شامل؛ حيث أن العرب امتنعوا عن تقبّل نتيجة الحرب، ورفضوا الاعتراف بالوجود الفعلي للدولة اليهوديّة بينهم.[٤٥]

ضروب من التعديل

يمكن تقسيم المعدّلين لتاريخ إسرائيل السياسي إلى ثلاث مجموعات، لكل منها دوافعها الخاصّة. تمثل المجموعة الأولى محاولة لإحياء نقاشات قديمة سادت أثناء وقوع الأحداث. هُزِمت تحليلات وتكهنات المشاركين في هذه النقاشات وتلاميذهم الأصغر سنًا ولم تُعرض قطّ السياسات البديلة التي دافعوا عنها لأيّ اختبار. حاول هؤلاء تبرير تلك السياسات البديلة، ولم يدّعوا، فقط، أنّها كانت قابلة للتنفيذ فحسب، بل وأنّها كانت المفضلة، حيث كان بالامكان تفادي تصعيد النزاع أو إنهاؤه بصورة سلمية في لحظة اندلاعه. يرى هذا التوجّه بالـ"طريق التي سُلكت" أنها كانت بمثابة سياسة خاطئة وجديرة بالرثاء، ويحاول أن يُقنع القارئ أن "الطريق التي لم تُسلك" كانت هي الأفضل لجميع الجهات المعنية. وهم يستندون إلى الحقيقة الجلية أنّ "الطريق التي لم تُسلك" ستبقى دومًا محافظة على نقائها الأصليّ، حيث لم تتمّ تجربتها أبدًا، بينما "الطريق التي سُلِكت" ملطخة بالدماء والأخطاء باهضة الثمن.

كان البطل الرئيسي لهذه المجموعة هو سمحا فلابان، الذي كان زعيم الفصيل اليساري في حزب "مبام" أثناء حرب ١٩٤٨. اعتقد فلابان في ذلك الحين أن إقامة دولة ثنائية القومية هو الحلّ المفضّل والقابل للتنفيذ. وبعد مرور أربعين عامًا، لام القيادة الصهيونية لعدم اتّباعها الطريق التي أوصى هو وزملاؤه باتّباعها، ولتحطيمها العنيف لكل تطلّعات لذلك الحلّ وإخراجها إلى حيّز التنفيذ (Flapan 1987). تتعامل مجموعة المؤرّخين هذه، بصورة رئيسة، مع المعتقدات الزائفة الأولى والخامسة المذكورة أعلاه في الوعي الإسرائيلي. انهم يعتقدون أنه كان بالامكان تفادي حرب عام ١٩٤٨ ولكنها أصبحت حتميّة، في الدرجة الأولى، نتيجة للموقف غير المهادن الذي تبنّاه بن غوريون وميوله لتصعيد العنف وتوسيعه الأمر الذي لم يكن ضروريًا لتحقيق المكاسب الإقليمية للقوات الإسرائيليّة قدر المستطاع.[٤٦]

حظيت هذه المجموعة بقليل من الاهتمام في إسرائيل، ولم تستقطب الكثير من ردود الفعل الغاضبة. يمكن تفسير ذلك على وجهين. من ناحية، فإن العداء العميق والمستديم والتفهّم الكبير لكراهية العرب للهدف الصهيوني، والذي شَرِعَ بتنفيذه قبل حرب عام ١٩٤٨ بزمن طويل،

يجعل هذا التوجّه غير مقبول بشكل مطلق لدى غالبية الإسرائيليّين. يمكن الافتراض أنّ الحرب واقتلاع الفلسطينيّين عن أراضيهم ساهما في تعزيز هذا العداء، ولكنهما لم يكونا السبب في خلقه. يصعب على الإسرائيليّين تصديق مقولة أنّ العرب كانوا على استعداد لقبول تأسيس دولة يهوديّة في وسطهم لو أن إسرائيل تبنّت استراتيجية أكثر استرضاءً. هناك العديد من المؤشرات تدلّ على أنه حتّى في ذلك الحين لم تقبل الأكثريّة العظمى من أعضاء حزب "مبام" بنظريات سمحا فلابان وأصدقائه، وذلك لأن تلك النظريات ناقضت بشكل كبير الواقع الذي عايشه الناس واختبروه. من ناحية أخرى، يمكننا الافتراض بأنّ الرفض لهذا التوجّه ينبع من كونه يتحدّى أحد جوانب الهُويّة الإسرائيليّة الأكثر عمقًا وأهميّة. إنّ المحاولات الفلسطينيّة العنيفة والمتكرّرة لعرقلة المشروع الصهيوني في الأعوام ١٩٢٠؛ وَ ١٩٢١؛ وَ ١٩٢٩ (وبخاصة في ثورتهم العظمى خلال الأعوام ١٩٣٦-١٩٣٩) أضحت ميزة مركزية في عملية التنشئة الاجتماعيّة للفتيان والشبّان الإسرائيليّين والمهاجرين الجدد على حدّ سواء. إن التجارب الشخصية لعديد من الإسرائيليّين أثناء حرب عام ١٩٤٨ عزّزت من قناعتهم بأنّه لا مناص من سرد الرواية الشّاملة على أنّ الحرب جاءت كردّ فعل دفاعيّ يهودي على رفض العرب التامّ للطموح اليهودي للاستقلال.

إن تصوير الذات كضحايا تتغذى، أيضًا، من الروح الحاملة للمُثل اليهوديّة التقليدية العليا التي تعتبر الأغيار (غير اليهود) أعداءً أبديّين يسعون دومًا إلى مطاردة اليهود، وإلى إبادتهم – إذا أمكن.[٤٧] إن تجربة المحرقة النازية، والتي حصلت قبل ذلك بخمسة أعوام فقط، تُحصّن الروح الحاملة للمُثل العليا تلك وتعزّز من قناعاتها بعدالة وأخلاقية أعمالها بين الإسرائيليّين.[٤٨] يحذّرنا إريك إريكسون أنه "ينبغي علينا أن نكون مستعدين لمواجهة حقيقة أن مثل هذه المقاومة قد تتّحد مع ردود فعل دفاعيّة ضد الأفكار اللّامعة، والتي تبدو وكأنها تحرمنا من اليقين الذي صنعناه بأنفسنا" (Erikson 1974, 102-103). وعليه، ليس مفاجئًا أن نكتشف أن مصير الطرح الذي يضع اللّوم الأكبر في هذا الصراع على الطرف الإسرائيلي سيكون الرفض، أو، في أحسن الأحوال، لن يؤخذ على محمل الجد.

لا بهذه البطولة، ولا بهذه الأعداد القليلة

تهتمّ المجموعة الثانية، بالدرجة الأولى، بدحض "المعتقدات الزائفة" الثانية والرابعة. يحاول أتباعها

إثبات أنّ الطرف اليهودي لم يكن متفوّقًا في التنظيم والدوافع فحسب، وإنما في عدد الرجال المحاربين والمعدّات التي أُدخلت إلى ساحة الحرب، كذلك. كما يدّعون أنه اليهود كانوا في أكثر مراحل الحرب أفضل تجهيزًا، بينما لم يكن العرب في حالة من سوء الاستعداد وعدم بلورة هدف موحّد وسوء التنظيم فحسب، وإنّما، إضافة إلى ذلك، لم يُحضروا قوات ملائمة لساحة الحرب.[٤٩] كما يذهب البعض منهم أبعد من ذلك ليدّعوا أن الجيش الإسرائيليّ لم يكن على هذا المستوى من البطولة، وأنّ ضبّاطه كانوا عمومًا غير محترفين، واجتاز عدد إخفاقاتهم وانهزاماتهم عدد نجاحاتهم وانتصاراتهم.[٥٠] يمكن وصف هذه المجموعة بأنها "تهشّم الرموز والثوابت بدافع رغبة تهشيمها فقط". يشرح كلٌّ من ويسترتش وأوحانا الدافع لمثل هذا التهشيم للرموز بأنه يقوم على فرضية تتلخص في أن "إسرائيل لم تعد بحاجة إلى أبطال أسطوريّين، وحتّى إلى أقلّ من ذلك، إلى شخصيات مثالية ومهلهلة يحتذى بها وتمتاز ببسالة أو شجاعة عسكريّة" (Wistrich and Ohana 1995, vii). من بين هؤلاء المهشّمين للرموز والثوابت من تتملكهم دوافع سياسيّة،[٥١] وكما يبدو فإنّ البعض الآخر يعتقد بأن الوقت قد حان لتعليم الجمهور كيفية عدم الإذعان للتبجيل غير النقدي للجيش الإسرائيلي ولقياداته، وكيفية زيادة الوعي حول ضرورة فرض تقييدات على استعمال القوة بصورة عامّة.[٥٢]

بالإمكان الإفتراض أن يكون هذا المَيل للنظر إلى النخبة العسكريّة الإسرائيليّة بنظرة أكثر نقديّةً وأقلّ تقديرًا قد تأثر بفشل القوات الإسرائيليّة في "حرب الاستنزاف" خلال الأعوام ١٩٦٨– ١٩٧٠ وفشلها الأكثر وطأة في هزيمة حرب ١٩٧٣، [٥٣] إن حركة الاحتجاج الكبيرة التي نجحت في شتاء عام ١٩٧٤ بإحضار عشرات الآلاف من الإسرائيليّين إلى الشوارع (غالبيّتهم جنود احتياط مسرّحون، يبغون، بالدرجة الأولى، عزل الجنرال موشي ديان – أحد الرموز الإسرائيليّة التي تتسم بالشجاعة والبسالة – من منصبه كوزير للدفاع) ساعدت على تآكل صورة جنرالات إسرائيليّين آخرين وصورة المؤسّسة العسكريّة بصورة عامة.[٥٤] يتحتّم علينا رؤية ذلك كثورة حقيقية في الوعي الذاتي والذاكرة الجماعية الإسرائيليّين التقليديّين، حيث كان الجيش الإسرائيلي البطل والمنتصر موضوع الحديث المركزي، دومًا.[٥٥]

تمثّل أحد الأبعاد المميّزة لهذا التوجّه في موجة تتألف من عمليات تفكيكيّة وإزالة الهالة الأسطورية عن ثلاثة رموز البطولة المركزيّين، والتي تقدّست وخلقت الحركة الصهيونية حولها طقوس: أسطورة مسادا؛ بسالة بار كوخبا؛ ومعركة تل–حاي، وأهم شهدائها يوسيف ترومبلدور. حدث أن انتحرت زمرة من المتعصبين اليهود، البقية الباقية ممن اعلنوا العصيان على الأمبراطورية

الرومانية في منطقة يهودا عام ٧٣ بعد الميلاد، بعد أن حوصروا في قلعة مسادا. فضّل هؤلاء الانتحار على الاستسلام لوحدات من الجيش الروماني. قامت الحركة الصهيونيّة في الثلاثينيّات بتقديس هذه الحادثة، وخير تعبير عن ذلك هو الشعار الذي ابتدعته والذي يقول: "مسادا لن تسقط ثانية أبدًا!". أدخل الصهيونيون العصيان الخائب والمفجع الذي قام به شمعون بار كوخبا في الأعوام ١٣٣–١٣٥ إلى قاموس الشعائر المقدّسة مثالاً أعلى للشجاعة الشخصية والعسكريّة في الصراع من أجل نيل الحرية. كذلك، أصبحت تل–حاي، وهي مستوطنة يهوديّة صغيرة في الجليل، أشبه بالمزار العلماني، وذلك بغية إحياء ذكرى الموت البطولي، والعقيم، لترومبلدور وعدد قليل من رفاقه الذين سقطوا خلال محاولتهم الناجحة للدفاع عن مستوطنتهم في ربيع عام ١٩٢٠. [٥٦]

تمّ خلال العقدين المنصرمين نشر عدد من الدراسات والمقالات الأكاديمية والخلافية والشعبية في إسرائيل في محاولة واعية لإزالة اللّمسة الأسطورية عن هذه الوقائع ولتحجيم معانيها. وعلى الرغم من المشروع المثير للإعجاب لحفريات قلعة مسادا وإعادة بنائها، بإشراف خبير الآثار يغآل يادين، رئيس الأركان الثاني لقوات الجيش الإسرائيلي في السنوات الأولى لقيام الدولة، وتعريف اليونسكو لمسادا كنزًا عالميًّا، خسر المكان الكثير من عبق سِحره كرمز قومي، وتعرّض الإفتتان بالموت عن طريق الانتحار وعبادته لهجومات عنيفة من كتاب عديدين (Kedar 1982).

تحوّلت شخصية ترومبلدور إلى موضوع شعبي للتعليقات الساخرة والتهكّمية للأعمال الكاريكاتورية والفكاهية طوال سنوات عديدة مضت. حوّل البحث الاكاديمي الحكمة والقيمة في الدفاع عن مستوطنة تل–حاي إلى مشكلة؛ وعلى الرّغم من أن الشعائر الصهيونيّة المقدّسة ما زالت مستمرّة، كما كانت عليه من قبل، فقد خسرت هي كذلك الكثير من بريقها السابق. [٥٧] شنّ يهوشفاط هاركابي – رئيس جهاز المخابرات العسكريّة الإسرائيليّة في الخمسينيّات، والذي أصبح بعد العام ١٩٦٧ من أكثر نشطاء السلام فعاليةً وبروزًا– هجومًا أيديولوجيًّا صريحًا على أسطورة "بار كوخبا". وبكل وضوح، فقد أعتبر هذه الأسطورة أنّها تدفع نفسية الإسرائيليّين باتّجاه معاكس للإدراك الواقعي، والذي يعتبر أحد العناصر القيمة والضرورية لتعزيز موقفهم في نزاعهم مع العرب. من وجهة نظره، كان بار كوخبا متهوّرًا ومغرورًا، استهلّ عصيانه بدون أي احتمال للانتصار، ونتيجة لذلك، فقد سبّب موت مئات الآلاف من اليهود ودمارًا كاملاً للمجتمع اليهودي الذي بقي على قيد الحياة بعد العصيان الأوّل عام ٧٠ بعد الميلاد (هاركابي ١٩٨٢).

ليس بهذه النزاهة

المجموعة الثالثة من المعدِّلين هم مؤرّخون أكاديميّون يكرّسون أبحاثهم لجوانب مُحدّدة ومختلفة من النزاع العربي الإسرائيلي. فقد عالج بيني موريس تكوّن مشكلة اللاجئين الفلسطينيّين والمعارك الحدودية في أوائل الخمسينيّات. وركّز آفي شلايم على العلاقات بين الملك عبدالله والصهيونيين. ودرس إيلان بابيه الدور الذي أدّته بريطانيا العظمى في حرب عام ١٩٤٨ (Morris 1993, 1987; Pappe 1992; Shlaim 1988).[٥٨] أصدر باحثون آخرون، في الآن ذاته، لا يعتبرون أنفسهم، بالضرورة، "مؤرّخين جددًا"، ولا يُدْرِجون أنفسهم في خانة نقّاد النقد، أعمالاً جديدة تعيد النظر من خلال البحث في هذه الجوانب وجوانب أخرى تعود إلى تلك الفترة. أبرز هؤلاء هو يوآب غلبير، والذي أصدر مؤلفًا مكوّنًا من جزءَين يتضمّن تاريخًا مُفصّلاً لنشاط وكالات المخابرات الإسرائيليّة أثناء حرب ١٩٤٨ (غلبير ٢٠٠٠)، ونشر مؤخّرًا روايته عن الطريقة التي تمّ فيها طرد اللاجئين الفلسطينيّين (Gelber 2001). وأصدر أبراهام سيلع بحثًا قدّم من خلاله رواية جديدة حول علاقات الحركة الصهيونيّة ودولة إسرائيل مع عبد الله ملك الأردن (سيلع ١٩٩٠). كما عالج ألون كاديش قضية الرملة واللّد (كاديش وآخرون ٢٠٠٠). وشرع بعض المؤرّخين الشبّان في تخصيص أعمالهم لدراسة التاريخ المحلّي (غورين ١٩٩٩؛ بن ارتسي ١٩٨٨، هجلعدي ٢٠٠٢؛ Ben Artzi 1996).

يحاول غالبية هؤلاء المؤرّخين إقصاء أنفسهم عن الرواية الإسرائيليّة المشبّعة بالأيديولوجيا التقليدية، ولا يتردّدون في الكشف عن حقائق ووقائع أقلّ إطراءً للإسرائيليّين. الأرضية الأساس التي تقوم عليها روايات هذه المدرسة هي الامتناع عن سرد الرواية بوصفها نزاعًا بين اليهود ذوي النزاهة والعرب الأشرار، بل بوصفها حالة مركّبة وجد فيها أفراد كلا الطرفين أنفسهم منهمكين في صراع دمويّ لم يكونوا قادرين على التخلّص منه. يرى العديد من الإسرائيليّين صعوبة في مواجهة روايات كهذه، لكن، إلى حدّ ما، امتنع أولئك المؤرّخون عن تأدية دور القضاة العظام، وركّزوا على فهم أفضل للطابع المعقّد لهذه المأساة وساهموا في فهمنا للماضي.

تفكيكيّة ثقافية

ظهر في السنوات الأخيرة نوع مميّز من النقد للكتابة التاريخيّة والسوسيولوجية. هذا النقد،

الذي استلهم عماده من نقد ثقافيّ ظهر حديثًا في الغرب، وهو ليس مُوجَّهًا صوب تعديل مجموعة من الروايات "المُحَرّفة"، بل صوب الروح الحاملة للمُثل الصهيونيّة العليا وإلى صلب الهُويّة الإسرائيليّة. يتمثّل طموحه الصريح في تصويب بعض من ميزات الثقافة الإسرائيليّة الأساس، والتي تبدو سلبية للمتبنين لهذا النوع النقدي الجديد. عرّف عدي أوفير جيدًا طموح هذا المشروع الفكري بوصفه محاولة "للمساءلة في الهُويّة اليهوديّة – الإسرائيليّة وفي الطريقة التي اكتُسبت بها هذه الهُويّة، حيث أنّها تدمّر قدرة الأيديولوجيا الصهيونيّة على الاستمرار في تشكيل ونشر هذه الهُويّة وتفكّك بذرتها الأخيرة مصدر فعّاليتها" (أوفير ٢٠٠١، ٢٧٠).[٥٩]

في حين أنّ اصحاب هذا النوع النقدي لا يقرّون صراحة أنّ دوافعم نمت من قلب الجدل الإسرائيلي الكبير المعاصر الذي يتمحور حول قضايا الحرب والسلام، قد يفترض المرء أن التوجّه الجديد هو بمثابة انعكاس لشعور عميق بخيبة الأمل ناتج عن فشل معسكر السلام الإسرائيلي على تجاوز مكانته الهامشية في المجتمع. يبدو أن هؤلاء يفترضون أنّ السبب لذلك الفشل لا يكمن في مستوى الجدل السياسي أو في المستوى الأيديولوجي، بل في صميم البنية الثقافيّة الإسرائيليّة – الصهيونيّة كما تطوّرت خلال القرن الأخير. يتوجّب علينا اعتبار هذا النوع من التعديل هجومًا شاملاً على الروح الحاملة للمُثل الصهيونيّة العليا وعلى الهُويّة الجامعة للإسرائيليّين.

نحن نشير هنا، في الدرجة الأولى، إلى ثلاثة باحثين نشروا كتبهم بتزامنٍ ما في عام ٢٠٠٢، في نهاية العام الثاني من الانتفاضة الثانية (انتفاضة القدس والأقصى) التي قُتل فيها نحو ٢٠٠٠ عربيّ وأكثر من ٦٠٠ يهودي، وجُرح فيها عشرات الآلاف. منذ اندلاع العنف في أكتوبر عام ٢٠٠٠، يتفاقم الجدل السياسي السّاخن في إسرائيل غضبًا بين "اليمين" و"اليسار". ففي حين يدّعي "اليمين" بوجوب عدم التعاطي مع أي نافذة سياسيّة أو دبلوماسيّة إلا بعد إخماد العنف الفلسطيني بالقوة، يصادق "اليسار" على أن قمع الإرهاب الفلسطيني يتطلب استعمال القوة، ويطالب، في المقابل، ببذل جهد سياسيّ يضمن ما يسمّى بـ"الأفق السياسي". يبدو، في لحظة كتابة هذه السطور، أن "اليمين" كسب أغلبية واضحة بين اليهود، فكثيرون منهم فقدوا الثقة بقدرة الفلسطينيّين أو استعدادهم للوصول إلى حالة من الوفاق الصادق، بينما يتحدّى البعض سياسة اليد الحديدية التي فرضها الجيش الإسرائيلي على الفلسطينيّين عدة أشهر. يبدو أن جميع المنتمين إلى هذا النوع النقدي الجديد الذين سنناقشهم في هذه الفقرة يؤمنون أنّ هذا الوضع يتغذّى من جذور ثقافيّة عميقة تمثّل ثمرة شرّ انبتها المشروع الصهيوني بيديه؛ ولذا يتوجّب تحدّي هذا الوضع وتصويبه.

نشر موطي غولاني – مؤرّخ وضعيّ من جامعة حيفا- كتابًا سجّل فيه تأمّلاته حملت عنوان: "الحروب لا تندلع من تلقاء ذاتها: آراء حول الذاكرة والقوّة والخَيار" (غولاني ٢٠٠٢).[٦٠] حول دافعه لكتابة هذا الكتاب، ورد في مقدّمته، التي كتبها صديقه ومرشده البروفيسور يعقوب راز، ما يلي: "يُنشر هذا الكتاب في وقت تتكلّم فيه القوّة دون أن تحتاج إلى أي تبرير. إنّها هناك، تفعل وتحيا وكأنّها كانت هناك منذ زمن التكوين، كأنّها واحدة من قوى الطبيعة، مدمِّرة ولكن يمكن تفهّمها. [...] القوّة شديدة، سريعة، غير لطيفة كثيرًا، إنّها تفعل فعلها بعنف، تقتل، تجرح، تُهين، وتُفسد. لا رأفة فيها ولا شفقة. لقد أفسَدت منذ وقت طويل الفسحة المخصّصة للرحمة" (غولاني ٢٠٠٢، ١١).

تقول الأطروحة الرئيسة لهذا الكتاب أنّ الحركة الصهيونيّة اختارت القوّة منذ أيامها الأولى كأفضل سبيل لتحقيق طموحاتها. حُوِّل هذا الخيار على مرّ السنين إلى روح شاملة حاملة للمُثل العليا أدّت إلى فساد الثقافة التي وجد الشبّان الإسرائيليّون أنفسهم يترعرعون عليها وينهلون منها. وينطبق هذا على العرب كذلك، وعليه: "إضافة إلى أنّ كلا طرفي النزاع يتفاعل مع ما يفعله أو يمتنع عن فعله الطرف الآخر، فهم ينشطون بفعل تصوّراتهم ومخاوفهم الخاصّة". أخذ غولاني على عاتقه، في كتابه هذا، مهمّة فضح هذا الفساد ومواجهته (غولاني ٢٠٠٢، ١٧).

يعترف غولاني، من دون أيّ تردّد، أنه لم يكن الباحث الأوّل الذي يعكف على دراسة دور القوّة والعنف والعدوان في مسيرة الصهيونيّة. فقد حلّلت أنيطا شفيرا التحوّل التدريجي من "روح المُثل الدفاعيّة العليا" للصهاينة الأوّلين إلى "روح المُثل الهجوميّة العليا" الساحقة. باعتقادها، نتج ذاك التحوّل كردّ فعل تجاه مقاومة الفلسطينيّين العنيفة المتزايدة (Shapira 1992). تنتهي الفترة المبحوثة في دراستها بحرب عام ١٩٤٨، ويقرّر غولاني، بعدها، أن يعاين هذا الطرح من خلال مواصلته الفترة الزمنية اللّاحقة. دار الخلاف الشديد بين دافيد بن غوريون ووزيره للشؤون الخارجية موشي شاريت – الذي تولّى، فيما بعد، رئاسة الوزراء خلال العامين ١٩٥٤/١٩٥٥ – حول قضية استعمال القوّة في محاربة تسلّل أشخاص عرب في النصف الأوّل من الخمسينيّات. توقف عند الخلاف جميع الباحثين الذين درسوا مسألة قضايا الأمن الإسرائيليّة في تلك الأيام بالبحث والتحقيق.[٦١] ووفقًا للكُتّاب الذين يدافعون عن موقف شاريت، فقد فُصِل شاريت في حزيران ١٩٥٦ من وظيفته لأنه اعترض على الطريقة التي استعمل فيها بن غوريون وجنرالاته القوّة المفرطة في تعاملهم في هذه القضية. نشر أوري بن إليعيزر – عالم اجتماع شاب – في عام

١٩٩٥، دراسته عن عسكرة الحركة الصهيونيّة. تقول أطروحته الرئيسة أنّ الاستعمال المتزايد للقوة العسكريّة في إدارة الصراع مع العرب أدّى إلى العسكرة التامّة للمجتمع الإسرائيليّ (بن العيزير ١٩٩٥).[٦٢]

يأخذ غولاني هذا التوجّه إلى أبعد من ذلك، حيث يرى أنّ "استعمال العنف كان جزءًا لا يتجزّأ من الخيار الصهيوني [...] أصبحت هذه الحقيقة واضحة منذ الثلاثينيّات. إنّ إقامة دولة إسرائيل جعل من استعمال العنف أكثر كثافة". باعتقاده، استخدمت الحركة الصهيونيّة، بدايةً، العنف بنوع من التردّد، بينما "تستعمله إسرائيل بكل تلذّذ" (غولاني ٢٠٠٢، ١٠٢). اعتمادًا على غولاني، فإنه على الرغم من أنّ استخدام القوّة منذ عام ١٩٤٨ لم يكن، بالضرورة، وظيفيًا ومنطقيًا، فقد أصبح ميزة أساسيّة تقوم في صلب الروح الحاملة للمُثل العليا وللهُويّة الجماعيّة الإسرائيليّة.

كذلك، قامت يونا هداري، من خلال كتابها "المسيح يركب دبّابة"، بمسح قدر كبير من التمثيلات التي تصطلح عليها اسم "فكر الحيّز العام" – والمقصود هو تلك النصوص التي كتبها باحثون وروائيّون وشعراء وصحفيّون وشخصيّات سياسيّة على امتداد عشرين عامًا (١٩٥٥–١٩٧٥) – واكتشفت هيمنة نمط واضح. طغى على المجتمع الإسرائيلي، في الفترة الواقعة بين الحروب الرئيسة (١٩٥٦؛ ١٩٦٧؛ ١٩٧٣)، شعور عام بالقلق الدائم أشار إلى فقدان اللّمسة المثالية في حياتهم، وإلى فقدان المحفّزات الإيجابية، وإلى تشاؤم عام؛ ولكن الحرب زودتهم بنشوة وابتهاج مسيحيين (خلاصيين) (messianic). ولكن ظهرت سيرورة طغت على جميع هذه المزاجات السلبية المتقلّبة، حيث احتلت الروح الحاملة للمُثل الإسرائيليّة والعسكرية العليا المكانة التي كانت تشغلها في السابق "اليوتوبيا الواقعيّة" الأوليّة، والتي حملها روّاد فترة ما قبل انشاء الدولة. وفقًا للروح الحاملة للمُثل العسكرية العليا فإنّ الصورة المعيارية تتجسّد في "جندي مسيحاني (مخلّص)" يمثل "يوتوبيا مسيحانية علمانية، ولكنّها شديدة التقوى". أضف إلى ذلك، كشفت هداري النقاب عن سيرورة دائمة تتمثّل في "شهونة الحرب" (erotization of war)، تطغى عبرها صورة "الجندي المحارب العاشق للأرض". تربط هذه "الرومانسيّة الذكوريّة المحاربة" بين مفهومي "الرجولة" و"القوميّة"، حيث تتحوّل "المثل الذكوريّة العليا إلى رمز لنهضة قوميّة" (هداري ٢٠٠٢، ٢٨، ٣١).[٦٣] لا تدّعي هداري أنها تضع نظرية واضحة المعالم، بيد أنّ أسلوبها بمجمله وطريقة تناولها للمصطلحات يحوّلان دراستها إلى نقد حادّ وكاسح للهُويّة الإسرائيليّة، حيث أصبحت الحرب موضوعًا مركزيًا للنفس الإسرائيليّة.

يأتي الهجوم الثالث على الثقافة الإسرائيليّة من طرف الباحثة المشهورة عيديت زرتال التي تصنّف نفسها "ما بعد حداثيّة". لفتت زرتال نظر الرأي العام بنقد مكنون للطريقة التي تعامل فيها الإسرائيليّون، عمومًا، والقيادة الصهيونيّة، تحديدًا، مع أهوال المحرقة النازية (زرتال ١٩٩٨).[٦٤] تستمر زرتال، في كتابها الجديد "الموت والأمّة"، بتحليل مواقف الإسرائيليّين من المحرقة النازية، ولكنها توسّع النقاش ليصبح بحثًا شاملاً حول الطريقة التي حوّلت الحركة الصهيونيّة – ودولة إسرائيل، لاحقًا – الموت وضحايا الصراع إلى ميزة مركزية لهويّتها الجماعية ووعيها الذاتي. يعالج الكتاب "الطريقة التي جُمّعت من خلالها سيرة حياة الأمّة الصهيونيّة–الإسرائيليّة، أثناء القرن العشرين، بما في ذلك مصائبها، حروبها وشهداءها، [كيف] احتضنتهم، تذكّرتهم ونسيتهم، وقصّت قصصهم على طريقتها، وعرّفتهم إلى أطفالها، وغرست فيهم معاني، وصاغت صورتها من خلالهم، وتصوّرت ذاتها بأنّها تجسّدهم" (زرتال ٢٠٠٢، ١٣).

إستنادًا إلى بينيدكت أنديرسون، تعترف زرتال أن استعمال المصطلح "ضحايا مقدّسة" رافق جميع الأمم في عمليّة "تخيّلهم لذواتهم" (Anderson 1991, 243)، ولكنّها تُشير إلى التجربة الإسرائيليّة الفريدة التي "منذ إقامة الدولة، والمحرقة النازية وأمواتها موجودون دومًا فيها [...]، في قوانينها وخطاباتها واحتفالاتها الطقوسية ومحاكمها وصحفها وشِعرها ونُصبها وكتبها التذكاريّة" (زرتال ٢٠٠٢، ١٦). قامت زرتال بمسح الطريقة المعقّدة التي اتّبعها الإسرائيليّون للربط بين المحرقة النازية وبين إقامة الدولة اليهوديّة وشرعنتها، وتُظهِر، أيضًا، كيف يستخدم خطاب المحرقة النازية كأساس منطقي مركزي ووحيد لتشكيل قوتها العسكريّة ولتبرير أعمالها: "فقد ولّدت هذه القوة العسكريّة أسطورةً قديمة–جديدة ذات مدى فسيح جمع بين الكارثة والخلاص، الوهن والقوة، أسطورةً انتُزِعت من التاريخ ومن أبعاده السياسيّة" (زرتال ٢٠٠٢، ٢٢٩).

أنّ غولاني وهداري وزرتال لم يختاروا مهاجمة واجهة واحدة محدّدة، أو فصل واحد، من الذاكرة الجماعية – كما فعل "المؤرّخون الجدد" الأصليون– وإنّما هاجموا الهُويّة الجماعيّة بمجملها. يبدو أنّ هذه الحقيقة تؤكّد أنّ تطلعاتهم نحو إحراز تغيير جدّي في التصوّرات الذاتية للجمهور الإسرائيلي متواضعة جدًا. قد تستحسن بعض الدوائر الصغيرة في يسار الطيف

الإسرائيلي شجاعة هؤلاء، ولكن من المستبعد أن يقوم أي قطاع جدّي من بين نخبة المثقفين بنفي تصوّرات تفاخروا بها فترة طويلة من الزمن. علينا أن نُقر أنّ هؤلاء الباحثين الثلاثة يكشفون جوانب معينة من الثقافة الإسرائيليّة يمكن رصدها من خلال الاستعانة بادوات بحثية قائمة، ولكن أسلوبهم الاختزالي يحوّل نقدهم إلى عملية نفي كلّي لبعض العناصر الأساسية للهُويّة الجماعيّة الإسرائيليّة المشتركة. وعليه، سيكون مشروعهم محكومًا عليه بالفشل.

علينا أن نوضّح أنّ غولاني وهداري، وعلى الرغم من نقدهما الصارخ، فإنّهما لا يتَحدّيان المشروع الصهيونيّ ذاته، وإنّما يعترضان، فقط، على بعض الخصائص الثقافيّة والأخلاقيّة التي ابتُليَ بها. من جهة أخرى، يبدو أن زرتال تعترض على جوهر التبرير الأخلاقي ذاته وعلى الحكمة من وراء المشروع الصهيوني بكامله. لقد ترك لديها نقد حنه أريندت لفكرة الصهيونيّة انطباعًا شديدًا جدًا، وعنى قسمًا كبيرًا من كتابها بفكر أريندت في هذه الأمور.[٦٥] لا يمكن للمرء أن يخفق في استنتاجه، حول طريقة زرتال في الاقتباس من نقد أريندت وصياغته، أنها، أي أريندت، مستعدّة للتشكيك في الركائز الرئيسة للصهيونيّة. قامت زرتال بتلخيص آراء أريندت على النحو التالي: "منذ البدء كانت الصهيونيّة بجوهرها معادية للسياسة، فقد كانت أوتوبية واهمة بطبيعتها ولم تر الظروف التي عملت فيها، ولا التوازن القائم في العوامل التاريخية والتنوّع القائم في الهُويّات السياسيّة وفي المصالح، كان عليها أن تأخذ هذه الأمور بعين الاعتبار وتنافس عليها" (زرتال ٢٠٠٢، ٢٢٧–٢٢٨).

التاريخ الجديد وما بعد الصهيونيّة

سرعان ما أصبح الجدل حول "التاريخ الجديد" متشابكًا مع جدل ساخن آخر بين الذين يمكن الاصطلاح عليهم اسم "صهاينة مخلصين" ومجموعة أخرى تتألف من كتّاب يُطلَق عليهم – في المعتاد – اسم "ما بعد صهيونيّين". بقي تعبير "ما بعد الصهيونية" غامضًا إلى حدّ ما، ويخفى في باطنه تشكيلة كبيرة من المفاهيم والتصوّرات الأيديولوجيّة.[٦٦] جوهريًا، يشير المصطلح إلى أنّ "الصهيونيّة هي ظاهرة قد تجاوزت غايتها، وعليه، فقد حان الوقت لتكوين مجموعة من الأفكار والسياسات الجديدة ينبغي اتّباعها اليوم وغدًا" (بار أون ١٩٩٦، ٤٧٥).[٦٧] ادّعى أحد الصحفيّين أنّ "مفهوم ما بعد الصهيونيّة لا يشير، بالضرورة، إلى خيانة أو هرطقة. يمكن اعتباره، أيضًا،

نظرة جديدة وأكثر نضوجًا للواقع".[٦٨] يبدو هذا وكأنّه محاولة لتلطيف تعريف أكثر عدائية لما بعد الصهيونيّة "كمشروع ثقافي [...] يهدف إلى خلق صراع أيديولوجي وسياسي بغية تغيير الهُويّة الجماعيّة الإسرائيليّة، وإقامة كيان قانوني يقوم على خطاب أممي وديموقراطي خالٍ من أي مكانة خاصّة للتقاليد القوميّة لأي مجموعة عرقيّة خاصّة".[٦٩] شرح إريك كوهين التوجّه الجديد بادّعاء "عدم قدرة الأيديولوجيا [الصهيونيّة] المأسسة عرض حلول إبداعيّة للمشاكل القائمة، التي نتجت عن الاحتلال الإسرائيلي للمناطق، [مما سبّب] هبوطًا في صلة ما بعد الصهيونيّة ببلورة الرأي العام الإسرائيلي". وهو يعتقد أن "ورطة ما بعد الصهيونيّة تكمن في كونها نوعًا من الاغتراب" (Cohen 1995, 210-211).[٧٠]

كلّما احتدّ الجدل تطوّرت صياغتان مختلفتان إلى حدود التناقض. من ناحية أولى، هناك أناس يتعاطفون مع الماضي الصهيوني – وإن كان تعاطفهم نقديًا– ويقبلون باستحسان من الناحية المبدئيّة الواقع الجديد الذي ولّدته العمليّة الصهيونيّة، وخاصّة إقامة إسرائيل كـ"دولة يهوديّة". بيد أنّهم يؤمنون أنّ الظروف المتغيّرة تتطلّب إعادة توجيه جذريّة للطرق التي سُلكت من قبل. من ناحية أخرى، هناك كتّاب يؤمنون أن الصهيونيّة قامت منذ بداية نشأتها على أيديولوجية هي بمثابة خطيئة، وبأنّ نشاطها الفعلي كان، في أكثر الأحوال، يقوم على عدم إنصاف كثير من "الآخرين": العرب؛ اليهود الشرقيّين؛ النساء؛ والمهاجرين الجدد، عمومًا. تقليدًا لبعض نظريات ما بعد الاستعمار، التي سادت في دوائر أكاديمية غربية، قام بعض هؤلاء النقّاد للصهيونيّة بوصفها أنها مجرّد نموذج آخر للاستعمار الغربي، وسلّطوا الأضواء على خصائص الاستبداد والإقصاء القائمة في المشروع الصهيوني المتنامي في فلسطين.[٧١] يتقبل أفراد هذه المجموعة إسرائيل كحقيقة قائمة من المتعذّر إلغاؤها؛ لكن بما أنّهم يميلون إلى التفكير بأنّ هذه الدولة، بالنسبة للعرب، ولدت في الحرام، فإنه يتحتّم على هذه الدولة، على أقل تقدير، وقف الشرور التي تُرتكب ضد الشعب الفلسطيني، والانسحاب من جميع المناطق التي احتلّت عام ١٩٦٧، وتسهيل مهمّة إنشاء دولة فلسطينيّة إلى جانب إسرائيل، ووقف جميع أشكال التمييز ضد المواطنين العرب في إسرائيل، والأهمّ من ذلك كلّه: إلغاء جميع السمات اليهوديّة للدولة وإعادة تأسيسها كـ"دولة جميع مواطنيها".[٧٢]

بينما تركز الصيغة الأولى على قضايا سياسيّة مستقبليّة، تذهب الصيغة الثانية إلى أبعد من ذلك وتتحدّى المفهوم الأساس والذي يتلخص في حقّ اليهود في إقامة دولة خاصّة بهم، والذي يبقى

قاسمًا مشتركًا للأكثريّة الساحقة لمواطني الدولة اليهود، حتّى وسط تعدّد الهُويّات كما وصفنا ذلك أعلاه. هذا يفسّر، أيضًا، سبب استياء العديد من الإسرائيليّين العميق من مختلف تجليات ما بعد الصهيونيّة. كذلك تفسّر السبب في تسمية كل محاولة لتعديل الرواية الصهيونيّة المشتركة باسم "ما بعد صهيونية" تغلفها نبرة سلبية قوية. في الحقيقة، ليس هناك صلة حميمة بين التاريخ الجديد وما بعد الصهيونيّة، ولكن العديد لا يميزون بين الاثنين، حيث أنّه، من وجهة نظر فهم الجمهور العام، كلّ هجوم على الرواية الصهيونيّة هو هجوم مدفوع من معاداة للصهيونيّة. وفعلاً، يشير ردّ الفعل الغاضب على أنّ العديد من الصهيونيين ما زالوا يشعرون أنّهم مهدّدون.[٧٣]

نهاية الأيديولوجيا؟

من غير ريب، هناك على الأقل جانب واحد تتشارك فيه الصيغتان المختلفتان لما بعد الصهيونيّة، وكذلك المؤرّخون الجدد، بعقيدة بارزة، وهو: الحاجة المتناقصة إلى الأيديولوجيا الصهيونيّة، أو حتّى الدور السلبي الذي يمكن أن تؤدّيه في المستقبل. القوة الدافعة للفكرة الصهيونيّة في تشكيل الواقع في فلسطين، على مدى الأعوام المئة الأخيرة، هي بُعد معروف تمام المعرفة في هذه الرواية. كلّ طفل إسرائيليّ يُعرض أمامه، في سنّ مبكرة، شعار هرتسل الشهير: "إن أردتم فإنّها ليست أسطورة".[٧٤] يتضمن هذا القول المأثور أنّ الحلم الصهيوني هو في الحقيقة قصة خيالية، ولكن قوّة الإرادة، قوّة الفكرة، تستطيع تحويله – وقد حوّلته حقًّا – إلى واقع. وبالفعل، بقي هذا القول إرثًا ذهنيًا مُهمًا وصبغة رئيسة للطريقة التي رأى الإسرائيليّون أنفسهم فيها مقابل الواقع الذي عليهم مواجهته. ويعتقد الإسرائيليّون، حتى الآن، أن الصهيونيّة قادرة على المضي قُدُمًا – ويتحتّم عليها ذلك. وضع "المجلس الصهيوني الإسرائيلي" حديثًا لافتة في شوارع البلاد وطرقها كُتب عليها "سنبقى نحلم الحلم الكبير!"

ومع هذا، هناك العديدون في اليسار الإسرائيلي ممّن يعتقدون أن هناك حدودًا لما يستطيع الحلم الصهيوني أن يحققه. الفكرة التي مفادها أن الصهيونيّة، في نواحٍ عديدة، قد حقّقت أقصى غاياتها بدأت تخترق قطاعات متزايدة من الرأي العام.[٧٥] الاعتقاد أن الصهيونيّة، على الأقل في بُعدها الإقليمي، قد تُضطرّ إلى التراجع عن بعض هذه الإنجازات أصبح أمرًا مقبولاً اليوم لدى أكثريّة الإسرائيليّين، وذلك وفق استطلاعات الرأي العام المتكررة. بالإضافة إلى ذلك، إنّ إسرائيل قد بلغت، حسب هذا التوجّه، درجة عالية من الاستتباب والرفاهية والاستقرار. هذا

يجعل الأيديولوجيا الصهيونيّة أمرًا زائدًا لا حاجة إليه، وعليه، ينبغي استبدالها بقيَم حديثة غربيّة وإنسانيّة.

هذا التوجّه غير مقبول على اليمين الإسرائيلي، بالطبع؛ وبخاصّة لدى أولئك الذين ما زالوا يحلمون بـِ "إسرائيل الكبرى" ويدعمون الاستيطان في جميع المناطق المحتلة. بحسب مدرسة التفكير هذه – اليمين الإسرائيلي – فإن الصهيونيّة لم تحقّق رسالتها بعد، ويتحتّم عليها الاستمرار في مساعيها قدمًا؛ وعليه، يجب الدفع بالأيديولوجيا الصهيونيّة لتكون القوة الرئيسة المحرّكة لسياسات إسرائيل. تعهد الدعاوة (propaganda) اليمينيّة إلى التلميح إلى أن اليسار قد خان الفكرة الصهيونيّة وتخلّى عنها. يميل المستوطنون وأنصارهم في المؤسّسة السياسيّة إلى استعمال المفردة "صهيونيّة" نفسها ليبرّروا سياساتهم التوسعية. يحاول المستوطنون، غالبًا، في أعقاب عمليات قتل يهود في المناطق المحتلة، إقامة مستوطنة جديدة في أماكن تلك العمليات ويسمّون ذلك "ردًّا صهيونيًّا مناسبًا". يماثل ذلك، من حيث التلاعب في استغلال نماذج نمطية شديدة الرسوخ في أذهان الجمهور الإسرائيلي، استعمالُ التعبيرين "المعسكر القومي" وَ "الفعل القومي" بغية التعريف بجميع مجموعات الجناح اليميني التي تلتزم بالسياسات التوسعيّة وإقصاء الآخرين كافّة.

يبدو أن استقطاب اليمين هذا للصهيونيّة قد حفّز العديد من المثقفين اليساريّين على الادّعاء أن الصهيونيّة ظاهرة قد أنجزت مهامها، وأنّها تخدم، حاليًا، قوات محافظة ورجعية فقط. من بين العديد من التصدعات التي تمزّق المجتمع الإسرائيلي، يبدو اليوم أن هذا وَاحد من أكثرها مرارة. التصدّع بين اليمين واليسار هو، أولاً، بمثابة أزمة هُويّة: هل تُجسِّد إسرائيل اليوم الصهيونيّة في زحفها باتّجاه انجازات أكبر، أم أنّها ثمرة المشروع الصهيوني الناضجة، والذي ليس من المفروض أن يستمر في زحفه، بل عليه أن يفضل ترسيخ إنجازاته وملائمتها للكينونيّات الجديدة؟

يُعبرّ "المؤرّخون الجدد" عن الرغبة في تخليص أعمالهم من تجاوزات الأيديولوجيا الصهيونيّة من خلال انتقادهم الحادّ للتحيُّز الأيديولوجي الذي افسد –باعتقادهم – كتابات "المؤرّخين القدامى"، ومن خلال اجتثاث متحذلق لأيّ أثر للتحيّز الأيديولوجي في كتاباتهم. وعليه، يتمّ، على سبيل المثال، تجنُّب أيّ تعبير "مشحون": "مهاجرون" لا "عوليم"؛ "حرب ١٩٤٨" لا "حرب الاستقلال"، "فلسطين" لا "أرض إسرائيل". أصبحت هذه الاصطلاحات الجديدة بمثابة نوع من المعجم الاصطلاحي لاستكشاف "مؤرّخ جديد". ولكن هذه 'الاصطلاحات المشحونة' القديمة

أصبح، على مدى عدة عقود، كبسولات هُويّة تُستعمل كمهدئات تساعد على قلب صفحات الذاكرة الجماعية الإسرائيليّة. يتمّ التصديق على "معجم الذاكرات الاصطلاحي" (lieux de memoire)، كما يطلعنا بيير نورا. إن محاولات بعض من المؤرّخين الشبّان سحب الشرعية من هذه الاصطلاحات (القديمة) تثير معارضة شديدة يمكن تفهّمها. ولكن، إذا لم يبالَغ في هذا الاجتثاث، فإنه قد يساعد المؤرّخين في كتابة تاريخ بصورة أفضل، شريطة ألّا يحاول المؤرّخ أن يكون ليّنًا إلى حدّ يصبح فيه من أنصار الطرف الآخر ويتحوّل إلى عقائدي بغاياته. ولهذا، على سبيل المثال، يبدو أن تحيّزًا شديدًا إلى جانب عبدالله وضد بن غوريون قد أفسد بحثًا كان يمكن أن يكون ممتازًا ومختلفًا لآفي شلايم؛ وكذلك إنّ الدافع الملحّ لبيني موريس إلى اكتشاف كل قضية يكتنفها سلوك وحشي وغير إنساني اقترفه الجنود الإسرائيليّون ليس بامكانه أنّ يطوّر عمله المقنع والمختلف. يخلّص إيلان بابيه نفسه من هذه الإشكالية باتّباع أطر بحثية ما بعد حداثية. هو يعترف – دون تردّد – بأنّه يتبنى الرواية الفلسطينيّة لأسباب سياسية، حيث، بإعتقاده، لا أفضليّة لرواية معيّنة على سائر الروايات الأخرى. هذا تصريح صريح حقًّا، ولكنه غير قادر على إنتاج تاريخ يتحلّى بقدرة على الاقناع.[٧٦]

صُوَر للـ"آخر" المهمّ

من الجوانب المهمّة في عمل العديد من المؤرّخين الإسرائيليّين الشبّان، جانب له وقع شديد على قضايا الهُويّة، يتمثّل في محاولة بعضهم –مؤخرًا– دراسة دور الفلسطينيّين في الصراع. لعب العرب، بعامّة، والفلسطينيّون العرب، بخاصّة، دومًا دور "الآخر" المهمّ في المجتمع الإسرائيلي، وخاصّة لأن العديد من الإسرائيليّين الذين جاءوا من دول عربيّة يماثلون أبناء المجتمعات الأصلية في بعض الميزات الثقافيّة، وأملوا في وضع خطوط فاصلة وحادّة بينهم بغية تشكيل ملامح واضحة لذاتهم اليهوديّة القوميّة و/أو الدينيّة ليتسنّى التميّز عنهم. ساهمت عداوة الفلسطينيّين العرب المستمرة، والعنيفة، أحيانًا، ضد اليهود في وضع هذه الحدود الفاصلة من خلال المحافظة على تصوير "الآخر" على أنه عدائي وشرّير ومتوحّش وغير متمدّن.

حافظ الكثيرون من يهود فلسطين، حتّى حلول عام ١٩٤٨، على علاقات قوية وودّية، غالبًا، مع العرب، وكثيرًا ما حاولوا تبرئة "بسطاء الناس" الفلسطينيّين من إثم العنف والكراهية. وضع

التعليل الشائع المسؤوليّة أو الملامة على "الأفندي" العربي -أي على أصحاب الأراضي الأثرياء الذين استغلّوا عامّة الشعب الفلسطينيّ وحرّضوهم ضد اليهود لكي يلهوهم عن مأزقهم الخاص – أو على الحكومة البريطانية التي تبنّت، وفق هذا الرأي، سياسة "فرّق تسُد". ولكن الحرب الدموية والعنيفة التي دارت عام ١٩٤٨ نسفت غالبية هذه التعليلات. لم يعد من الممكن الاستمرار في الحفاظ على صورة الفلاح الفلسطينيّ الساذج والطيّب النيّة بعد ذلك.

الحقيقة المتمثّلة في أنه بين العامين ١٩٤٨ وَ ١٩٦٧ كان لليهود اتّصالات محدودة مع قلّة من الفلسطينيّين الذين بقوا في البلاد وأصبحوا مواطني إسرائيل، وحقيقة غياب كل العلاقات مع العرب عبر خطوط وقف إطلاق النار، وكذلك الهجرة المكثفة من الدول العربيّة، يسّرت تكوين صورة جديدة للعربي على أنه عدوّ متعنّت وقاسٍ وبدائي.[٧٧] كان التضامن القومي الإسرائيلي – الظاهرة التي أسماها إريك إريكسون "الإخلاص الانتسابي" – خلال تلك الفترة، في ذروته في صفوف الإسرائيليّين الذين طوّروا، كذلك، "شغف في إقصاء الآخرين؛ وهو ما يعني الرغبة العارمة في إدراك ضد ماذا وضد من سيصمد المرء أو سينهزم سوية أمامه". كذلك الأمر مع القادة الإسرائيليّين الذين، على حدّ تعبير إريكسون: "وجدوا أنّه من الضروري تزويد الفتيان وتلك المراهقة الخالدة في البالغين ببعض الأعداء المعرّفين بشكل مبالغ فيه، كي يحافظوا، بالمقابل، على شعور بالهُويّة" (Erikson 1974, 95-96).

أصبح الإسرائيليّون مرة أخرى، في أعقاب حرب عام ١٩٦٧، على اتّصال مباشر مع الفلسطينيّين المقيمين في المناطق المحتلة. كما وأتاح إلغاء الحكم العسكري عن العرب الإسرائيليّين في عام ١٩٦٦، اتّصالاً أوثق بين اليهود والعرب داخل المجتمع الإسرائيلي. إضافة إلى ذلك، فقد شهدت الثمانينيّات وأواخر السبعينيّات انخراط عدد متزايد من اليهود الإسرائيليّين في حركات السلام وشاركوا في حوارات مع الفلسطينيّين، بما في ذلك حوارات مع قيادات في منظمة التحرير الفلسطينيّة. كذلك، تعدّدت مشاريع التعايش السلمي التي قامت على تنظيمها مجموعات سلام مختلفة.[٧٨] غطّت وسائل الإعلام العديد من هذه الاتّصالات الجديدة بتوسُّع، ورغم أنّ الصورة السلبيّة لـ"العدو العربي" استمرّت في شيوعها وتنامت – إلى حدّ أبعد – بفعل العنف الفلسطيني المستمر. وقد يلاحَظ تغيرٌ بطيء في الافكار النمطية السلبية في الأوساط التي جاء منها غالبية المؤرّخين الشبّان.[٧٩] فقد نُشرت العديد من المقالات التي تقوم على وصف الفلسطينيّين بتعابير

إنسانية وتحمل أوصاف لضائقتهم، وتثير اهتمام القارئ بالعبريّة، في الصحافة بصورة منتظمة؛[٨٠] ويتمّ دعوة المتحدّثين باسم الفلسطينيّين بانتظام للمشاركة في النقاش حول الشؤون العامّة والظهور في وسائل الإعلام. كذلك اشتمل عدد من الأفلام الوثائقية والميّزة على شخصيات فلسطينيّة "إيجابيّة"، ونُقلت إلى اللغة العبريّة نتاجات لكتّاب فلسطينيّين (روايات ومذكّرات قيادات سياسيّة على حدّ سواء) حظيت بعدد كبير من القرّاء.[٨١]

كان لهذه التغيّرات تأثير على المؤرّخين الشبّان الذي شعروا بأنهم ملزمون إلى النظر مجدّدًا في دور العرب في الصراع في الوقت الحالي وفي الماضي. إضافة إلى ترجمة أعمال مؤرّخين عرب، فقد شرع بعض الباحثين الإسرائيليّين بنشر أوصاف أكثر اتّزانًا وتحليلات لما جرى على "الجهة الأخرى من التلة".[٨٢]

بخلاف الصحافة الشعبية، بدأ المؤرّخون بتحاشي استخدام تعابير تنال من سمعة الآخرين في كتاباتهم أكثر فأكثر. وهكذا، على سبيل المثال، فقد تمّ استبدال الكلمتين العبريّتين "كنوفيوت" (عصابات) وَ "فورعيم" (مشاغبين)، التي استُعملت كثيرًا في الماضي لنعت مجموعات من المقاتلين الفلسطينيّين، بتعابير أكثر حياديّة مثل "الوحدات المقاتلة" أو "غيريلا" (مقاتلين بأسلوب حرب العصابات) في الكتابات الأكاديمية.[٨٣]

تأثير الفكر النقدي الغربي

طرحنا في مستهل هذا المقال السؤال التالي: لماذا ظهرت "الكتابة الجديدة للتاريخ" بكل قوّتها، في أواخر الثمانينيّات وخلال التسعينيّات، تحديدًا؟ إن هذه الميول الجديدة لكتابة التاريخ والبحث الاجتماعي في إسرائيل تأثرت كثيرًا بشيوع خطابات فكرية معينة في الجامعات الغربية، تلك الخطابات التي تبلوت وتوضّحت جدًا في السبعينيّات والثمانينيّات. إن نظريات ما بعد البنيوية، لصاحبها ميشيل فوكو، والتيار الفكري الماركسي الجديد، لصاحبيه أنطونيو غرامشي ويورغان هابيرماس هي نظريات معروفة جيّدًا لدى المفكّرين الإسرائيليّين. وكذلك كتابات ما بعد الحداثة لجاك دريدا ولبودريارد وكتابات ما بعد الاستعمار لإدوارد سعيد وهومي بابا وآخرين كثيرين. بالرغم من النقد الحادّ الذي يوجّهه سعيد ضدّ الصهيونيّة ودولة إسرائيل،[٨٤] فإنّ تأثيره على الصعيد النظري – الواضع في كتابه "الاستشراق"، الذي تُرجم إلى العبريّة واكتسب شعبيّة

واسعة بين الطلّاب والباحثين- لم يغب عن اهتمام المؤرّخين، أيضًا. وأهمّ ما في الأمر أن جميع هذه المؤثرات أدخلت إلى خطاب الأكاديميّين الشبّان درجة أعلى من الحساسية ووعيهم لذاتيّة ووجهات نظرهم.[٨٥]

في ضوء تأثير النظريّة النقديّة الحديثة، وتوسّع الدراسات الثقافيّة بصورة عامّة، وكذلك توسّع توجّهات أخرى تقوم على ما بعد الحداثة لدى بعض الأوساط الفكريّة الغربيّة، قامت مجموعة من الشبّان المؤرّخين والفلاسفة وعلماء الاجتماع وطلاب الدراسات الثقافيّة بتأسيس مجلّة فكريّة عام ١٩٩١ برعاية معهد "فان لير" في القدس، تحمل الاسم "نظريّة ونقد" (أو "تئوريا وبيكوريت" بالعبريّة). في الواقع، ومن خلال هذه المجلة، تمّ تأسيس منتدى أيديولوجي بصورة غير رسميّة، فكري ما بعد صهيوني حمل الاسم "منتدى فابيان". تمثّل هذه المجموعة طيفًا واسعًا من الحالة النقديّة تجاه السياسات والتعديلات للروايات القديمة حول قضايا الجندر والأقليّة العربيّة، والقوميّة، وكذلك الشروخ العرقيّة - بالطبع.[٨٦] لمناسبة مرور خمسين عامًا على قيام دولة إسرائيل (عام ١٩٩٨)، حرّر أودي أوفير، مؤسّس هذه المجموعة، ملخّصًا لخمسين مقالاً، كتب معظمها كتّاب من أتباع ما بعد الصهيونيّة، وركز كل مقال على موضوع شغل انتباه الجمهور في كل من الأعوام الخمسين. كُتبت هذه المقالات بأسلوب يمكن تصنيفه تحت العبارة "تاريخ جديد"؛ وهكذا أصبح هذا التلخيص أفضل تركيز أيديولوجي لحركة التعديل (أوفير ١٩٩٩). رحّبت هذه المجموعة ببعض "المؤرّخين الجدد"؛ ويمكن بسهولة رؤية تأثيرها على العديد من المؤرّخين الشبّان والجيل الجديد في الدراسات التي تعتمد على النظريّات السلوكيّة في الجامعات الإسرائيليّة.

ولكن الميول الواضحة إلى معاداة الصهيونيّة لدى العديد من الزعماء المرموقين لهذه المجموعة ردع عديدين آخرين. إنّ ميول هؤلاء الزعماء الواضحة لا تنعكس عَبرْ انتقادهم للأسلوب الذي اتّبعه الباحثون الصهيونيّون في الماضي لتمثيل الكينونات التي خلقتها الصهيونيّة في فلسطين، فحسب، وإنّما كذلك عَبرْ انتقادهم لتلك الكينونات بحدّ ذاتها. يتمّ تصوير الصهيونيّة على أنها حركة "قوميّة شوفينيّة"، واستعماريّة، وأنّها - في جوهرها - حركة إقصائيّة وقامعة. كانت حفنة فقط من المؤرّخين الإسرائيليّين على استعداد لتبنّي التوجّه النسبي المتطرّف، لصاحبه هيدين وايت، الذي يشوّش الحدود المتعارف عليها بين الخيال وكتابة التاريخ، وهو توجّه شائع إلى حدّ كبير بين المحلّلين الثقافيّين في "تئوريا وبيكوريت". من ناحية أخرى، كان لكتابات إريك هوبسباوم، وبشكل خاصّ كتاب بنيدكت آندرسون "المجموعات المتخيّلة"، تأثير شديد على الباحثين في الجامعات الإسرائيليّة، وكثيرًا ما يستشهد بها المؤرّخون الشبّان

الذين يتقبّلون، إلى حدّ ما، الرأي الذي مفاده أنّ "القوميّة"، بوصفها ظاهرة عالميّة، ما هي إلا ظاهرة "ملفّقة"، و"متخَيَّلة"، وشرّيرة في أساسها، وما زالت تُلهم بعض المؤرّخين للقيام ببحث جادّ عن أية أخطاء يمكنهم الكشف عنها في تحصيلات وسياسات الحركة الصهيونيّة وإسرائيل.

إن نزعة نفي الذات (self negating) الشّائعة بين مجموعة "نظرية ونقد"، بصورة غير مفاجئة، حدّدت تأثيرها واقتصرته على بعض دوائر الحيّز الأكاديمي، وولّدت معارضة قوية في مكان آخر، حيث تهدّد بتفكيك جوانب وخصائص بالغة الأهمية في الهُويّة الإسرائيليّة على مختلف تشكيلاتها المتعدّدة. بيد أنّ تأثير هذه المجموعة غذّى - بدون أدنى شك - التشكيك والتفكير النقدي بين طائفة الباحثين الإسرائيليّين، وقوّض استعدادهم لتقبّل الروايات والمفاهيم الشديدة الرسوخ والمهيمنة بين الجمهور العام، وكذلك قيمة السلطة بعامّة، قبل تعريضها لتحليلات نقديّة، وذلك بصورة لا يمكن إبطال مفعوله. علينا أن نقرّ بأنّ هذا المزاج الجديد قد يُنتج، عمومًا، كتابة تاريخيّة أفضل وأكثر إثارة. من الواضح أنّ التوجّهات الجديدة، التي تدرّب المؤرّخين الشبّان على مَشكلةِ كل حدث وكل سيرورة يبحثونها، هي نقطة انطلاق مهمّة لدراسات أعمق.

أثر الحروبات وعملية السلام

إضافة إلى هذه التأثيرات الخارجيّة، يبدو لي أنّه ينبغي البحث عن التفسير الرئيس لوصول مزاج المعدِّل - الناقد إلى "الأكاديميا" الإسرائيليّة داخل تلك التطوّرات الثقافيّة الداخليّة التي توقفنا عند تحليلها أعلاه، وداخل آثار التطوّرات المدهشة في الصراع العربي الإسرائيلي. بلغ معظم "المؤرّخين الجدد" الرشد بعد جيل كامل من حرب الاستقلال الإسرائيليّة. قد تكون لهم بعض الذاكرات الشخصيّة حول حرب الأيّام الستّة، ولربمّا شاركوا في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، ولكنهم نضجوا أكاديميًّا في السبعينيّات أو في سنوات لاحقة. يبدو أنّهم تحرّروا من الآراء التوافقيّة الإتحاديّة، التي سادت في إسرائيل قبل عام ١٩٦٧، والمرتبطة بالطبيعة الماهيّة للصراع العربي الإسرائيلي. شكّك قلّة من الإسرائيليّين، آنذاك، في صحّة الافتراض الأساس المتمثّل في أنّ جذور الخلاف بدأت من رفض العرب قبول وجود دولة يهوديّة في وسطهم. لهذا، وفق هذا الافتراض، كانت جميع الحروب التي شنّتها إسرائيل، بصرف النظر عمّن أطلق النار أوّلاً، مفروضة على دولة إسرائيل، التي لم يكن أمامها بديل آخر إلاّ أن تدافع عن نفسها، من خلال

أساليب دفاعية أو باعتماد استهلال الحرب بهجوم وقائي. كالحربين الوقائيين في العامين ١٩٥٦ وَ ١٩٦٧ – وبالطبع حرب عام ١٩٤٨ – تعتبر جميعها بمثابة "حروب اضطراريّة" (مركز يافي ١٩٨٥).

بدأ المفهوم الاتحادي في أواخر الستينيّات بالتصدّع، على خلفيّة الجدل السياسي المتنامي حول سياسات إسرائيل في المناطق التي تمّ احتلالها أثناء حرب الأيّام الستّة.[٨٧] طفقت أقليّة متزايدة من المثقفين الإسرائيليّين تشك في النوايا المعلنة، والجديرة بالثناء، التي تطلقها الحكومة في سبيل تحقيق السلام مع العرب.[٨٨] شرع البعض يتشكّكون في ما إذا كان من الممكن تجنّب تجدّد القتال على طول قناة السويس ونهر الأردن، أي ما يُعرف باسم "حرب الاستنزاف".[٨٩] في الرابع من نيسان من عام ١٩٧٠، كتبت مجموعة من طلّاب الصفوف الثانية عشرة، التي كانت على وشك التجنّد للخدمة العسكريّة، إلى رئيسة الوزراء، آنذاك، غولدا مئير: "لقد آمنّا حتّى الآن أن علينا أن نخدم مدّة ثلاثة أعوام، وأن نكون على استعداد للقتال لأنّه ليس لدينا أيّ خيار [... الآن] نحن وكثيرون آخرون نتساءل مندهشين: كيف يمكننا القتال في حرب دائمة وعبثيّة، بينما سياسة حكومتنا تتمثّل في تجاهُل أيّة فرصة للسّلام؟!".[٩٠]

كما ذكرنا أعلاه، إنّ صدمة حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ كشفت لمزيد من الإسرائيليّين، الذين عادوا من الجبهة يائسين وخائبي الأمل، وجود شكوك بالغة حول حكمة ونزاهة الحكومة وحول كفاءات النخبة العسكريّة.[٩١] وكذلك استيقظت الصحافة الإسرائيليّة لتدرك أنّها خانت مهنتها، بخضوعها التقليدي وتَقبّلها المنضبط لكلّ معلومة قادمة من الدوائر الحكوميّة، وأنّها أصبحت شريكًا في صنع هذه الكارثة. منذ عام ١٩٧٤، أصبحت وسائل الإعلام الإسرائيليّة أكثر انتقادًا وتشكّكًا. وكان الاحتلال الإسرائيلي للبنان ذروة هذه العمليّة. إعتقدت أغلبيّة الإسرائيليّين أن هذه الحرب ليست غير ضرورية وواهمة فحسب، وإنّما اعتمدت كذلك تلاعبًا واعيًا ومعلومات كاذبة وخداعًا للجمهور – وحتّى خداعًا للحكومة ذاتها.[٩٢]

تحوّل هذا الاستيقاظ من الوهم، وهذه الانتقادات المتزايدة للسياسات التي اتّبعتها القيادتان السياسيّة والعسكريّة، إلى أرض خصبة لتنامي الشّكوك المتزايدة بخصوص سياسات كانت النخبة المهيمنة قد اتّبعتها في فترات سابقة. أخذت علامات الاستفهام تطرح حيال تأويل وسرد بعض أحداث الحرب التأسيسيّة عام ١٩٤٨.

بعثت بداية عملية السلام في الشرق الأوسط أملًا جديدًا في نفوس كثير من الإسرائيليّين، بداية مع مصر عام ١٩٧٧، وبعدها مع الفلسطينيّين في التسعينيّات، والتي أفضت إلى تفاهمات أوسلو والمصافحة المشهورة بين عرفات ورابين في حديقة البيت الأبيض في العاصمة الأمريكية عام ١٩٩٣. ولكن تصاعد العنف الفلسطيني والعقبات السياسيّة الداخليّة في إسرائيل أثبتت أن ليس جميع الإسرائيليّين مستعدين للتضحيات والتنازلات التي بدت مطلوبة لإتمام العمليّة بنجاح. بقيت عقول قطاعات واسعة من الجمهور الإسرائيلي مثقلة بتصوّرات ذهنيّة وأيديولوجيّة ورموز سلبيّة عن "الآخرين"، تولّدت بفعل مئة عام من الصراع القاسي والدموي، وأمست جزءًا لا يتجزّأ من الهُويّة الجماعيّة الإسرائيليّة.[٩٣] أدرك المثقّفون في يسار الطيف السياسي أنّ ثمّة حاجة ماسّة إلى إعادة تثقيف الإسرائيليّين وإلزامهم بإعادة تعلّم وتفسير مفاهيم ماضيهم.

قلائل من المؤرّخين سيعترفون بأنّ لهم جدول عمل يتخطّى رغبتهم في كتابة "تاريخ جيّد"؛ ولكن – عمدًا أو عن غير عمد – الكثير من الأعمال التي ينشغل بها اليوم المؤرّخون الشبّان في إسرائيل قد يكون لها وقع دائم على الطريقة التي سيستعملها يهود المستقبل للتحقّق من هويّتهم وتعريف معنى علاقتهم بالعرب وبسائر "الآخرين" الذين سيعيشون بينهم ومعهم إلى الأبد.

خلاصة

في خطاب أُلقِي حديثًا في اجتماع دائرة مستديرة في باريس لجمعيّة اليونسكو، أكّد مناحيم يعاري (اقتصادي مرموق من القدس) أنّ النزعة غير التاريخانيّة "التي يتميّز بها البحث العلمي قد تساعد في تشكيل ثقافة أكثر دعمًا للسّلام". وأضاف، إنّه "يتحتّم علينا، في مجال العلوم، أن نفهم مبكّرًا أنه علينا أن ندع ما فات أن يفوت وأن لا نسمح لترسّبات عاطفيّة متراكمة أن تُؤثّر في عملنا المستمرّ". وتابع قائلاً، إنّه يتحتّم علينا الاستعانة بمنهج مماثل لتوجيه مساعي السّلام: "على الأطراف المتنازعة البحث عن تسويات مُنصِفة لا عن عدل تاريخيّ متصلّب".[٩٤] بوصفي من نشطاء السلام، أنا أدعم هذه الكلام كليًّا؛ ولكن، بوصفي مؤرّخًا، ليس في وسعي إلاّ أن أقول إنّه كلام غير قابل للتحقّق وغير واقعي. فإنّ التاريخانيّة والذاكرات الجماعيّة هي دومًا أبعاد مركزيّة في الصراع. هي لا تصوغ الطريقة التي ترى من خلالها أطراف النزاع ومصادره وطبيعته والعدوَّ فحسب، وإنما تصوغ كذلك كيفيّة رؤيتها لهُويّاتها الجماعيّة. ولهذا، فُرض عليهم البقاء

على قيد الحياة حتّى بعد التوَصّل إلى تسويات سياسيّة. وعليه، من الخطأ أن نجعل السّلام منوطًا بتغيرّات في الذاكرات والهُويّات الجماعيّة. على العكس تمامًا، ينبغي إحراز السلام، وهو أمر ممكن، بالرغم من أن روايات الماضي ستبقى في تضارب دائم. رغم ذلك، إن الفهم الواعي، والأقلّ تمحورًا حول الذات والأقلّ إطراءً لها، لسلوك الطرف الذي تنتمي إليه في تعامله مع الصراع، والفهم الأقلّ تشويهًا وترهيبًا للطريقة التي تعامل فيها عدوك مع الصراع على مرّ السنين، قد يساعد القيادات، التي تحاول أن تحدو أمّتَها نحو التسوية، على اكتساب دعم الجمهور العام من دوائرها الانتخابيّة الذاتيّة. بعيدًا عن الطموحات المهنيّة لإنتاج تاريخ أفضل، من الممكن أن يكون هذا دورًا مهمًّا آخر تلعبه حركة تعديل التاريخ في إعادة تشكيل الثقافة السياسيّة للناس، أو على الأقل، لنخبتهم المثقّفة.

حقًّا، يمكننا الانضمام إلى دعوة إريكسون إلى تشكيل "هُويّة جديدة" ستتطلّب إدراكًا جديدًا "للترابط بين كبح الصراع الداخليّ لدى الذين يُفرطون في التأقلم مع القوّة، مع قمع الآراء المعادية، والاضطهاد الجاهز تجاه الغرباء [. . . و] يدركون القوّة الكامنة في الغرور في المبادرات التوسّعيّة التي بفضل نجاحها المادّيّ تبدو كأفضل تبرير لوجودها". ويختم إريكسون بالقول: "لا يأتي الخلاص إلاّ من نظرات ثاقبة لأهميّة ذنوب الماضي ولمكانة الخيار الأخلاقيّ في إعادة تكوين الهُويّة" (Erikson 1974, 111).

هوامش

١ نشر هذا المقال باللغة الانجليزية (Bar-On 2004). وقد آثرنا ترجمة تعبير (revision) بمختلف تفعيلاته إلى "تعديل"، وذلك لأن المصدر الانجليزي يشير إلى عمليه إعادة نظر ونقد وإضافة وتصليح وتنفيح للموجود، ولم نعثر على مصدر اكثر ملائمة باللغة العربية من "عَدّلَ". كما وآثرنا ترجمة تعبير "historiography" إلى "كتابة التاريخ"، بدلاً من تعبير "تأريخ" السائد، وذلك لأن المصدر يشير، اساسًا، إلى عملية توثيق أو كتابة التاريخ، ولأن التعبير السائد لا يفي كليًا بهذا الغرض.

٢ لتحليل مفصّل لهذه الروايات المتناقضة راجع، بار أون ٢٠٠١.

٣ قام دان ميخمان من جامعة بار إيلان بتحرير مؤلّف شامل لمعظم المقالات التي نشرت حول هذا الموضوع (ميخمان ١٩٩٧ب). أفضل المراجعات السوسيولوجية متوفرة عند رام ١٩٩٣.

٤ تُعتبر أنيطا شفيرا أبرز المؤرخين الذين إنتقدوا "المؤرخين الجدد"، وقامت بذلك في عدد من المقالات. حملت أكثر المقالات تفصيلاً عنوان "السياسة والذاكرة الجماعية" Shapira (1995، وكذلك في كتابها "يهود جدد، يهود قدامى" (شفيرا ١٩٩٧، ١٩-٤٥). يمكن العثور على محاولات أخرى لتحليل هذه الظاهرة عند بار أون ١٩٩٤، ١٩٩٠. طرح إفرايم كارش أكثر المحاولات العدائية واللاذعة لتفنيد منهج "المؤرخين الجدد" ولاستنتاجاتهم (Karsh 1997). لمؤلَّف أكثر اتزانًا، لردود الفعل الأكاديمية على الجدل، راجع، فايس ١٩٩٧.

٥ ذُكرت بعض من تلك "البدع" عند تسيميرمان ٢٠٠٢، ٢٢٣-٢٤٣.

٦ تضفي ردود الفعل هذه الشرعية على نصيحة دافيد فينتال للمؤرّخين التعديليّين بتفضيل "الماضي البعيد والقابل للتغيير المرن على الماضي الحديث، ربما لأنّ الأخير أكثر إيلامًا وإدراكًا" (Lowenthal 1975, 31).

٧ يرفض بروفيسور يوسي بن ارتسي ان يمنح "المؤرخين الجدد" لقب "معدّلين" (revisionists) لأنهم لا يمثلون -باعتقاده- أكثر من مرحلة طبيعية ومتوقعة من المسلك الذي يتطوّر فيه دومًا البحث التاريخي. راجع، بن أرتسي ١٩٩٢.

٨ أنظر، على سبيل المثال، الطريقة التي عمل بها الكولونيل نتانئيل لورخ في منتصف الخمسينيّات، كما يُستَعرض ذلك بار أون، (٢٠٠١، ١٦٧-١٨٤).

٩ بناءً على طلب الجنرال موشيه ديان قامت شعبة التاريخ في الجيش الإسرائيلي في العام ١٩٥٥ بإعداد تحليل مفصّل لميزان القوى المتصارعة خلال مراحل مختلفة من حرب ٤٨. لمزيد من التفاصيل، انظر، بار أون ٢٠٠١، ١٧٦-١٧٧.

١٠ تقول شفيرا في كتابها "يهود جدد، يهود قدامى" (شفيرا ١٩٩٧) بأنّ "الخلاف ليس ضد مؤرخين، بل هو ضد الوكلاء الذين صمّموا الذاكرة الجماعية".

١١ كذلك يعتبر أوري رام الجدل التاريخي بأنّه "حدث ثقافي-سياسي، ذو معان بالنسبة للحاضر" (رام ١٩٩٦، ٢٧).

١٢ حول الروايات والصور السائدة في الكتب المدرسية الإسرائيلية، انظر فيرير ١٩٨٥؛ بوده ٢٠٠٠، Podeh 2001. وجمع جيد لعدد من المقالات متواجدة عند، بن عاموس ٢٠٠٢.

١٣ من الملفت للنظر أن كتب موريس هالبواش المشتملة على البذور الأولى لتعديل الذاكرة الجماعية نُقلت إلى الانجليزية في الثمانينيّات فقط (Halbwachs 1992, 1980). لمقدمة عامّة حول الموضوع، راجع، بار أون ٢٠٠١أ، ٢٠٠١ب، ٢١-٣٥. إضافة إلى ذلك، فقد نُشرت أدبيات عديدة حول مفهوم "الأسطورة"، والذي يمكن اعتباره كنوع خاص من الذاكرة الجماعيّة، ويستوجب تحليله بشكل منفصل. لمجموعة جيدة من المقالات حول هذا الموضوع، راجع، Wistrich and Ohana 1995.

١٤ يتحدث كلاين عن "صناعة الذاكرة" (the memory industry) وعن "الوعي التذكاري" (the memorial consciousness). لنقاش حول محدوديّات ومآزق الدراسة، راجع، Confino 1997.

١٥ لمعالجة عميقة للعلاقة بين الذاكرة والتاريخ والهوية، راجع، Megill 1998. يطلق ميغيل على مركزية "الذاكرة" في العدد الهائل من الكتب والمقالات الأكاديمية والفكرية وفي خطاباتها بـ"جزع الذاكرة" (the memory of craze).

١٦ لمزيد حول هذا الموضوع، راجع، Bar-On 1998. وحتّى موريس – أحد المؤرخين الوضعيّين المعروفين– اعترف قائلًا: "ماذا يمكننا فعله إذا ما ذبحت بعض البقرات في الطريق نحو الحقيقة" (بيني موريس، "بين النهب والاحتلال" **هآرتس** (ملحق الكتب) (صحيفة)، ٣٠-٨-١٩٩٥).

١٧ أنظر وثيقة "إبكري" (IPCRI) (مركز إسرائيل-فلسطين للبحث والمعلومات)، التي وقعها كل من بيتر ديمان وسعيد زيداني في تاريخ ١٣-٦-١٩٩٥.

١٨ يحدثنا إريكسون بشكل ساخر عن طلاب كاثوليكيّين في جامعة هارفارد كانوا يعقدون "أزمة هوية" في ناديهم (Erikson 1968, 15).

١٩ للخص جيد حول تاريخ عبارة "هُويّة"، راجع، Gleason 1983.

٢٠ يتحدث إريكسون عن "التفاعل بين النفسي والاجتماعي، وبين التطويري والتاريخي". بذل إريكسون جهدًا متميزًا لاستعمال هذا المنهج في كتابته لِسِيَر حياة مارتين لوثر كينغ ومهاتما غاندي.

٢١ بعض عناصر "الهُويّة الموضوعيّة" هي، في الواقع، قائمة بذاتها، لكن على التعريف الأكثر دقّة لهذا البعد أن يكون:" العناصر التي تتأسّس، أو يمكنها أن تتأسّس، بواسطة الأبحاث الاجتماعية والأنثروبولوجية منفصلة (عن السياق الثقافي الاجتماعي المحدّد". يمكننا، إعتمادًا على إريكسون (Erikson 1968)، الذي عرّف الهُويّة من خلال ما يريده الفرد، وما بمقدوره عمله بنفسه، يمكننا إضافة البعد الرابع التالي: تطلّعات مجموعة ما نحو المستقبل. يتضمّن تعبير "أيديولوجيا"، من بين ما يتضمن، الطريقة التي ينظر الناس فيها إلى أنفسهم وإلى "الآخرين"، لكنه يشير، كذلك، إلى آمالهم ومخطّطاتهم للتغيير مستقبلًا. يمكن التعامل مع البعد الرابع، من خلال هذا المعنى، أولًا، وقبل كل شيء، كونه "أيديولوجيا المجموعة". لمعالجة إضافية لهذه المسائل، راجع، هيرمان ١٩٧٩.

٢٢ لعب بن غوريون، أكثر من سواه، دورًا رئيسًا في تأطير الذاكرة الجماعية للحرب، كما لاحظت أنيطا شفيرا: "لم يكن بن غوريون قائد حرب الاستقلال فحسب، بل قام كذلك بكتابة تاريخها" (شفيرا ١٩٨٥، ٩). ويذكر زئيف تساحور أنه وحتّى في نهاية العام ١٩٦٣، قبيل استقالته النهائية من الحكومة، شرع بن غوريون بكتابة "دراسة" هدفها المعلن- "تصحيح الأسطورة" (Tzahor 1995).

٢٣ أهرون ميغيد، "الدافع للانتحار"، **هآرتس** (صحيفة)، ١٧-٦-١٩٩٥.

٢٤ لتحليل جيد لهذه النماذج الثقافية، انظر، الموج ١٩٩٧.

٢٥ كيميرلينغ ٢٠٠١، ٣٠-٣١. قام كيميرلينغ بنحت مصطلح "أحوساليم" للتدليل على من يُنسب اليهم بانهم "الواسب الاسرائيليين"("الواسب WASP"- مصطلح أمريكي، هو جمع بين مؤلف من اربعة الأحرف الأولى لأربع كلمات هي "غرب، انجلو، سكسون، وبروتستانت باللغة الانجليزية) يطلق على الامريكيين "أبناء البلد" في مقابل المهاجرين وابناء الاقليات والجاليات التي لا تنتمي في ثقافتها الى هذا الجمع). كلمة"أحوساليم" هي اختصار بالعبرية لـ" أشكناز، علمانيون، اشتراكيون قوميون"، راجع، كيميرلينغ ٢٠٠١، ١١.

٢٦ قمت في الفصل الأخير من كتابي (بار أون ٢٠٠١) بإعادة صياغة نص أنيطا شفيرا (شفيرا ١٩٩٧، ٢١-٢٢).

٢٧ يكوّن نحو ٨٥ ألف يهوديّ إثيوبي، يعيشون اليوم في إسرائيل، مجموعة اخرى منفردة، ولكن بسبب حجمها الصغير لا تعد من بين كتل المجموعات "الرئيسة".

٢٨ هناك، كذلك، بعض "التحركات المضادّة" قام بها مثقفون علمانيون، ليبراليّون، أكثرهم من الإشكناز. من أكثر هذه الجماعات إثارة للانتباه عدد لا بأس به من المجموعات التي تعرّف ذاتها بالـ"علمانية"، والتي بدأت بالبحث عن التفسير اليهوديّ "لعلمانيتها" وتطلعت إلى تدعيم معرفتها بما يسمى اليوم "رفّ الكتب اليهوديّة". كما كوّنت هذه المجموعات تحالفات سطحية، ونشرت بصورة منتظمة مجلة تدعى "فانيم" (وجوه). وأشرف ديدي تسوكر على تحرير مجموعة لا بأس بها من هذه المقالات (تسوكير ١٩٩٩). تشكيلة أخرى لهذه "التحركات المضادة" جاءت على شاكلة نقد حادّ ومعاد للأرثوذوكسية على المستويين السياسيّ والأدبيّ. وقد تمركز الطيف الأوّل منها حول حزب "شينوي" وزعيمه الفصيح تومي لبيد، والذي يبدو أنه أكثر الزعامات تطرفًا في عداوته للمؤسّسة الدينية. للاطلاع على مثال جيد لأسلوب التعبير الأدبي لهذا الطيف، راجع، راحليفسكي ١٩٩٨.

٢٩ عند كتابة هذه السطور تمّ الانتهاء من تأسيس قناة تلفزيونية روسية جديدة في إسرائيل. مع ذلك، ولاعتقادي الشخصي، يستخدم هذه القناة بالدرجة الأولى المهاجرون المسنّون الذين لا يملكون ناصية اللغة العبرية. في النهاية سيفضّل الجيل الأصغر القنوات العبرية.

٣٠ للحصول على معالجة مفصلة لهذه المصطلحات، راجع، Herman 1971, 12-31.

٣١ للحصول على صورة شاملة لهذه الحدود الفاصلة، راجع، عتسيوني-هاليفي ٢٠٠٠. وحول مصادر الحدود العلمانية-الدينية الفاصلة، راجع، بار أون وتساميريت ٢٠٠٢. وحول قضايا الجندر، راجع، شيلو وآخرون ٢٠٠١.

٣٢ للحصول على معالجة صحفية لتاريخ هذه الحركة، راجع، ديان ١٩٩٩؛ وراهاط ١٩٩٨. وللحصول على مجموعة أكثر أكاديمية لمقالات عن الحركة، راجع، بيليد ٢٠٠١.

٣٣ كتب نص الافتتاحية محرر العدد الأوّل لمجلّة "تيئوريا وبيكورت" ("نظرية ونقد")، عادي أوفير، وليس من العسير ملاحظة تأثيرات ميشيل فوكو عليه.

٣٤ استعار إريكسون تعبير "الأكثريّة المتراصّة" من خطاب لسيجموند فرويد أمام الجمعية اليهوديّة لـ"بني بريت" في فيينا عام ١٩٢٦ (Erikson 1968, 20-21). وفي تعابير أكثر استفزازاً يتحدث إريكسون عن "القبائل الأخرى" على أنها "شاشات مفيدة لعرض الهُويّات السلبية التي كانت نظيرة ضرورية، مع أنها مزعجة للغاية، للهُويّات الإيجابية" (Erikson 1968, 41).

٣٥ راجع على سبيل المثال، أطروحة الدكتوراة لهنرييت داهان-كاليف (داهان-كاليف ١٩٩١). وتمّ في الآونة الأخيرة عرض فيلم للمخرجة شيرين شافيط حمل اسم "هل سمعت عن الفهود السود؟".

٣٦ كما واهتمت الدكتورة مئير بدراسات الجندر ومن كتاباتها في حول هذا الموضوع: مئير ٢٠٠١ب.

٣٧ وكان سامي ميخائيل (وهو كذلك عراقيّ الأصل) قد اتبع الاسلوب الروائي القصصي ذاته. كتب ميخائيل رواية تحمل اسم "فكتوريا" (ميخائيل ١٩٩٣)، والتي تجري أحداثها في العراق. كذلك نشر رواية حملت اسم "مياه تلامس المياه" (ميخائيل ٢٠٠٢)، التي تروي قصة روائي شاب في خضم صراع للتأقلم مع البيئة العبرية الجديدة. وحول يهود إيران، راجع، رابينيان ١٩٩٩، ١٩٩٥. تروي الرواية الثانية لرابينيان (١٩٩٩) قصة عائلتها المهاجرة إلى إسرائيل.

٣٨ أنتجت قنوات التلفزيون الإسرائيليّ المختلفة، في الآونة الأخيرة، عدد من الأفلام على غرار فيلم "Roots". وكان من أول الإنتاجات فيلم يعتمد على واية آمنون شاموش، والتي تصف حياة اليهود في حلب. وفي آخر إنتاج سينمائي يستعرض حادثة غرق سفينة "اجوز" (Egoz)- سفينة غير قانونية حلت على ظهرها مهاجرون يهود غرقت بالقرب من سواحل المغرب. كذلك عُرضت مجموعة من الأفلام التي هي ذات نزعة شوق قوية إلى الماضي عبر التلفزيون الإسرائيليّ، منها "تشلري بغداد" (إنتاج وإخراج إيال حلفون) وتروي قصة موسيقيّين عراقيّين يهود، وفيلم عن حياة اليهود في الريف اليمني قبل الهجرة الجماعية الواسعة في الخمسينيّات إلى إسرائيل.

٣٩ ويستشهد كلاين بما جاء عند تشالز ماير Maier 1993, 143.

٤٠ وبمساعدة من مثقفين شرقيين آخرين تأسّس "منتدى الثقافة المتوسطيّة"، الذي تبنى نشاطات ثقافيّة مختلفة مثل المؤتمر الأكاديمي الدولي حول فكر كلّ من ألبير كامو وألبير ميمي. لقد سلكت جاكلين كاهانوف سبيلاً أكثر استقامة، بيد أنّه أقل رواجًا، حين أيّدت تبنّي "الليفانتينية" (الشرق متوسطيّة) كمصطلح إيجابي (راجع، كاهانوف ١٩٧٨). وقد أخذت رونيت ماتالون على عاتقها التعبير عن هذا الميل الأدبي في رواياتها، وبخاصة في رواية "هذا الذي يواجهنا" (ماتلون ١٩٩٥).

٤١ أشار ميرون بنبينستي إلى هذا الرأي، "ميناء متوسطي مزيّف"، **هآرتس** (صحيفة)، ٢١,٣,١٩٩٦.

٤٢ عاموس عوز، "خبير في الرومانساوية" **هآرتس** (صحيفة) ١٣,٧,١٩٩٠، مقتبس عند أوحانا ١٩٩٨، ٢٧٧.

٤٣ هذا هو العنوان الفرعي للهجوم المركزي ليورام حازوني على الإسرائيليّين والصهيونيون المثقفين الليبراليين، وخاصّة على الجامعة العبرية في القدس (Hazoni 2000).

٤٤ الأكثر حداثة من بينها: Almog 2002; Oren 2002؛ وأطروحة الدكتوراة لعمونائيل غلوسكا (غلوسكا ٢٠٠٠).

٤٥ أضاف البروفيسور آفي شلايم معتقدًا زائفًا إضافيًّا للتاريخ الإسرائيليّ يتلخّص في أن الملك عبدالله تراجع عن تفاهماته السّابقة مع اليهود، والتي أحرزت أثناء اجتماعاته مع غولدة مئير في "نهارايم" في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٤٧ (Shlaim 1995). لمعالجة أوسع لهذه القضية، راجع، بار أون ٢٠٠١، الفصل الثامن، ٢٠٨-٢٢٤.

٤٦ الباحثون الأصغر سنًّا الذين يلتزمون بهذا التوجّه، هم: يورام نيمرود (نيمرود ٢٠٠٠) وإيلان بابيه (Pappe 1992).

٤٧ تعبرّ الأغنية المشهورة، التي تردّدها كل عائلة يهوديّة وإسرائيليّة ليلة عيد الفصح، عن هذا الوعي: "ههي شعامدا" ("وهي التي وقفت")، وتقول لازمتها: "وهي (التوراة كتجسيد للعناية الإلهية) التي وقفت إلى جانب آبائنا وإلى جانبنا، ولم ينهض واحد، فقط، ضدّنا ليدمّرنا، بل في كل جيل ينهض من يقف ضدّنا ويريد تدميرنا".

٤٨ لمعالجة حديثة للدور الذي أدّته المحرقة في الروح الحاملة المُثل العليا والسياسة الإسرائيليّين، راجع: Segev 1993; Zertal 1998.

٤٩ تجد تحليلاً مفصّلاً لميزان القوى خلال الحرب عند: ايلان ١٩٩٥. للمزيد حول هذه المسألة، راجع، كيدار وكاديش (تحت الطبع).

٥٠ إن أكثر أصحابِ هذا التوجّه ليس مؤرّخا أكاديميًا، وبالرغم من ذلك، فقد كتب أكثر التحليلات تفصيلاً عن المراحل الأولى للحرب (ميلشتاين ١٩٨٩-١٩٩١).

٥١ نشر ميلشتاين دراسة خاصة يحاول فيها وصف يتسحاق رابين كقائد فشل في المعركة، وأكثر من ذلك، أنه تصرّف بجبن وارتباك. نُشر الكتاب عندما أصبح رابين أحد المتنافسين على منصب رئاسة الوزراء، وجاء هجوم ميلشتاين كمحاولة لتشويه سمعته (راجع، ميلشتاين ١٩٩٥).

٥٢ راجع، على سبيل المثال، طال ٢٠٠٠أ. ولتحليل مفصّل عن قتال الجيش الإسرائيلي ضد الجيش المصري، راجع، طال ٢٠٠٠ب. وحتّى الآن لم يتطوع د. طال بالإفصاح عن دوافعه التي تتعدّى مجرد محاولته لكتابة تاريخ جيّد. إنّ تهمة وجود دوافع أخرى وراء كتاباته نابعة، فقط، من تكهناتي الشخصية.

٥٣ لمعالجة حرب الاستنزاف، راجع، Bar-Siman-Tov 1980. نشر بار سيمون طوب العديد من الكتب عن حربِ أكتوبر؛ وسأشير، فقط، إلى ما كتبه حاييم هيرتسوغ، الذي شغل، آنذاك، منصب المعلق والمحلّل المركزي للراديو عن الحرب، وشغل بعدها منصب رئيس دولة إسرائيل (Herzog 1975).

٥٤ لمعالجة شاملة لحركات الاحتجاج التي تولّدت بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، راجع، ليفني ١٩٩٧. ولمعالجة قصيرة لهذه الحركة، تحديدًا، راجع: Bar-On 1996, 77-84.

٥٥ عملاً بتقاليد ماكس فيبر (M. Weber)، يربط إريك كوهين هذه الظاهرة بما يسميه "تنميط لـ"كاريزماتية" مضت (راجع، Cohen 1995).

٥٦ للحصول على موجز واف للوقائع وتحويل الحركة الصهيونيّة لها إلى طقوس تتسم بالقدسيّة، راجع، Zerubavel 1995.

٥٧ للإطلاع على نقد حادّ لهذه المسألة بشموليتها، راجع، روغيل ١٩٧٩.

٥٨ لا يُدْرَج إيلان عميتسور، غالبًا، في قائمة "المؤرّخين الجدد"، ولكن من الواضح أن أبحاثه بمضامينها هي تعديلية. راجع الملاحظة أعلاه رقم ٤٩.

٥٩ يساوي بروفيسور أوفير بين هذا التأثير وبين تأثير أشكال التعديل السوسيولوجي والكتابة التاريخيّة الأخرى، ولكنّه، في رأيي، مناسب أكثر للمجموعة الخاصّة الموصوفة في هذه الفقرة، تحديدًا.

٦٠ تشمل مؤلفات الكاتب: غولاني ١٩٩٢؛ Golani 1998.

٦١ أكثر الأعمال استيفاءً حول موشي شاريت، هو كتاب يحكي سيرة حياته وضعها شيفير: (Sheffer 1996).

٦٢ نُشرت دراسته، كذلك، باللغة الإنجليزية: Ben Eliezer 1998. وهناك عمل مبكّر تناول موضوع التأثير المتزايد للجيش في السياسة قام على تأليفه يورام بيري (Peri 1983).

٦٣ للاطّلاع على تعريفها للمصطلحات، راجع المقدمة (هداري ٢٠٠٢، ١٧-٤٢). تعتمد هداري في خلاصة دراستها على الصلة الوثيقة بين الرجولة والقوميّة كما وضعها جورج موسي في دراسته الرائدة: Mosse 1996.

٦٤ راجع الملاحظة رقم ٤٨.

٦٥ تناقش زرتال كتاب حنه اريندت "أيخمان في القدس: تقرير حول تفاهة الشرّ" (Arendt 1963) بتفاصيله العديدة، إضافة إلى استعراضها للعديد من ردود الفعل التي أثارها.

٦٦ لقراءة إحدى المحاولات للتعريف بمصطلح "ما بعد الصهيونية"، راجع، بار أون ١٩٩٦. كذلك، يتضمن كتاب جينوسار وبرالي (١٩٩٦) العديد من المقالات التي تسلط الضوء على هذا الموضوع.

٦٧ لتعريف وتحليل "من الداخل"، راجع، أوفير ٢٠٠٠، ٢٥٦-٢٨٠.

٦٨ أوريت شوحاط، "من ينتمي لما بعد الصهيونية"، **هآرتس** (صحيفة)، ١٩٩٥,٩,١. جاء هذا التعبير الدفاعي كردّ على أصوات لسحب الشرعية من اليمين الإسرائيلي. يمكن رؤية أحد هذه الأمثلة في الطريقة التي تعامل فيها دان ميخمان مع "ما بعد الصهيونيّة" كخطر فتّاك (راجع، ميخمان ١٩٩٧أ، ١١-٢٦).

٦٩ أوري رام، "أيديولوجية ما بعد الصهيونية"، **هآرتس** (صحيفة)، ١٩٩٤,٤,٨.

٧٠ للإطلاع على تحليل جيد لموضوع ما بعد الصهيونية وعلاقته بموضوع ما بعد الحداثة، راجع، Silberstein 1999.

٧١ راجع، على سبيل المقال: Shafir 1987; Kimmerling 1983. للتمييز بين الاصطلاحان "كولونيالية كمنظومة فكرية" (Colonialism) و"كولونيالية كنشاط على أرض الواقع" (Colonization)، راجع، Aaronsohn 2000.

٧٢ جرت في الأوّل من نيسان/إبريل عام ١٩٩٢ محاولة لإقامة تنظيم عربيّ يهوديّ يحمل الاسم "ميثاق المساواة"، ولكنها لم تنجح. بعدها، أسّس الدكتور عزمي بشارة - أحد المبادرين المركزيّين لتلك المحاولة- حزبًا عربيًا وانتُخِب للكنيست.

٧٣ يعرّف إيلان بابيه نفسه علانية على أنه معاد للصهيونيّة. الدافع القوي لدى آفي شلايم للبحث عن كل إخفاق ممكن للحركة الصهيونيّة يجعله فردًا مشتبهًا به. وعلى الرغم من أنّ بيني موريس شدّد دومًا أنه صهيوني مخلص، فقد عانى كثيرًا من الضغط، وحاول، مؤخّرًا، إزالة هذه الصورة بنشر موقف "وفي" في الصراع ضد هجمات الإرهاب الفلسطينيّة. يفسّر عادي أوفير الردّ الغاضب لمعظم النُخب الإسرائيليّة لظهور ما بعد الصهيونيّة بسبب دافعها الرئيس "تحدّي الصورة الذاتية لليهودي الإسرائيلي كمن يحتكر لوحده، دومًا، دور الضحية" ولدفعها "اليهود تحمّل جزء من المسؤولية عن دورهم كمن خلّف ضحايا وارتكب شرورًا" (أوفير ٢٠٠١، ٢٦٢).

٧٤ استعمل ثيودور هرتسل هذا الشعار في كتابه "بلاد جديدة قديمة" (Altneuland) الذي نشر في فيينا عام ١٩٠٢.

٧٥ يمكن الاطلاع على نقاش عام حول هذه الأمور عند: Bar-On 1993.

٧٦ للاطّلاع على منهج بابيه، راجع، بابيه ١٩٩٣.

٧٧ للاطلاع على تحليل لصور الأطفال العرب في أدب الأطفال العبري، راجع، Podeh 2000 ,2001. راجع، كذلك، مقالة مئير حزان (تحت الطبع). أشكر السيد حزّان لإطلاعي على مسوّدة المقالة قبل نشرها.

٧٨ لمعالجة مفصّلة لهذه المسألة، راجع، Bar-On 1996, ch. 10.

٧٩ ليس ثمّة أيّ شكّ في أن الانتفاضة الثانية، التي اندلعت في أكتوبر عام ٢٠٠٠، وما زالت تشتعل حتّى لحظة كتابة هذه السطور، أدّت إلى تراجع كبير في الاستعداد الإسرائيلي للنظر إلى الفلسطينيّين نظرة إيجابية.

٨٠ الصحيفة اليومية "هآرتس" -التي يقرأها بالدرجة الأولى قراء مثقفون وليبراليون وأبناء الطبقات العليا والوسطى من المجتمع- كانت الرائدة في هذا المضمار، وخاصّة عمن خلال نشر مقالات غدعون ليفي وعميره هيس وداني رابينوفتش وداني روبنشتاين.

٨١ روايات إميل حبيبي وأنطون شمّاس ومذكرات أبو إياد (نائب رئيس م.ت.ف.) هي بعض النماذج المرموقة. ويمكن أيضًا رؤية تأثير إيجابي للسيرة الذاتية "كذا أنا يا دنيا" لخليل السكاكيني المربّي والداعية للإنسانية (السكاكيني ١٩٩٠).

٨٢ من بين الكتب التي تُرجمت من العربيّة، راجع، Khalidi 1997. راجع كذلك: Kimmerling and Migdal 1993.

٨٣ حول إساءة الاستعمال المتغيّر للمصطلحات، راجع، 71 ،72-Shapira 2002. من ناحية أخرى، ينبغي الإدراك أن تعبير "مَحبليم" المتداول في وسائل الإعلام، والذي يتوجب أن تكون ترجمته الحرفية "مخرّبونَ"، يقصد به "إرهابيّون"، وهو ما ينطوي على دلالة سلبيّة أخلاقيًا.

٨٤ إلى جانب العديد من الهجومات في وسائل الإعلام، المرافعات الرئيسة المعادية لإسرائيل لسعيد، نجدها في مؤلفين اثنين "مسألة فلسطين" و"لوم الضحية" (Said 1980; Said and Hitchens 1988).

٨٥ حول تأثير سعيد على الباحثين الشرقيّين الشبّان، راجع، Tzur (forthcoming). أتقدّم بشكري إلى يارون تسور لإطلاعي على نسخة أوّليّة لهذا المقال.

٨٦ راجع على سبيل المثال، النشرة الجديدة لمعهد "فان لير"، حيفير وشنهاب وموسافي-هيلير (٢٠٠٢) (جميعهم أعضاء في مجموعة "تئوريا وُبيكورت" (نظرية ونقد).

٨٧ حول بداية هذه الجدل، راجع، Bar-On 1996, ch 2,3.

٨٨ راجع، على سبيل المثال، رسالة يعقوب طلمون التي نشرت في صحيفة "معاريف"، في تاريخ ١٦ أيار ١٩٦٩، تحت عنوان "رسالة مفتوحة للوزير يسرائيل غاليلي"، ولقد أحدث بروز البروفيسور طلمون الأكاديمي الكثير من الاهتمام الشعبي، وأثار العديد من ردود الفعل، ما بين مؤيّدة ومعارضة. كذلك راجع المقال الطويل للبروفيسور يهوشواع أريبلي والذي نشره تحت عنوان "مصير الديموقراطيّة الإسرائيليّة سيتحدّد في المناطق"، على مدار أربع حلقات في صحيفة "دافار" في تاريخ ٢، ٩، ١٥، وَ ٢٢ أيّار من عام ١٩٦٩.

٨٩ حول "حرب الاستنزاف"، راجع، Bar-Siman-Tov 1980، وملخّص موجز كتبه الكولونيل زوهار باللغة العبريّة (زوهار ١٩٧٧؛ كذلك، راجع، شيفتان ١٩٨٩).

٩٠ راجع، ياعيل غفيرتس، "الكبار يفقدون جميع الآمال"، يديعوت احرونوت (صحيفة)، ١٩٩٢, ١٠, ٢ (بالعبرية). نقد لاذع لهذه الحرب عديمة الجدوى وجّهه الكاتب المسرحي حانوخ ليفين، حيث عرض في تلك الفترة مسرحيته الشهيرة "ملكة حوض الاستحمام"، وتسبّب بضجة كبيرة. وعن موضوع تضحية الأهالي بأبنائهم الصغار، راجع: Karton-Blum 1995.

٩١ للاطّلاع على وصف جيّد للحرب وتشعبياتها القومية، راجع، Schiff 1974.

٩٢ للاطّلاع على تقرير موجز حول المسألة اللبنانيّة، راجع، Schiff and Yaari 1984; Yaniv 1987.

٩٣ لمزيد من التحليل المفصّل للعراقيل الفكريّة والأيديولوجيّة القائمة نحو تحقيق السلام، راجع، Bar-On 1999.

٩٤ مناحيم يعاري، "ملاحظات حول 'العلم في خدمة السلام'" (كلمة القيت في اجتماع مائدة مستديرة لجمعية 'اليونيسكو' في باريس يوم ١٢ تشرين ثاني ٢٠٠٢). أشكر البروفيسور مناحيم يعاري لمنحه إيّاي نسخة من خطابه هذا.

النكبة في التاريخ والحاضر

إيلان بابه

إيلان بابه هو باحث ومحاضر في موضوعي التاريخ والعلوم السياسية في جامعة حيفا والمدير الأكاديمي لمعهد أميل توما للدراسات الاسرائيلية والفلسطينية. أصدر العديد من الدراسات التي كان لها أصداء واسعة بسبب فيها التيار النقدي في الكتابة التاريخية الإسرائيلية والمعروف باسم "المؤرخون الجدد"، وقد أعتبر بابه من أهمهم.

مقدمة

إن عام ١٩٤٨، بالنسبة للإسرائيليّين، هو عام وقع فيه حدثان يناقض أحدهما الآخر: من الناحية الأولى، ادّعت الحركة القوميّة اليهوديّة بصيغتها "الصهيونيّة" أنّها حقّقت حلمًا قديمًا بالعودة إلى الوطن بعد ٢٠٠٠ عام من الاغتراب. من هذا المنظار، يظهر عام ١٩٤٨ في الذاكرة الإسرائيليّة اليهوديّة الجماعية كحدث رائع. إنه باب من التاريخ لا يقتصر على بثّ النصر أو تحقيق الأحلام، بل إنه يقترن بنقاء أخلاقي وعدالة مطلقة. لذلك، فإن كل ما حدث في ذلك العام يؤثر تأثيرًا كبيرًا على أبسط القيم في المجتمع الإسرائيليّ المعاصر. من هنا، فإن السلوك العسكري للجنود اليهود في ساحات المعارك في عام ١٩٤٨ أصبح نموذجًا للأجيال التي تلت، كما أن طرق تفكير القيادات السياسيّة في تلك السنوات ما زالت تشكّل نماذج مثالية لنخبة قيادات المستقبل. وصفت تلك القيادات بأنهم أناس كرّسوا أنفسهم لمفاهيم الصهيونيّة، ورجال أهملوا مصالحهم الشخصيّة في سبيل القضيّة العامة. إنه عام تلفه هالة من القدسية، يجري تبجيله بعدّة طرق كأساس لكل ما هو جيّد في المجتمع اليهوديّ الإسرائيليّ. ومن الناحية الأخرى، يمكن القول إنه من أسوأ الفصول في التاريخ اليهوديّ. في ذلك العام، فعل اليهود في فلسطين ما لم يفعلوه في مكان آخر خلال الأعوام الألفين السابقة. حتّى إذا وضعنا جانبًا الجدل التاريخي حول أسباب ما حدث في عام ١٩٤٨، ليس هناك من يشكّ في فداحة المأساة التي حلّت بسكان فلسطين الأصليّين نتيجة لظهور ونجاح الحركة الصهيونيّة. في ذلك العام، قام اليهود بأعمال الطرد والذبح والتخريب والاغتصاب، وتصرفوا -بصورة عامة- كما تصرّفت حركات الاستعمار الأخرى التي عملت في الشرق الأوسط وأفريقيا منذ بداية القرن التاسع عشر.

في الظروف العادية، وكما قال إدوار سعيد في كتابه الرائع "الثقافة والاستعمار"، يتحتّم على الحوار المؤلم مع الماضي أن يساعد مجتمعًا ما على هضم أكثر لحظات تاريخ الأمة شرًا وأكثرها مجدًا. ولكن ذلك لا يؤثر في حالة تعتبر فيها الصورة الذاتية الأخلاقية من أهم الركائز في المعركة لكسب الرأي العام، وبالتالي، أفضل الأساليب للنجاة في بيئة معادية. وكحلّ لهذه المشكلة، اختار المجتمع اليهوديّ في الدولة الجديدة محو الفصول البشعة من الذاكرة الجماعية وإبقاء الفصول المشرقة على حالها. لقد كانت تلك آليّة محسوبة جُندت لحلّ توتّر مستحيل بين رسالتين متناقضتين آتيتين من الماضي. لم تكن هذه المهمة سهلة، ذلك أنّ العديد من الناس الذين يعيشون في إسرائيل عاشوا كذلك خلال عام ١٩٤٨. هذا العام ليس ذاكرة بعيدة؛ والجرائم ما زالت واضحة في الأراضي المحيطة لكي تشهد عليها الأجيال الحاضرة وتدرك معانيها. والأهم من ذلك أنّ هناك ضحايا أحياء يسردون قصتهم، وبعد موتهم سيقوم أحفادهم – الذين سمعوا قصص عام ١٩٤٨ الرهيبة – بالتعبير عن رأيهم للأجيال القادمة. وهناك أناس في إسرائيل يعرفون تمامًا ما فعلوه، وهناك عدد أكبر من الذين يعرفون ما فعله الآخرون من أبناء شعبهم.

ومع هذا، فإنّ السلطات الإسرائيليّة ما زالت تنجح في إزالة هذه الأعمال كليًّا من الذاكرة الجماعية، وفي الوقت نفسه تكافح بكلّ صرامة ضدّ كلّ من يحاول تسليط الضوء على هذه الفصول المثيرة للاشمئزاز من تاريخ عام ١٩٤٨، في داخل إسرائيل وخارجها. إذا عاينت الكتب المدرسية الإسرائيليّة وبرامج التدريس ووسائل الإعلام والجدل السياسيّ، ستلاحظ الغياب التامّ لهذه الفصول – فصول الطرد؛ والاستعمار؛ والمذابح؛ والاغتصاب؛ وحرق القرى – من التاريخ اليهوديّ. في المقابل، استُبدِلت هذه الفصول بفصول الشجاعة، والحملات العسكرية المجيدة، والقصص المدهشة عن الشجاعة الأخلاقية والكفاءة العسكرية التي ليس لها مثيل في تاريخ تحرير شعوب أخرى في القرن العشرين.

لذا، سيكون من المجدي استهلال هذه المقالة بإشارة مختصرة إلى الفصول المنكرة من تاريخ عام ١٩٤٨. بعض هذه الفصول غائبة حاليًا من الذاكرة الجماعية الفلسطينيّة. فقدان الذاكرة في الحالتين ينتج عن الطريقتين المختلفتين للتعامل مع الماضي: رفض اليهود الإسرائيليّين الإعتراف، أو بتحمل المسؤولية عما حدث في عام ١٩٤٨، بينما يبدي الفلسطينيّون، كمجتمع ضحايا، القليل من الرغبة لعيش صدمات الماضي من جديد. ولهذا السبب، نرى، في كلا الجانبين، أن الذاكرة الشعبية والتصوير الأكثر مهنية للماضي لم يكن قادرًا أو مستعدًا لرسم صورة واضحة لوقائع عام ١٩٤٨.

فصول الشرّ المشطوبة

لقد تمّ تغطية المناورات السياسيّة والحملات العسكريّة التي جرت أثناء حرب ١٩٤٨ جيّدًا في كتابة التاريخ الإسرائيليّ اليهوديّ. أمّا الفصل المفقود هناك فهو ذلك الفصل الذي يتحدّث عن التطهير العرقيّ الذي ارتكبه اليهود في عام ١٩٤٨. وكانت نتيجة تلك الحملة تدمير نحو ٥٠٠ قرية فلسطينيّة وَ ١١ مدينة، وطرد نحو ٧٠٠ ألف فلسطينيّ، وذبح عدة آلاف آخرين.[١] حتّى في أيامنا هذه، من الصعب العثور على تقارير دقيقة حول التخطيط والتنفيذ وانعكاسات هذه النتائج الفاجعة.

في تشرين الثاني من عام ١٩٤٧، اقترحت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين إلى دولة يهوديّة ودولة عربية كأفضل حلّ للصراع. كان هذا المخطّط مليئًا بالمشاكل لثلاثة أسباب رئيسية:

أوّلها: أنّه لم يُعرض على الجهتين المتحاربتين كأساس للمحادثات، بل كإنجاز لا يمكن التراجع عنه، مع أن الأمم المتحدة كانت على علم برفض الفلسطينيّين الكامل للمبادئ الداعمة لهذه الخطة. والمسار البديل، كما اقترحته بعض الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، ولاحقًا اعترفت وزارة الخارجية الأميركية بأنه الخَيار الأفضل، كان البدء في ١٩٤٨ بمحادثات لعدة سنوات تحت رعاية الأمم المتحدة. من الناحية الأخرى، كان المخطط الذي اقترحته الأمم المتحدة يمثل بإخلاص الإستراتيجيّة والسياسة الصهيونيّتين. لم يكن من المعقول اعتبار فرض إرادة جهة واحدة، عن طريق وكالات الأمم المتحدة، وصفة للسلام بل وصفة للحرب. ولقد نظرت الجهة الفلسطينيّة إلى الحركة الصهيونيّة كما نظر الجزائريّون إلى المستعمرين الفرنسيّين. وكما كان من غير المعقول للجزائريّين أن يوافقوا على مشاركة المستوطنين الفرنسيّين في أرضهم، كذلك كان من غير المقبول على الفلسطينيّين أن يقتسموا فلسطين مع الحركة الصهيونيّة. لقد أدرك الفلسطينيّون أن الحالتين مختلفتان، وطالبوا بفترة محادثات أطول، ولكنهم لم يحظوا بذلك.

ثانيها: أنّه اقترُح على الأقليّة اليهوديّة (٦٦٠ ألف من بين مليونين) الجزءُ الأكبر (٥٦٪) من الأرض. وهكذا بدأ التقسيم المفروض باقتراح غير عادل.

ثالثها: أنّه نتيجة للتوزيعة السكّانيّة في المجتمعين – الفلسطينيّ واليهوديّ – اشتملت الـ ٥٦٪ التي اقترِحت كدولة لليهود على عدد متساوٍ من اليهود والفلسطينيّين. وقد اتّفق جميع الزعماء

الصهاينة، من اليسار إلى اليمين، على الحاجة إلى المحافظة على أكثريّة يهوديّة ساحقة في فلسطين. وفعلًا، اعتبروا غياب مثل هذه الأكثريّة نهاية للصهيونيّة. وكان على الذين توافرت لهم حتّى المعرفة السطحية بالأيديولوجيا والإستراتيجية الصهيونيّتين من مخططي السلام في الأمم المتحدة أن يدركوا أنّ واقع هذه التوزيعة السكّاني سيؤدي إلى التطهير الكلّيّ للسكّان المحلّيين من الدولة اليهوديّة العتيدة.

في العاشر من آذار عام ١٩٤٨، أصدرت الهاغاناه (أكبر الحركات العسكريّة اليهوديّة في فلسطين) خطّة عسكريّة مفصّلة تُجهّز الجماهيرَ لجلاء الإنجليز المزمع عن فلسطين، والذي عُين لتاريخ ١٥ أيار عام ١٩٤٨. دفع الرفض العربي والرفض الفلسطينيّ الكاملان بالقيادة اليهوديّة إلى الإعلان أن مشروع قرار الأمم المتحدة قد احتُضر عمليًا. وفي أيار عام ١٩٤٧، كانت الوكالة اليهوديّة قد رسمت خريطة تشمل غالبية فلسطين، ما عدا الضفة الغربية كما نعرفها اليوم والتي منحت لشرقيّ الأردن، لتمثل دولة إسرائيل. ولقد وضعت خطة، في آذار ١٩٤٨، للاستيلاء على هذه الأجزاء التي كوّنت بمجملها ٨٠٪ من فلسطين. ولقد أُطلِق على هذه الخطة اسم "الخطة د" (لوجود ٣ خطط مفصلة سابقة تمّ في كل منها صياغة إستراتيجية صهيونيّة لمواجهة الواقع المتغيّر). ولقد أعطت "خطة د" ("دالِتْ" – في العبرية) الأوامرَ للقوات اليهوديّة بتطهير المناطق الفلسطينيّة التي ستسقط تحت سيطرتهم. لقد كان للهاغانا عدة فرق عسكرية تحت تصرفها، واستلمت كل فرقة لائحة بالقرى التي عليها احتلالها وتدميرها. كان التدمير مصير معظم القرى، وفي حالات غير عادية فقط أُمرت القوات بترك بعض القرى سليمة (Pappe 1992, 43–124).

استمرّت عمليات التطهير العرقيّ بين كانون الأول عام ١٩٤٧ وأواخر عام ١٩٥٠. كانت القرى تحاط من ثلاثة جوانب ويُترك الجانب الرابع للفرار والإخلاء. لم تنجح هذه الخطة في بعض الحالات، لأنّ العديد من أهل القرية بقوا في بيوتهم – وهنا ارتُكبت المجازر. كانت هذه الإستراتيجيّةَ الرئيسيّة لتهويد فلسطين.

لقد تمّت عملية التطهير العرقي على ثلاث مراحل: المرحلة الأولى من كانون الأوّل عام ١٩٤٧ حتّى نهاية صيف عام ١٩٤٨، حين تم تدمير المناطق الساحليّة والسهول الداخليّة وتم طرد سكانها بالقوة. المرحلة الثانية كانت في خريف وشتاء العامين ١٩٤٨/١٩٤٩، وشملت منطقتي الجليل والنقب.

بحلول شتاء ١٩٤٩، سكتت أصوات المدافع على أرض فلسطين. انتهت الجولة الثانية من الحرب، وانتهت معها المرحلة الثانية من التطهير العرقيّ، ولكن عملية الطرد استمرت لفترة طويلة حتّى بعد هدوء رياح الحرب. أما المرحلة الثالثة، فقد قُيِّض لها أن تستمر إلى ما بعد الحرب، حتّى عام ١٩٥٤ حين دُمّرت عشرات القرى وطُرِد أبناؤها. من بين نحو ٩٠٠ ألف فلسطينيّ من الذين عاشوا في المناطق التي صنفتها الأمم المتحدة كدولة يهوديّة لم يبق منهم إلا قرابة ١٠٠ ألف في بيوتهم وأرضهم أو على قرب منها. هؤلاء الذين بقوا أصبحوا، لاحقًا، الأقليّة الفلسطينيّة في إسرائيل. أمّا الآخرون، فقد طُردوا أو هربوا تحت التهديد بالطرد ومات بعض الآلاف في المذابح.

لقد دُمّرت المناظر الطبيعية الريفية – قلب فلسطين القروي – بما يحتويه من ألف قرية متنوعة الألوان وفاتنة الجمال. مُحِيَ نصف هذه القرى عن وجه الأرض، بمساعدة الجرافات الإسرائيليّة التي لم تكفّ عن العمل منذ آب ١٩٤٨ عندما قرّرت الحكومة الإسرائيليّة تحويل هذه القرى إلى أرض زراعيّة أو لبناء المستوطنات اليهوديّة على أنقاضها. كما أُقيمت لجنة للتسمية مَنحت بدورها المستوطناتِ اليهوديّةَ الجديدة أسماء "معبرنة" ومشتقة من الأسماء العربية الأصلية – وهكذا فقد حُوّلت لوبية إلى "ليفي"، وصفّورية إلى "تسيبوري". لقد وضّح دافيد بن غوريون (أوّل رئيس وزراء إسرائيليّ) أن هذه التسمية هي محاولة لمنع حق المطالبة بهذه القرى في المستقبل. ولقد حظيَ هذا المشروع بتأييد علماء الآثار الإسرائيليّين الذين أعطوا تخويلاً لهذه الأسماء، لا من باب السيطرة على سند المُلْكية فحسب، إنّما بدافع اعتقادهم أن سخرية القدر شاءت أن تعيد الخريطة القديمة لـ "إسرائيل القديمة" (بنفنيستي ٢٠٠١؛ Benvenesti 2000). فقد قام هؤلاء العلماء بجمع أسماء جغرافية من الكتاب المقدس وأطلقوها على القرى المدمَّرة.

لقد تم تمزيق وسحق المدن الفلسطينيّة بأساليب مشابهة. فالأحياء الفلسطينيّة في المدن المختلطة هدمت، وبقيَ القليل منها خاليًا وفي انتظار توطين المهاجرين اليهود القادمين من البلاد العربيّة فيها.

أمضى اللاجئون الفلسطينيّون شتاء عام ١٩٤٨ في معسكرات من الخيام زودتهم بها وكالات تطوّعيّة، وانقلبت معظم هذه المواقع لتصبح مكان سكنهم الدائم. أُستُبدِلت الخيام بأكواخ من طين أو صفيح أصبحت بدورها علامة مألوفة للوجود الفلسطينيّ في الشرق الأوسط. وكان الأمل الوحيد لهؤلاء اللاجئين، آنذاك، هو مشروع القرار ١٩٤ الذي قدمته الأمم المتحدة (١١ كانون

الأوّل/ديسمبر ١٩٤٨) والذي يعدهم بالعودة السريعة إلى بيوتهم. هذا واحد من العديد من الوعود الدولية التي قدمها المجتمع الدولي للفلسطينيّين، وما زال ينتظر التنفيذ حتّى يومنا هذا.

الكارثة التي حلّت بالفلسطينيّين تعرّف في الذاكرة الجماعية القوميّة باسم "النكبة" – المصيبة التي توقد مشاعر الفلسطينيّين وتشكل وقودًا لحركتهم الوطنيّة جاعلة من صورتهم الذاتية صورة مواطنين أصليّين بقيادة حركة تعتمد على حرب عصابات وترغب في إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، ولكن بنجاح محدود. أمّا ذاكرة الإسرائيليّين الجماعية، فتصوّر الحرب على أنّها عملية لحركة تحرير قوميّة حاربت فيها الإنجليز المستعمرين والعداء العربي وانتصرت عليهم جميعًا رغم كل العقبات. خسارتهم لواحد بالمئة من مواطنيهم يعكّر فرحة تحقيق الاستقلال، ولكنها لا تفقدهم الإرادة والعزم على تهويد فلسطين وجعلها الملجأ المستقبليّ ليهود العالم. لقد اتّضح أن إسرائيل أصبحت أخطر مكان سكن لليهود في النصف الثاني من القرن العشرين. يفضّل معظم اليهود السكنى خارج إسرائيل، وهناك العديدون منهم لم يروا أنفسهم جزءًا من المشروع اليهوديّ في فلسطين، ولم يرغبوا في ربطهم بالنتائج الأليمة لهذا المشروع في فلسطين. ولكن أقلّيّة صاخبة من يهود الولايات المتحدة استمرت في إعطاء الانطباع وكأن يهود العالم يصفحون عن اجتثاث الفلسطينيّين وأحداث ١٩٤٨. الوهم الذي مفاده أنّ أكثريّة اليهود أعطوا الشرعية لكل ما فعلته إسرائيل عام ١٩٤٨ وما بعده، عقّد، وبصورة خطرة، علاقاتِ الأقليّات اليهوديّة في العالم الغربيّ مع بقية المجتمع، وخاصّة في الأماكن التي أصبح فيها الرأي العام منذ عام ١٩٨٧ أكثر عداوة لسياسات إسرائيل تجاه فلسطين.

التوثيق المهنيّ والنكبة

لقد سيطر التصوير الإسرائيليّ الصهيونيّ لحرب عام ١٩٤٨ على العالم الأكاديمي حتّى السنوات الأخيرة الماضية، ومن المرجّح أنّه، لهذا السبب أيضًا، سيطر على ذاكرة الجمهور العامة في ما يتعلّق بالنكبة. وهذا يعني أن أحداث عام ١٩٤٨ وصفت كحرب شاملة بين جيشين. هذا الافتراض يتطلب خبرة مؤرخين عسكريين قادرين على تحليل الإستراتيجية العسكرية وخطّط كلا الطرفين. العمليات والفظائع هي جزء من مسرح الحرب، حيث يتمّ الحكم على الأمور استنادًا إلى الأسس الأخلاقية، بطريقة مختلفة عن تلك التي تسخّر في الحكم عليها في ظروف بعيدة

عن المعارك. فمثلاً، ومن خلال هذا المفهوم، إن موت المدنيّين أثناء المعارك أصبح أمرًا مقبولاً كجزء لا يتجزّأ من ساحات القتال، ويُعتبر عملاً ضروريًا في المحاولة الأكبر لكسب الحرب (مع أنه بطبيعة الحال، وحتّى إبّان الحرب، ثمّة فظائع استثنائية مرفوضة، ويعتبرها خبراء التاريخ العسكريّ أعمالاً غير شرعيّة).

هذا الرأي يستلزم كذلك فكرة التكافؤ في القضايا المتعلقة بالمسؤولية الأخلاقية عن تطوّر الأحداث على الأرض – ويشمل ذلك، في هذه الحالة، الطرد الجماعيّ للسكّان الأصليّين. هناك حالات – معظمها إسرائيليّة أو متعاطفة مع وجهة النظر الإسرائيليّة – حاول ذووها إثبات 'موضوعيّة' وَ 'أكاديميّة' مثل هذا النموذج للموازنة بين الطرفين؛ بينما ادّعت الرواية الفلسطينيّة أنّه لم يكن في عام ١٩٤٨ جيشان مسلّحان ومزوّدان بالدرجة عينها، بل كان هناك طارِد ومطرود، منتهِك وضحاياه، علمًا بأنّ بعض الجهات نظرت إلى هذا السرد وكأنه مجرّد دعاية.

أرى أنّه تنبغي مراجعة أحداث ما بعد أيار عام ١٩٤٨ في إسرائيل وفلسطين من منطلق نموذج التطهير العرقي، وليس كجزء من تاريخ عسكريّ فحسب. من الناحية التاريخية، هذا يعني أن الأعمال كانت جزءًا من السياسة الداخلية طبقها نظام ضد المدنيّين – في كثير من الأحيان، وقع التطهير العرقي داخل دولة إسرائيل حسب تصنيف الأمم المتحدة، وبهذا يكون الأمر بمثابة عمليات قام بها نظام ضدّ مواطنيه. لقد وصف فلسطينيّ من سكان قرية الطنطورة هذا الواقع الجديد أفضل من وصف أي مؤرخ، فقد أصبحت قريته الساحلية – الواقعة على مسافة ٣٠ كم جنوب حيفا – جزءًا من الدولة اليهوديّة حسب قرار التقسيم ١٨١ الصادر عن الأمم المتحدة (١٩٤٧/١١/٢٩) في ١٥ أيار عام ١٩٤٨. في الثالث والعشرين من ذلك الشهر، وجد هذا الرجل نفسه، كبقية سكان القرية، في سجن في أم خالد (٣٠ كم جنوب قريته)، وبعد أن جلس هناك لمدة سنة ونصف، طُرد إلى الضفة الغربية: "لقد أصبحتُ سجين حرب، بدل أن أصبح مواطنًا، بعد أن قامت دولتي الجديدة باحتلالي بأيّام معدودة". لقد كان هذا الشخص ولدًا صغيرًا آنذاك – وليس "جنديًّا معاديًا". كان حظّه أفضل من حظّ آخرين من أترابه الذين ذُبحوا في تلك القرية. لم يجرِ كل ذلك في ساحة حرب بين جيشين، بل في منطقة مدنية احتلّتها فرق عسكرية. وكانت العقيدة العرقية وسياسة الاستيطان والإستراتيجية الديموغرافية العواملَ الحاسمة في هذه الحالة، لا الخطط العسكرية. كما كانت المجازر – سواء تلك التي ارتُكِبت بسابق تصميم أم تلك التي لم تُرتكَب بمثل ذلك – جزءًا عاديًّا لا يتجزّأ من أعمال التطهير العرقي، رغم أن التاريخ علّمنا أنه في

أكثر الأحيان فُضِّلت أساليب الطرد عن القتل.

الدليل الذي يبحث عنه المؤرخون في أرشيف النظام الذي ارتكب عمليات التطهير العرقي يمنع تكوين صورة واضحة لما جرى؛ وذلك أنّ هذا النظام سعى منذ البداية إلى إخفاء نواياه، وتمثّل ذلك في لغة الأوامر التي أصدرها والتقارير التي تلت كلاً من الأحداث. وهذا ما يجعل الدلائل - على الضحايا وضدّ مرتكبي هذه الأعمال - ذات أهمية بالغة لمساعدتنا اليوم في إدراك ما حدث آنذاك. إنّ عملية إعادة بناء الصورة الحقيقية لما حصل تعتمد، إلى مدى بعيد، على سدّ الفجوة بين الذاكرة الجماعية والذاكرة الفردية لكل من الضحايا ومرتكبي هذه الأعمال على حدّ سواء.

إنّ النموذج المثاليّ للتطهير العرقيّ يبيّن لنا سبب اعتماده، في الأساس، على أسلوب الطرد لا على المجازر. وكما اتّضح من حروب البلقان في التسعينيّات، وقعت مجازر متفرّقة بدافع الثأر، وليس جزء من خطّة محسوبة. ولم تكن مساهمة هذه المجازر في تنفيذ خطّة خلق وقائع عرقيّة جديدة بأقلّ من مساهمة الطرد المنظّم.

إنّ العمليّات اليهوديّة عام ١٩٤٨ تتناسب مع تعريف التطهير العرقي الذي قدمته تقارير الأمم المتحدة عن حروب البلقان في التسعينيّات. لقد ربط مجلس الأمم المتّحدة لحقوق الإنسان الرغبةَ في فرض الحكم العرقي في منطقة مختلطة - وهذا ما فعلته صربيا الكبرى - بأعمال الطرد وأساليب عنيفة أخرى. لقد عرّف القرار أعمال التطهير العرقي على أنّها تشمل تفريق الرجال عن النساء واعتقال الرجال، وتفجير البيوت، وإعادة توطين مجموعة عرقية أخرى فيما بعد. هذا يمثل بالضبط كلّ ما امتلكه الجنود اليهود من مهارات وقدرات أثناء حرب عام ١٩٤٨.

ذكرى النكبة في نظر الجمهور

تُنكَر قصة التطهير العرقيّ داخل إسرائيل، وعلى لسان حكوماتها. أصبحت أساليب الإنكار نشيطة جداً في إسرائيل، وفي أوساط مؤيديها الغيورين في الولايات المتحدة، لأنّ الآراء المطروحة هنا تكشف عن أسئلة أكثر عمقًا. من أكثر هذه الأسئلة أهمية ماهيّة الصلة بين الفكر الصهيونيّ، بصورة عامّة، والجرائم التي ارتُكبت عام ١٩٤٨. وكما برهن الآخرون فعلاً، إنّ الطرد الساحق كان نتيجة حتميّة لإستراتيجية يرجع تاريخها إلى أواخر القرن التاسع عشر. لقد

ظهرت أيديولوجيا التهجير هذه في اللحظة التي اتّضح فيها لزعماء الحركة الصهيونيّة أنّ إقامة دولة يهوديّة في فلسطين لن يمكن تحقيقه ما بقي سكان فلسطين الأصليّون على الأرض. كان وجود مجتمع محلّيّ وثقافة أمرًا معروفًا لمؤسّسي الصهيونيّة، حتّى قبْل أن يدوس أول المستوطنين تلك الأرض. لقد تنبّأ ثيودور هيرتسل، مؤسّس الحركة الصهيونيّة، أن حلمه بقيام دولة يهوديّة في فلسطين سيستوجب طرد السكان الأصليّين كما عملت فعلاً قيادة "الهجرة الثانية" – الشبيهة صهيونيًّا بالجيل الأوروبي الذي وصل إلى أمريكا على متن سفينة "ميفلاوار".[٢]

تمّ تبني أسلوبين لتغيير الواقع في فلسطين وفرض التفسير الصهيونيّ على الواقع المحلّيّ: انتزاع ملكية الأرض من سكانها الأصليّين، وإعادة توطين تلك الأرض بالقادمين الجدد – أي الطرد والاستيطان. كما دَفعتْ هذا الجهدَ الاستعماريَّ إلى الأمام حركةٌ لم تكتسب بعد الشرعية الإقليمية أو الدولية، ولذا كان عليها شراء الأراضي لخلق جيوب عرقية في وسط المواقع التي يقطنها السكّان الأصليّون. ساهمت الإمبراطورية البريطانية مساهمة كبيرة في تنفيذ هذه الخطة. وفهم زعماء الصهيونيّة، منذ بداية الأيديولوجيا الصهيونيّة، أنّ عملية الاستيطان هي عملية بطيئة، وأنّ تطبيقها يستدعي الحذر ولجم الحماس، ما قد لا يحدّ من إمكانية تحقيق الأحلام الثورية للحركة ورغبتها في تغيّير الواقع على الأرض وفرض تفسيرها الخاصّ لتاريخ البلاد وحاضرها ومستقبلها. ولهذا، أصبحت الحركة بحاجة إلى اعتماد أساليب أكثر جدية، كالتطهير العرقي والتهجير.

كان ثمّة ربط قويّ داخل الفكر والممارسة الصهيونيّين بين التهجير والتطهير العرقي كأساليب لتهويد فلسطين وبين استغلال 'الفرص التاريخيّة' التي تعني ظروفًا مناسبة – مثل كون العالم غير مبالٍ، أو "ظروف انقلابيّة" كالحرب. لقد تمّ تفسير هذا الربط بين الغاية والتوقيت بصورة واضحة في رسالة بعث بها دافيد بن غوريون إلى ابنه عاموس عام ١٩٣٧. ومنذئذٍ ظهرت هذه الفكرة في خطابات بن غوريون لأعضاء حزبه "مباي" طوال فترة الانتداب حتّى لحظة سنوح مثل هذه الفرصة عام ١٩٤٨ (Teveth 1985, 189).

من غير المفاجئ أن نقرأ اليوم في الصحافة الإسرائيليّة أنّ أرئيل شارون يعتبر نفسه بن غوريون الجديد الذي سيقوم بتسوية القضيّة الفلسطينيّة تسوية أبديّة. وبينما تضلّل وسائل الإعلام الغربية، بغية جعلها تظنّ أنّ هذا جزء من جدل جديد تمّ تبنّيه عن السلام أو عن داعية سابق للحرب، فإنّ

الأمر في الحقيقة تصوير مُعاصر وأبديّ الإخلاص لبحث بن غوريوني عن لحظة انقلابية أخرى لدفع أو إكمال عملية محو عروبة فلسطين وتهويدها التي كانت قد بدأت عام ١٨٨٢.

الصراع ضدّ التنكّر للنكبة

لقد ساعد رفض وجود الفلسطينيّين كشعب على التنكر للنكبة في إسرائيل والغرب – الجملة سيئة الصيت على لسان رئيسة الوزراء الإسرائيليّة غولدا مئير في عام ١٩٧٠ هي أحسن مثل على هذا الموقف. وباقتراب نهاية الثمانينيّات، وكنتيجة للانتفاضة الأولى، طرأ بعض التحسّن في الوضع حينما بدأت وسائل الإعلام الغربية بالتعامل مع الفلسطينيّين بصورة اكثر إنسانية، وإدخالهم إلى مجال الدراسات الشرق أوسطية كموضوع شرعي للدراسة. في تلك الأعوام، كانت الشؤون الفلسطينيّة، الأكاديمية أو الشعبية، يقتصر البحث فيها على أكاديميّين خدموا في الماضي كخبراء في أجهزة المخابرات في هذا الموضوع، وكانت لهم علاقات وطيدة مع أجهزة الأمن والجيش الإسرائيليّ. ولهذا، قامت وجهة النظر الأكاديمية هذه بمحو النكبة كحدث تاريخيّ، ومنعت الأكاديميّين والباحثين المحليّين من تحدّي التنكر الشامل والتعتيم على هذه الكارثة في العالم خارج البرج العاجيّ الجامعيّ.

أساليب النفي داخل إسرائيل فعّالة جداً لكونها أساليب ضيقة لتشريب الآراء، ولكونها تغطّي حياة المواطن من المهد إلى اللّحد. إنّها تكفل للدولة أنّ لا يكون مواطنوها مرتبكين بفعل الحقائق والواقع، وأنّ ينظروا إلى الواقع بطريقة لا ينتج عنها أي مشاكل أخلاقية.

ظهرت في حقبة الثمانينيّات تصدّعات في حائط النفي. ففي إسرائيل، كما في الغرب، طفق الكشف عن جرائم الحرب الإسرائيليّة منذ ١٩٨٢ في وسائل الإعلام العالميّة يطرح أسئلة مثيرة للقلق عن التصوّر الذاتيّ لإسرائيل المتمثّل في كونها الدولة الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، أو كمجتمع ينتمي إلى عالم الحقوق الإنسانية والمدنية والقيم الكونية.

كان لظهور التاريخ النقدي في إسرائيل في أوائل التسعينيّات، والمعروف باسم 'التاريخ الجديد'، الفضل في إعادة النكبة إلى مركز الجدل الأكاديمي والشعبي حول هذا النزاع، وهو ما أضفى الشرعية على السرد الفلسطينيّ، بعد أنّ صوّره، طَوال عدة سنوات، صحفيّون وسياسيّون

وأكاديميّون غربيّون على أنّه دعاية كاذبة.

ظهر التحدي للتصوير الصهيونيّ لحرب عام ١٩٤٨ في عدّة جوانب من الإنتاجات الثقافية – في وسائل الإعلام؛ وفي المجتمع الأكاديمي والفنون الشعبيّة. ولقد أثّر هذا على الجدل في الولايات المتحدة وإسرائيل، ولكن ذلك لم يخترق الحلبة السياسيّة. لم يتعدَّ 'التاريخ الجديد' كونَهُ بعض الكتب المهنيّة والتي كُتِبتْ بشأن حرب عام ١٩٤٨ باللغة الإنجليزية وتُرجم بعضها إلى اللغة العبريّة، ومكّنت كل من يرغب التعلم أنّ يتعلم كيف قامت الدولة اليهوديّة على أنقاض سكان فلسطين الأصليّين، الذين تمّ تدمير أرزاقهم وبيوتهم وثقافتهم بصورة منظّمة.

كان ردّ فعل الرأي العامّ في إسرائيل آنذاك يتراوح بين اللامبالاة والرفض الكامل لاكتشافاتنا. وتمّ توجيه الناس، بتردّد، عن طريق وسائل الإعلام وأجهزة التعليم، لإلقاء نظرة جديدة على الماضي. ولكن، عملت المؤسّسة الرسميّة، على مستويات أعلى، كلّ ما في وسعها لسحق البراعم الأولية من معرفة النفس الإسرائيليّة والاعتراف بدور إسرائيل في الكارثة الفلسطينيّة – هذا الاعتراف الذي كان من شأنه أن يساعد الإسرائيليّين على فهم أفضل لمأزق عملية السلام (Flapan 1987; Kimmerling 1983; Morris 1987; Shlaim 1988; Pappe 1992).

كان لهذا التحوّل في الإدراك الأكاديمي وقع غير ملموس على وسائل الإعلام والمشهد السياسيّ خارج العالم الأكاديمي في الغرب، بصورة عامة، وفي الولايات المتحدة وإسرائيل بصورة خاصّة. ما زالت بعض المصطلحات (مثل 'التطهير العرقي' و 'الطرد') غريبة كلّ الغرابة، حتّى يومنا هذا، لدى السياسيّين والصحفيّين وعامّة الشعب في أميركا وإسرائيل اليهوديّة. وقد شُوّشت أو غُيّبت فصول الماضي، ذات الصلة الوثيقة والقادرة على تبرير قاطع لهذه المصطلحات، من ذاكرة الشعب.

إن القيام بتحليل أعمق لهذه القضيّة سيساعدنا على فهم المصطلح 'الرأي العام الغربي'. فمنذ بداية التسعينيّات، شرعت في الظهور مبادرات جديدة في العديد من الدول الأوروبية، لنقل تاريخ اللاجئين إلى الحاضر؛ ولكن من المبكر أن نحكم على قدرة هذه الجهود – التي تبذلها جمعيات غير حكومية وداعمة للفلسطينيين – في التأثير على سياسات الحكومات. وكانت هناك مؤشرات لتحرّكات في نفس الاتجاه في الولايات المتحدة حيث عقد المؤتمر الأميركي الأوّل لحق العودة في نيسان من عام ٢٠٠٠ بحضور ألف ممثل من جميع أنحاء البلاد.[٣] ولكنّ فشلت هذه الجهود، طوال

الخمسة عشر عامًا الماضية وحتّى الآن، في الوصول إلى معقل السلطة التشريعية الأميركية، أو إلى صحيفة النيويورك تايمز، أو إلى البيت الأبيض. لقد وضعت أحداث ١١ أيلول (٢٠٠١) حداً لهذه الميول الجديدة وأنعشت العداوة القديمة تجاه الفلسطينيّين داخل أميركا.

التنكّر للنكبة وعمليّة السلام الفلسطينيّة-الإسرائيليّة

لم تترك حركات النقد الأكاديمية داخل إسرائيل وفي الغرب، مع نظرتها الجديدة للتطهير العرقي الذي كان عام ١٩٤٨، أثرًا يذكر على دولة إسرائيل – حتّى قبل أن يتأثر الرأي العام الأميركي تأثّرًا جذريًا بحوادث ١١ أيلول. لم يكن لهذه الحركات النقدية أيّ وقع على جدول أعمال السلام الفلسطينيّ/ الإسرائيليّ، رغم أنّ فلسطين وقفت في بؤرة هذه الجهود تمامًا في الوقت الذي علت هذه الأصوات الجديدة. وقف اتّفاق أوسلو، الذي بدأ حياته في أيلول عام ١٩٩٣، في مركز جهود السلام تلك. وكانت زبدة الفكرة من وراء هذه العملية، كما في جميع محاولات السلام السابقة في فلسطين، منبثقة عن فكرة صهيونيّة. ومن هنا، فقد أُديرت عملية السلام عام ١٩٩٠ واتّفاقيّة أوسلو، فيما بعد، بحسب المفهوم الإسرائيليّ للسلام، والذي تُغيَّب النكبة من خلاله تغييبًا كاملاً. صمّم صيغة أوسلو مفكرون إسرائيليّون تابعون لمعسكر السلام اليهوديّ، وهم أناس أدّوا دورًا هامًّا في المشهد العام الإسرائيليّ منذ عام ١٩٦٧. لقد نشأوا في حركة غير برلمانية قديمة تدعى 'السلام الآن' تلقت تأييد العديد من أحزاب البرلمان الإسرائيليّ، وكانوا قد تجنبوا قضيّة ١٩٤٨، وهمّشوا مسألة اللاجئين في جميع سجالاتهم وخططهم السابقة. لقد فعلوا الأمر ذاته عام ١٩٩٣، ولكن ترافق الأمر، في هذه المرة، مع العواقب الوخيمة الناتجة عن مشروعهم المتفائل بتحقيق السلام حينما تبينّ أنّهم وجدوا شريكًا فلسطينيًا لفكرة سلام تؤدي إلى دفن نكبة عام ١٩٤٨ وضحاياها.

في اللحظة الأخيرة، وبعد أن أدرك الفلسطينيّون أنّه، إضافة إلى عدم تنفيذ انسحاب فعليّ أو حقيقيّ من الضفّة الغربيّة المحتلّة، لا يَطرح الاتّفاق حلاً لمشكلة اللاجئين، تمرّدوا بسبب خيبة أملهم. ولقد وصلت محادثات أوسلو ذروتها في مؤتمر القمّة الذي عُقد في كامب ديفيد بين رئيس الوزراء الإسرائيليّ السابق إيهود براك وياسر عرفات في صيف عام ٢٠٠٠، والذي ولّد الانطباع الخاطئ أنه يسعى لإنهاء الصراع. كانت النكبة، ومسؤولية إسرائيل في هذا الموضوع،

على رأس لائحة الطلبات الفلسطينيّة؛ بيد أنّ الفريق الإسرائيليّ رفض ذلك رفضًا تامًّا، ونجح في فرض وجهة نظره على المؤتمر. وتجدر الإشارة إلى أنّ الطرف الفلسطينيّ، الذي يستحق كل الثقة، نجح على الأقل، وإنْ لفترة وجيزة، في لفت انتباه الجمهور المحلّيّ والإقليميّ والعالميّ إلى كارثة عام ١٩٤٨. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ التنكّر المستمر في عملية السلام هو التفسير الرئيسي لفشلها؛ والانتفاضة في الأراضي المحتلة ما هي إلا نتيجة طبيعية لهذا الفشل.

وتوجب الموقف ضرورة تذكير المهتمّين بالقضيّة الفلسطينيّة – ليس في إسرائيل فحسب، وإنّما، كذلك، في الولايات المتحدة، وحتّى في أوروبا – أنّ هذا الصراع لا يقتصر على مستقبل الأراضي المحتلة فحسب، بلّ أنّه يشمل، كذلك، مستقبل اللاجئين الفلسطينيّين الذين أُجبروا على ترك بيوتهم عام ١٩٤٨. وكان الإسرائيليّون قد نجحوا في إخراج قضيّة حقوق اللاجئين من اتّفاقيّة أوسلو؛ وهو هدف تمّ تحقيقه بفعل الإدارة السيئة للدبلوماسيّة والاستراتيجيّة الفلسطينيّتين.

كان قدّ تمّ بالفعل إبعاد النكبة إبعادًا تامًّا عن جدول أعمال عملية السلام، ولذا شعر الإسرائيليّون وكأنّ صندوق باندورا قد فُتح أمام أعينهم عند ظهورها المفاجئ على هذا الجدول. كان أسوأ مخاوف المفاوضين الإسرائيليّين أنّ هناك احتمالاً أن تصبح مسؤولية إسرائيل عن كارثة عام ١٩٤٨ الآن قضيّة قابلة للتفاوض، ووفقًا لذلك فقد تمّ التصدي لهذا 'الخطر' بصورة فورية. وقد تمّ بلورة موقف موحّد في أجهزة الإعلام الإسرائيليّة وداخل أروقة البرلمان الإسرائيليّ مفاده أنّه: لن يُسمح لأي مفاوض إسرائيليّ بمناقشة حق عودة اللاجئين الفلسطينيّين إلى البيوت التي سكنوها قبل عام ١٩٤٨. كما أصدرت الكنيست قانونًا يعبرّ عن هذا الموقف، وبعدها تعهد براك علنًا بتنفيذ هذا القانون أثناء وقوفه على سلّم الطائرة التي أقلّته إلى كامب ديفيد.

وعليه، يمكننا أن نلاحظ أنّه باستطاعة النقاش الجماهيري في إسرائيل وحاميها الإمبريالي أنّ يطرحوا أسئلة تشكّك في الشرعية الأخلاقية للمشروع بأكمله. لذلك، فإن مصير منهجية التنكر لا يكمن في هزم المطالبات المضادّة التي يطرحها الفلسطينيّون في عملية السلام، بل يكمن في سبب أكثر أهمّيّة، ألا وهو منع أي جدل ملموس حول جوهر الصهيونيّة وأسّسها الأخلاقية.

ولكن بعد حوادث ١١ أيلول البشعة واندلاع الانتفاضة الثانية، التي أفرزت موجات من المحاربين المنتحرين، اختفت – للمرة الثانية – علامات التصدّعات، وظهرت من جديد التنكّرات والممارسات السابقة ولكن بقوة وقناعة أشدّ.

نجح التحالُف الآثم بين المحافظين الجدد (المسيحيين الصهاينة) وَ 'آيباك' (APAC - American- Israel Public Affairs Committee) (مجموعة الضغط الأميركي المؤيد لإسرائيل)، منذ عام ٢٠٠١، في فرض قبضة مُحكمة على وسائل الإعلام الأميركية وطريقة عرضها للصراع في فلسطين. تساعد هذه الصورة إسرائيل على التنصل من المسؤولية تجاه سياسات ماضية وحاضرة، سياسات لو اتّبعتها دول أخرى لكانت قد أُلصِقت بها تهمة الدول المنبوذة.

احتمالات المستقبل

شاركت بصفة شخصيّة في النضال ضدّ التنكّر للنكبة في إسرائيل. وحين أعيدُ النظر في المحاولات التي قمت بها، بالإضافة إلى ما قام به آخرون، لإدراج النكبة على جدول أعمال الجمهور الإسرائيليّ، تظهر للعيان صورة مشوّشة. إنّني أكتشف تصدّعات في حائط التنكر والاضطهاد الذي يحيط بالنكبة في إسرائيل، وهذا ناتج عن الجدل حول 'التاريخ الجديد' في إسرائيل وعن جدول الأعمال السياسيّ الجديد للفلسطينيّين في إسرائيل. كما ساهم توضيح الموقف الفلسطينيّ تجاه قضيّة اللاجئين، في أواخر عملية سلام أوسلو، في توطيد معالم هذا الشعور العام. وكانت النتيجة أنّه، بعد أكثر من خمسين عامًا من الاضطهاد، أصبح من الصعب في إسرائيل إنكار طرد وتدمير الفلسطينيّين في عام ١٩٤٨. ولكن هذا النجاح النسبي جلب معه ردَّيْ فعل سلبيَّيْنْ تكوّنا بعد اندلاع انتفاضة الأقصى.

جاء ردّ الفعل الأوّل من المؤسّسة السياسيّة الإسرائيليّة، برئاسة حكومة شارون، ومن خلال وزارة تعليمه، بدءًا بالإزالة المنظّمة لجميع الكتب المدرسية أو المناهج الدراسية التي تتحدث عن النكبة، حتّى ولو بطريقة غير مباشرة. وكان ردّ الفعل الثاني أكثر إثارة للقلق، وشمل شريحة أوسع من الجمهور. ومع أنّ عددًا لا بأس به من السياسيّين والصحافيّين والأكاديميّين الإسرائيليّين توقفوا عن التنكّر لما حدث في عام ١٩٤٨، فإنّهم بالرغم من هذا على استعداد لتبريره علنًا، وليس فقط من باب استعادة أحداث الماضي، وإنّما كوصفة للمستقبل. لقد دخلت فكرة "التهجير" في الجدل السياسيّ الإسرائيليّ بصورة علنيّة، ولأوّل مرة، مكتسِبةً الشرعية كأفضل وسيلة للتعامل مع "المشكلة" الفلسطينيّة.

وللحقيقة، إذا طُلب منّي أن أختار أفضل وصف للردّ الإسرائيليّ الحاليّ على النكبة، فسوف أشير

إلى الشعبية النامية لخيار التهجير في فكر ومزاج الشعب الإسرائيليّ. "النكبة" – طرد الفلسطينيّين من فلسطين – تبدو الآن، للعديد ممّن هم في مركز الخارطة السياسيّة، كنتيجة يمكن تبريرها الآن، ولم يكن بالإمكان تفاديها آنذاك، لتنفيذ المشروع الصهيونيّ في فلسطين. وإذا كان هناك مجال للندم أو الحسرة، فسيكون ذلك بسبب عدم إكمال الطرد. وما سيساعد على منح الشرعية لخطط إسرائيليّة مستقبلية لمزيد من التطهير العرقي هو الواقع الذي يشارك فيه "مؤرّخ إسرائيليّ جديد"، مثل بيني موريس، الرأي الذي مفاده أنّه لم يكن بالإمكان تفادي الطرد، وأنه كان من المفروض أنّ يكون الطرد أكثر شمولاً.

لقد أصبح التهجير الخيار الرسمي والأخلاقي بتوصية من "المركز للدراسات المتعددة المجالات" في هرتسليا، الذي يقدّم الاستشارة للحكومة. لقد ظهر هذا كاقتراح خطّة عمل في وثائق قدّمها وزراء كبار من حزب العمل إلى حكومتهم. وهو يحظى علنًا بتأييد من أساتذة جامعات، ومعلّقين في وسائل الإعلام، وقلّة من الناس يجرؤون على إدانته. وفي الآونة الأخيرة، قام زعيم الأكثريّة في مجلس النواب الأميركي بالمصادقة عليه علنًا.

وبالتالي، فقد عاد بنا التاريخ إلى نقطة البداية في الدائرة. عندما استولت إسرائيل على ما يقارب ٨٠ بالمئة من فلسطين عام ١٩٤٨، فعلت ذلك من خلال الاستيطان والتطهير العرقي لسكان فلسطين الأصليّين. والآن هناك في البلاد رئيس وزراء يتمتع بدعم شعبي واسع النطاق، ويريد استعمال القوّة لتقرير مستقبل الـ ٢٠ بالمئة الباقين. وقد لجأ، كما فعل كلّ من سبقه من حزب العمل وحزب الليكود على حدّ سواء، إلى الاستيطان كأفضل وسيلة لتحقيق هذا، مضيفًا إلى ذلك تدمير البنية التحتية الفلسطينيّة المستقلة. إنه يشعر، وقد لا يكون مخطئًا في ذلك، أنّ المزاج الشعبي في إسرائيل سيسمح له بالذهاب إلى أبعد من ذلك، إذا رغب في تكرار التطهير العرقي، ليس للفلسطينيّين في الأراضي المحتلة، فقط، بل كذلك – إذا استدعى الأمر – للمليون فلسطينيّ المقيمين داخل حدود ما قبل عام ١٩٦٧.

وهكذا، لم تعد النكبة أمرًا يُنكَر في إسرائيل، بل على العكس تمامًا أضحى أمرًا يُعتزّ به. ولكن، تبقى القصة بأكملها بحاجة لأن تُسرد للإسرائيليّين، فربما بقي البعض بين سكان الدولة من ذوي الحسّ تجاه تصرف بلادهم في الماضي والحاضر. يجب تنبيه هذه الشريحة من السكان إلى حقيقة أنّه تمّ إخفاء أعمال إسرائيليّة مروّعة عام ١٩٤٨ عنهم، ويجب إعلامهم أيضًا أنّه من السهل تكرار

ذلك في يومنا هذا إذا لم يعملوا، مع الآخرين، على وقف هذه الأعمال قبل فوات الأوان.

لقد أصبح النضال ضدّ التنكّر للنكبة في إسرائيل جدول عمل بعض الجماعات الفلسطينيّة، الملتزمة بالقضيّة، داخل وخارج إسرائيل. منذ الذكرى الأربعين للنكبة عام ١٩٨٨، قرنت الأقليّة الفلسطينيّة ذاكرتها الشخصيّة والجماعية المتعلّقة بالكارثة، بطريقة لم يسبق لها مثيل، قرنتها بالوضع الفلسطينيّ العام، وخاصّة مع المأزق الذي يمرّ به حاليًا. ظهر هذا الربط من خلال سلسلة من الإشارات الرمزية، نحو: حفلات التأبين في يوم ذكرى النكبة؛ زيارات منظّمة لقرى مهجّرة أو قرى فلسطينيّة سابقة في إسرائيل؛ ندوات عن الماضي؛ مقابلات واسعة في الصحافة مع الذين عايشوا النكبة.

لقد تمكنت الأقلّيّة الفلسطينيّة في إسرائيل، من خلال قيادتها السياسيّة ومؤسّساتها غير الحكوميّة ووسائل إعلامها، من إجبار الجمهور الرحب على أخذ النكبة بعين الاعتبار. إعادة إبراز النكبة كموضوع للجدل العام سيعطل أيضًا أي خطط سلام مستقبلية مبنية على التنكّر للنكبة – مثل العديد من خطط ومبادرات عام ٢٠٠٣: خارطة الطريق؛ مبادرة أيالون نسيبة؛ واتّفاقيات جنيف.

هوامش

١ أحد الكتب التي تغطّي بشكل جيد أبعاد النكبة هو كتاب من تحرير الكاتبة د. غادة كرمي والقاضي الانجليزي فلسطيني الأصل اوجين قطران (Karmi and Cotran 1998).

٢ انظر، على سبيل التخصيص، أبحاث نور الدين مصالحة بالعربية (٢٠٠١، ١٩٩٧، ١٩٩٢) أو بالانجليزية (Masalha 2000, 1997, 1992).

٣ نشرت محاضرات هذا المؤتمر في كتاب ناصر عاروري (Aruri 2001).

الذاكرة الضائعة[1]

سميح شبيب

سميح شبيب هو محاضر في دائرة الفلسفة والتاريخ في جامعة بيرزيت. حصل على شهادة الدكتراه وعمل فترة طويلة في مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير في بيروت. عاد إلى البلاد بعد اتفاقيات أوسلو. له مؤلفات في التاريخ الثقافي والسياسي الفلسطيني الحديث.

مقدمة

تتحدثُ هذه الشهادة عن تجربة مركز الأبحاث الفلسطيني، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعن تجربته التوثيقية، من خلال تجربتي كمسؤول لقسم التوثيق والمكتبة خلال الأعوام ١٩٨٠-١٩٩٤. وخلال هذه الفترة، جرى نهب محتويات المركز بعد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت، حيث قامت تلك القوات، وبمساعدة خبراء إسرائيليين في التوثيق وعلم المكتبات، بنهب محتوياته بشكل منظم، ومن ثم نقلها إلى إسرائيل. وخلالها، أيضًا، وقع تفجير المركز يوم ٥ شباط (فبراير) ١٩٨٣، ومن ثم إغلاقه بقرار رسمي لبناني. وخلال تلك الفترة، أيضًا، أعادت إسرائيل محتويات المركز إلى الجزائر، عبر عملية تبادل للأسرى الإسرائيليين. جرت محاولات عدة لإنقاذ المكتبة ومحتوياتها الوثائقية، لكنها فشلت جميعًا، ولاقت المكتبة مصيرًا مأساويًا أسود فتبددت محتوياتها جميعها.

وترددت كثيرًا بنشرهذه الشهادة، لما فيها من مأساة مرّة، لكني أجد الآن أن ما حدث هو ملك للجميع، فالذاكرة الفلسطينية لا تعني فئة دون أخرى، وهي للجميع ومن حق الجميع أن يعرف حقيقة ما جرى، وغالبًا ما تكون الحقيقة قاسية ومرّة.

كان يوم ٥ شباط (فبراير) ١٩٨٣ يومًا مملاً وهادئًا داخل أروقة مركز الأبحاث الفلسطيني، الواقع في شارع كولومياني، وهو أحد تفرعات شارع الحمراء في بيروت. مرّت ساعات هذا اليوم متثاقلة، فالجميع يشعر بخطورة الموقف بعد إنذارات عديدة وصلت للمركز ولمديره شخصيًا، ومن مصادر مختلفة، بعضها صديق والآخر معادٍ، وجميعها تجمع على أن هناك عدوانًا مدبّرًا للمركز. كنّا نطلّ من نوافذ المركز، فنرى أفراد سرية من الدرك اللبناني تقوم بحراستنا وتأمين سلامتنا، فنشعر بشيء من الاطمئنان، على رغم تتالي الإنذارات.

اقتربت ساعة المغادرة، ذلك أن المدير العام للمركز صبري جريس كان شديد الحرص على الالتزام بالدوام وساعاته، وهي من الثامنة صباحًا حتّى الثانية ظهرًا، في تمامها وكمالها. ويبدو أن من راقب المركز وخطط لتدميره واغتياله واغتيال من فيه أخذ هذه الحقيقة في عين الاعتبار، وجعل من الساعة ١,٥٨ توقيتًا لانفجار سيارة ملغومة، حملت - وفقًا للتقارير الأمنية الرسمية اللبنانية - نحو ٣٠ كغم من الهوكسوجين - أي ما يعادل ٢٥٠ كغم من الديناميت.

عندما أزفت الساعة ١,٥٠ دقيقة، كنت لا أزال في الطابق السادس في غرفة مجاورة لمكتبي تشغلها زميلتي درية عبد الرحمن، وهي زوجة الباحث المعروف حسين أبو النمل، وكنا نتجادل بشأن ترجمة مفردة عبرية، وهي: رعنان - أي حيوي أو نشط أو طازج- إبان هذا النقاش، أطلّت علينا زميلة أخرى، وهي حنة شاهين جريس، وقالت: من سينزل معنا، وكان باب المصعد مفتوحًا. سارعنا إلى لملمة أوراقنا لنشاركها النزول، لكن خفة دم درية، وهي مصرية الأصل، أخذت وقتًا إضافيًا ما حمل حنة على النزول دوننا. لحظات عدة، أصبح الفضاء من حولنا أزرق لامعًا، ولم نسمع صوتًا على الإطلاق، وكان كل ما شاهدناه بريقًا قويًا وقطع زجاج تتطاير وجدرانًا تتهاوى، ولم ندرك حقًا ما حدث. احتاج الأمر إلى بضع دقائق لنكتشف أن ما حدث انفجار، وعلينا تأمين خروجنا بعد أن أحاطت بنا النيران من كل جانب.

سارعنا لإطفاء ما يمكن إطفاؤه، لكن زميلنا المحاسب صابر حنون كان ينزف من رقبته وكأنه مذبوح بسكين حادة. كان خائفًا يرتجف، حاولت مساعدته وإنقاذه. الغريب في الأمر أن سيارات الإسعاف والإطفاء تأخرت أكثر من عشرين دقيقة، على رغم جسامة الحدث وقوة الانفجار وعدد الضحايا من المدنيّين اللبنانيّين والدرك والعاملين في مركز الأبحاث. على رغم قوة النيران وكثافة الدخان، نزلت الدرج من الطابق السادس حتّى الثاني، لأكتشف أن لا درج، بعد ذلك قررت القفز، ففقزت وأنا أمسك بزميلي صابر، وصلت إلى الأرض فإذا بموظفيّ الاستقبال صبحي علوان وسليم عيساوي قد استشهدا على باب المركز، بعد أن لحق بهما تشويه لا يوصف. كان مدخل المركز أشبه ما يكون بساحة حرب، دماء وأشلاء وخراطيم مياه وسيارات إسعاف تنقل جثثًا محترقة. كانت زميلة لنا في الإدارة هي سعاد الحايك وسط الشارع، تصرخ صراخًا مأساويًا بعد أن فقدت قدميها، وكان ضباط الإسعاف يرون في حالتها حالة قابلة للتأجيل، نسبيًا. نقلت للمستشفى لكنها فارقت الحياة فيما بعد.

على الجانب الآخر من الرصيف، كان المدير العام للمركز صبري جريس يقف متمالكًا نفسه على نحو بطولي، يعطي التعليمات السريعة، آثرت الوقوف معه، على رغم بعض الجروح في ظهري وكتفي، بفعل الزجاج المتطاير. أخبرني أن زوجته قد أصيبت، وأنها نقلت إلى المستشفى، ولكن سرعان ما علمنا أنها فارقت الحياة!!

أسفر الانفجار عن استشهاد ثمانية من موظفي المركز، وهم:

صبحي علوان، وسليم العيساوي، ومحمد عزّام، وبهاء الدين منصور، وجنة شاهين، وصباح كردية، ومنى خطاب، وسناء عودة. كما أصيب ١٨ موظفًا آخر بجراح، بعضهم جراحه خطيرة. وهؤلاء هم: محمد الأعرج، وسعاد حايك، وسامية زغيب، وشادية المعتصم، وأنور الخطيب، وكامل قاسم، وفادية شعبان، وسهيل الناطور، وهلا ضيف الله، ويونس طه، ورويدة أبو عدس، وصابر حنون، وفياض أبو العردات، وسمر مكاوي، وزهية صباغ، ووفيقة صالح، ووفاء كيلاني، وعبد الله سكران. كذلك أسفر الانفجار عن استشهاد جنديين من وحدة الجيش اللبناني التي كانت تقوم بحراسة المركز، هما طوني شيت، وذياب حبقة. كما أدّى الانفجار إلى استشهاد عدد آخر من الأشخاص من زوار المركز أو المارة في الشارع العام، عرف من بينهم: لينا زهير العوف، ومصطفى بيساني، ووفاء خالد، وغنوة محمد ديب، وعيد مراد جرداق، وكارول الياس خوري. كما أصيب نحو ١٠٧ أشخاص آخرين بجراح طفيفة.

وإضافة إلى ذلك، هشّم الانفجار مبنى المركز، وحطّم معظم محتوياته، وأشعل النار في عدد من غرفه، كما أصيبت الأبنية المجاورة بأضرار بالغة.

لم يكن هذا الانفجار المروع أوّل الاعتداءات التي يتعرض لها مركز الأبحاث، فقد سبقته "مجموعة" من الاعتداءات المماثلة، وإن كانت أخف ضررًا.

ففي سنة ١٩٦٩ قام بعضهم بإلقاء متفجرة على مدخل مبنى المركز من سيارة مارّة على الطريق العام بسرعة، أدّى انفجارها إلى تحطيم زجاج المدخل.

وفي صيف عام ١٩٧٢، أرسل مغلّف ملغوم إلى المدير العام الأسبق للمركز الدكتور أنيس صايغ، فانفجر عند فتحه، وأصابه الانفجار بأضرار في يديه وعينيه وأذنه. وفي أواخر عام ١٩٧٤، أطلقت ٤ صواريخ على مبنى المركز من على ظهر سيارة كانت متوقفة في الساحة المحاذية له،

فأصابت المكتبة وأدّت إلى إتلاف بضع مئات من الكتب.

ثمّ توقفت الاعتداءات لبضع سنوات. يبدو أن المعتدين كانوا منهمكين خلالها في أمور أخرى، إلى أن استؤنفت العام الماضي.

فخلال تموز (يوليو) ١٩٨٢، انفجرت سيارة ملغومة قرب مبنى المركز، أدّى انفجارها إلى تحطيم أبوابه ومحتوياته، وإصابة حارس بجروح.

وفي الشهر التالي آب (أغسطس)، انفجرت سيارة مماثلة أخرى أحدثت أضرارًا أخفّ من تلك التي نجمت عن الانفجار السابق.

وفي الشهر الذي يليه أيضًا أيلول (سبتمبر)، قامت قوات الغزو الصهيوني أثناء اجتياحها بيروت الغربية بالسيطرة على مبنى المركز ونهب معظم محتوياته.

الغريب في الأمر أن الاستخبارات العسكرية اللبنانية أصدرت بيانًا رسميًا اتهمت فيه العاملين في المركز بتدبير الانفجار، وتخزين الأسلحة، وأصبحنا بعد مفارقة عجائبية أبقتنا على قيد الحياة مطلوبين للأجهزة الأمنية اللبنانية.

عدّتُ متثاقلاً إلى مخبئي، وأقول مخبأ، ليس مجازًا، بل حقيقة، ذلك أنه وبعد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت ١٩٨٢ لجأت إلى صديق جليل كان يسكن في فندق نابليون في شارع الحمراء، وهذا الصديق هو الأستاذ الجامعي الدكتور لوقا زودو، وكان لوقا شخصًا طريفًا للغاية، فهو رئيس للطائفة الأشورية، وله مؤلفات تاريخية متنوعة عن طائفته وتطوّرات حالها في العراق وسوريا ولبنان والمهاجر، وكان لقبه الفخري في طائفته الملك، وهو ملك غير متوّج. بعد مجزرة صبرا وشاتيلا طلبت مساعدته، فتريث قليلاً ثم طلب مني مرافقته إلى منزل يقع خلف فندق "ماي فلور" في أحد تفرعات شارع الحمراء. طرق باب منزل قديم، فتحت امرأة عجوز متثاقلة، رحبت بصوت أجش بالملك، فدخلت معه. كل ما في المنزل يوحي بمجد وعزّ كانا أيام زمان!!

نظرت في وجه مضيفتنا، فقرأت في تقاسيمه قصصًا متضاربة، بادر لوقا المضيفة بالقول: هذا الشاب كاتب فلسطيني، ويعمل بجواركم في مركز الأبحاث، فهل تستضيفينه خلال أيام قادمة؟!

رحّبت بتحفظ وهي تركز بصرها تجاهي.

تناول لوقا قهوته وسارع إلى الخروج، وعند وصوله للباب التّفت نحوي وقال: ها أنا في جناحي في الفندق، وكأنه يخبرني إن لم يكن هذا المكان مناسبًا فارحل! فهنالك مأوى آخر.

جلست قليلاً بانتظار ما ستقوله المضيفة، جلست قبالتي وقالت: أنا راحيل قربان، فما اسمك. قلت: سميح سليم شبيب. سألتني: وهل لك علاقات مع جماعة جورج حبش، ولم أعرف مغزى سؤالها، أجبت بالنفي.

أشارت إليّ نحو باب الغرفة التي سأقيم فيها، وقالت: الباب المقابل هو باب الحمام، وغادرت الصالون، لتعود إلى غرفتها، لم ألق أي ترحيب خلال اليومين الأولين من إقامتي، لكن الأمر تغيّر كثيرًا في صبيحة اليوم الثالث. كان هذا اليوم يوم الأحد، وكان مزاج العجوز على ما يبدو مزاجًا طيبًا، حدثتني عن بدايات وصولها إلى بيروت قادمة من حيفا. كانت الفتاة القادمة للدراسة في كلية بيروت الجامعية فتاة فلسطينية، ديانتها يهودية، لكنها وبعد الدراسة في الكلية، وتعرفها على شاب مسيحي، تنصّرت. أفرحني ما أخبرتني به، وشعرت بتقارب حقيقي معها. في حياتها غرائب وعجائب وأحداث دراماتيكية. عرفتني عبر ألبومات الصور على أخواتها وأولادها وأولاد أولادها. وبالمقابل، تحدثت بإسهاب عن عائلتي وعن زوجتي التي اشتقت إليها كثيرًا، فهي في دمشق منذ ما قبل الاجتياح الإسرائيلي لبيروت. كان الحديث ودودًا وصادقًا، وبدا لي أن الجو قد صفا بيني وبينها، واطمأنّت على الأقل بأنّي "غير شرير"، وبأن هذا الجسد الضخم قبالتها يحمل قلب طفل بريء.

عندما وقع الانفجار في مركز الأبحاث، قامت راحيل وصلّت لله ألا أكون من بين القتلى، وقفت على باب منزلها تنتظرني من لحظة الانفجار إلى أن تمكنت من العودة للمنزل، وكان الوقت يقارب الساعة السابعة مساءً. لا أنسى ما حييت مشهد العجوز وهي تركع لتصلي وتقبل الأرض، ثم لتقبلني ودموعها تغطي وجهها. حمدًا لله، ها قد عدت، دخلت غرفتها، وخرجت وهي تحمل الكتاب المقدس، وكتبت على غلافه الداخلي العبارة التالية: "هذا الكتاب المقدس تقدمة من راحيل قربان إلى الصديق المحترم سميح شبيب، وعليه ترتكز الديانة المسيحية". قدمته لي بيدين مرتجفتين وقالت: أوصيك أن تحافظ عليه ما زلت حيًا. ولا أزال أحتفظ به إلى الآن.

كان عليّ أن أبحث عن مهرب جديد، بعد أن غدونا جميعنا العاملين في مركز الأبحاث مدرجين في قائمة المطلوبين عند السلطات اللبنانية، وكان عليّ اللجوء ثانية للصديق الملك لوقا زودو. قام

الملك بتأمين سيارة نقلتني إلى البقاع. قضيت ليلة في استضافة المناضل الفتحاوي علي أبو طوق، ومن هناك توجهت إلى دمشق. انتهت صفحة مركز الأبحاث في بيروت، وكان علينا أن نجد مقرًا آخر، وكانت نيقوسيا هي المكان الأنسب، بعدما تعثرت إعادة فتحه في القاهرة. بعد ما يزيد على ثلاثة أعوام من الانفجار، أرسل لنا حزب الله شريط فيديو إلى نيقوسيا يتضمن بعض اعترافات شبكة من عملاء الإسرائيليين، وبه تفاصيل تنسيقهم بنسف المركز مع ضابط إسرائيلي يدعى ماعوز، وكان هذا الضابط يقيم في بلدة بشامون في جبل لبنان.

تقصدت الحديث عن مرحلة ما بعد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت (١٥/٩/١٩٨٢)، ونهب محتويات المركز على نحوٍ كامل، ذلك أن تلك المرحلة حملت عزمًا وتصميمًا على الاستمرار في العمل، على رغم المخاطر الجسيمة، وللإشارة إلى نوعية العمل الذي فرضته ظروف ما بعد الاجتياح، وكان أبرزها السرية في بعض أوجه الأداء الخاص بالمقابلات وإعداد المواد للنشر، وتمحور معظم النشاط حول التاريخ الشفوي. قام باحثو المركز بإجراء مقابلات مطوّلة مع قادة العمل العسكري الفلسطيني، ونشر بعضها في أعداد "شؤون فلسطينية" ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣، وكان أبرزها مقابلات مع سعد صايل، وممدوح نوفل، وأبو جهاد الوزير، وأبو موسى، إضافة إلى شهادات عن معتقل أنصار، وشهادات ناجين من مجزرة صبرا وشاتيلا.

وعند وقوع مجزرة صبرا وشاتيلا، قام فريق من الباحثين بأخذ شهادات حيّة لبعض من بقوا أحياء، ونشر بعضها في "شؤون فلسطينية"، كما جرت محاولات للبدء في إعادة تكوين نواة جديدة للمكتبة، على رغم الخسارة الفادحة التي مني بها المركز، خصوصًا على صعيد الشهادات الشفوية المسجلة على أشرطة، وكذلك الوثائق الأصلية، وأبرزها وثائق الهيئة العربية العليا، وحكومة عموم فلسطين، وأوراق: فوزي القاوقجي، وعوني عبد الهادي، وغيرهما الكثير. إلى جانب صحف ومجلات زمن عهد الانتداب البريطاني، تبرعت بها شخصيات وعائلات لمركز الأبحاث.

كان المدير العام للمركز د. أنيس صايغ، ومنذ بدايات تأسيس مركز الأبحاث، يقوم بجولات ميدانية، شملت معظم أماكن التجمعات الفلسطينية في مصر وسوريا ولبنان، ليشرح أهمية حفظ الوثائق الفلسطينية في مركز الأبحاث، وكان مستوى الاستجابة واسعًا. وإضافة إلى جهوده في هذا المجال، كان د. صايغ يقوم بجولات تشمل المكتبات البريطانية، ومكاتب التوثيق البريطاني،

خصوصًا أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ليجمع الوثائق الخاصة بالصراع الفلسطيني – الإسرائيلي، وقد نجح في ذلك نجاحًا عظيمًا، ولعل في هذا النجاح ما يفسر تتالي الاعتداءات على المركز، وصولاً لنهب محتوياته.

النهب المنظم

على مدى السنوات ١٩٦٥–١٩٨٢ التي مرَّت على تأسيسه، برز مركز الأبحاث كمؤسسة فكرية ثقافية، لعبت دورًا واسعًا في ميدان البحث العلمي الخاص بالشؤون الفلسطينية والإسرائيلية بأبعادها العربية والدولية، وقام المركز بعمل واسع لجمع كل ما يتصل بهذه المواضيع من وثائق وكتب وحفظه وتصنيفه، فأسس مكتبة وصلت موجوداتها إلى نحو ٢٥ ألف مجلد، وقسمًا للوثائق يعدّ واحدًا من أهم أقسام الوثائق المتخصّص في هذا المجال. وطيلة هذه السنوات، دأب المركز على تقديم خدمات مجانية لجمهور الباحثين والدارسين وطلاب المعاهد والجامعات المعنيين بمسائل الصراع العربي – الإسرائيلي، عربًا كانوا أم أجانب. ومن جانبه، نشر المركز أكثر من ٤٠٠ كتاب ومطبوعة مختلفة، يعدّ معظمها مراجع ذات شأن متميز في المجالات التي تناولتها. وفي خضم إنتاجه هذا، ظلّت "شؤون فلسطينية"، مجلته الشهرية المتخصّصة، تصدر بانتظام منذ العام ١٩٧١ حتّى ١٩٩٤، هذا إضافة إلى إصدار عدد آخر من النشريات الدورية وغير الدورية المتخصّصة.

اتبع المركز أساليب البحث العلمي، في جميع إعماله، وتميزت أنشطته ونشرياته بالموضوعية والانغماس في المتطلبات السياسية والدعائية المباشرة، ما جعله يتبوأ مكانة خاصة.

وبالرغم من تقلبات الظروف السياسية التي رافقت تطوّر العلاقات الفلسطينية – اللبنانية، فقد حرص المركز على أن يحتفظ بأطيب الصلات مع المؤسّسات اللبنانية المعنية، الحكومية والخاصة. كما حرص على ممارسة دوره واستمرار نشاطه في بيروت دون أي مساس بالقوانين والأنظمة المعمول بها في الجمهورية اللبنانية، فضلاً عن تعاونه المباشر مع عدد كبير من الباحثين والكتاب اللبنانيين، الذين نفذوا مشروعات للمركز أو ساهموا في كتابة مواد مجلة "شؤون فلسطينية" أو تفرغوا للعمل كلية فيه، إضافة إلى عدد من الباحثين والعاملين من دول عربية أخرى.

وكان من الطبيعي أن نجاح المركز في القيام بدوره الكبير قد أثار حقد خصوم الشعب الفلسطيني،

ولهذا تكررت المحاولات التي قامت بها إسرائيل وعملاؤها لشل نشاطه ولتدميره.

وعلى الرغم من فشل محاولاتها المتكرّرة، لم تتخلّ عن هدفها في تدمير المركز أو تعطيله عن العمل. ولذلك ما إن دخلت قواتها بيروت الغربية يوم ١٩٨٢/٩/١٥ حتّى قامت وحدة من هذه القوات بمهاجمة مبنى المركز واقتحامه، بعد أن أخلاه آخر العاملين فيه قبل وصول الإسرائيليين بنحو ساعتين، ولم يبق فيه إلا حراسه المدنيون.

وفور اقتحامها المركز، شرعت الوحدة الإسرائيلية الغازية بعملية نهب محتويات المركز، وفي الوقت نفسه قامت المخابرات الإسرائيلية أثناء وجودها في بيروت بملاحقة المسؤولين عن المركز، فاقتحمت عددًا من البيوت التي تفترض وجودهم فيها، وواصلت عملية المطاردة لحين خروج القوات الإسرائيلية من بيروت.

وإذا كانت عملية المطاردة قد فشلت، فإن عملية تخريب المركز قد نجحت في تحقيق أهدافها الإجرامية إلى حدّ بعيد. فعلى مدى الأسبوع الذي بقيت فيه قوات الغزو الإسرائيلي في حي "رأس بيروت" الذي يقع فيه مبنى المركز تولّت وحدة عسكرية إسرائيلية، وبمساعدة مدنيين وخبراء توثيق إسرائيليين، نهب موجوداته، فملأت حمولة شاحنات عسكرية عدة، راحت تنقل معظم موجودات المركز في "قوافل" يومية تتجه مباشرة إلى إسرائيل.

ونتيجة لذلك، انتقلت إلى أيدي الغزاة الإسرائيليين مقتنيات المكتبة من الكتب العربية والعبرية والإنجليزية والفرنسية، وبضمنها مئات الكتب النادرة ومئات المراجع المهمة والمخطوطات الثمينة، وكذلك مقتنيات الأرشيف من ملفات وأشرطة ميكروفيلم وكافة التجهيزات المهمة التي يستخدمها المركز في عمله من آلات لتصوير الوثائق وتصنيفها وقراءتها ومن أجهزة تسجيل وراديو وتلفزيون وآلات طابعة وناسخة ومئات الأشرطة المسجلة كتاريخ شفوي، وأبرزها:

تسجيلات صوتية مع ضباط فلسطينيين شاركوا في أحداث أيلول ١٩٧٠ في الأردن.

تسجيلات صوتية مع أعلام الثقافة الوطنية الفلسطينية، وأبرزهم: محمد عزة دروزة، وعجاج نويهض، ومصطفى مراد الدباغ، وأكرم زعيتر، وغيرهم الكثير الكثير.

كما شملت المواد المنهوبة والمنقولة إلى إسرائيل كل ما هو في حالة جيدة من أثاث المركز، بما في ذلك

أجهزة الهاتف والتلكس والتجهيزات الكهربائية وطفايات الحريق والكراسي ومفروشات أرضية الغرف والأشياء الشخصية العائدة للعاملين في المركز.

وما بقي عدا ذلك مما لم يمكن نقله، أو مما لم يتوفر الوقت لنقله بسبب اضطرار قوات الغزو للانسحاب سريعًا من بيروت، فقد عبث به الغزاة فأتلفوا جزءًا منه وأحالوا الجزء الآخر إلى أكوام من الفوضى والقذارة بهدف الحيلولة دون إمكانية الاستفادة منها.

وقد جرى كل ذلك على مشهد من سكان الحي، وحتّى دون أن يلجأ الغزاة الإسرائيليون إلى أي محاولة للتستر على مسؤوليتهم في هذه الجريمة بنسبها لأطراف أخرى، كما كان شأنهم حين حاولوا أن ينسبوا مسؤولية المحاولات السابقة للتعدي على المركز إلى أطراف أخرى.

انسحب الإسرائيليون مخلفين وراءهم الخراب شبه الكامل في مركز الأبحاث غير آبهين بأن ما قاموا به من تخريب لهذا الصرح من صروح الفكر والثقافة مخالف لكل الأعراف والقوانين الدولية، بما فيها قوانين الحرب ذاتها التي تمنع المساس بالمؤسّسات المدنية، وتمنع خصوصًا المساس بالمؤسسات الثقافية وتجرّم من يتعرضون لها. وغني عن القول أن هذا العمل مخالف أيضًا للاتفاق بين م.ت.ف والمبعوث الأمريكي فيليب حبيب والسلطة اللبنانية الذي تمّ التوصل إليه بشأن فك الحصار عن بيروت وخروج المقاتلين الفلسطينيين منها، وللضمانات التي قدمتها دول عظمى، بينها الولايات المتحدة الأمريكية، لضمان تطبيق هذا الاتفاق.

ما ان انسحب الإسرائيليون من بيروت، حتّى عاد من تبقى من العاملين في المركز للتلاقي مجددًا، وكان رأي الجميع: لنبدأ من جديد، كان النشاط عارمًا عند الجميع، وكان الوقوف، ثانية، بمثابة التحدي الوطني.

بذل فيصل حوراني، مدير تحرير مجلة "شؤون فلسطينية"، جهودًا استثنائية على رغم خطورة الوضع، لإصدار المجلة في موعدها، وكذلك فعل أحمد شاهين، وهو كاتب وصحافي ومعارض سوري وجد في م.ت.ف بيته المعنوي، وكان مشرفًا على نشرة رصد إذاعة إسرائيل.

كان الجميع يعملون كخلية نحل استثنائية، وكان الهمّ الوطني هو الهمّ الطاغي، وما صدر من أعداد "شؤون فلسطينية" في الفترة الواقعة ما بين نهب محتويات المركز، وتاريخ نسفه ١٩٨٣/٢/٥ كان بمثابة بيان أكاديمي ذي طابع كفاحي ووطني من الطراز الأول.

تمكن المركز من إصدار ثلاثة أعداد من "شؤون فلسطينية" في بيروت، وهي الأعداد: ١٢٨-١٢٩- (١٣٠-١٣٣). لكن شعور العاملين في المركز، وعلى رغم الحماس والالتزام الواضح، كان أن ثمة عدوانًا قادمًا على المركز والعاملين فيه، لا محالة، إلى أن وقع الانفجار المروّع ظهر يوم ١٩٨٣/٢/٥، وأضحى جميع العاملين فيه عرضة للاعتقال والتحقيق. وفي غضون أيام، تمّ القبض على المدير العام للمركز صبري جريس، وتمّ التحقيق معه، كما تمّ اعتقال مدير تحرير "شؤون فلسطينية" فيصل حوراني، وتمّ إبعاده إلى دمشق، كما اعتقل أحمد شاهين، وهو معارض سوري، وتمّ إبعاده إلى قبرص، فيما اضطررت للهرب متسللاً عبر بيروت الشرقية إلى البقاع. انتهت صفحة المركز في بيروت بعدما ملأت الدنيا وشغلت الناس.

ما بعد بيروت وما قبلها

وصلت إلى دمشق صباح يوم ١٣ آذار ١٩٨٣. كنت في وضع بائس ومن الأوجه كافة. تركت خلفي مشروعًا كنت آمل له كل تقدّم ونجاح. كما تركت ذكريات بيروت التي لا تمحى من الذاكرة والوجدان ما حييت، وهي ذكريات تمتد إلى بداية السبعينيّات، حيث بدأت حياتي الكفاحية في بيروت في مخيم برج البراجنة، بعدما كلفني الفصيل الذي أنتمي إليه بقيادة منطقة برج البراجنة. بدأت حياتي هذه بعدما تقدمت باستقالتي من سلك التعليم في الجمهورية العربية السورية، وآثرت التفرغ للحياة التنظيمية. تركت أوراقي كاملة بدمشق، في منزلي بمخيم اليرموك، ولكني قررت، خلافًا لما هو سائد، الاحتفاظ باسمي الحقيقي، وعدم استخدام أي اسم حركي، الأمر الذي خلق أكثر من ذي مرة تشويشًا في أجهزة الأمن، حتّى أن رفيقًا لنا، وكان اسمه الحركي جارو، اعتقل عند أحد الأجهزة الأمنية العربية، وجرى تعذيبه بشدة، كي يعترف باسمي الحقيقي، استغربت ذلك عندما أخبرني بتلك الرواية، لكن استغرابي زال، عندما أخبرتني والدتي، بعد أكثر من خمسة عشر عامًا، عن هذه الحادثة أن مفرزة من رجال الاستخبارات حاصرت بيتنا في مخيم اليرموك في التاريخ ذاته الذي تمّ فيه اعتقال جارو، وعندما سألوا عني، أخبرتهم والدتي (خوفًا عليّ) أنّي في المنزل، وطلبت من أخي حمل بطاقة هويتي، والمثول أمام المفرزة، الأمر الذي جعل فرع الاستخبارات يعتقد أن الشخص الذي يحمل اسمي في بيروت، ويعمل مديرًا لتحرير مجلة "الصمود"، الناطقة بلسان جبهة الرفض، هو شخص حركي يحمل اسمًا منتحلاً، وكان جارو ضحية ذلك. لم أتمكن من معايشة الحياة التنظيمية وتشابكاتها ومؤامراتها وصراعاتها، وقررت

- على الرغم من حجم التضحية التي بذلتها عند اتخاذي قرار التفرغ - أن أكون مشاهدًا نشطًا، دون أن أنخرط في الصراعات الداخلية. التحقت في الجامعة اليسوعية في بيروت، وكان وصولي إليها خطرًا للغاية. كنت أحمل هوية مزورة لإحدى الدول العربية، كي أتمكن من الوصول للحرم الجامعي، درست الدبلوم العام، ومن ثم الدبلوم الخاص، وبعد النجاح بمعدل مرتفع، سجلت بحثًا كان بعنوان: "حزب الاستقلال العربي في فلسطين"، وبإشراف د. مسعود ضاهر. جذبني هذا البحث كثيرًا، وكنت يوميًا أعمل أكثر من عشر ساعات في جمع مواده والاطلاع على وثائقه. قمت بمقابلات مطوّلة مع قادة الحزب الأحياء، وكان منهم: عجاج نويهض، ومحمد عزة دروزة، وأكرم زعيتر، وتحوّلت العلاقة مع زعيتر من علاقة طالب جامعي مع مؤرخ وقائد وطني سابق إلى علاقة شخصية حميمة - يومية، استمرت وتواصلت حتّى نهاية مركز الأبحاث في بيروت ١٩٨٣. وبقيت تلك العلاقة متقطعة، عبر اتصالات هاتفية، وزيارات منزلية في عمان، كلما أتيحت لي فرصة زيارتها حتّى وفاته رحمه الله.

قرّر مركز الأبحاث نشر رسالتي الجامعية بعد مناقشتها، وكان النقاش في إحدى قاعات الجامعة اليسوعية في صيدا، حيث أوصت اللجنة الأكاديمية بنشر الرسالة. نشر المركز الرسالة بكتاب، وكان ذلك في العام ١٩٨١، أي بعد سنتين من مناقشتها، وكتب أكرم زعيتر مقدمة هذا الكتاب، وجاء فيها: "وأجيء إلى هذا الكتاب فأشهد، بادئ الرأي، أن مؤلفه السيد سميح شبيب قد اندمج وهو يعده في جو الحركة الاستقلالية كأنه عاصرها واشترك فيها، وأحسب أن المؤلف قد حقّق بكتابه هذا هدفًا قوميًا، وأرجو ألا أغالي في أملي أن يكون لنا من السيد سميح شبيب مؤرخ قدير لقضيتنا في مختلف مراحلها، وهو كما بدا لي قدير على استخدام الأدوات المتوافرة لديه لينشئ منها رسالة قومية خيرة نيرة".

سررت لما ورد في المقدمة، لكني شعرت في الوقت ذاته بثقل المسؤولية التي حملني إيّاها صديقي العجوز، وتساءلت: هل سأقدر على الإيفاء بجزء مما توقعه زعيتر؟ حاولت بكل ما أوتيت من قوة، لكن الظروف الصعبة كانت تقف أمامي، أحاول تجاوزها، لكن ضياع المركز ومحتوياته شكّل ضربة في العمود الفقري، يستحيل نكران آثارها المدمرة.

دخلت مناقصة لاختيار رئيس لقسم الأرشيف والوثائق في مركز الأبحاث، وفزت في الوظيفة، وانخرطت في العمل الأكاديمي منذ شباط ١٩٨١، ولم أغادر المركز إلا في العام ١٩٩٤ عندما

قرّرت المنظمة نقل مؤسساتها وأجهزتها إلى مناطق السلطة الفلسطينية في العام ١٩٩٤.

ما إن وصلت إلى دمشق، حتّى كانت الصراعات داخل "فتح" قد وصلت إلى درجة الذروة، استشعرت مخاطر ذلك الموقف وما سيحمله من انعكاسات داخل م.ت.ف ومؤسساتها كافة. أدركت أن ما سيقوم به المنتفضون سيحمل دمارًا هائلاً لهم ولـ "فتح" ولـ "م.ت.ف" على حد سواء، وقررت مغادرة دمشق بأسرع وقت ممكن. حاولت لقاء القائد العام ياسر عرفات، الذي أحتاج إلى قراره وتوقيعه، كان لقاؤه يحتاج إلى وقت وجهود وترتيبات كثيرة. لجأت إلى صديق قديم، وهو الأخ رؤوف، ورؤوف هذا كان أحد مصوري عرفات، وهو مصري الجنسية وله حظوته عند عرفات. ما ان فاتحته بموضوع اللقاء مع عرفات، حتّى وعدني بذلك في صبيحة اليوم التالي، في مقر ٢٣ في دمشق.

كان ترتيبي الثاني في جدول اللقاءات، دخلت غرفة عرفات، وأوجزت كلامي بالتالي: اضطررت بعد انفجار المركز للمجيء إلى دمشق، ولا أرى إمكانية للبقاء هنا طويلاً. قاطعني قائلاً: سميح الحمد لله على السلامة، واستل ورقة صغيرة من جانب مكتبه وكتب عليها: الأخ أبو فادي، يحوّل الأخ سميح شبيب إلى ملاك التخطيط وقتيًا. حييته وخرجت وأنا أقلب بهذه الورقة السمراء، فإذا بها تتحوّل إلى تذاكر طيران إلى تونس، وبرقية إلى السفارة الفلسطينية هناك لاستقبالي في مطار قرطاج الدولي. سافرت عبر مطار دمشق الدولي، على متن الطائرة التونسية، وكان إلى جانبي الصديق حسن عصفور، الذي غادر لأسباب مشابهة لأسبابي. ووصلت المطار وكان في استقبالي مندوب عن مكتب الرئيس، حيث حملني إلى نزل سوليمار. صحوت في يومي الأول في تونس على صوت زقزقة مئات العصافير، كان إشراق الشمس شديد البياض والبريق، وعند الإفطار تلاقيت بعشرات الأصدقاء القدامى الذين عملنا معًا في بيروت، وإبان الحصار الإسرائيلي. على مقربة من نزل سوليمار، كان فندق سلوى، كانت منظمة التحرير الفلسطينية بدءًا من رئيسها وأبرز قادتها وكوادرها تسكن في هذا الفندق، يا للعجب كيف تحوّلت المنظمة إلى فندق. وحول هذا الفندق كانت تنتشر سيارات مدرعة تونسية كتب عليها: قوات مكافحة الشغب.

كان كل من في الفندق يتابع باهتمام بالغ أخبار التمرّد داخل "فتح"، وكذلك التصريحات الرسمية التي يدلي بها القائد العام، وكم كانت الدهشة كبيرة عندما أذاع التلفزيون التونسي خبرًا عاجلاً نصّ على بيان سوري مقتضب يتضمن طرد عرفات من الأراضي السورية. وصل الرئيس إلى

تونس، وعند وصوله إلى بهو الفندق، سارعت ابنتي بيان نحوه وقالت: طردوك بابا عرفات من الشام. حملها بحنوٍ شديد وقبّلها، كان عرفات عند وصوله منهكًا، ولم يرد مقابلة أحد.

كان منير شفيق – أبو فادي، المدير العام لمركز التخطيط، منهكًا ومحبطًا، وكان لقائي الأوّل به في تونس في مكتبه، وكان الرجل متمددًا على ظهره. اعتذر عن طبيعة هذه المقابلة، ذلك أنه يعاني من مرض الديسك في ظهره. لم يطلب مني عملاً محددًا، وكل ما طلبه منّي العمل على استئجار منزل، وتأمين فرش متواضع.

أخذت مع مرور الأيام التعرف على أفكار منير شفيق الإسلامية الجديدة، وعلاقاته مع المفكرين الإسلاميين، وكان أبرزهم في تونس راشد الغنوشي. يتمتع منير شفيق بصفاء الذهن، ووضوح الفكرة، وشفافية اللغة ودقتها. آمن بالإسلام وقوّته السياسية عن قناعة فكرية صافية، بعد أن سبق له أن آمن وفقًا لقناعاته بالشيوعية، ومن ثم بالشيوعية الماوية، لم أرَ في حياتي رجلاً منسجمًا مع فكره وقناعاته مثل منير شفيق، فهو واضح وضوح الشمس، لا يحاول المخاتلة والخداع، ولديه الاستعداد الدائم للتضحية في سبيل قناعاته وأفكاره. في أحد اللقاءات الصباحية معه، اقترحت عليه مداعبًا إصدار كتاب بعنوان: "أبرز مقالات منير شفيق"، نظر نحوي قائلاً: وأنا لا أنكر أيًا منها. ضحك الحضور، لإدراكهم أن كتابًا كهذا سيتضمن مقالات شيوعية وأخرى ماوية، وأخرى قومية – اشتراكية، وأخيرًا مقالات إسلامية!!!

كان لأبي فادي آراؤه فيما يتعلق بأداء م.ت.ف، وله ملاحظاته القيمة في الفكر السياسي الفلسطيني، وكان من الطبيعي، ومن خلال تلك الآراء، أن الرجل يتجه ويقترب من فكر حركتي حماس والجهاد، وأن ابتعاده عن خط المنظمة وأفكارها واجتهاداتها، خصوصًا فيما يتعلق بالتسوية السياسية، سيخرجه آجلاً أم عاجلاً من إطار المنظمة، وهذا ما حدث فعلاً، فيما بعد.

خلال الفترة التونسية البهية، التي قضيتها في ربوع ضاحية الزهراء، واستمرت زهاء سنتين متصلتين، كانت فرصة نادرة لمراجعة ما جرى خلال الأعوام ١٩٧٠–١٩٨٣. اكتشفت أن كمًا هائلاً وثمينًا من الذكريات والأحداث مرّت بسرعة كشريط غير عادي، خلال تلك الفترة، وكنت وصديقي حسن خضر نقوم على نحوٍ شبه يومي بنشاطات رياضية، تتبعها أحاديث حول فترة بيروت. وخلال هذه الفترة كنت ألتقي المدير العام لمركز الأبحاث صبري جريس في الربوع التونسية، وكم كانت الفرحة عارمة عندما اخبرنا أنا والصديق وليد الخزندار أن عرفات قرر

إعادة فتح مركز الأبحاث في القاهرة، ومن أجل ذلك تمّ شراء مبنى خاص في مصر الجديدة، سيتم تقسيمه وفقًا لاحتياجات المركز. فتح جريس حقيبته، وأخرج ملفات مخططات هندسية لطوابق المبنى الثمانية، وبدأنا فعلاً نخطط لتقسيم دائرة التوثيق. وبعد شراء المبنى، بدأت عملية الاتفاق التفصيلي مع الحكومة المصرية لإعادة افتتاح المركز، وكانت هناك تفاصيل متشعبة ومعقدة، منها ما هو إداري ومنها ما هو أمني أيضًا. طلب جريس مني صورة الجواز الذي أحمله، وأوراقًا أخرى، لتقديمها للسلطات المصرية، وبعدما اقتربت ساعة الاستعداد للسفر إلى القاهرة سافرت إلى نيقوسيا، استعدادًا للسفر، ونزلت هناك في فندق وادع هو فندق آستي، في ضاحية أيوس ديمتيوس كان النزول لأيام، لكن تلك الأيام طالت، وبدأنا نسمع عن تعثر افتتاح المركز، وبالتالي توجب عليّ أن أستأجر منزلاً، وأن أصبح مقيمًا تمتد إقامته من شباط ١٩٨٥ وحتّى أيلول ١٩٩٣.

تبادل الأسرى واستعادة مكتبة المركز!!

استجابت إسرائيل لمطالب م.ت.ف الخاصة بعملية تبادل الأسرى، بواسطة الصليب الأحمر، وكانت محتويات مركز الأبحاث مطلبًا رئيسًا من المطالب الفلسطينية. جرت عملية التبادل في مدينة الجزائر، يوم ١٩٨٣/١١/٢٣، وسبق تلك العملية رسالة وجهها السفير الفلسطيني لإدارة مركز الأبحاث في نيقوسيا، يؤكد خلالها ضرورة وجود مندوب عن المركز، ليقوم بعملية التسلّم، والتأكد من المحتويات. لم يرسل المركز مندوبًا عنه للتسلّم، ولم يكن لدى المركز قائمة بالمحتويات، ذلك أن هكذا قوائم كانت هي الأخرى من المحتويات المنهوبة. وصل إلى مدينة الجزائر زهاء مائة وثلاثة عشر صندوقًا خشبيًا، تحوي محتويات المركز، وكانت تلك الصناديق الخشبية بحاجة إلى من يفتحها، ويتأكد من سلامتها ومن كمالها أو نقصانها، لكن ذلك لم يحدث. انتظر ممثلو الصليب الأحمر طويلاً، وأخيرًا أخبروا مكتب المنظمة أنهم مضطرون للسفر بعد أربعة عشر يومًا من بقائهم في مدينة الجزائر، بانتظار تسليم مكتبة المركز ووثائقه، واضطر أخيرًا مكتب المنظمة الاستجابة لرغبة الصليب الأحمر، وقام بتسلّم المحتويات، بعد التوصل إلى صيغة ترضية، فقام منذر الدجاني، السفير الفلسطيني، بتسلّم الصناديق دون ذكر محتوياتها، ووضعت هذه الصناديق في أحد المعسكرات الجزائرية على مقربة من العاصمة الجزائرية، وهو معسكر الخروبة، ومن ثمّ تمّ نقلها إلى معسكر تيبسة، حيث تقيم وحدات من جيش التحرير الفلسطيني.

تسرّبت الأخبار حول ما حدث في الجزائر، ووجدت المعارضة الفلسطينية، خصوصًا المعارضة في "فتح"، ما جرى تدميرًا للذاكرة الفلسطينية، وإهدارًا للتوثيق الفلسطيني الجاد، عبر سنوات طويلة ١٩٦٥-١٩٨٢، وبالتالي تمّ توظيف ذلك في الصراع السياسي- التنظيمي الدائر، فعقدت المعارضة اجتماعًا صاخبًا لها بدمشق، في مقر اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين، وترأسه الكاتب ناجي علوش، أمين عام اتحاد الكتاب والصحافيين سابقًا، معتبرًا أن ما حدث في الجزائر هو عملية مقصودة، بل مؤامرة تستهدف "إلغاء الذاكرة الفلسطينية". كان واضحًا من خلال المداخلات والبيان الصادر عن هذا الاجتماع أن منظميه يحاولون استخدام مكتبة المركز ووثائقه كورقة من أوراق الصراع ضد قيادة عرفات، بخاصة وهي القيادة التي طالبوا بإسقاطها نهجًا ورمزًا، على حد سواء.

وأعقبت هذا الاجتماع مقالات عدة نشرت هنا وهناك، حتّى أن بعضها أكّد أن المكتبة قد أتلفت من جراء الشتاء.

عبر تلك الأجواء، أرسل ياسر عرفات رسالة مستعجلة للمدير العام للمركز، يحثّه فيها على ضرورة التحرك للاطلاع على المكتبة وتسلّمها من مكتب المنظمة في الجزائر.

سافرت برفقة صبري جريس إلى الجزائر مطلع شهر آذار ١٩٨٦، بوصفي مسؤولاً عن قسم التوثيق، بعدما أرسلنا فاكسًا للسفير منذر الدجاني (أبو العز) نخبره فيه بتاريخ وصولنا إلى مطار الجزائر، ولكن مع ذلك، وبعد أن وصلنا إلى المطار، لم نجد أحدًا من السفارة في استقبالنا، ولم تكن لنا برقية للدخول، وهكذا جلسنا في المطار زهاء أربع ساعات، ونحن نتصل هنا وهناك، وضابط المطار يؤكد لنا أن السفارة لم تخبر السلطات المعنية بوصولنا. بعد طول عناء، وافق الضابط المختص في المطار على دخولنا لمدة أربع وعشرين ساعة، لترتيب أمر التنسيق والدخول، وصلنا أولاً إلى السفارة، فلم نجد فيها مسؤولاً يفيدنا بشأن حجز الفندق، والجزائر، لمن لا يعرف، من الصعب أن تجد حجزًا بنفسك، ودون تنسيق مسبق مع جهات رسمية أو شبه رسمية. بدأنا نبحث عن فندق لنأوي إليه، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلاً، ولم نجد، كان جهدنا عبثًا في هذا الاتجاه.

اقترحت على جريس أن نذهب إلى خارج مدينة الجزائر، وتحديدًا إلى ضاحية سيدي فرج، حيث مجموعة فنادق كبيرة، ومنها فندق المنار، وصلنا إلى هناك، وتمكنا من حجز غرفتين. قضينا ليلتنا الأولى على شاطئ خليج سيدي فرج، وقمنا بالاتصال بالسفير في منزله، كان ردّه باردًا

للغاية، ووعد بلقائنا الساعة الحادية عشرة صباحًا في السفارة. وصل السفير ومعه بعض أركان سفارته، وبدأ حديثًا بعتاب مرّ، متسائلاً عن سبب عدم الحضور لتسلّم محتويات المكتبة، وسرد لنا حيثيات حالة الارتباك التي أصابته جراء ذلك. فهنالك مندوب عن الصليب الأحمر الدولي، ومندوب عن الأرشيف الدولي، كانا ينتظران مجيء مدير المركز لتسلم الكتب والوثائق وفق الأصول، لكن ذلك لم يحصل مطلقًا، ما حمله في نهاية الأمر إلى تسلم الصناديق، كصناديق وكوزن، دون أن يحمل نفسه مسؤولية التوقيع على محتويات لا يعرف عنها شيئًا. وكان المفترض أن يكون هناك ممثلون عن المركز، وكان من المفترض أن تكون هناك قائمة محتويات، لكن ذلك لم يحدث، وهكذا تمّ تسلّم المكتبة من قبل السكرتير الأول في السفارة عيسى عبد الحفيظ، والأميرة دينا عبد الحميد، ذلك أن السفير كان في مهمة في تيبسة.

وتحدث السفير عن أن أمطارًا سقطت على الصناديق، وأن المعسكر الجزائري في العاصمة قد نُقل، وبالتالي تمّ نقل المكتبة إلى تيبسة في قلب الصحراء الجزائرية، في معسكر تشغله القوات الفلسطينية. وبعد أخذ وردّ، وكان موقفنا، صبري وأنا، ضعيفًا، بل وفي غاية الضعف، ولا يمكن الدفاع عنه، طلبنا من السفير تسهيل مهامنا للاطلاع على ما تبقى من المكتبة، وإمكانات شحنها إلى قبرص. اتفقنا على ذلك، على أن أقوم في اليوم التالي بالسفر إلى تيبسة، والاطلاع على محتويات المكتبة أولاً.

سافرت جوًا إلى تيبسة، وكنت في غاية الشوق للالتقاء برفاق وإخوة فرّقنا عنهم الرحيل عن بيروت وما حدث معنا من أهوال. وصلت إلى المعسكر ظهرًا، لتحمل لي كل لحظة مفاجأة دراماتيكية، تبدأ من لحظة الركوب في البواخر، وصولاً لتبدلات الحياة، وهل يمكن لمن عاش في بيروت طويلاً أن يتلاءم مع حياة صحراوية قاحلة!

بعد أحاديث ودّية لا تخلو من المفارقات، وبعد غداء دسم، سألت قائد المعسكر زياد الأطرش عن مكتبة مركز الأبحاث، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما استغرب الحضور السؤال، وأكدوا أنهم لا يعرفون عن هذا الأمر شيئًا. لم أتمكن من استيعاب ما سمعته، وكأن شيئًا أسقط من يدي، قلت مستهجنًا: غير معقول، غير معقول البتّة. تساءل الحضور وجميعهم من قادة المعسكر: ولم كلّ هذا الاستهجان. ؟! اتصلت بمكتب السفارة على عجل، كمن مسّته نار، هدأ من حدّثني من روعي قائلاً: دقائق ونعاود الاتصال بك، سنتصل فورًا مع قائد المنطقة الجزائري. وبعد أقل من ثلاث دقائق رنّ

جرس الهاتف، وأخبرني من حدثني أن ضابطًا جزائريًا سيصل إلى إدارة المعسكر ليلتقي بي.

عند وصوله إلى إدارة المعسكر، كان الملازم أول عيسى متحفزًا للقائي، فرحًا بما علم به بأن شخصًا قد وصل لتسلم المكتبة. كانت المكتبة بعهدته في أحد المعسكرات الجزائرية في تيبسة. شربنا القهوة وانطلقنا عصر هذا اليوم تجاه المعسكر الجزائري المتاخم للمعسكر الذي يقيم فيه الفلسطينيون. دخلنا مهجعًا كبيرًا، وفي صدره كان حاجز حديدي، له باب وقفل، وخلف ذلك توجد خيام تغطي صناديق خشبية كبيرة، بيضاء اللون، وبمقاس واحد تمامًا، أشار إلى هذا الكوم الكبير وقال: هذا هو الأرشيف الفلسطيني، منذ أكثر من عامين وأنا أرعاه وأتفقده يوميًا، وأخاف عليه من القوارض وغيرها، الحمد لله بقي على حاله منذ تسلمه، إنه أمانة كبيرة، نصركم الله وأعادكم إلى دياركم. كاد قلبي يقفز من صدري، وطلبت منه الدخول لتفقد الصناديق. طلب منّي إذنا خاصًا من الاستخبارات العسكرية، هذه هي التعليمات. أقفلنا عائدين لإدارة المعسكر الفلسطيني، وبدأ الغروب الخلّاب يرتسم على محيّا هذه البلدة الصحراوية الوادعة.. تيبسة. اتصلت برفيق رحلتي صبري جريس، وأخبرته عما حدث، طرح سيلاً من الأسئلة حول الصناديق، عددها، حالها، مقاسها، وكان ذلك مرهونًا بتأمين الموافقة الجزائرية الرسمية للاطلاع على الصناديق. قام جريس باتصالاته مع السفارة، وعند الساعة الحادية عشرة ليلاً أُبلغت من السفارة أن الموافقة أصبحت جاهزة، وأن الملازم عيسى سيرافقني غدًا للقيام بهذه المهمة.

قضيت ليلة ليلاء، لم يتسنَّ لي النوم بها سوى بضع ساعات، كان رفاق الأمس بأمسّ الحاجة لمن يحدثونه عن همومهم، بل وعن شبه ضياعهم في متاهات تلك الصحراء الشاسعة.

الجميع حدثني عن طيبة السكان المحليين ونقائهم، وتعاطفهم غير المحدود مع القضية الفلسطينية، لكن جلّ الهموم كانت تتمحور في الجانب الاجتماعي: مدارس الأولاد، فراق الزوجة في بيروت وسوريا، ما خلفته مجازر صبرا وشاتيلا من جروح وقروح في النفس الفلسطينية، وبدوري حدثتهم مطولاً عن أجواء تلك المجزرة، وعن الانفجار المروع الذي تعرضنا له في ١٩٨٣/٢/٥، وكيف تمكنت من الفرار والتخفي والوصول إلى دمشق.

أصبح الصباح، وللصحراء إشراقتها البهية النشطة، عند الساعة الخامسة صباحًا تعتقد أن الساعة قاربت الثانية عشرة ظهرًا، ما أجمل هذا الصباح وأنشطه. تناولت الإفطار في المطعم الجماعي للمعسكر، كان الجميع نشطًا، رغم طول السهر، وعندما أزفت الساعة التاسعة، كان

الملازم أول عيسى، بطلعته البهية، وابتسامته المشرقة، يطلّ من النافذة، وينادي: هيا. . هيا، سارعت لركوب الجيب العسكري، وسرعان ما وصلنا إلى مكان المكتبة. كان الملازم عيسى قد هيأ الأمور، ومنها تجهيز آلية صغيرة قادرة على حمل صندوق وإبعاده ووضعه حيث تريد، إضافة إلى عنصرين لفتح الصناديق وإعادة إغلاقها. بدأنا العمل فور وصولنا، طلبت نقل عشرة صناديق لاعلى التعيين، وبدأنا بفتح أولها، كانت المفاجأة كبيرة، ذلك أن هذا الصندوق، وفيه كتب رُتبت بإتقان كان قد صمّم بحيث لا يدخله ماء ولا يتأثر بعوامل الجو المحيطة. فهناك على جدرانه مادة الزفت السوداء والفلين ورقائق القصدير. تأكدت من محتوياته وكانت كلها سليمة. وهكذا كانت الأمور مع الصناديق العشرة الأولى.

بدأت انتقاء صناديق أخرى، واحد من الأسفل، وآخر من الأعلى، وآخر من أقصى اليمين وآخر من أقصى اليسار، وآخر الوسط، وكانت النتيجة واحدة. عثرت في بعض الصناديق على كتب، وأخرى على مجلدات الصحف الفلسطينية التي دأبنا على الاحتفاظ بها، وفي صناديق أخرى وثائق وأفلام وتسجيلات.

لم أصدق ما رأيت. كانت الدعايات والتحريضات قد خلقت مناخًا مفاده، أن المكتبة تالفة، وأن عملية إنقاذ لا بدّ منها، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. كان التناقض صارخًا بين ما سبق وأن سمعناه والواقع. لم أجد أمامي سوى الملازم عيسى لأسأله: هل شاهدت ما شاهدته؟ لم يفهم سؤالي، وقال: ما الذي تعنيه. قلت: إن ما شاهدناه يفيد أن المكتبة سليمة. وقال مندهشًا: ولم لا تكون سليمة، إنها في عهدتنا، ونحن نحافظ عليها بعيوننا؟

عدّت إلى المعسكر الفلسطيني متثاقلاً واجمًا. سألني الملازم عيسى: ما حلّ بك؟ ولماذا اكتأبت؟ قلت له: أخشى ألا يصدقني أحد، فما سمعناه بالجزائر العاصمة، يختلف يا سيادة الملازم عمّا وجدته هنا. ضحك وقال: توكل على الله يا راجل. . .

شعر الجميع من حولي، عند الغداء، أني مكتئب أشدّ الاكتئاب، حدثتهم عمّا جرى، وفرحوا بما سمعوه، وقالوا بلسان واحد: الحمد لله. . الحمد لله.

قررت إخبار جريس بما حدث عند المساء، بعد أن تمكنت من أخذ قسطٍ من الراحة مكنني من بلورة ما سأتحدث به. غفوت بعمق ولمدة ساعات، وعندما صحوت كان غروب تيبسة يلوح، ما أجمل

الشمس! تناولت قهوتي، وجلست ما بين "البركسات" والخيام، كان الجميع يقوم برش النباتات. بعضهم زرع نباتات تذكرة بالشرق، ومنها "الملوخية". عدت إلى إدارة المعسكر، رفعت سماعة الهاتف وتحدثت مع صبري جريس، قلت له: ذهبنا صباح هذا اليوم إلى مكان المكتبة، وقمت بفتح نحو عشرين صندوقًا، جميع الصناديق التي فتحتها سليمة، من الصعب فتح المائة وثلاثة عشر صندوقًا، لكن العشرين صندوقًا قمت بانتقائها لا على التعيين. ووصفت له الصناديق من الداخل، وبعد حديث استغرق زهاء ثلث الساعة، اعتقدت أن جريس قد غادر الهاتف، ناديته: آلو.. آلو، فأجاب: نعم.. نعم، ما هذا الذي تتحدث به؟ قلت: الحقيقة يا صبري، كل ما سمعناه سابقًا كان زيفًا بزيف، المكتبة سليمة يا صبري، قلتها بصوت أجش، بعد أن دهمتني الدموع. صمت برهة وقال: انتظر منّي مكالمة هذه الليلة، الله يعطيك العافية، الله يعطيك العافية.

عدت إلى محفل النميمة الذي انتصب منذ اللحظات الأولى لوصولي إلى أرض المعسكر. قضينا ليلة ممتعة، افتتحها صديق قديم، بقوله مستهجنًا: ما هذا البطيء في العمل؟ لم نصل بعد إلى حرف الباء، ذلك أن النميمة تحتاج إلى ترتيب الأسماء بدءًا من أ.ب.ج.د.هـ... وانتهاءً بحرف الياء.

طال الحديث، وكان في مجموعه لمعرفة أين حلّ فلان، وما هي أخبار علنتان، وما هو مستقبل الانتفاضة داخل "فتح". كان الجميع مرتابًا من مستقبلها، بل وخائفًا على قياداتها جراء تحالفاتهم العربية.

أصبح صباح اليوم الثالث ولم أتلق مكالمة من جريس، وفي الصباح اتصل بي طالبًا سفري إلى مدينة عنابة الساحلية، لدراسة إمكانية شحن المكتبة من هناك. قررت السفر، وودعت الأصدقاء والأحبة، واعدًا بعودة قريبة، لكن ذلك لم يحدث مطلقًا.

سافرت إلى عنابة برًا، ومررت عبر محافظة هراس ودهشت من جمالية المشهد، وخصوبة الأراضي، ووفرة المياه، وتساءلت بيني وبين نفسي عن سبب نقص المواد الغذائية في العاصمة؟

وصلت عنابة فإذا بها شبيهة إلى حدّ بعيد بجغرافية بيروت، الجبل ينتصب شامخًا، ومنحدرًا بشدة تجاه البحر. وصلت عنابة بعد الظهر، جلتُ فيها قليلاً، واتصلت مع القائم بالأعمال الفلسطيني هناك، كان هذا القائم قد تآلف مع البيئة الجزائرية في عنابة، واكتشفت مدى ضحالة معلوماته

السياسية، حتّى فيما يتعلق بمنظمة التحرير ذاتها. لم يكن اللقاء معه ممتعًا، ولم يكن هناك ما هو مشترك بيني وبينه.

كان الرجل متوجسًا، ومتحفظًا، يدلي ببعض المعلومات بالقطارة، ويتجنب ذكر الأسماء والأرقام والحقائق المحدّدة، وكأننا في صراع وتنازعٍ للمعلومات. في صباح اليوم التالي نزلت الميناء، وطلبت مقابلة المسؤول عنه. التقيته فإذا به رجلًا كسولًا لا يقوى حتّى على الكلام. سألته عن إمكانية شحن كتب عبر الميناء إلى لارنكا قبرص. نظر إليّ نظرة متعبة وقال: يا ولدي، الشحن الدولي من الجزائر العاصمة، فقط.

وأشاح بوجهه عني، كأنه يطلب مغادرتي. غادرت وأخبرت صبري جريس بما جرى. طلب مني العودة فورًا إلى مدينة الجزائر.

غادرت عنابة جوًا إلى الجزائر العاصمة، ومن هناك توجهت إلى حيث يقيم جريس في سيدي فرج حيث فندق المنار. كان اللقاء حارًا وصادقًا فيما بيننا، وكأننا افترقنا طويلًا. تناولنا الغداء على مطعم مطلّ على البحر، وتحادثنا في التفاصيل. تنهد جريس بعمق وقال: السفارة لا تتعاون معنا يا سميح، ومع ذلك، سنحاول حتّى النهاية. في صباح اليوم التالي، أخبرني جريس عن عزمه السفر إلى قبرص، على أن أتابع أمور الشحن، وطلبت منه الالتقاء مع السفير الفلسطيني، لوضع بعض النقاط والأسّس موضع التنفيذ قبل سفره، وهذا ما كان. التقينا ظهر اليوم ذاته مع السفير في مقر السفارة، وأخبره جريس عن سفري إلى عنابة دون جدوى، وأن الأمور تحتاج إلى تنسيق مع السلطات الجزائرية لتسهيل نقل المكتبة إلى قبرص. سأله السفير عن القاهرة، وماذا عن مشروع فتح المركز هناك. شرح له جريس باستفاضة عن شراء المركز في القاهرة الجديدة، وعن تعثر محاولات فتحه، وأن هنالك وعودات لا تزال في حيزّ الوعد ليس إلّا. اتفقنا على سفر جريس إلى قبرص، على أن أتابع شؤون المكتبة وشحنها. كانت بداية الجهود الالتقاء مع شركة "لكنان" وهي الشركة الوطنية للنقل البحري. فهمت منهم، أن الشحن إلى قبرص مباشرة غير ممكن، ولا بدّ من الشحن إلى أحد الموانئ الأوروبية، الإيطالية أو الفرنسية تحديدًا، ثمّ نقلها ثانية إلى قبرص، وأن الشحن يحتاج إلى مجموعة موافقات من الحزب والدولة، خصوصًا الاستخبارات العسكرية وقسم حركات التحرر التابع لجبهة التحرير الوطني.

بدأت رحلتي في أروقة البيروقراطية الجزائرية المعقدة والمرهقة، وكنت في كل مرة فيها أعتقد أنني قد حققت تقدمًا، أكتشف أنني عدت إلى المربع الأول. استمرت دورتي في حلقة مفرغة زهاء

الأربعين يومًا، تعرفت خلالها على شؤون الجالية الفلسطينية في الجزائر، همومها وامتداداتها ومشاكلها وما أكثرها، فهناك السفارة، وهناك الملحقية العسكرية، وهناك مكتب "فتح" إلى جانب مكاتب المنظمات الفدائية الأخرى، هناك ما يشبه حرب الكلّ ضد الكلّ. وخلال فترة إقامتي تلك، سمعت من مصادر متعددة رواية تقول: ان عضو المكتب السياسي مسؤول الأمانة العامة لحزب جبهة التحرير الجزائرية شريف مساعدية كان قد التقى السفير الفلسطيني، وعرض عليه مبنى من سبعة طوابق في العاصمة الجزائرية، كتقدمة من الحزب، كي تنقل المكتبة إليه، ويفتح المركز في الجزائر، وذلك إنقاذًا للمكتبة والأرشيف والوثائق.

وكان المبنى المعروض مجهزًا تجهيزًا كاملاً، لاقت هذه الفكرة قبولاً لدى السفير، وقام بعرضها على الرئيس ياسر عرفات، لكن عرفات طلب منه التريث! أكّد لي هذه الرواية، وبعد سنوات من ذلك، المستشار الأول في السفارة عيسى عبد الحفيظ، كما سبق أن أخبرني الملحق العسكري في الجزائر عوني سمارة وأنا في الجزائر بتلك الرواية، مؤكدًا أن السفارة في اعتقاده لن تساعد في تسهيل مهام شحن المكتبة خارج الجزائر.

أخبرت عبر الهاتف المدير العام صبري جريس بما وصلت إليه جهودي، واقترحت عليه كتابة تقرير تفصيلي وتسليمه للرئيس عرفات باليدّ. تشجع جريس لهذه الفكرة، وهذا ما كان، كتبت تقريرًا تفصيليًا يبدأ من لحظة تكليفنا شحن المكتبة إلى قبرص وحتّى الوصول إلى طريق مسدود. وكان هذا التقرير يقع في حدود أربعين صفحة مطبوعة. سافرت إلى تونس، والتقيت الرئيس وشرحت له ما حدث. وأكدت له أن المكتبة لا تزال بحالة سليمة، وسألني: إذًا ما الذي يصلني من معلومات حول تلف بعضها؟!

قلت: لا أدري، هذا ما شاهدته بأم عيني.

صمت برهة وقال: سأرسل تعليماتي إلى قبرص.

تناولت الغداء مع الرئيس، وبرفقة العاملين والعاملات من التوانسة، وبعدها استودعته وسافرت إلى قبرص.

فوجئت بعد بضعة أيام من ذلك برسالة "فاكس" من الرئيس تطلب من المدير العام جريس السفر إلى القاهرة، وعرض المكتبة كهدية لـ"الأهرام الاقتصادي"! سافر جريس وعرض الهدية، لكنها

رفضت! جاء ذلك في سياق تعثر فتح المركز في القاهرة، من جهة، وإلحاح السفارة الفلسطينية في الجزائر على فتحه في العاصمة الجزائرية، وصعوبة شحن مكتبة وإخراجها من الجزائر. بعد تلك الأجواء، تقدم د. محجوب عمر، وهو مناضل مصري في صفوف الثورة الفلسطينية منذ بداياتها، باقتراح مكتوب مفاده: تجهيز معدات تصوير في الجزائر، تقوم بمهمة تصوير المكتبة والوثائق على مصغرات مايكروفيلم ومايكروفيش، خوفًا من تلفها مستقبلاً. وتضمن هذا التصوير تفصيلات تتعلق بعدد العاملين، وبجداول زمنية، وموازنات مالية، وغير ذلك. تقدم محجوب باقتراحه هذا للرئيس عرفات، وقام عرفات بتحويله لمركز الأبحاث. درسناه ووافقنا عليه، وأوصينا بتنفيذه، ولم نسمع شيئًا بخصوصه بعد ذلك!!

بعد العدوان الجوي الإسرائيلي على مواقع قيادة م.ت.ف في تونس، في حمام الشط، قررت الجزائر نقل المعسكر الفلسطيني من تيسة إلى معسكر في الجنوب، هو معسكر البيّض، ونقلت مكتبة المركز معهم.

لم تحظ المكتبة بأي اهتمام جدي، ولم تتوافر أدنى الشروط اللازمة للتخزين، فبدأ التلف يفعل أفاعيله بها، إضافة إلى أفاعيل القوارض، ومن بعدهم البشر.

تلاشت المكتبة والوثائق والأرشيف شيئًا فشيئًا، وأصبحت أثرًا بعد عامين، وسط صمت مريع، لا أعرف سببه الحقيقي، لكني أدعو إلى إعادة دراسة هويتنا الوطنية والثقافية على حدّ سواء.

من المسؤول؟!!

لعل مراجعة لما حدث من كارثة تفوق التصوّر، ذلك أنه لا يمكن تعويض ما تبدّد، وأن الخسارة تصيب الذاكرة الفلسطينية الجماعية، فمن هو المسؤول؟! هل يمكننا تحميل إسرائيل وعدوانها المستمر على المركز، ومن ثم نهبها المحتويات التوثيقية، مسؤولية ما حدث؟! أم أن هناك جهات أخرى تتحمل هذه المسؤولية؟!

١. مما لا شك فيه أن النهب الإسرائيلي المظلم للمكتبة والأرشيف والوثائق هو السبب الأساس الذي أسهم في ضياعها، لكن عملية التبادل نصّت على إعادتها كاملة. ما حدث من عدم تسلمها وفقًا لقوائم المحتويات لم يتح الفرصة لمعرفة المسترجعات، هل هي كاملة، ما هو النقص، ما حجم التلف، وغير ذلك.

٢. كان من الواضح أن القوات الإسرائيلية ستجتاح بيروت الغربية، لا محالة، بعد انسحاب م.ت.ف، وكان بالإمكان نقل الوثائق ذات الأهمية الخاصة إلى خارج المركز، والحفاظ عليها، لكن ذلك لم يحصل.

٣. كان بإمكان السفارة الفلسطينية في الجزائر أن تقوم بتسلم محتويات المكتبة، وفقًا لما هو موجود. والتوقيع، بالتالي، على قوائم تعدّها هي دون أن تتحمّل مسؤولية ما هو غير موجود، وبالتالي، نقلها إلى مكان آمن، بدلاً من تركها في معسكر الخروبة، عرضة لشتاء شهري ٩-١٠/١٩٨٣.

٤. لا يوجد أي سبب واضح لعدم تسلّم المكتبة من إدارة مركز الأبحاث، والإشراف عليها وتخزينها.

٥. يبدو أن صراع الأجنحة داخل فتح والمنظمة سبب من أسباب حالة التلكؤ في شحن المكتبة والأرشيف والوثائق، ذلك أن الرئيس عرفات كان يريد شحنها إلى القاهرة، وفي هذا السياق، بذل جهودًا سياسية ودبلوماسية لإعادة فتح المركز في القاهرة، وأمر بصرف زهاء مليون دولار لشراء مبنى خاص في مصر الجديدة، في وقت كان فيه آخرون في اللجنة المركزية، ومنهم صلاح خلف "أبو إياد"، يرغب في إعادة فتحه في مدينة الجزائر.

٦. حاولت المعارضة داخل فتح وَ م.ت.ف استغلال موضوع المكتبة والوثائق وتوظيفها في إطار الصراع الدائر، دون أن تبذل جهودًا جدية لإنقاذها من الضياع.

٧. لم تجر محاولات فلسطينية جدّية للوقوف طويلاً عند هذا الحدث، وتحديد مسؤولية ضياع الوثائق الفلسطينية، أو محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

نظرة نحو المستقبل

لعلّ ما حصل من ضياع وتضييع لمكتبة المركز وأرشيفه ووثائقه من شأنه أن يشكل درسًا قاسيًا للأجيال الفلسطينية القادمة. ما حصل قد حصل ولا يمكن استعادته، لكن ما هو قادم يمكن أن يكون أحسن حالاً، في اللجوء لاستخدام وسائل الحفظ والرعاية، خصوصًا في عصر الكمبيوتر والإنترنت. لكن، ومع فداحة الخسارة، فإن جزءًا مهمًا لا يزال قائمًا، ويمكن إنقاذه. هناك مجموعة مجلة "شؤون فلسطينية"، بأعدادها الـ ٢٤٨، وهي مخزن توثيقي وفكري مهم يغطي

السنوات ١٩٦٨-١٩٩٤. وهذه المجلة تتوافر كاملة في بعض المكتبات الجامعية والشخصية. وإضافة إلى ذلك، فهناك زهاء خمسة آلاف كتاب فكري أكاديمي من منشورات المركز، تتوزّع على محاور الدراسات الإسرائيلية والفلسطينية والدولية، إضافة إلى مجلدات "اليوميات الفلسطينية"، وهي بمثابة التأريخ الجاري منذ الأوّل من كانون ثاني (يناير) ١٩٦٥ وحتّى الأوّل من كانون ثاني (يناير) ١٩٧٦.

لا يزال ممكنًا حتّى اللحظة تصوير أعداد "شؤون فلسطينية" وكذلك كتب المركز، ومجلدات اليوميات الفلسطينية، على مصغرات CD'S، كي تكون متوافرة للجميع، وبذلك تعمّ الفائدة، ويتمّ حفظها من الضياع وقلّة الاستخدام.

أعتقد أن هذه المهمة هي مهمة المجتمع المدني الفلسطيني الآن، ومنظماته الأهلية، ذلك أن السلطة الفلسطينية ومنذ قيامها لم تولِ المؤسسات البحثية أي أهمية تذكر، بلّ على النقيض من ذلك، إذ قامت بإدارة الظهر لها، فلم يستأنف المركز نشاطه حتّى إصدار "شؤون فلسطينية"، رغم توافر الشروط كافة لإعادة إصدارها، ولم تخصّص السلطة أي موازنات تساعد المركز وغيره من المؤسّسات الأكاديمية من النهوض والقيام ثانية.

وإلى ذلك، فإن ما يبدو لا يدعو إلى أي دهشة تذكر، ذلك أن أكاديميين ومفكرين وكتابًا بارزين كانوا قد أسهموا في تعزيز روح البحث العلمي في إطار م.ت.ف، وبجهود جزء من هؤلاء تأسّس مركز الأبحاث، وظهرت "شؤون فلسطينية"، ونشرت كتب ووثقت وثائق مكتوبة وشفوية على حد سواء، لكن هؤلاء، ومنهم: إدوارد سعيد، وإبرهيم أبو لغد، وأنيس وفايز صايغ، ووليد الخالدي، وأحمد صدقي الدجاني، شهيد الموت، وغيرهم الكثير الكثير، سرعان ما رحلوا عن المنظمة، وأخذ جميع المفكرين الكتاب والصحافيين البارزين يغادرونها رويدًا رويدًا، حتّى أضحت شبه فارغة من هؤلاء، وبالتالي تقوّضت أركان مؤسّسات البحث العلمي، وأبرزها مركزا الأبحاث والتخطيط. ومع قيام السلطة في العام ١٩٩٤، لم تجد أركان السلطة العتيدة أي ضرورة لاستئناف ما كان من نشاط أكاديمي، ووجد الباحثون والأكاديميون أنفسهم في حالة فراغ، لم يملأ جزءًا منها سوى بعض النشاطات الجامعية والأهلية. كتبت أكثر من مقال شرحت فيها أهمية إعادة بعث مركز الأبحاث، وكان أبرزها ما كتبته في جريدة الاتحاد (حيفا) بتاريخ ١٩٩٦/١٢/٤ تحت عنوان: "نحو مؤسّسة وطنية فلسطينية للتأريخ الحديث"، وهذا نصّه:

شهدت مرحلة النهوض الوطني الفلسطيني منذ العام ١٩٦٥ نموًا ملحوظًا على صعيد البحث والكتابة عمومًا. وبرز مركز الأبحاث الفلسطيني كإطار أكاديمي فاعل في هذا المجال. وخلال فترة عمله ونشاطه في الأعوام ما بين ١٩٦٥-١٩٩٤، تمكن المركز من فتح المجالات للبحث في الشؤون الإسرائيلية والشؤون الفلسطينية على اختلافها، ومنها التأريخ. وخلال تلك الفترة، نشر المركز العديد من الكتب التاريخية المتخصّصة، أسهم فيها باحثون من مختلف المذاهب السياسية الموجودة. لكن مرحلة النهوض البحثي، وما رافقها من حركة نشر نشطة، لم تدم طويلاً، وأخذت بالانزواء والتلاشي رويدًا رويدًا حتّى توقفت، وتوقف بعدها النشاط المؤسّسي للمركز.

والغريب في الأمر أنه وبعد انتقال قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من الخارج إلى مناطق الحكم الذاتي الفلسطيني بقيت مؤسّسات البحث الفلسطيني مغيبة تغييبًا تامًا ونهائيًا. ولم تجر محاولة جادة لإعادة الحياة إلى مركز الأبحاث الفلسطيني. ولعل المتابع للشأن الثقافي الفلسطيني يمكنه أن يلحظ بوضوح مدى انحسار حركة النشر البحثي خلال السنوات الثلاث الماضية انحسارًا هائلاً، خصوصًا في مجالات البحث التاريخي، والخطورة هنا لا تكمن في الجانب الأكاديمي فحسب، بل في الجانب السياسي والحضاري أيضًا، ذلك أن وقائع جديدة تتوالد الآن وهنالك، والسياسية كافة. توزع هذا الصراع على الأشكال المتاحة، من سياسية واقتصادية وعسكرية.

كتب الإسرائيليون تأريخهم الحديث، وفقًا لمعطياتهم وأفكارهم، وبشكل يتواءم مع نظرتهم التأريخية العامة، وآفاق طموحهم في إقامة المجتمع الإسرائيلي الحديث، وتدوين وقائعه ومواضيعه.

الفلسطينيون، من جهتهم، شهدوا حالة فصام، فمنهم من بقي في أرضه ووطنه وحافظ على هويته العربية في الدولة الإسرائيلية، ومنهم من تشتّت في أصقاع العالم العربي. وخلال فترة الصحوة الأولى من حرب ١٩٤٨، والجلاء عن الأرض والوطن، بدأ الفلسطينيون يكتبون تأريخهم بشكل فردي، وطغى السياسي والعسكري على ما سواه من جوانب التاريخ، خصوصًا الاقتصادي والاجتماعي، ولعل سبب ذلك يكمن في محاولة تأكيد الذات الوطنية الفلسطينية، والدفاع عن الهوية الضائعة. وخلال فترة التحرر الوطني الفلسطيني، منذ العام ١٩٦٠ وما بعدها، حاولت القيادات السياسية المختلفة: الوطنية، والقومية، والماركسية، كتابة التأريخ، وفق منظورها،

ومناهج عملها الفكري. ولا نريد، هنا، أن نستعرض ما كتب، من حيث إيجابياته وسلبياته، لكننا نود القول إن ما حصل كان قد خدم مرحلة تاريخية – سياسية محددة، وإن ما شهدته الساحة الوطنية الفلسطينية، وعلى مختلف الجوانب، بات يستدعي مجدّدًا إعادة كتابة التاريخ الوطني وإعادة بعث المؤسّسات البحثية اللازمة.

إن الحفاظ على الذاكرة الوطنية الفلسطينية، عبر مؤسسة فلسطينية أكاديمية، بات أمرًا حيويًا وضروريًا ليس من أجل خدمة الماضي والوفاء للسلف الفلسطيني فحسب، بل إنه ضروري لفهم مجريات الأحداث الراهنة، ووضع أسس المستقبل الوطني عمومًا.

وبتاريخ ١٩٩٦/٧/٢١، وجّهت رسالة مفتوحة للرئيس ياسر عرفات بعنوان: "مركز الأبحاث الفلسطيني:رسالة مفتوحة، وكلمة لا بدّ أن تُقال"، هذا هو نصّها:

عندما فكّرت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، ومنذ الأيام الأولى لتأسيسها، في إقامة المؤسّسات والهياكل اللازمة لتكريس الكيانية الوطنية الفلسطينية، وجدت في سلم الأولويات إقامة جيش التحرير الفلسطيني ومركز الأبحاث. وبعدما نجحت القيادة – آنذاك – في إقامة هذين الصرحين، تنهد أحمد الشقيري، الرئيس الأسبق للجنة التنفيذية الفلسطينية، الصعداء، وقال: ها أنا قد أوجدت فيكم مركز الأبحاث وجيش التحرير الفلسطيني، هما عماد هذا الكيان، وضمانة الانتصار، وكان الشقيري شأنه شأن معظم أعضاء اللجنة التنفيذية – آنذاك – يعتبر مركز الأبحاث عقل المنظمة، وجيش التحرير ذراعها الضارب.

شكّل مركز الأبحاث، ومنذ السنوات الأولى لتأسيسه، حدثًا فكريًا مهمًا، ليس على الصعيد الفلسطيني فحسب، بل على الصعيدين العربي والعالمي، وتمكّن من خلال الدعم المفتوح من القيادة الفلسطينية، ونتيجة التفاف خيرة الأكاديميين الفلسطينيين حوله بكل ما تمتعوا به من خبرة ومعرفة وحماس وطني أصيل، من أن ينشر المعرفة الموضوعية حول إسرائيل ككيان ومؤسّسات وتطلّعات، كما قام بإحياء التاريخ الوطني الفلسطيني، وتاريخ القضية الفلسطينية في مرحلتها الراهنة منذ عام ١٩٦٤. وتحوّل المركز، عبر مكتبته ومحفوظاته الوثائقية، ووجود الخبراء فيه، إلى مدرسة يقصدها الطلبة من مختلف أرجاء المعمورة، كما تمكّن المركز من خلال إصداره شهريته المعروفة "شؤون فلسطينية"

من أن يوجد صحيفة متخصّصة بالشؤون الإسرائيلية والفلسطينية، وبشكل أكاديمي عريق وعميق، من خلالها برزت أسماء، وتربت أقلام، ولا تزال بأعدادها التي تزيد على المائتين وخمسين عددًا مصدرًا من أهم المصادر الخاصّة بالقضية الفلسطينية وما أحاط بها خلال الأعوام ١٩٦٨-١٩٩٤. كما تشكّل مجموعات "اليوميات الفلسطينية" مصدرًا شديد الأهمية للسياسي الراهن ومؤرخ المستقبل، لما تتضمنه من وقائع دقيقة موثقة توثيقًا علميًا. وإضافة إلى كل ذلك، فقد تضمنت خزانة الكتب الخاصّة بالمركز مصادر قلّ نظيرها، خصوصًا فيما يتعلق بالوثائق الأساسية.

ونظرًا لأهمية المركز ودوره الوطني البارز، فقد تعرض خلال وجوده في بيروت (١٩٦٤-١٩٩٣) إلى ثلاثة اعتداءات أساسية، استهدف الأول منها تدميره كليًا عبر إطلاق صواريخ أرض - أرض عليه، أما الثاني فاستهدف اغتيال مديره العام - آنذاك - د. أنيس صايغ، وكان الثالث المروّع بتاريخ ١٩٨٣/٢/٥، حيث استهدفت سيارة مفخخة بما يزيد على ٢٥٠ كغم من المتفجرات نسف المبنى واغتيال كل من فيه، وتدمر المبنى جزئيًا، واستشهد ما يزيد على تسعة من العاملين فيه، وجرح ما يزيد على ثمانية عشر، وكاتب هذه السطور واحد منهم، وبأعجوبة وبعناية من الله لم يدفع جميع العاملين حياتهم ثمنًا لهذا العدوان. وسبق هذا العدوان عدوان من نوع آخر، حيث حاصرت القوات الإسرائيلية عند اجتياحها بيروت أواخر صيف ١٩٨٢ مركز الأبحاث، وقامت بنهب كافة محتوياته من كتب ووثائق وأوراق وخلافها، لكنها اضطرت إلى إعادتها عند عملية تبادل بعض أسراها بأسرى فلسطينيين، حيث وضعت القيادة الفلسطينية شرط إعادة محتويات مركز الأبحاث واحدًا من شروط الصفقة. تمّت إعادة المحتويات إلى مدينة الجزائر دون أن يتسلّمها أحد!! السفير الفلسطيني هناك رفض أن يتسلّمها ذلك أنه يجهل محتوياتها، ووقّع على تسلّم صناديق وكميات دون أن يحدّد ما الذي تسلّمه، خوفًا من محاسبة التاريخ - هذا ما ذكره لي في جلسة خاصّة معه ربيع ١٩٨٥ في مدينة الجزائر -وبعد البحث عن المحتويات، وبتكليف من الرئيس ياسر عرفات، تمّ العثور على الصناديق المعادة في أحد المعسكرات الجزائرية في تيبسة، وكانت محتوياتها بحالة جيدة، خلافًا لما كان شائعًا - آنذاك -لكن تعذّر شحنها إلى قبرص كما كان مقررًا، وبقيت هناك لأسباب مختلفة لا سبيل لذكرها هنا.

بقيت المكتبة في تيبسة ومن ثمّ نقلت إلى معسكر آخر، وكان من المتعذّر في حينه معرفة مصيرها الحقيقي. وبعد أن استأنف المركز عمله في العاصمة القبرصية نيقوسيا، بدءًا من العام ١٩٨٥، كان لا بدّ من تأسيس مكتبة متخصّصة بلغت تكاليف بنائها زهاء المليون دولار أمريكي، وتضمنت إضافة للمصادر الأساسية، وملفات الصحف زمن الانتداب، ما أمكن إنقاذه من كتب ومنشورات مركز الأبحاث في مرحلة بيروت. واستمر المركز في عمله خلال الأعوام ١٩٨٥-١٩٩٣ في قبرص، وفي ظلّ الأزمة المالية انقطعت الرواتب عن الباحثين والعاملين، فهاجر جلّهم إلى دول الاغتراب بدءًا من كندا، وصولاً إلى فنزويلا والسويد والدنمارك وبريطانيا، بعدما ضاقت الدنيا في وجوههم، وانقطعت سبل العيش!!

توقف عمل المركز منذ أواسط ١٩٩٣ ولا يزال، على الرغم من صدور القرار رقم ٢٠ لسنة ١٩٩٤، والموقّع من رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، والقاضي باعتبار مركز التخطيط ومركز الأبحاث من ضمن مكتب رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية اعتبارًا من ١٩٩٤/٩/٢٢. وخلال هذا التوقف غير القصير، وصل المدير العام للمركز صبري جريس للبلاد، وتمّ تكليفه مجددًا بإدارة المركز، وتمّ شحن محتويات مركز الأبحاث من ليماسول - قبرص إلى ميناء أسدود، وبقيت تلك المحتويات ماكثة في الميناء منذ ما يزيد على عشرة أشهر دون أن يتسلّمها أحد، واضطر الشاحن قبل زهاء الشهر إلى إشعار السلطة الوطنية الفلسطينية بأنه سيقوم بإحراقها في حال عدم تسلّمها، ولا ندري عن مصيرها شيئًا، هل أحرقت أم ماذا؟! ذلك أن أحدًا لم يتسلّمها بعد!! وبالتوازي مع مكوث المحتويات في الميناء، برزت اجتهادات شتّى حول الموقع الملائم الذي سيقيم فيه المركز، وهي بحاجة إلى دراسة وتأنّ، ذلك أن المركز بتراثه التاريخي، ووظائفه المستجدة، يحتاج إلى نخبة من الباحثين الفلسطينيين القادرين على الوصول إليه بشكل يومي، كما أن وظيفته ستحتاج إلى تفاعله الحي والواعي مع الوسط الجامعي الفلسطيني. ودون تحقيق هذين الشرطين سيكون المركز مركزًا سياسيًا خاضعًا لاعتبارات تكتيكية قد تبعده عن وظيفته العلمية.

وأيًا تكن الاجتهادات بشأن موقعه، فإن الأهم والأبرز الآن إنقاذ مكتبته، والتي نأمل أن

تكون ماكثة حتّى الآن في أسدود، والإسراع في فتح ملف المكتبة الماكثة في الجزائر، وإعادة تشكيل هيكله الإداري، وإصدار مجلته الشهرية "شؤون فلسطينية" والتي لم تتوقف حتّى أثناء الحصار الإسرائيلي على بيروت ١٩٨٢، وحتّى إبّان الاجتياح الإسرائيلي لها.

وأخيرًا، ومن خلال موقعي ككاتب، ومن خلال عملي خمسة عشر عامًا متصلة في مركز الأبحاث ١٩٨٠-١٩٩٥ كباحث رئيسي في القسم الفلسطيني، أتوجّه بهذه الكلمة المفتوحة إلى سيادة الرئيس ياسر عرفات، والذي سبق أن قام برعاية هذا المركز، واحتضان نشاطاته بدفء أبوي حقيقي، أتوجه إليه مجددًا، على رغم معرفتي بتشعب مشاغله وثقلها، لإعادة فتح هذا الملف المهم، وإعادة المركز لنشاطه المعهود، في وقت نحن فيه بأمسّ الحاجة لتراثه، ومعالجاته ومنشوراته وأبحاثه الخاصة، بقضايانا الراهنة والمعاصرة.

وبعد زهاء أربعة أشهر نشرت مقالاً بعنوان: "أزمة البحث الفلسطيني"، في صحيفة "الأيام"، في يوم ١٩٩٦/١١/٢٦، هذا نصّه:

الكيانية الفلسطينية والبحث صنوان، تلازما منذ الولادة، وتطورا عبر مفاصل التطور السياسي والكياني، ذلك أن الكيانية بحدّ ذاتها بحث في الشخصية الوطنية، تاريخًا وواقعًا ومستقبلاً. ومن خلال هذا البحث عن الشخصية الفلسطينية الغائبة بفعل الاقتلاع سنة ١٩٤٨، والتغيّيب ما بعد ذلك، كان لا بدّ من البحث في جبهة العدو، وجبهات الصديق.

ولدت فكرة البحث الفلسطيني مع ولادة فكرة تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية كإطار تنيظيمي وسياسي لحركة الشعب الفلسطيني، وتنامت الفكرة، وازدهر البحث، مع ازدهار دور المنظمة، وتصاعد نشاطاتها. ومن خلال هذا التلازم، تعمّق الفكر الفلسطيني وتطوّر. وأصبح للفلسطينيين منظورهم العلمي لفهم عدوهم وصديقهم، وتبلورت لديهم فكرة الوطن والمواطنة من خلال إضاءة التاريخ وحركة السياسة.

ولعل المتابع لحركة البحث الفلسطيني يمكنه أن يلحظ، وبوضوح، أنه تمكن من فتح أبواب المعرفة الموضوعية عن الصهيونية وإسرائيل، بعيدًا عن الشعاراتية والتهويش، وأنه قام بتقديم الصورة الحقيقية عن الفكر الصهيوني وتطوره، ومدارسه السياسية المختلفة، الأمر الذي أتاح للمثقف الفلسطيني والعربي الاطلاع على صورة العدو من زاوية الفكر

الموضوعي. وإضافة إلى ذلك، فقد أتاح البحث الفلسطيني، خلال تطوره منذ العام ١٩٦٤، إعادة كتابة التاريخ الوطني الفلسطيني، وإحياء الذاكرة الوطنية الفلسطينية، بعدما تعرضت تلك الذاكرة للطمس والتشويه، ومن خلال هذا الجهد، ظهرت مجموعات الوثائق الفلسطينية، وبناء المكتبة البحثية بما تضمنته من مصادر ومراجع مهمة، وسرعان ما تحول مركز الأبحاث الفلسطيني، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت، إلى إطار أكاديمي قادر على احتضان الطاقات الشابة وتنميتها، وتوفير الظروف والمناخات الملائمة لإنضاج البحوث ورعايتها.

وبذلك، شكل مركز الأبحاث الفلسطيني، في حينه، نمطًا متقدّمًا، وظاهرة علمية مميزة، ليس في الوسط الفلسطيني فحسب، بل في إطار الصراع العربي – الإسرائيلي عمومًا.

ووفقًا لذلك، حاولت الدوائر السياسية المعنية بهذا الصراع انتهاج طريق مركز الأبحاث، وإقامة المؤسسات البحثية اللازمة، لدراسة أبعاد الصراع على أسس موضوعية عميقة، وأثمرت جهود تلك المؤسسات وترافقت مع جهود مركز الأبحاث عمومًا.

لعب المركز دوره العلمي المميز والمفيد كإطار علمي يغذّي الحركة السياسية ويغنّيها، ويسهم في نشاطاته سياسيون مرموقون، لهم دورهم في صناعة القرار، لكن ذلك لا يعني، مطلقًا، أن الهامش اللازم بين العلم الأكاديمي والعمل السياسي قد تضاءل. بل على النقيض من ذلك، فقد حرص السياسيون – الأكاديميون، طوال فترة عملهم البحثي، على الحفاظ على هذا الهامش اللازم وصيانته، لإدراكهم العميق بأهمية هذا الهامش، ومخاطر تلاشيه على مستقبل العمل البحثي الفلسطيني.

وإبان أزمة ما بعد العام ١٩٧٣، وما شهدته الساحة السياسية من تطوّرات مفصلية، واجتهادات بشأن مستقبل الصراع برمته، شهدت ساحة البحث الفلسطيني سياسيًا تباينات واضحة، كان لها خلفياتها التنظيمية، الأمر الذي انعكس سلبًا على الهامش الفاصل بين السياسي والأكاديمي، وأرخى بظلال ثقيلة على الاستقلالية النسبية للبحث الفلسطيني عمومًا، وانعكس سلبًا على مستوى البحث وأدائه. وعلى الرغم من ذلك، تمكّن البحث الفلسطيني من الحفاظ على مقوّمات وجوده، واستمراره عبر الظروف السياسية والأمنية المختلفة كواحد من مقوّمات الوجود الفلسطيني، وتأسيس كيانه.

ومن خلال النشاط البحثي الفلسطيني، وحسن رعايته منذ العام ١٩٦٥، نشأت أجيال مختلفة من الباحثين الفلسطينيين، وبمختلف الاختصاصات، وتمّ إغناء المكتبة الفلسطينية بشكل يتلاءم ومستوى الحدث الفلسطيني ذاته، إلا أن حالة النمو البحثي تلك لم تلق الرعاية اللازمة، ولم تجد الإطار المناسب للحفاظ على الباحثين الأمر الذي أدى، بدوره، إلى تخريج الباحثين، إلى مؤسّسات عربية ودولية موازية، وإزاء تلاشي الهامش اللازم بين السياسي والأكاديمي، هاجرت كفاءات بحثية عالية، وحلّت محلها كفاءات مبتدئة تنقصها التجربة والحنكة، وبالتالي هبط مستوى البحث، دون أن يتلاشى. وغدت مؤسّسات عربية موازية أكثر عمقًا وأرفع مستوى من مؤسّسات البحث الفلسطيني ذاته، بعد أن كان لتلك المؤسّسات دور السبق في تأسيس قواعد البحث الأساسية في الصراع العربي – الإسرائيلي إجمالاً.

وإلى ذلك، نظر بعض المحلّلين للشؤون الفلسطينية على أن ما شهدته ساحة البحث الفلسطينية هو جزء مما شهدته الساحة الفلسطينية عمومًا من أمراض الغربة والمهجر، وأن صراعات الخارج السياسية، وعدم الاستقرار الجغرافي، كان لهما شأنهما في تراجع مسيرة البحث، وإيصاله إلى ما وصل إليه بعد ازدهار ومجد مشهودين.

العودة وتلاشي البحث

وبعد عودة القيادة السياسية الفلسطينية إلى أرض الوطن، وعودة المؤسّسات والإطارات على اختلافها، شهدت الهيكلية الوطنية الفلسطينية إعادة بناء سريعة، هدفها الأساسي إقامة الكيان السياسي. وبالرغم من سرعة إعادة البناء، وبشكل يستوجب إعادة النظر فيه مستقبلاً، تمّ تناسي البحث الفلسطيني ومؤسّساته، على الرغم من الأهمية الفائقة له، ولدوره في مأسّسة الكيان الفلسطيني، وما تشهده الساحة السلمية من صراعات علمية وحضارية تطال التاريخ، والعمق السياسي، وكافة أوجه الحياة المعاصرة.

واستمرت عملية تغييب البحث ومؤسساته منذ ما قبل العودة وحتّى اللحظة الراهنة، وعلى نحو يصعب تفسيره حقًا.

وفي ظلّ ذلك، تشتّتت القدرات البحثية، ووجد الباحثون أنفسهم أمام خيار الهجرة،

والعمل في المؤسّسات الدولية، أو العيش كلاجئين في المهاجر البعيدة، أما القلّة التي اختارت العودة، فلم تجد لها مكانًا ملائمًا حتّى اللحظة، وافتقدت الإطار البحثي اللازم، للحفاظ على قدراتها البحثية وتطويرها، الأمر الذي دفعها دفعًا نحو العزوف شبه الإلزامي عن البحث، والقيام بأنشطة أخرى، حيث وجدوا أنفسهم داخل هرم معكوس.

وتأسيسًا عليه، لم تشهد حركة النشر البحثي نشاطًا ملموسًا خلال السنوات الثلاث الماضية، وتلاشت المؤسّسات البحثية الفلسطينية، ولم تُبذل جهود صادقة لإقامة بدائل عمل عنها. وغابت الدوريات البحثية المخصّصة، باستثناءات بسيطة، تفتقر إلى مقوّمات الانتشار والاستمرار. ومع استمرار هذه الظاهرة السلبية الخطيرة، فإن مسؤولية الوقوف عندها، ودراستها من حيث الدلالات والنتائج المتوقعة، هي مسؤولية سياسية وأكاديمية في آن معًا. وهذا ما يستوجب بالطبع وضع استراتيجية بحثية جديدة، دون إسقاط أهمية التراث البحثي المتراكم خلال المراحل السابقة، بحيث تضمن الاستمرار في دراسة آليات العمل الإسرائيلي: الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والتاريخية، وخلافها من أوجه الفعل. وكذلك الاستمرار في نهج البحث الفلسطيني الخاص بالشعب الفلسطيني ومقدراته التاريخية والحيوية في الوطن كما في الشتات، وإيجاد القاعدة المعلوماتية القادرة على توثيق الأحداث الفلسطينية التاريخية والجارية بشكل موضوعي.

إن تغييب البحث الفلسطيني، وبالشكل الذي نعايشه الآن، من شأنه إضاعة التراكم العلمي المنجز، من ناحية، وإيجاد ثغرات حضارية لا يستهان بها مستقبلاً من الممكن أن ينفذ منها: إضاعة الذاكرة الوطنية، وحاجة التمييز اللازمة بين ما هو غثّ وما هو سمين، وإظهار العقل الفلسطيني بمستويات هي أدنى من مستوياته الفعلية.

وفي تاريخ ١٩٩٧/٣/٧، فوجئت بمقال في جريدة السفير (بيروت) كتبه د. أنيس صايغ بعنوان "مركز الأبحاث والضياع المتواصل"، هذا هو نصّه:

حديث مركز الأبحاث، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، المأسوف على شبابهما وعطائهما اللّذين انتقلا إلى ذمّة التاريخ بإلغاء أوّلهما وإفراغ ثانيهما، حديث طويل وحزين لن تجذبني إليه ذكرى تأسيس المركز (١٩٦٥/٢/٢٨)، وإنّما مقال وقعت عليه بالصدفة منذ أيام عن المركز، وكان قد نشر في إحدى صحف فلسطين المحتلة قبل سبعة أشهر.

يمكن اختصار مراحل تاريخ المركز من حيث نشاطه وفاعليته وإنتاجه إلى ثلاث مراحل: مرحلة التأسيس والبناء (لمدة سنة ونصف السنة)، حاول خلالها المدير المؤسّس، شقيقي المرحوم فايز صبّاغ وضع الحجر الأساس عن طريق تأمين المناخ المناسب لقيام هذا المشروع الذي كان رائدًا، وفي أرض بكر لم تعتد على ضرورة الدعم الفكري والثقافي والبحث العلمي للنضال الفلسطيني، السياسي والعسكري، ثم مرحلة العطاء بكل ما في الكلمة من معان، وقد بلغت عشر سنوات، كان لي شرف إدارة المركز خلالها. وقد امتد نشاط المركز آنذاك أفقيًا، فغطت النشاطات دول العالم قاطعة، وعموديًا، فعمّقت وروّجت البحث الفلسطيني، وتوثيقًا، فأقامت أكبر وأثرى مكتبة متخصّصة بالشأن الفلسطيني في الوطن العربي وربما العالم كلّه، وجمعت المكتبة قدرًا واسعًا من الأوراق الوثائقية والمذكرات، فدرّبت وخرّجت عدة عشرات من الباحثين الجدد أصحاب الاختصاص وجلّهم من المتفرغين آنذاك لهذه المهمة، ونشرًا، فأمدّت المكتبة الفلسطينية بأكثر من أربع مئة كتاب وكتيب ودراسة وبحث، وصحافة، فأصدرت أول شهرية علمية مختصة بالشؤون الفلسطينية. ولن أسترسل في وصف دور المركز الريادي في هذه الحقبة لأن الشهادة بأهمية ذلك الدور أتت وتأتي باستمرار من مئات الكتّاب والمختصين وذوي العلاقة، من عرب وأجانب. وهي تأتي في الدرجة الأولى من العدو، الذي قام المركز لمقارعته في الحقل العلمي، عن طريق محاولاته المتعدّدة لنسف المركز وقتل مسؤوليه والعاملين فيه، ثمّ عن طريق سلب نصف مكتبته وكل وثائقه وأرشيفه، وقبل ذلك عن طريق بيان سرّي وزعته قيادة المنظمة الصهيونية العالمية لفروعها في بريطانيا أواخر العام ١٩٧١ تنذر بأهمية المركز وتحذّر من نشاطه.

ثمّ بدأت مرحلة الانحدار في نهاية تلك السنوات العشر. فكانت المرحلة الثالثة مرحلة ركود واجترار، وإفادة من الأمجاد التي حقّقتها المرحلة السابقة، بالرغم من الجهد الصادق للمدير العام الجديد الشاعر الكبير محمود درويش لمدة قصيرة نسبيًا من سنوات النصف الثاني من السبعينيّات. لكن درويش، الشاعر الفنان أولاً، لم يكن مستعدًا لتحمل تدخلات "السلطة" الفلسطينية ومحاولاتها لتحويل دور المركز من عقل يرشد إلى يد تصفّق ولسان يردّد كلام السلطة كالببغاء. ولم يكن مستعدًا لأن يكون شاهد زور أو جلادًا للمركز وأهدافه وطموحاته الوطنية والثقافية.

وبانتقال المركز إلى قبرص، بعد نسف مبناه في بيروت شباط (فبراير) ١٩٨٣ (وقد سبقت ذلك سرقة جيش الاحتلال الإسرائيلي القسم الأكبر من مكتبة المركز وأوراقه في صيف ١٩٨٢)، دخل المركز دورة الاحتضار وبقي بقوة الاستمرار، ولولا إخلاص قلّة قليلة من الباحثين لجاز لنا أن نسدل الستار على المركز منذ خروجه من بيروت، بالرغم من أريحية القيادة السياسية للمنظمة فجأة وفتح صناديقها المالية أمام المركز، وشراء مبنى كبير من عدّة طوابق في نيقوسيا ١٩٨٥ وشراء كتب بقيمة مليون دولار أميركي. وللمقارنة، فقد كان هذا المبلغ يبلغ ثلاث مرات مجموع ما قدمه السيد عرفات للمركز خلال فترة إدارتي له في عهده (١٩٧٠-١٩٧٦)، لتغطية جميع أبواب نفقاته، من نشر وطباعة وشحن وبريد وتوثيق وكتب وصحف ورواتب ومكافآت ومصاريف إدارية مختلفة يتوجّب تسديدها على مركز يعمل فيه سبعون باحثًا وموظفًا، ويشغل بناية من ستة طوابق. وهو الأمر الذي كان يضطرني إلى تغطية العجز المالي السنوي، الذي كان يفوق ما تؤمنه القيادة الفلسطينية بعدة أضعاف، بواسطة استعطاء مؤسّسات ثقافية وإعلامية وأكاديمية عربية، رسمية وغير رسمية، أدركت قيمة المركز وقدرت عطاءه أكثر من القيادة الفلسطينية نفسها! بالرغم من ذلك شهدت قبرص دخول المركز مرحلة الغيبوبة المعروفة طبيًا بـ "الكوما" التي انتهت برصاصات رحمة أطلقتها القيادة في صيف ١٩٩٣ بتخفيض المساعدات عن المركز، أسوة بسائر أجهزة منظمة التحرير الفلسطينية، بحجّة شحّ الموارد المالية، الأمر الذي اتضح فيما بعد انه كان ذريعة لشلّ المنظمة بإعلان الوصول إلى اتفاق مع العدو، اشترط، فيما اشترط، جعل وجود المنظمة صوريًا فقط لتأمين مرور الاتفاق سيئ الذكر (أوسلو) وتمويه الحقائق على الشعب بزعم أن الظروف المالية والعملية فرضت على القيادة ذلك الاستسلام المشين.

وهكذا، وفي النصف الثاني من عام ١٩٩٣، أي بعد ثمانية وعشرين عامًا من إنشائه، تفرّق أهل المركز "أيدي سبأ" كما يقولون، وتوقف القلب نهائيًا عن النبض وارتاحت القيادة من مؤسّسة عصت عليها ثمّ لما طأطأت جفّ نتاجها، كما ارتاحت "إسرائيل" من جهة اعتبرتها ألدّ أعدائها بين صفوف المناضلين الفلسطينيين والعرب.

خاتمة محزنة لمعلم بارز على طريق النضال، بل هو الأبرز على صعيد دور العقل والبحث في هذا النضال، مواكبة وتعزيزًا وتمهيدًا وإعلانًا وإعلامًا. نعود إلى تذكر هذه الخاتمة بفضل المقال آنف الذكر الذي كتبه أحد العاملين في المركز لمدة طويلة (خمسة عشر عامًا) من الذين انتقلوا إلى

سلطة الحكم الذاتي المحلي، واحتموا تحت سقف رعايتها، والذي نشرته جريدة ليست معارضة للسيد عرفات، وهي تصدر في رام الله فتخضع لحكم السيد عرفات خضوعًا مباشرًا.

يلفت نظرنا في المقال جنوحه نحو التبرير والتوسل، متجاهلاً حقائق لا تسمح بسرد الوقائع من دون ذكر مسبّبها، ولا تجيز التقرّب من قيادة كانت تقف وراء مشاكل المركز، وكأن الكاتب يطلب الدواء من مسبّب الداء. وكأنه يجهل أن الذي يهدم لا يبني، والذي يأخذ لا يعطي، ومن قتل المركز، المحرّض الرئيسي ضدّ العدو، لن يعيد إليه الحياة بعد أن تصالح هو مع العدو.

وربما كانت إقامة الكاتب "العائد" في رام الله، أي في ظلّ الحكم الإسرائيلي المتستّر برداء "السلطة الوطنية"، هي التي حملته على سرد الاعتداءات الإسرائيلية على المركز دون التركيز وقلما يذكر اسم المعتدي، وحينما يستعرض تاريخ المركز يقول إنه كان ينشر المعرفة الموضوعية حول "تطلعات" إسرائيل. وهل هناك كلمة أخفّ وطأة وأكثر تهذيبًا من كلمة "تطلعات" في وصف مؤامرات إسرائيل واعتداءاتها وإرهابها وعنصريتها وبغيها؟

لكنّ أهمّ ما في المقال هو الحديث عمّا حصل لمكتبة المركز، التي سرق الإسرائيليون معظم محتوياتها في صيف ١٩٨٢، خاصّة أنّ الكاتب لم يكن مجرّد أحد باحثي المركز بل هو الشخص الذي تولّى عملية البحث عن المكتبة بعد أنّ أعاد الإسرائيليون محتوياتها في مئة صندوق وصندوق بتدخل من الصليب الأحمر الدولي، وكأحد بنود صفقة أبرمتها قيادة المنظمة في حينه مع الإسرائيليين بضغط ومساع من اليونسكو.

نقرأه يقول مؤرخًا صادقًا لعملية الإعادة: "أعيدت محتويات المكتبة إلى مدينة الجزائر، دون أن يتسلّمها أحد". لكنه لا يخبرنا لماذا لم يتسلّمها أحد، لماذا لم توفد المنظمة أو المركز من يتسلّم فورًا مكتبة نقول بلا مبالغة إنّها واحدة من أثمن المكتبات الفلسطينية وأندرها في عالمنا المعاصر، الله، وزوجتي، وحدهما يعرفان الجهد الذي بذلناه لتكوين المكتبة وإثرائها بأفضل الدراسات وأندرها، زوجتي التي كانت تقوم بدور "الحراسة"، وأنا أصرف الساعات الطوال أنقب عن الكتب القديمة الثمينة في مكتبات صهيونية ويهودية في أوروبا لتبلغ الشرطة إذا وقع لي مكروه أو كشف أصحاب المكتبات هويتي. ونتساءل: هل كانت المنظمة لا توفد أحدًا لتسلّم شحنة من سيارات المارسيدس ٦٠٠ التي يوصي بها القائد لتوزيعها على المحظوظين من أعوانه، مثلاً؟ "وتعذّر الصناديق إلى الخارج"

لماذا؟ ومن المسؤول؟ سؤالان لا جواب عنهما، ويلّح عليك السؤالان حينما تواصل القراءة: "من المتعذّر الآن معرفة مصيرها"، إنه يتكلم عن مئة صندوق كبير وصندوق، تحتوي على ما يزيد على عشرة آلاف كتاب.. تبخّر كلّها في الهواء، وكأنّها فقاقيع صابون تختفي ولا تترك أثرًا. ولا يجد الرواي، شاهد العيان والموفد إلى الجزائر للبحث عن هذه الثروة وشحنها إلى المركز في قبرص، واجب تفسير هذا الاختفاء، أو الإخفاء، المثير للشبهات.

لعلها "الأزمة المالية" الوهميّة التي قضت بإقفال المركز (١٩٩٣) هي التي قضت في ١٩٨٥-١٩٨٧ بترك المكتبة - الكنز في العراء إلى أن أتى "حوت" من بحر ما وبلعها كما بلع حوت الأدبيات الدينية يونس/ يونان من قبل، ولعلنا، بالمنطق نفسه، ننتظر أن يلفظ الحوت الجديد ما في جوفه مثلما فعل الحوت القديم فتعود إلينا المكتبة الضالّة التي كانت "إسرائيل" أحرص عليها منا نحن فأعادتها في صناديق متينة لا يخرقها ماء ولا هواء ولا صدأ ولا عثّ ولا تراب، كما روى لي كاتب المقال مرّة قبل أن يقوده القدر إلى حمى "السلطة المحلية".

لقد مضت على الحادثة المأساة عشر سنوات. لم تجد القيادة خلال هذه الفترة الطويلة حاجة إلى التحقيق في الموضوع لتحديد المسؤولية وللعثور على الكتب.

إذًا، فنحن في عام ١٩٨٥ أمام مركز بلا مكتبة، فيتاح له أن ينشئ مكتبة جديدة بمليون دولار، ونحن في العام نفسه، أمام مكتبة مسروقة أعيدت لنا ولم نتسلمها ولم نستعدها بل تركناها (تخلينا عنها) لتضيع، ١٩٨٧-١٩٩٧. وأخيرًا نحن أمام المركز نفسه، في عام ١٩٩٣، بلا أموال تغطي مصاريفه، فتُقفل فصول تتتابع وتترك بعد كل منها علامات استفهام لا يحاول أحد الردّ عليها ولا حتّى المساعدة في الردّ عليها، وربّما لأن الجميع يعرف أنّنا نعرف، وما تساؤلنا إلا من قبيل تجاهل العارف.

غير أن الكاتب يخشى (لسبب أو لآخر) أن نسيء الظنّ بالسيد عرفات، أو نتّهمه بأن له ضلعًا في "نكبة" مركز الأبحاث بفقدان مكتبته ثم بخروج العاملين فيه وإغلاقه، فيروي لنا فصولاً من عناية السيد عرفات بالمركز واهتمامه بأمره لندرك فيما بعد، أي في نهاية المقال، أن الكاتب يستنجد بنخوة السيد عرفات لبعث مركز الأبحاث من جديد.

ففي العام ١٩٩٤ صدر القرار رقم ٢٠ عن السيد عرفات "رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية"

باعتبار كل من مركزي الأبحاث والتخطيط في منظمة التحرير الفلسطينية تابعين لمكتب السيد "رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية" اعتبارًا من يوم ١٩٩٤/٩/٢٢، ولا يلاحظ الكاتب، المبشّر والمستبشر خيرًا بهذا القرار، أنّه يتضمن في ثناياه نزع الصفة الاستقلالية عن المركزين المذكورين التي كانا يتمتعان بها من قبل، والتي استطاعا الانطلاق والنجاح بفضل جهودها والتمسّك بها والحرص عليها ومنع خدشها لأغراض فئوية أو فصيلية أو غوغائية أو مصلحية تتنافى في مراعاتها مع موضوعية المركزين ومصداقية سلوكهما وإنتاجهما.

وإمعانًا في السيطرة على مركز الأبحاث، كلّف السيد عرفات باحثًا بإدارة المركز في عهده الجديد تحت إشرافه المباشر، وهو الباحث الذي دخل المركز حالة الغيبوبة في عهده في المرحلة الثالثة حين تجمّد نشاطه لدرجة أن المركز لم ينتج من الدراسات في خمسة عشر عامًا (بيروت ثم قبرص) إلا عددًا ضئيلاً من الدراسات لا يتجاوز أصابع اليدين، وتحوّلت مجلة المركز التي عرفت من قبل بمستواها العلمي الرصين والرفيع إلى منبر للآراء الخاصّة والتوجّهات العرفاتية. فنزل عدد مبيعاتها من ١٧ ألف نسخة شهريًا إلى ثلاثة آلاف ولم تعد تصدر بانتظام. وبلغ عدد الباحثين الذين كانوا يستعملون مكتبة المركز (في قبرص) خلال أكثر من عشر سنوات أقل من الذين كانوا يستعملونها في بيروت في الشهر الواحد، كما روى لي أحد العاملين في المركز في عهديه في بيروت ونيقوسيا علمًا أن تجديد المكتبة في نيقوسيا كلف مليون دولار.

قد يرى البعض في كلامي قسوة، وربما يرى آخرون فيه تحاملاً. حسبي في الردّ على هذا الاتهام أن أنقل عن كاتب المقال الذي أستند إليه (وهو كما ذكرت آنفًا يقيم في حمى السلطة المهيمنة حالياً على المنظمة وعلى المركز، ومن المدافعين عنهما) روايته التالية: كان من أوّل إجراءات المدير الجديد/ القديم للمركز أن أمر بشحن مكتبة المركز في نيقوسيا إلى ميناء أسدود (وهو، بالمناسبة، يقع تحت السلطة الإسرائيلية المباشرة، ولا أفهم لماذا لم يأمر بشحنها إلى غزة بحرًا أو برًا). ووصلت المكتبة ولكنها "بقيت راسية في الميناء أكثر من عشرة أشهر" على حدّ قول الكاتب. ولم يتسلّمها أحد. فاضطر "الشاحن إلى إشعار السلطة الوطنية الفلسطينية بأنه سيقوم بحرقها في حال عدم تسلّمها، ولا ندري عن مصيرها شيئًا. هل احترقت أم ماذا؟ ذلك أن أحدًا لم يتسلّمها بعد". أي في تموز ١٩٩٦ وبرزت أثناء وجود المكتبة مهجورة في أسدود، كما يقول الكاتب، اجتهادات شتّى حول الموقع الملائم الذي سيقيم فيه المركز.

يعيد التاريخ نفسه، ولكن هذه المرّة تتكرّر الوقائع في فترات متقاربة جدًا. ففي ١٩٨٣-١٩٨٥ بقي السيد عرفات أكثر من سنتين يبحث عن مكان يقيم مركز الأبحاث فيه بعد نقله من لبنان. و"ضاع" بين عمان وبغداد والقاهرة وتونس والجزائر، واستقر رأيه أخيرًا على قبرص لأسباب أجهلها. وتبقى مكتبة المركز اليوم في ميناء أسدود حوالي السنتين (١٩٩٤-١٩٩٦) ريثما يجد السيد عرفات المكان "الملائم" (أرجو ألا يختار، في نهاية الأمر، مدينة تل أبيب أو الجامعة العبرية في القدس).

هذه واحدة، والثانية أن مكتبة المركز الأصلية الشهيرة التي سطا عليها الإسرائيليون أعادوها "مشكورين"، بقيت في الجزائر سنتين ثمّ تبخرت وضاعت آثارها. وها هي مكتبة المركز المستجدة تقبع على أرصفة أسدود لحوالي السنتين ولا أحد يعلم مصيرها، وربما تكون قد أحرقت أو تبخرت أو قذف بها في البحر طعامًا للأسماك المتوسطية بعد أن تلكأت القيادة الفلسطينية في تقديمها مائدة فكرية وعلمية ممتازة لأهل العلم والثقافة والتخصّص والباحثين عن المعلومات، وربما بلعها حوت آخر. ونحن، هنا في بيروت ومعنا كل العرب في العالم، "نأمل" مع كاتب المقال أن تكون المكتبة لا تزال في أسدود، علمًا أن المرء يتساءل لماذا لم يذهب كاتب المقال، "الباحث الرئيسي" في المركز الحريص عليه وعلى محتويات مكتبته والساعي إلى إعادة تفعيله، إلى أسدود نفسها ليستعلم عن مصير المكتبة في مينائها وليعود إلينا ويطمئننا بأنها لا تزال حيّة أو ينعى إلينا مصيرها كما فعل مع مصير شقيقتها السابقة؟

بين المهزلة والمأساة خطّ رفيع، وهو الخطّ الرفيع نفسه الذي يفصل (أو يصل) بين النبوغ والجنون. وقد ضاعت معالم هذا الخطّ في ملف مكتبة مركز الأبحاث "والأحرى أن أقول مكتبتي المركز"، وكذلك في ملف المركز نفسه من بيروت إلى نيقوسيا إلى حيث هو الآن في مكان ما من فلسطين.

طبعًا لن تنتهي المهزلة - المأساة عند هذا الحدّ. فهي قصّة منظمة التحرير الفلسطينية كلّها. ولا تنحصر في ملف دائرة معينة، مهما كانت خطيرة مثل مركز الأبحاث. لكن هناك بين المحيطين بالسيد عرفات أو العاملين له أو معه أو المعجبين به (ولن أقول المنتفعين منه) من يرى في هذه القصة الواقعية حدثًا منطقيًا معقولاً يحول دون اعتبارها مهزلة تضحكنا أو مأساة تبكينا. وبين هؤلاء "الواقعيّين" كاتب المقال الباحث الرئيسي في المركز خمسة عشر عامًا.

إنه يتوّجه بتلك الصفة:

بكلمة مفتوحة إلى سيادة الرئيس ياسر عرفات الذي سبق أن قام برعاية هذا المركز واحتضان نشاطاته بعطف أبوي حقيقي، نتوجه إليه مجدّدًا، رغم معرفتي بتشعب مشاغله وثقلها، إلى إعادة فتح هذا الملف المهم وإعادة المركز إلى نشاطه المعهود.

قد تضحك أو تبكي وفي الحالتين تقرف

وجدت في نصّ الصايغ تجنيًا عليّ وعلى الحقيقة، وردّدت عليه في صحيفة "الأيام" يوم ١٩٩٧/٦/٨ بمقال تحت عنوان: "مركز الأبحاث الفلسطيني رسالة مفتوحة، وأصداء من بعيد"، هذا نصّه:

فوجئت قبل أيام بوصول صورة عن مقال عنوان "مركز الأبحاث والضياع المتواصل"، بقلم الدكتور أنيس صايغ، مدير عام مركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت ١٩٦٦-١٩٧٦، والمقال منشور في صحيفة "السفير" البيروتية بتاريخ ١٩٩٧/٣/٧، وهو عبارة عن ردّ مطوّل على مقال بعنوان "مركز الأبحاث الفلسطيني، رسالة مفتوحة، وكلمة لا بدّ أن تقال" كنت قد نشرته في جريدة "الأيام" بتاريخ ١٩٩٦/٧/٢١. وفي الوقت الذي حاولت فيه، من خلال كتابة المقال، إبراز الدور الثقافي والحضاري للمركز، وأهمية نشاطاته، الإشارة بوضوح إلى إشكالية قائمة، وتلخّص بوجود مكتبة مركز الأبحاث في ميناء أسدود، دون تخليصها، والإشارة بالتالي إلى عزم الشركة الشاحنة إحراق محتويات الحاويات، وهو ما علمته مباشرة من المدير العام للمركز الأستاذ صبري جريس، عند لقائي به في رام الله ١٩٩٧/٣/٥، ولأسباب متداخلة، ومعقّدة، لا مجال هنا لذكرها ومناقشتها، تعثرت أمور تسلم المكتبة، والشروع بإقامة صرح مركز الأبحاث العريق، والقائم فعلاً منذ ١٩٦٥/٢/٢٨. ونظرًا لهذا التداخل المعقّد، وجدت، كباحث سابق في المركز ١٩٨١-١٩٩٤، وكصحافي أيضًا، من الضروري أن أقوم بنشر رسالة مفتوحة عبر صحيفة "الأيام" ناشدت خلالها الرئيس ياسر عرفات التدخّل لإنقاذ المكتبة التي بذلت وزملاء آخرين جهدًا مضنيًا في بنائها وشحن محتوياتها من بيروت إلى نيقوسيا، ومن ثمّ بناء ما يمكن بناؤه وهو ليس بالقليل. كما قمت في اليوم التالي لنشر المقال

بالاتصال هاتفيًا وشخصيًا مع من توسمت بهم خيرًا في هذا المجال، ومنهم المديرة الحالية لمركز التخطيط سلافة حجاوي، طالبًا منهم التحرّك من موقع المسؤولية في إنقاذ المكتبة وحفظها على أساس كونها نواة المركز، وضرورة فتح ملف المكتبة الماكثة في الجزائر منذ العام ١٩٨٣، وإعادة تشكيل هيكله الإداري، وإصدار مجلته الشهرية "شؤون فلسطينية" التي لَم تتوقف حتّى أثناء الحصار الإسرائيلي على بيروت ١٩٨٢، وحتّى إبان الاجتياح الإسرائيلي لها.

وبفضل الرسالة المفتوحة وتحرّك بعض المسؤولين تَم إنقاذ المكتبة في أسدود وتركها وديعة في مخازن مركز التخطيط.

وبذلك، تحققت الغاية المرجوة من التحرّك العلني، وأعطت الرسالة المفتوحة الغاية المرجوة منها، دون أن يكون لكاتبها غاية، سوى الغاية الأكاديمية الصرفة، وأصبحت هذه الحادثة جزءًا من ملف الماضي، على الرغم من أن هدف إعادة فتح مركز الأبحاث لا يزال غاية تحتاج إلى جهود وجهود.

وبعد ذلك بزهاء حوالي ثمانية أشهر جاءت مقالة أنيس صايغ، الذي عثر على مقالتي "بالصدفة منذ أيام، وكان قد نشر في إحدى صحف فلسطين المحتلّة قبل ستة أشهر". ويا حبذا لو كان التواصل فيما بيننا قائمًا لشرحت للأستاذ صايغ أهداف المقال ومراميه، وما الذي حقّقه، ويا حبذا لو كان التواصل قائمًا لعرف الأستاذ الصايغ أهمية ما نقوم به، وبالطبع، لجاء مقاله مختلفًا وخاليًا من التجني المتعمّد.

ولعلّ الركيزة الأساسية في التجنّي تقوم الهدف الذي حدّده الصايغ عندما عزم على كتابة مقاله. وهذا الهدف باختصار هو الهجوم على الاتفاق الفلسطيني - الإسرائيلي، وعلى السلطة الوطنية الفلسطينية، وبشكل خاص على رئيسها. وهذا الهدف، هو ذاته الذي سبق للصايغ أن كرّسه في مقالاته السياسية طوال السنوات الأربع الماضية، وهو ما تبلور وتوضح في كتابه الشهير ١٣ أيلول، وفي الوقت الذي أخالف فيه الصايغ رأيه السياسي، فإنني لا أغمط حقّه في التعبير وإبداء الرأي، وأرى في ما يكتبه، شأنه شأن المعارضين على تلاوينهم، رأيًا آخر يستحق الاهتمام، لكنّ تحفّز الصايغ السياسي جعله يشنّ هجومه اللّاذع لتحقيق هدفه دون أن يراعي أهمية إعادة بناء المركز من جديد، ودون أن يرى حقائق ما يدور داخل الأرض الفلسطينية بشكل جادّ.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، يأخذ الصايغ عليّ أنّني عدّت إلى الوطن، وكأن في ذلك نقيصة، ويقول في سياق مقاله: "وربما كانت إقامة الكاتب في رام الله، أي في ظلّ الحكم الإسرائيلي المستّتر برداء "السلطة الوطنية" هي التي حملته على سرد الاعتداءات الإسرائيلية على المركز دون التركيز على الفاعل، وكأن الفاعل مجهول، وهو يذكر العدوان على المركز وقلما يذكر اسم المعتدي"!!

يا حبذا لو اطلع الصايغ على ما نكتبه بشكل شبه يومي عن الإسرائيليين وعدوانيتهم وعنصريتهم وذلك في إطار الاشتباك السياسي الحقيقي على أرض الواقع وميدانيًا، لما ذهب إلى ما ذهب إليه. ويا حبذا لو شاركنا الصايغ صراعنا الراهن، لشعر بقسوة الصراع ومخاطره الميدانية الراهنة.

وفي سياق التجنّي الواضح، يقول الصايغ "يلفت نظرنا في المقال جنوحه نحو التبرير والتوسّل، متجاهلاً حقائق لا تسمح بسرد الوقائع من دون ذكر مسببها، ولا تجيز التقرب من قيادة كانت تقف وراء مشاكل المركز، وكأن الكاتب يطلب الدواء من مسبّب الداء"!!

وهنا يبرز تساؤل مشروع، فيما إذا كانت الحالة هذه، كيف قام المركز وكيف استمر نشاطه زهاء ثلاثين عامًا متّصلة؟! وكيف استطاع الصايغ إدارة المركز وبنجاح مدة عشر سنوات؟!

وفي تجنّ آخر، يقتبس الصايغ من مقالي، وبفرح واضح، ما يعتبره فضيحة مجلجلة، ويقول:

حسبي في الردّ على هذا الاتهام (التجني) أن أنقل عن كاتب المقال الذي استندت إليه وهو كما ذكرت آنفًا يقيم في حمى السلطة المهيمنة حاليًا على المنظمة وعلى المركز، ومن المدافعين عنها روايته التالية: كان من أوّل إجراءات المدير الجديد/ القديم للمركز (صبري جريس) أن أمر بشحن مكتبة المركز في نيقوسيا إلى ميناء أسدود، وهو بالمناسبة يقع تحت السلطة الإسرائيلية المباشرة، ولا أفهم لماذا لم يأمر بشحنها إلى غزة بحرًا أو برًا".

وبدوري لا أفهم كيف يطالب الصايغ بذلك، ويا حبذا لو يصير ذلك ممكنًا في القريب العاجل، وهو ما نحاول ونقاتل من أجله!

ولا أودّ هنا أن أسوق التجنيات كافة، لأن ذلك يقتضي إعادة نشر مقال الصايغ كاملاً غير منقوص، من جهة، وعدم مناسبة ذلك، من جهة أخرى. ذلك أن دور الصايغ في بناء المركز هو دور

أساسي ورئيسي، وهو ما أشرت إليه في مقدمة مقالي المذكور، إضافة إلى أن معرفتي الشخصية بحرص الصايغ الأكاديمي والعلمي وحرصه على أهمية البحث والكتابة تمنعني من التجني على دوره البارز حقًا. لكنّ ذلك لا يمنع مطلقًا من الإشارة إلى ضرورة الفصل بين الأمور، وتكريس الرأي السياسي للشأن السياسي، ومحاولة رؤية الأكاديمي في الإطار الأكاديمي، وعدم المزج بين الأمور.

ولعلي لا أبالغ قولاً بأن ما دفعني لكتابة رسالتي العلنية هو الوفاء لدور المركز، والعاملين فيه، ولشهدائه وجرحاه، وهو ما أتقاطع فيه مع قناعة الصايغ ودوره العلمي المتواصل.

إن حرص الصايغ الأكاديمي، في ظلّ ابتعاده القسري والطوعي عن دائرة الفعل السياسي المباشر، من شأنه أن يجعل تعبيره الحريص ما يشبه الصدى البعيد البعيد.

وختامًا، واستئنافًا لما تضمنته الرسالة المفتوحة بتاريخ ١٩٩٦/٧/٢١، فإنّني أود أن أسجل بعض الملاحظات المستجدة وأبرزها:

إن غياب المؤسّسة البحثية في فلسطين رافقه غياب مماثل في الأوساط الفلسطينية في دول المهجر. وبالرغم مما سمعناه من بكائيات معارضة، فإنّنا لم نر محاولة جادة واحدة لتأسيس مركز بحثي فلسطيني قادر.

لا يزال مركز الأبحاث الفلسطيني، وفقًا للهيكلية القائمة، مؤسّسة من المؤسّسات الفلسطينية، القابلة لإعادة التأسيس والبناء بعد توفير المستلزمات والأسّس، وهذا الأمر مرهون، بدوره، بظروف معقّدة، ويحتاج إلى المزيد من الجهود.

بوصول مكتبة المركز من قبرص إلى أسدود، ومن ثمّ إلى غزة، خطوة مهمة في طريق إعادة بناء المركز. يبدو أن هناك سوء تصرف في مكتبة المركز، الآن، حيث يقوم بعضهم بالتصرف بمحتوياتها وتوزيعها على مؤسّسات ومكاتب فلسطينية في غزة، الأمر الذي يستدعي، بالضرورة، وحفاظًا على الخطوة الأولى في طريق إعادة المركز، وقف سوء التصرف هذا، وإعادة ما تّم توزيعه من محتوياتها، هنا وهناك، من كتب ودوريات، على اعتبار ذلك أمانة خاصّة بالمركز، وهي شأن من شؤونه الخاصّة ولا يجوز التصرف بها.

وتجديدًا للنداء القديم، الذي أخذه علينا الصايغ، نعود مجدّدًا بمناشدة القيادة الفلسطينية، وعلى

رأسها الرئيس ياسر عرفات، لإعادة فتح هذا الملف مجدّدًا، رغم تشعب مشاغله وثقلها، وإعادة المركز لنشاطه المعهود، في وقت نحن فيه بأمسّ الحاجة لتراثه، ومعالجاته ومنشوراته وأبحاثه الخاصّة، بقضايانا الراهنة والمعاصرة.

شهادة وفاء لروح الشهيدة حنة شاهين – جريس

عرس في فسّوطة

قبل شروعي في كتابة هذه الشهادة، حاولت أن أجد لها عنوانًا ملائمًا فلهم أجد. استرجعت عناوين عدة، ومقاطع من الشعر الشعبي، وصورًا وتلاوين، ولم أعثر – للأسف – على شيء يلائم هذه الشهادة الحيّة. وقرّرت توفيرًا للوقت وللجهد في آن أن أشرع في كتابتها، ومن ثمّ أحاول وضع عنوان ملائم، لكن ما بحثت عنه قفز فجأة إلى خاطري، ذلك أن ما سأكتبه يدور عن حفل زفاف شعبي جرى في قرية "فسوطة"، شمال البلاد، قريبًا من الحدود اللبنانية. جمع هذا الحفل برفق وحنان ما بين فدا صبري إلياس جريس، وراجي نور راجي شاهين. وفدا هي البنت الكبرى والوحيدة للأخ صبري جريس، العضو المؤسّس في منظمة الأرض، ورئيس تحرير نشرتها "الأرض"، والمحامي الفلسطيني الذي ناهض السلطات الإسرائيلية خلال سنوات ما قبل حرب ١٩٦٧ وبعدها، والباحث الفلسطيني المرموق في الشؤون الاسرائيلية، والمدير العام لمركز الأبحاث الفلسطيني منذ العام ١٩٧٩.

وفدا، أيضًا، هي البنت الوحيدة للباحثة الفلسطينية في الشؤون الاسرائيلية، حنة شاهين، زوجة صبري، ورفيقة دربه الصعب وهي الباحثة في مركز الأبحاث الفلسطيني، الذي تعرض لعملية تفجير وحشي، سقط نتيجته ثمانية عاملين، كانت حنة منهم.

عندما تلقيت دعوة الأخ صبري، لحضور حفل كريمته في «فسوطة» شعرت بقشعريرة تنتابني، وبروح صوفية تتلبسني. وخلال لحظات، استعدت مشاهد ومشاهد. تذكرت العزيزة فدا، وهي تعود من مدرستها في بيروت. ظهر يوم ١٩٨٣/٢/٥، وتسأل أباها عن سبب تأخير الوالدة، ويأتي الجواب مقتضبًا وقصيرًا إنها في المستشفى وستعود غدًا، يطمئن الجواب الطفلة، وتذهب لدراستها. كان صبري عند المساء متعبًا، زوجته في ذمّة الله، والمركز مدمّر، والمخاطر تحيط بمركبه من كلّ جانب. كان صبري، عندها، صلبًا وقادرًا على تجاوز همومه الشخصية. وقف شامخًا في الكنيسة الأرثوذكسية في شارع الحمرا في بيروت، يتقبّل التعازي، وبجانبه ولداه فدا

وموسى. نظرتُ عندها في عيني فدا، وغطّت الدموع عيني. تصوّرتها عروسًا يوم الزفاف. وشعرت بمرارة الوداع. لم يدر في ذهني، ولو للحظة واحدة أنّني، سأحضر الزفاف وفي "فسوطة" أيضًا.

فرحتُ كما لم أفرح منذ عشرين سنة على الأقل، عندما دخلت قاعة الأفراح في "دير الأسد" ووقع نظري على العروس بكلّ ما يحيط بها من البهاء والجمال. كان إلى جانبها والدها، وشقيقة حنة نجوى الأم الحنون لولدي أختها، وزوجها صبري. تنفّست العبق الفلسطيني، وسرح نظري شمالاً.. إلى الجنوب اللبناني.

تذكرت الأحاديث المطوّلة عن "فسوطة" ودقائق الحياة فيها، تلك الأحاديث التي حدثنا فيها صبري جريس عن أيام طفولته وأوائل شبابه.

فجأة، ودونما مقدمات، ظهر أبطال قصص قديمة، كأنها من أساطير الأولين، ارتشفت من كأسي وتساءلت: هل أنا في حلم؟! ها هي "فسوطة" قرية فلسطينية راسخة، العادات هي العادات، والتقاليد هي التقاليد، واللّهجة هي اللّهجة. هنالك حدود، وقرى حديثة مفتعلة كأنها نبت شيطاني زرعت غراسه عنوة.

فلسطينيّو الجليل تمكّنوا من العيش والاستمرار، وفي البقاء بركة. هنالك طوارئ ومستجدات، لكن الجذر هو الأقوى، في طريقنا نحو "صفد" كان صبري يشرح لنا جغرافيًا عن الأرض والإنسان. هذه بقايا قرية عربية، وها هي "ترشيحا"، أين سنجد قرية "لوبية"، لا أثر لها، ها هو "كيبوتس ليبي" يجثم فوق بقايا "لوبية" بلا رحمة. ها هي "صفدنا" وهذه هي "صفدهم"، هذه هي "حيفانا" وهذه هي "حيفاهم".

تساءلت وأنا في طريقي من "فسوطة" عبر حيفا، وكرمل حيفا، أم الفحم، طولكرم، جنين، وبينهما يعبد حيث استشهد شيخ المجاهدين عزّ الدين القسّام، ونابلس وصولاً إلى رام الله، تساءلت عن أي مصير سيحكم هذه الجغرافيا المتداخلة؟!

وهل تكفي الذكرى في التاريخ؟! وهل تُغيرٍ أكوام الحجارة، ودقّة الهندسة، ولوحات الأسماء الجديدة، التاريخ والمستقبل؟!

هوامش

١ كذلك نشرت هذه المقالة في شبكة الانترنت للاعلام العربي يوم ١٣ حزيران (يونيو) ٢٠٠٥: http://amin.org/views/uncat/2005/june/june13.html.

ثبت المراجع

عربية

إبراهيم، حنّا (١٩٩٦). **شجرة المعرفة: ذكريات شابّ لم يتغرّب**. شفاعمرو: مطبعة دار المشرق.

أبو السعود، توفيق (د.ت.). "مذكرات الحرب في اللد". أمين ابو ليل (محرر)، **في الذكرى السنوية الأولى لوفاة توفيق ابو السعود**. [د.م]: [د. ن].

أبو غربية، بهجت (١٩٩٣). **في خضمّ النضال العربي الفلسطيني: مذكّرات المناضل بهجت أبو غربية، ١٩١٦–١٩٤٩**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

أبو لغد، إبراهيم (١٩٩٨). "الأيام الأخيرة قبل سقوط يافا"، **الكرمل**، عدد ٥٥–٥٦، ١١٧–١٢٩.

أبو لغد، إبراهيم (إعداد وتحرير) (١٩٧٢). **تهويد فلسطين**. ترجمة أسعد رزق، الكويت: رابطة الجامعيّين ومنظمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث.

أنطونيوس، جورج (١٩٦٦). **يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية**. ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت: دار العلم للملايين.

الأونروا (١٩٩٧). **نظام التسجيل الموحَّد** (URS). عمان: الأونروا – دائرة الخدمات الاجتماعية (أيار/مايو).

البخيت، محمد عدنان وآخرون (إعداد) (١٩٩٥–). **أوراق الملك عبد الله بن الحسين الأول – الوثائق الهاشمية**. عمان: منشورات جامعة آل البيت.

عمر الصالح البرغوثي وخليل طوطح (١٩٢٣). **تاريخ فلسطين**. القدس: مطبعة بيت المقدس.

بن غوريون، دافيد (١٩٩٨). **دافيد بن غوريون: يوميات الحرب (١٩٤٧-١٩٤٩)**. تحرير غيرشون ريفلين وإلحانان أورن، ترجمة سمير جبّور. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينية.

بن غوريون، دافيد (١٩٩٣). **يوميات الحرب: حرب الاستقلال ١٩٤٧- ١٩٤٨**. تحرير غرشون ريفلين والحانان أورن، ترجمة سمير جبور، بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينية.

بنفنيستي، ميرون (٢٠٠١). **المشهد المقدّس: طمس تاريخ الأرض المقدّسة منذ ١٩٤٨**. ترجمة د. سامي مسلّم، رام الله: مدار- المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.

البيطار، نديم (٢٠٠٢). **المثقفون والثورة، سقوط الانتلجنسيا العربيّة**. بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام.

التل، عبد الله (١٩٥٩). **كارثة فلسطين: مذكرات عبد الله التل**. القاهرة: دار القلم.

توما، إميل (١٩٧٣). **جذور القضية الفلسطينيّة**. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث.

تماري، سليم (٢٠٠٢). **القدس ١٩٤٨: الأحياء العربية ومصيرها في حرب ١٩٤٨**. بيروت والقدس: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة وبديل - المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين.

جريس، صبري (١٩٧٣). **العرب في إسرائيل**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينية.

حبيبي، إميل (١٩٧٤). **الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل**. حيفا: دار عربسك للنشر.

حزيّن، صلاح (١٩٩٨). "القرية التي لم أزرها"، **الكرمل**، عدد ٥٥-٥٦، ١٦٢-١٧٤.

الحسيني، أمين (١٩٥٤). **حقائق عن قضية فلسطين**. القاهرة: الهيئة العربيّة العليا.

حمودة، سميح (١٩٨٥) **الوعي والثورة**. القدس: جمعية الدراسات العربية.

الخالدي، وليد (١٩٩٩). **دير ياسين: الجمعة، ٩ نيسان/ابريل ١٩٤٨**. القدس: مؤسّسة الدراسات المقدسيّة.

الخالدي، وليد (١٩٩٧). **كي لا ننسى: قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة ١٩٤٨ وأسماء شهدائها**. ترجمة حسني زينة، بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

الخطيب، محمّد نمر (١٩٦٧). **أحداث النكبة أو نكبة فلسطين**. بيروت: [د. ن].

الخطيب، محمّد نمر (١٩٥١). **من أثر النكبة**. دمشق: المطبعة العمومية.

محمود خلة، كامل (١٩٧٤). **فلسطين والانتداب البريطاني، ١٩٢٢–١٩٣٩**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينية.

الخليلي، علي (٢٠٠١). **الورثة الرواة: من النكبة إلى الدولة**. عكّا: مؤسّسة الأسوار.

خوري، إلياس (١٩٩٨). **باب الشمس**. بيروت: دار الآداب.

الدبّاغ، مصطفى مراد (١٩٦٥). **بلادنا فلسطين**. بيروت: دار الطليعة.

دروزة، محمّد عزت (١٩٩٣). **مذكرات محمّد عزت دروزة، ١٨٨٧–١٩٨٤**. بيروت: دار الغرب الإسلاميّ.

محمّد عزّت دروزة (١٩٥١). **نشأة الحركة العربيّة الحديثة**. صيدا وبيروت: المكتبة العصرية.

درويش، محمود (١٩٨٣). **مديح الظل العالي**. القدس: وكالة أبو عرفة للصحافة والنشر.

دولة إسرائيل (١٩٦٨). **تعداد السكان والبيوت لعام ١٩٦٧: القدس الشرقية**. القدس: دائرة الإحصاء الإسرائيليّة المركزيّة.

دوماني، بشارة (١٩٩٨). **إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس، ١٧٠٠–١٩٠٠**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

دويك، عزيز (١٩٩٦). "طوبوغرافية قرى القدس وظائفها". **شؤون تنموية**، ٥(٢/٣)، ١٣٤–١٣٦.

دياب، إمتياز (١٩٩١). **يافا – عطر مدينة**. يافا: دار الفتى العربيّ ومركز أبحاث يافا.

ديفيس، روشيل (٢٠٠٢). "نمو الجوالي في القدس الغربية: ١٩١٧–١٩٤٨". سليم تماري (محرر)، **القدس ١٩٤٨: الأحياء العربية ومصيرها في حرب ١٩٤٨**. بيروت والقدس: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة وبديل – المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، ٤٣–٨٧.

روحي، حسين (١٩٢٣). **المختصر في جغرافية فلسطين**. القدس: L.J.S Printing Press.

زعيتر، أكرم (١٩٩٤). **بواكير النضال: من مذكرات أكرم زعيتر، ١٩٠٩–١٩٣٥**. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر.

زعيتر، أكرم (١٩٨٠). **الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، ١٩٣٥–١٩٣٩**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

زعيتر، أكرم (١٩٧٩). **وثائق الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، ١٩١٨–١٩٣٩**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

زعيتر، أكرم (١٩٥٥). **القضية الفلسطينيّة**. القاهرة: دار المعارف.

سرحان، نمر وكبها، مصطفى (٢٠٠٠أ). **بشير إبراهيم: القاضي والثائر في ثورة ١٩٣٦–١٩٣٩ – زيتا (طولكرم)**. سلسلة دراسات التاريخ الشفويّ لفلسطين ٢، رام الله: [د.ن].

سرحان، نمر وكبها، مصطفى (٢٠٠٠ب). **عبد الرحيم الحاجّ محمّد: القائد العامّ لثورة ١٩٣٦–١٩٣٩**. سلسلة دراسات التاريخ الشفويّ لفلسطين ١، رام الله: [د.ن].

السفري، عيسى (١٩٣٧). **فلسطين العربيّة بين الانتداب والصهيونيّة**. يافا: مكتبة يافا الجديدة.

السكاكيني، خليل (١٩٥٥). **كذا أنا يا دنيا، يوميات خليل السكاكيني**. القدس: المطبعة التجارية.

السكاكيني، خليل (١٩٢٥). **فلسطين بعد الحرب الكبرى**. القدس: مطبعة بيت المقدس.

سيغف، توم (١٩٨٦). **١٩٤٩ – الإسرائيليّون الأوائل**. ترجمة خالد عايد وآخرين، بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينية.

شاحك، يسرائيل (١٩٩٠). **الترانسفير: سياسة الإبعاد الجماعية**. القاهرة: دار البيادر.

شرابي، هشام (١٩٧٨). **الجمر والرماد: ذكريات مثقف عربيّ**. بيروت: منشورات ابن رشد.

شكيب، إبراهيم (١٩٨٦). **حرب فلسطين ١٩٤٨: رؤية مصرية**. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي.

شلحت، أنطون (٢٠٠١). "مقابلة مع إبراهيم أبو لغد". **الاتّحاد** (صحيفة) (ملحق)، ١ حزيران.

الشهابي، إبراهيم يحيى (١٩٩٩). **طبريّا تراث وذكريات**. دمشق: دار الشجرة.

شوراكي، أندريه (١٩٨٣). **رسالة إلى صديق عربيّ**. ترجمة مؤيّد إبراهيم، شفاعمرو: دار المشرق للترجمة والنشر.

صايغ، أنيس (١٩٦٦). **الهاشميّون وقضيّة فلسطين**. بيروت: دار الطليعة.

صايغ، روزماري (١٩٨٠). **الفلاحون الفلسطينيّون: من الاقتلاع إلى الثورة**. ترجمة خالد عايد، بيروت: مؤسّسة الأبحاث العربية.

صايغ، يزيد (٢٠٠٢). **الكفاح المسلح والبحث عن الدولة: الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، ١٩٤٩–١٩٩٣**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

صيقلي، مي (١٩٩٧). **حيفا العربيّة ١٩١٨–١٩٣٩: التطوّر الاجتماعيّ والاقتصاديّ**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

طه، محمد علي (١٩٩٨). "زمن الطفولة الضائعة". **الكرمل**، عدد ٥٥–٥٦، ١٧٥–١٨٣.

طوطح، خليل وشحادة، بولس (١٩٢٠). **تاريخ القدس ودليلها**. القدس: مطبعة بيت المقدس.

طوقان، قدري (١٩٥٠). **بعد النكبة**. بيروت: دار العلم للملايين.

العارف، عارف (١٩٦١). **المفصّل في تأريخ القدس**. القدس: مكتبة الاندلس.

عارف، عارف (١٩٥١-١٩٥٦). **النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود، ١٩٤٧-١٩٥٢**. صيدا وبيروت: المكتبة العصرية.

العامري، محمد أديب (١٩٧١). **عروبة القدس**. عمان: دار الطباعة والنشر.

عبد الجواد، صالح (١٩٩٥). "مقترح مشروع سباق مع الزمن - مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني - جامعة بيرزيت"، (لم ينشر).

علّوش، ناجي (١٩٧٠). **المقاومة العربيّة في فلسطين، ١٩١٧-١٩٤٨**. بيروت: دار الطليعة.

العمر، عبد الكريم (١٩٩٩). **مذكّرات الحاجّ محمّد أمين الحسيني**. دمشق: الأهالي للتوزيع.

العودات، حسين (١٩٩٠). **موسوعة المدن الفلسطينيّة**. دمشق: منظمة التحرير الفلسطينيّة، دائرة الثقافة، ودار الأهالي للطباعة والنشر.

غنايم، زهير (١٩٩٩). **لواء عكّا في عهد التنظيمات العثمانيّ: ١٨٦٤-١٩١٨**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

الغوري، إميل (١٩٧٣). **فلسطين عبر ستّين عامًا**. بيروت: دار النهار.

فرح، بولس (١٩٨٥). **من العثمانية للدولة العبرية**. الناصرة: دار الصوت.

قاسمية، خيريّة (١٩٧٤). **عوني عبد الهادي أوراق خاصّة**. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث.

قاسمية، خيريّة (١٩٧٣). **النشاط الصهيونيّ في الشرق العربيّ وصداه، ١٩٠٨-١٩١٨**. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث.

كبها، مصطفى وسرحان، نمر (٢٠٠٣). **بلاد الروحة في فترة الانتداب البريطاني: السنديانة نموذجًا**. سلسلة دراسات التاريخ الشفويّ لفلسطين ٣، رام الله: دار الشروق للنشر والتوزيع.

كناعنة، شريف (١٩٩٢). **الشتات الفلسطينيّ: هجرة أم تهجير**. القدس: مركز القدس العالمي للدراسات الفلسطينيّة.

كناعنة، شريف وزيتاوي، نهاد (١٩٩١أ). **دير ياسين: القرى الفلسطينيّة المدمّرة**. بير زيت: منشورات جامعة بير زيت، سلسلة القرى الفلسطينيّة المدمّرة، رقم ٤، ط٢.

كناعنة، شريف وعبد الهادي، لبنى (١٩٩١ب). **لفتا: القرى الفلسطينيّة المدمّرة**. بير زيت: منشورات جامعة بير زيت، سلسلة القرى الفلسطينيّة المدمّرة، رقم ١٢.

كنعان، توفيق (١٩٩٨). **الأولياء والمزارات الإسلاميّة في فلسطين**. ترجمة نمر سرحان، رام الله: وزارة الثقافة الفلسطينيّة.

كنفاني، غسّان (١٩٧٦). **رجال في الشمس**. القدس: منشورات صلاح الدين.

كنفاني، غسّان (١٩٦٩). **عائد إلى حيفا**. القدس: منشورات صلاح الدين.

الكيّالي، عبد الوهّاب (١٩٧٠). **تاريخ فلسطين الحديث**. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر.

الكيّالي، عبد الوهّاب (١٩٦٨). **وثائق المقاومة الفلسطينيّة العربيّة ضد الاحتلال البريطانيّ والصهيونيّة، ١٩٢٢-١٩٣٩**. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينيّة – مركز الأبحاث.

مصالحة، نور الدين (٢٠٠١). **إسرائيل الكبرى والفلسطينيون: سياسة التوسّع، ١٩٦٧-٢٠٠٠**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينية.

مصالحة، نور الدين (١٩٩٧). **أرض أكثر عرب أقل: سياسة "الترانسفير" الإسرائيلية في التطبيق، ١٩٤٩-١٩٩٦**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينية.

مصالحة، نور الدين (١٩٩٢). **طرد الفلسطينيّين: مفهوم "الترانسفير" في الفكر والتخطيط الصهيونيّين، ١٨٨٢-١٩٤٨**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينية.

مصطفى، وليد (١٩٩٧). **القدس – سكان وعمران: ١٨٥٠-١٩٩٦**. القدس: مركز القدس للإعلام والاتصال.

مناّع، عادل (١٩٩٨). "مجد الكروم ١٩٤٨: عمليّات تمشيط عاديّة". **الكرمل**، عدد ٥٥-٥٦، ١٨٤-٢٠٠.

منيرّ، إسبير (١٩٩٧). **اللدّ في عهدي الانتداب والاحتلال**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

موريس، بيني (٢٠٠٣). **تصحيح خطأ: يهود وعرب في ارض اسرائيل ١٩٣٦- ١٩٥٦**. ترجمة انطون شلحت، رام الله: مدار – المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.

موريس، بيني (١٩٩٣). **طرد الفلسطينيّين وولادة مشكلة اللاجئين**. عمّان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينيّة.

مؤسّسة الدراسات الفلسطينية (١٩٨٦). **حرب فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨: الرواية الإسرائيليّة الرسمية**. ترجمة احمد خليفة، بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

النمَّري، طاهر (١٩٩٥). **حارة النمامرة في البقعة**. القدس، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥. (مخطوطة غير منشورة).

حسن النقيب، خلدون (١٩٩٧). **في البدء كان الصراع**. بيروت: دار الساقي.

الحوت، بيان نويهض (١٩٨١). **القيادات والمؤسّسات السياسيّة في فلسطين، ١٩١٨-١٩٤٨**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينية.

هدّاوي، سامي (١٩٨٢). **الحصاد المر: فلسطين بين عامي ١٩١٤-١٩٧٩**. الخليل: منشورات رابطة الجامعيّين في محافظة الخليل.

الهوّاري، محمّد نمر (١٩٥٨). **الناس الآلهة**. عمّان: [د. ن].

الهوّاري، محمّد نمر (١٩٥٦). **مرّة في العمر**. عمان: [د. ن].

الهوّاري، محمّد نمر (١٩٥٥). **سرّ النكبة**. الناصرة: مطبعة الحكيم.

الهوّاري، محمّد نمر (١٩٥٢). **همسات الخريف**. عمان: [د. ن].

هيكل، محمد حسنين (١٩٩٨-٢٠٠٠). **العروش والجيوش**. القاهرة: دار الشروق.

هيكل، يوسف (١٩٣٧). **القضيّة الفلسطينيّة، تحليل ونقد**. يافا: مطبعة الفجر.

الولي، مصطفى (إعداد) (٢٠٠٠). "شهود عيان يروون أحداث مجزرة الطنطورة". **مجلة الدراسات الفلسطينية**. ٤٣ (صيف)، ١١٨-١٤٠.

ياسين، عبد القادر (١٩٧٥). **كفاح شعب فلسطين قبل عام ١٩٤٨**. بيروت: منظمة التحرير الفلسيطينية - مركز الأبحاث.

عبرية

أوحانا ١٩٩٨ = אוחנה, דוד (1998). **הישראלים האחרונים**. תל-אביב: הקיבוץ המאוחד.

أوفير ٢٠٠١ = אופיר, עדי (2001). **עבודת ההווה: מסות על תרבות ישראלית בזמן הזה**. תל-אביב: הקיבוץ המאוחד.

أوفير 1999 = אופיר, עדי (עורך) (1999). **50/48: מומנטים ביקורתיים בתולדות מדינת ישראל - תיעוד אירועים, מסות ומאמרים**. גיליון מיוחד, "תיאוריה וביקורת".

أوفير ١٩٩١ = אופיר, עדי (1991). "דברי פתיחה". **תיאוריה וביקורת**, מס' 1.

ايلان ١٩٩٥ = אילן, עמיצור (1995). **אמברגו, עוצמה והכרעה במלחמת תש"ח**. תל-אביב: מערכות.

الموج ١٩٩٧ = אלמוג, עוז (1997). **הצבר – דיוקן**. תל-אביב: עם עובד.

السكاكيني ١٩٩٠ = אלסכאכיני, חליל (1990). **כזה אני, רבותי!: מיומנו של ח'ליל אל-סכאכיני**. תרגום, הערות ופתח דבר גדעון שילה, ירושלים: כתר.

بن اليعيزر ١٩٩٥ = בן אליעזר, אורי (1995). **דרך הכוונת: היווצרותו של המיליטריזם הישראלי, 1936-1956**. תל-אביב: דביר.

بن غوريون ١٩٨٢ = בן-גוריון, דוד (1982). **יומן המלחמה: מלחמת העצמאות תש"ח-תש"ט**. תל-אביב: החברה להפצת משנתו של דוד בן-גוריון.

بن آرتسي ١٩٩٢ = בן ארצי, יוסי (1992). "על ההיסטוריוגרפיה של מלחמת העצמאות". **קתדרה**, 65, 159-167.

بن آرتسي ١٩٨٨ = בן-ארצי, יוסי (1988). "עיצוב המרחב האורבאני של הערבים בחיפה במלחמת 1948". **מחקרים בגיאוגרפיה של ארץ ישראל**, 8(1), 7-27.

بن عاموس ٢٠٠٢ = בן עמוס, אבנר (עורך) (2002). **היסטוריה, זהות וזיכרון: דימויי עבר בחינוך הישראלי**. תל-אביב: בית-הספר לחינוך, היחידה לסוציולוגיה של החינוך והקהילה ע"ש ישראל פולק.

بن عامي ١٩٨٤ = בן עמי, יששכר (1984). **הערצת הקדושים בקרב יהודי מרוקו**. ירושלים: הוצאת ספרים ע"ש י"ל מאגנס.

بير ١٩٦٦ = בר, ישראל (1966). **בטחון ישראל: אתמול, היום, מחר**. תל-אביב: עמיקם.

بار أون ٢٠٠١أ = בר און, מרדכי (2001א). **זיכרון בספר: ראשיתה של ההיסטוריוגרפיה הישראלית של מלחמת העצמאות, 1948-1958**. תל-אביב: משרד הביטחון - ההוצאה לאור.

بار أون ٢٠٠١ب = בר-און, מרדכי (2001ב). **גבולות עשנים: עיונים בתולדות מדינת ישראל, 1948-1967**. ירושלים: יד יצחק בן צבי, המרכז למורשת בן גוריון, הוצאת הספרים של אוניברסיטת בן גוריון בנגב.

بار أون ٢٠٠٠ = בר און, מרדכי (2000). "לזכור ולהזכיר - זיכרון קולקטיבי, קהילות זיכרון ומורשת", מתוך: מיזל, מ. וא. שמיר (עורכים), **דפוסים של הנצחה: אסופת מאמרים**. תל-אביב: משרד הביטחון, ההוצאה לאור, 11-43.

بار أون ١٩٩٦ = בר און, מרדכי (1996). "פוסט ציונות ואנטי ציונות: נבחנות, הגדרות, מיון הסוגיות וכמה הכרעות אישיות". פ. גינוסר וא. בראלי (עורכים), **ציונות - פולמוס בן זמננו: גישות מחקריות ואידיאולוגיות**. קריית שדה-בוקר: המרכז למורשת בן-גוריון, 475-508.

بار أون ١٩٩٤ = בר און, מרדכי (1994). "היסטוריה שלא הייתה: הבהרות נוספות לסוגיית ה'היסטוריה החדשה'". **יהדות זמננו**, 10, 54-107.

بار أون ١٩٩٠ = בר און, מרדכי (1990). "'מבט שני לאחור' רוויזיה בהיסטוריוגרפיה של מלחמת תש"ח וראשית המדינה". **יהדות זמננו**, 6, 89-116.

بار أون وتساميريت ٢٠٠٢ = בר און, מרדכי וצבי צמרת (עורכים) (2002). **שני עברי הגשר: דת ומדינה בראשית דרכה של ישראל**. ירושלים: יד יצחק בן צבי.

برنشتاين ١٩٩٣ = ברנשטיין, דבורה (1993). "'בין האשה-האדם ובין אשת-הבית': אשה ומשפחה בציבור הפועלים היהודי העירוני בתקופת היישוב". א. רם (עורך), **החברה הישראלית: היבטים ביקורתיים**. תל-אביב: ברירות, 83-102.

غوتواين ١٩٩٧ = גוטויין, דני (1997). "'היסטוריוגרפיה חדשה' או הפרטת הזיכרון". י. וייץ (עורך), **בין חזון לרוויזיה: מאה שנות היסטוריוגרפיה ציונית - קובץ מאמרים**. ירושלים: מרכז זלמן שז"ר לתולדות ישראל.

غلبير ٢٠٠٠ = גלבר, יואב (2000). **ניצני החבצלת: המודיעין במלחמת העצמאות, 1948-1949**. תל-אביב: משרד הביטחון – ההוצאה לאור.

غولاني ٢٠٠٢ = גולני, מוטי (2002). **מלחמות לא קורות מעצמן: על זיכרון, כוח ובחירה**. מושב בן שמן: מודן.

غولاني ١٩٩٢ = גולני, מוטי (1992). **ציון בציונות: המדיניות הציונית בשאלת ירושלים 1937-1949**. תל אביב: משרד הביטחון - ההוצאה לאור.

غورن ١٩٩٩ = גורן, תמיר (1999). "ניסיון לכונן שלום: תקרית נשכחת למפגש ערבי יהודי במשך מלחמת העצמאות". מ. גולני (עורך), **מדיניות מלחמה מדיניות שלום: סוגיות בתולדות הביטחון של הישוב היהודי ומדינת ישראל**. תל-אביב: העמותה לחקר כח המגן על שם ישראל גלילי, 189-175.

جينوسار وبرالي ١٩٩٦ = גינוסר, פנחס ואבי בראלי (עורכים) (1996). **ציונות - פולמוס בן זמננו: גישות מחקריות ואידיאולוגיות**. קריית שדה-בוקר: המרכז למורשת בן-גוריון.

غلوسكا ٢٠٠٠ = גלוסקא, עמי (2000). "ההנהגה הצבאית והמנהיגות המדינית של ישראל מול הסוגיות הבטחוניות, 1967-1963". חיבור לשם קבלת תואר דוקטור, האוניברסיטה העברית בירושלים, ירושלים: חמו"ל.

صبري ١٩٦٦ = ג'רייס, סברי (1966). **הערבים בישראל**. חיפה: דפוס אל-אתחאד.

داهان-كاليف ١٩٩١ = דהאן-כלב, הנרייט (1991). "מערכות התארגנות עצמית: ואדי סאליב ו'הפנתרים השחורים' :השלכות על המערכת בישראל". חיבור לשם קבלת התואר דוקטור לפילוסופיה, האוניברסיטה העברית, המחלקה למדי מדינה, ירושלים: חו"ל.

ديان ١٩٩٩ = דיין, אריה (1999). **המעיין המתגבר: סיפורה של תנועת ש"ס**. ירושלים: כתר.

هجلعدي ٢٠٠٢ = הגלעדי, נמרוד (2002). "המושבה רחובות במלחמת העצמאות". עבודת מוסמך, האוניברסיטה העברית בירושלים, ירושלים.

هداري ٢٠٠٢ = הדרי, יונה (2002). **משיח רכוב על טנק: המחשבה הציבורית בישראל בין מבצע סיני למלחמת יום הכיפורים**. תל-אביב: הקיבוץ המאוחד.

هاركابي ١٩٨٢ = הרכבי, יהושפט (1982). **חזון לא פנטזיה: לקחי מרד בר-כוכבא וריאליזם במדיניות בימינו**. ירושלים: דומינו.

هيرمان ١٩٧٩ = הרמן, שמעון נחום (1979). **זהות יהודית: מבט פסיכולוגי-חברתי**. תרגמה עליזה נצר, ירושלים: הספרייה הציונית על יד ההסתדרות הציונית.

فايس ١٩٩٧ = וייץ, יחיעם (עורך) (1997). **בין חזון לרוויזיה: מאה שנות היסטוריוגרפיה ציונית - קובץ מאמרים**. ירושלים: מרכז זלמן שז"ר לתולדות ישראל.

زوهار ١٩٧٧ = זהר א. (1977). "מלחמת ההתשה: האסטרטגיה והטקטיקה". **מערכות**, מס' 257.

زرتال ٢٠٠٢ = זרטל, עדית (2002). **המוות והאומה: היסטוריה, זיכרון ופוליטיקה**. אור-יהודה: דביר.

حيفير وشنهاب وموسافي - هيلير ٢٠٠٢ = חבר, חנן, יהודה שנהב ופנינה מוצפי-הלר (2002). **מזרחים בישראל: עיון ביקורתי מחודש**. תל-אביב: הקיבוץ המאוחד.

حزروني وآخرون ٢٠٠٠ = חזוני, יורם, ודניאל פוליס ומיכאל אורן (2000). **המהפכה השקטה בהוראת תולדות הציונות: מחקר השוואתי על ספרי הלימוד של משרד החינוך בנושא המאה העשרים (כיתה ט')**. ירושלים: מכון שלם.

حزان (تحت الطبع) = חזן, מאיר (בדפוס). "עיתונות נאבקת: השתקפות מלחמת העצמאות בספרות הילדים", עתיד להופיע בכתב העת "קשר".

طال ٢٠٠٢أ = טל, דוד (2002א). "האם ניצחה ישראל במלחמת 1948, ואם לא, למה כן?". **זמנים**, 80, 42-54.

طال ٢٠٠٠ب = טל, דוד (2000ב). "מי עצר את המצרים במשך מלחמת 1948". **עיונים בתקומת ישראל**, 10, 102-121.

يتسحاكي ١٩٨٢ = יצחקי, אריה (1982). **לטרון: המערכה על הדרך לירושלים**. ירושלים: כנה.

كاهانوف ١٩٧٨ = כהנוב, ג'קלין (1978). **ממזרח שמש**. תל-אביב: יריב.

كاتس (١٩٩٨) = כ"ץ, תדי (1998). "יציאת הערבים מכפרים למרגלות הכרמל הדרומי ב-1948". עבודת גמר לתואר שני, הפקולטה למדעי הרוח, המחלקה להיסטוריה של המזרח התיכון, אוניברסיטת חיפה, חיפה (העבודה לא אושרה).

ليبني ١٩٩٧ = ליבני, מאיר (1997). "עלייתה ונפילתה של תנועת מחאה". עבודת מוסמך, אוניברסיטת תל-אביב, תל-אביב: חמו"ל.

مئير ٢٠٠١أ = מאיר, אסתר (2001א). "מעמד ועדתיות במאבקם הציבורי של עולי עיראק בבאר-שבע בראשית שנות החמישים". א. שפירא (עורכת), **מדינה בדרך: החברה הישראלית בעשורים הראשונים**. ירושלים: מרכז זלמן שזר לתולדות ישראל.

مئير ٢٠٠١ب = מאיר, אסתר (2001ב). "אידיאולוגיה, תרבות ומגדר: האישה העיראקית בקיבוץ בשנות הארבעים". מ. שילה ואח' (עורכות), **העבריות החדשות: נשים ביישוב ובציונות בראי המגדר**. ירושלים: יד יצחק בן צבי, 109-130.

مئير ١٩٩٣ = מאיר, אסתר (1993). **התנועה הציונית ויהודי עירק, 1941-1950**. תל-אביב: עם עובד.

موريس ٢٠٠٠ = מוריס, בני (2000). **תיקון טעות: יהודים וערבים בארץ- ישראל, 1936-1956**. תל-אביב: עם עובד.

موريس ١٩٩٨ = מוריס, בני (1998). "גירושי מבצע חירם: תיקון טעות". **ג'מאעה**, 3(1), 80 –87.

موريس ١٩٩١ = מוריס, בני (1991). **לידתה של בעיית הפליטים הפלסטינים, 1949-1947**. תרגם יעקב שרת, תל-אביב: הוצאת עם עובד.

ماتالون ١٩٩٥ = מטלון, רונית (1995). **זה עם הפנים אלינו**. תל-אביב: עם עובד.

ميخائيل ١٩٩٣ = מיכאל, סמי (1993). **ויקטוריה**. תל-אביב: עם עובד.

ميخائيل ٢٠٠٢ = מיכאל, סמי (2002). **מים נושקים למים**. תל-אביב: עם עובד.

ميلشتاين ١٩٩٥ = מילשטיין, אורי (1995). **תיק רבין: איך תפח המיתוס**. תל-אביב: י. גולן.

ميلشتاين ١٩٨٩-١٩٩١ = מילשטיין, אורי (1989-1991). **תולדות מלחמת העצמאות**. תל-אביב: זמורה-ביתן.

ميخمان ١٩٩٧ = מכמן, דן (1997) (עורך). **"פוסט-ציונות" ושואה: הפולמוס הציבורי הישראלי בנושא ה"פוסט-ציונות" בשנים 1996-1993 ומקומה של סוגיית השואה בו: מקראה**. רמת-גן: הפקולטה למדעי היהדות, אוניברסיטת בר-אילן.

ميخمان ١٩٩٧ = מכמן, דוד (1997). "מכסחי הציונות: עיקרי השקפת העולם של הזרם הפוסט ציוני בחברה הישראלית העכשווית". ד. מכמן (עורך), **"פוסט-ציונות" ושואה: הפולמוס הציבורי הישראלי בנושא ה"פוסט-ציונות" בשנים 1996-1993 ומקומה של סוגיית השואה בו: מקראה**. רמת-גן: הפקולטה למדעי היהדות, אוניברסיטת בר-אילן, 11-26.

مركز يافي ١٩٨٥ = מרכז יפה למחקרים אסטרטגיים (1985). **מלחמת ברירה: קובץ מאמרים**. תל-אביב: הקיבוץ המאוחד והמרכז למחקרים אסטרטגיים ע"ש יפה, אוניברסיטת תל-אביב.

نيني ١٩٩٦ = ניני, יהודה (1996). **ההיית או חלמתי חלום: תימני כנרת - פרשת התיישבותם ועקירתם, תרע"ב-תר"ץ - 1912-1930**. תל-אביב: עם עובד.

نيني ١٩٨٢ = ניני, יהודה (1982). **תימן וציונות: הרקע המדיני, החברתי והרוחני לעליות הראשונות מתימן 1800-1914**. ירושלים: הספרייה הציונית על יד ההסתדרות הציונית העולמית.

نمرود (٢٠٠٠) = נמרוד, יורם (2000). **ברירת השלום ודרך המלחמה: התהוות דפוסים של יחסי ישראל-ערב, 1947-1950**. צ. אל-פלג (עורך), גבעת חביבה: המכון לחקר השלום.

سفيرسكي ١٩٩٣ = סבירסקי, ברברה (1993). "שליטה ואלימות: הכאת נשים בישראל"? א. רם (עורך), **החברה הישראלית: היבטים ביקורתיים**. תל-אביב: ברירות, 222-244.

سفيرسكي وبرنشتاين ١٩٩٣ = סבירסקי, שלמה ודבורה ברנשטיין (1993). "מי עבד במה, עבור מי, ותמורת מה?: הפיתוח הכלכלי של ישראל והתהוות חלוקת העבודה העדתית". א. רם (עורך), **החברה הישראלית: היבטים ביקורתיים**, תל-אביב: ברירות, 120-147.

سيلع ١٩٩٠ = סלע, אברהם (1990). "יחסי עבדאללה וממשלת ישראל במלחמת העצמאות- בחינה מחודשת". **קתדרה**, מס' 57, עמ' 120-125, ומס' 58, עמ' 172-193).

عمير ١٩٩٢ = עמיר, אלי (1992). **מפריח היונים**. תל אביב: עם עובד.

عمير ١٩٨٣ = עמיר, אלי (1983). **תרנגול כפרות**. תל אביב: עם עובד.

عتسيوني -هاليفي ٢٠٠٠ = עציוני-הלוי, חוה (2000). **ארץ שסועה: האם מלחמת תרבות היא בלתי נמנעת**. כפר סבא: אריה ניר.

فودة ٢٠٠٠ = פודה, אלי (2000). **בגנות המבוכה ובזכות הטיח: הסכסוך הישראלי-ערבי בראי ספרי הלימוד בהיסטוריה ואזרחות בעברית (1953-1995)**. ירושלים: המכון למחקר ע"ש הרי ס טרומן למען קידום השלום.

فيرير ١٩٨٥ = פירר, רות (1985). **סוכנים של החינוך הציוני**. תל-אביב: ספרית פועלים.

بيليد ٢٠٠١ = פלד, יואב (2001). **ש"ס: אתגר הישראליות**. תל-אביב: ידיעות אחרונות.

بابه ١٩٩٣ = פפה, אילן (1993). "ההיסטוריה החדשה של מלחמת 1948". **תיאוריה וביקורת**, 3, 99-114.

تسوكر ١٩٩٩ = צוקר, דדי (עורך) (1999). **אנו היהודים החילונים: מהי זהות יהודית חילונית**. תל-אביב: משכל.

تسور ٢٠٠١ = צור, ירון (2001). **קהילה קרועה: יהודי מרוקו והלאומיות 1943-1954**. תל-אביב: עם עובד.

تسور ١٩٩٧ = צור, ירון (1997). "העלייה מארצות האסלאם". צ. צמרת וח. יבלונקה (עורכים), **העשור הראשון 1948-1958**. ירושלים: יד יצחק בן צבי, 57-81.

تسيميرمان ٢٠٠٢ = צימרמן, משה (2002). **עבר גרמני – זיכרון ישראלי**. תל-אביב: עם עובד.

كاديش وآخرون ٢٠٠٠ = קדיש, אלון ואח' (2000). **כיבוש לוד, יולי 1948**. תל-אביב: משרד הביטחון – ההוצאה לאור.

كيدار وكاديش (تحت الطبع) = קדר, בנימין. ז. ואלון קדיש (עורכים) (בדפוס). **מיעוט מול רבים: מחקרים על מאזני הכוחות במלחמות יהודה המכבי ובמלחמת העצמאות**. ירושלים: מאגנס.

كيمن ١٩٨٤ = קיימן, צ'רלס (1984). "אחרי האסון: הערבים במדינת ישראל, 1950-1948". **מחברות למחקר ולביקורת**, מס' 10 (דצמבר).

كيمرلينغ ٢٠٠١ = קימרלינג, ברוך (2001). **קץ עידן האחוסלים**. ירושלים: כתר.

راهاط ١٩٩٨ = רהט, מנחם (1998). **ש"ס - הרוח הכוח: איך ניצחה ש"ס את הפוליטיקה הישראלית**. בני ברק: אלפא תקשורת.

روبينيان ١٩٩٩ = רובינאן, דורית (1999). **החתונות שלנו**. תל-אביב: עם עובד, ספריה לעם.

روبينيان ١٩٩٥ = רובינאן, דורית (1995). **סמטת השקדיות בעומריג'אן**. תל-אביב: עם עובד, ספריה לעם.

روغيل ١٩٧٩ = רוגל, נקדימון (1979). **תל-חי: חזית בלי עורף**. תל-אביב: יריב-הדר.

راز كراكوتسكين ١٩٩٧ = רז-קרקוצקין, אמנון (1997). "תודעה היסטורית ואחריות היסטורית". י. וייץ (עורך), **בין חזון לרוויזיה: מאה שנות היסטוריוגרפיה ציונית - קובץ מאמרים**. ירושלים: מרכז זלמן שז"ר לתולדות ישראל, 133-97.

راحليفسكي ١٩٩٨ = רכלבסקי, ספי (1998). **חמורו של משיח**. תל-אביב: ידיעות אחרונות, ספרי חמד.

رام ١٩٩٦ = רם, אורי (1996). "סוציולוגיה של ויכוח היסטוריונים". **תיאוריה וביקורת**, 8, 32-9.

رام ١٩٩٣ = רם, אורי (1993). **החברה הישראלית: היבטים ביקורתיים**. תל-אביב: ברירות.

سيغف ١٩٨٤ = שגב, תום (1984). **1949 - הישראלים הראשונים**. ירושלים: הוצאת דומינו.

شوحاط ١٩٩٣ = שוחט, אלה (1993). "לדובב את השתיקות: ייצוג האישה והמזרח בקולנוע הישראלי"? א. רם (עורך), **החברה הישראלית: היבטים ביקורתיים**. תל-אביב: ברירות, 252-245.

شبيلو وآخرون ٢٠٠١ = שילה, מרגלית ואח' (עורכות) (2001). **העבריות החדשות: נשים ביישוב ובציונות בראי המגדר**. ירושלים: יד יצחק בן צבי.

شيفتان ١٩٨٩ = שיפטן, דן (1989). **התשה: האסטרטגיה המדינית של מצרים הנאצרית בעקבות מלחמת 1967**. תל-אביב: משרד הביטחון.

شفيرا ١٩٩٧ = שפירא, אניטה (1997). **יהודים חדשים, יהודים ישנים**. תל-אביב: עם עובד.

شفيرا ١٩٨٥ = שפירא, אניטה (1985). **מפטורי הרמ"א עד פרוק הפלמ"ח: סוגיות במאבק על ההנהגה הביטחונית 1948**. תל-אביב: הקיבוץ המאוחד.

الإنجليزية

Aaronsohn, Ran (2000). **Rothschild and Early Jewish Colonization in Palestine**. Trans. Gila Brand, Jerusalem: Magnes Press.

Abdel Jawad, Saleh (forthcoming). "Massacres and the Creation of the Palestinian Refugees Problem in the 1948 War". **Proceeding of the International Conference Israel and the Palestinian Refugees (July 2003)**. Heidelberg: Max Planck Institute for Comparative Public Law.

Abu-Kishk, Bakir (1981). "Arab Land and Israel Policy". **Journal of Palestine Studies**, 11, 124-135.

Abu-Lughod, Lila (2001). "My Father's Return to Palestine". **Jerusalem Quarterly File**, 11-12. (http://www.jqf-jerusalem.org/2001/jqf11-12/Abulughod.html).

Abu-Lughod, Ibrahim (ed.) (1971). **The Transformation of Palestine: Essays on the Origin and Development of Arab-Israeli Conflict**. Evanston, Ill: Northwestern University Press.

Abu-Sharar, Adam (2001). "The Shop at Bab al-Khalil". **Jerusalem Quarterly File**, 14, 5-22.

Abu-Sitta, Salman (forthcoming). **Palestinian Property in Western Jerusalem.**

Abu Sitta, Salman. (1998). **The Palestinian Nakba 1948: The Register of Depopulated Localities in Palestine**. London: The Palestinian Return Centre.

Adorno, Theodor W. (1991). "The Curious Realist: On Siegfried Kracauer". **New German Critique**, 54, 159-77.

Ali, Tariq (1994). "An Interview with Edward Sa'id". **Channel 4 TV, UK**, 15 Dec.

Allport, Gordon W. (1954). **The Nature of Prejudice**. Cambridge, MA: Addison-Wesley.

Almog, Orna (2002). **Britain, Israel and the US, 1956–1958: Beyond Suez**. London: Frank Cass.

Anderson, Benedict (1991). **Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism**. London and New York: Verso.

Antonius, George (1939). **The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement**. Philadelphia, JB: Lippincott Co.

Arendt, Hannah (1963). **Eichman in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil**. London: Faber and Faber.

Aruri, Naseer (ed.) (2001). **Palestine Refuges: The Right of Return**. London: Pluto.

Bahat, Dan (1990). **The Illustrated Atlas of Jerusalem**. New York: Simon and Schuster.

Ban-On, Mordechai (2004). "New Historiography and National Identity: Changes in the Self-Perception of Israelis and Recent Israeli Revisionist Historiography". A. Shapira (ed.), **Israeli Identity in Transition**. Westport, CT: Preager Publishers.

Bar-On, Mordechai (1999). "'If You Want It, It Is Not a Fairy Tale': Obstacles for Peace in the Ideology and Political Culture of Israel". G. Baskin and Z. Al-Qak (eds.), **Creating a Culture of Peace**. Jerusalem: Israel-Palestine Center for Research and Information.

Bar-On, Mordechai (1998). "Historiography as an Educational Project: The Historians' Debate in Israel and the Middle East Peace Process". I. Peleg (ed.), **The Middle East Peace Process: Interdisciplinary Perspectives**. Albany, NY: State University of New York Press.

Bar-On, Mordechai (1996). **In Pursuit of Peace: A History of the Israeli Peace Movement**. Washington DC: United States Institute of Peace Press.

Bar-On, Mordechai (1993). "Zionism into its Second Century: A Stock-Taking". K. Kyle and J. Peters (eds.), **Whither Israel? The Domestic Challenges**. London and New York: Royal Institute of International Affairs, 20-40.

Bar-Siman-Tov, Yaacov (1980). **The Israeli-Egyptian War of Attrition 1969-1970: A Case Study of Limited Local War**. New York: Columbia University Press.

Bartov, Omar (1999). "Racherches Historiques sur 1 Holocaust et Etudes Comparatives". C. Coquio (ed.), **Parler des Camps, Penser les genocides**. Paris: Albin Michel.

Ben Artzi, Yossi (1996). "Normalization under Conflict? Spatial and Demographic Changes of Arabs in Haifa 1948-92". **Middle Eastern Studies**, 32(4), 281-295.

Ben-Eliezer, Uri (1998). **The Making of Israeli Militarism**. Bloomington, IN: Indiana University Press.

Bennet, Richard M (2003). **Conspiracy: Plots, Lies and Cover-ups**. London, Virgin Books.

Benjamin, Walter (1973). **Charles Baudelaire: A Lyric Poet in the Era of High Capitalism.** Trans. Harry Zohn, London: New Left Books.

Benjamin, Walter (1969). **Illuminations**. New York: Schocken.

Benvenesti, Meron (2000). **Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land since 1948**. Trans. by M. Kaufman-Lacusta, Berkeley, CA: California University Press.

Benvenesti, Meron (1983). **Israeli Censorship of Arab Publications**. New York: Fund for Free Expression.

Bilu, Yoram and Eyal Ben-Ari (1995). "Modernity and Charisma in Contemporary Israel: The Case of Baba Sali and Baba Baruch". **Israel Affairs**, 1(3), 204-236.

Boullata, Kamal (2001). "Asim Abu Shaqra: The Artist's Eye and the Cactus Tree". **Journal of Palestine Studies**, 30, 68-82.

Breuilly, John (1993). **Nationalism and the State**. Manchester: Manchester University Press.

Camargo, Aspasia; Valentina de Rocha Lima, and Lucia Hippolito (1985). "The Life History Approach in Latin America". **Life Stories**, 1, 41-50.

Carmi, Sholamit and Henry Rosenfeld (1980). "The Origins of the Process of Proletarianization and Urbanization of Arab Peasants in Palestine". E. Krause (ed.), **Studies of Israeli Society: Migration, Ethnicity and Community**. New Brunswick, NJ: Transaction.

Chaim Herzog (1977). **The War of Atonement**. London: Futura Publications.

Cohen, Amnon (1982). **Political Parties in the West Bank under Jordanian Rule, 1947-1967**. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Cohen, Eric (1995). "Israel as a Post-Zionist Society". R. Wistrich and D. Ohana (eds.), **The Shaping of Israeli Identity: Myth, Memory and Trauma**. London: Frank Cass, 203-214.

Confino, Alon (1997). "Collective Memory and Cultural History: Problems and Methods". **American Historical Review**, 102(5), 1386-1403.

Deutsch, Karl (1966). **Nationalism and Social Communication: An Inquiry into the Foundations of Nationality**. Cambridge, MA: MIT Press.

Dumper, Michael (1997). **The Politics of Jerusalem**. New York: Columbia University Press.

Epperson, A. Ralph (1985). **The Unseen Hand: An Introduction to the Conspiratorial View of the History**. Tucson, AZ: Publius.

Erikson, Erik H. (1974). **Dimensions of a New Identity**. New York: W.W. Norton.

Erikson, Erik H. (1968). **Identity: Youth and Crisis**. London: Faber and Faber.

Falah, Ghazi (1996). "The 1948 Israeli Palestinian War and its Aftermath: The Transformation and De-Signification of Palestine's Cultural Landscape". **Annals of the Association of American Geographers**, 86, 256-285.

Flapan, Simha (1987). **The Birth of Israel: Myths and Realities**. London and New York: Croom Helm.

Fortier, Anne-Marie (1999). "Re-Membering Places and the Performance of Belonging(s)". **Theory, Culture & Society**, 16, 41- 64.

Gavin, Carney E. S. and I. E. O'Reilly (1982). **The Image of the East: Nineteenth-Century Near Eastern Photographs by Bonfils**. Chicago, IL: Chicago University Press.

Gelber, Yoav (2001). **Palestine 1948: War, Escape and the Emergence of the Palestinian Refugee Problem**. Brighton: Sussex Academic Press.

Gellner, Ernest (1994). **Encounters with Nationalism**. Oxford: Blackwell.

Gellner, Ernest (1964). **Thought and Change**. London: Weidenfeld and Nicolson.

Gillis, John (1994a). "Memory and Identity: The History of a Relationship". J. Gills (ed.), **Commemorations: The Politics of National Identity**. Princeton, NJ: Princeton University Press, 3-26.

Gillis, John (ed.) (1994b). **Commemorations: The Politics of National Identity**. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Gleason, Philip (1983). "Identifying Identity: A Semantic History". **Journal of American History**, 69, 91-131 (Reprinted in: Werner Sollors (ed.), **Theories of Ethnicity: A Classical Reader**. New York: New York University Press, 1996, 460-487).

Golani, Moti (1998). **Israel in Search of War: The Sinai Campaign, 1955-1956**. Brighton: Sussex Academic Press.

Gorkin, Michael (1993). **Days of Honey, Days of Onion: The Story of a Palestinian Family in Israel**. Berkeley, CA: University of California Press.

Graham-Brown, Sara (1980). **Palestinians and Their Society, 1880-1946**. London: Quartet Books.

Hayek, Friedrich A. von (1967). **Studies in Philosophy Politics and Economics**. London: Routledge and Kegan Paul.

Al-Hajj, Badr (2001). "Khalil Ra'ad – A Jerusalem Photographer". **Jerusalem Quarterly File**, 11-12, 34-39. (http://www.jqf-jerusalem.org/2001/jqf11-12/raad.html).

Halbwachs, Maurice (1992). **On Collective Memory**. Chicago, IL: Chicago University Press.

Halbwachs, Maurice (1980). **The Collective Memory**. New York and London: Harper and Row.

Handler, Richard (1994). "Is Identity a Useful Cross-Cultural Concept?" J. Gills (ed.), **Commemorations: The Politics of National Identity**. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Hass, Amira (2004a). "The wanderings of Umm Ghassan". **Haaretz** (April 23).

Hass, Amira (2004b). "One step ahead of the bulldozer". **Haaretz** (May 21).

Hazoni, Yoram (2000). **The Jewish State: The Struggle for Israel's Soul**. New York: Basic Books.

Herman, Simon N. (1971). **Israelis and Jews: The Continuity of an Identity**. Philadelphia: Jewish Publication Society of America.

Herzog, Chaim (1975). **The War of Atonement**. London: Futura Publications Ltd.

Hobsbawm, Eric and Terence Ranger (eds.) (1983). **The Invention of Tradition**. Cambridge: Cambridge University Press.

Hummle, Ruth Victor (2000). "Reality, Imagination and Belief: Jerusalem in Nineteenth and Early Twentieth Century Photographs (1839-1917)". S. Auld and R. Hil-lenbard, (eds.), **Ottoman Palestine**. London: Altajir World of Islam Trust, vol.1, 235-275.

Jameson, Fredric (1986). "Third-World Literature in the Era of Multinational Capitalism". **Social Text**, 15, 65-88.

Jiryis, Sabri (1976). **The Arabs in Israel**. New York: Monthly Review Press.

Kabha, Mustafa (forthcoming). "A Palestinian Look of the New Historians and the Post Zionism in Israel". B. Morris (ed.), **Making Israel**. London.

Kamen, Charles (1988). "After the Catastrophe II: The Arabs in Israel, 1948-1951". **Middle Eastern Studies**, 24(1), 68-109.

Kamen, Charles (1987). "After the Catastrophe I: The Arabs in Israel, 1948-1951". **Middle Eastern Studies**, 23(4), 453-493.

Karmi, Ghada and Eugene Cotran (eds.) (1998). **The Palestinian Exodus, 1948–1998**. London: Ithaca Press.

Karton-Blum, Ruth (1995). "The Myth of the Sacrifice". R. Wistrich and D. Ohana (eds.), **The Shaping of Israeli Identity: Myth, Memory and Trauma**. London: Frank Cass, 231-247.

Karsh, Ephriam (1997). **Fabricating Israeli History: The "New Historians"**. London: Frank Cass.

Kedar, Benjamin Z. (1982). "Masada: The Myth and the Complex". **Jerusalem Quarterly**, 24, 57-63.

Kedourie, Elie (1993). **Nationalism**. Oxford: Blackwell.

Kedourie, Elie (ed.) (1971). **Nationalism in Asia and Africa**. London: Weidenfeld and Nicolson.

Khalidi, Rashid (1997). **Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness**. New York: Columbia University Press.

Khalidi, Walid (ed.) (1992). **All That Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948**. Washington DC: Institute for Palestine Studies.

Khalidi, Walid (1991). **Before Their Diaspora: A Photographic History of the Palestinians 1876–1948**. Washington DC: Institute for Palestine Studies.

Khalidi, Walid. (1987). "Plan Dalet". W. Khalidi (ed.), **From Haven to Conquest**. Washington DC: Institute for Palestine Studies.

Khalidi, Walid (ed.) (1971). **From Haven to Conquest :Reading in Zionism and the Palestine Problem Until 1948**. Beirut, Institute for Palestine Studies.

Kimche, John (1992). "Deir Yasin and Jaffa - April 1948". W. Khalidi (ed.), **From Haven to Conquest: Readings in Zionism and the Palestine Problem until 1948**. Washington DC: Institute for Palestine Studies.

Kimmerling, Baruch (1983). **Zionism and Territory: The Socio–Territorial Dimension of Zionist Politics**. Berkeley, CA: Institute of International Studies, University of California Press.

Kimmerling, Baruch and Joel S. Migdal (1993). **Palestinians: The Making of a People**. Cambridge, MA: Harvard University Press.

King, Nicola A. (2000). **Memory, Narrative, Identity**. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Klain, Kerwin Lee (2000). "On the Emergence of Memory in Historical Discourse". **Representations**, 69, 127-150.

Lacey, Marc (2004). "U.S. Report on Violence in Sudan Finds a Pattern of Atrocities". **New York Time**, (August 25).

Lowenthal, David (1975). "Past Time, Present Place: Landscape and Memory". **The Geographical Review**, 65(1), 1-36.

Maier, Charles S. (1993). "A Surfeit of Memory? Reflections on History, Melancholy and Denial". **History and Memory**, 5(2), 136-152.

Maoz, Moshe (1984). **Palestinian Leadership on the West Bank: The Changing Role of the Arab Mayors under Jordan and Israel**. London: F. Cass.

Masalha, Nur (2000). **Imperial Israel and the Palestinians: The Politics of Expansion**. London: Pluto Press.

Masalha, Nur (1997). **A Land without People: Israel, Transfer and the Palestinians**. London: Faber & Faber.

Masalha, Nur (1992). **The Expulsion of the Palestinians: The Concept of "Transfer" in Zionist Political Thought, 1882-1948**. Washington DC: Institute of Palestine Studies.

McCarthy, Justin. (1990). **The Population of Palestine**. New York: Columbia University Press.

Megill, Allan (1998). "History, Memory, Identity". **History of the Human Sciences**, 11(3), 37-62.

Morris, Benny (1999). **Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict 1881-1999**. New York: Knopt.

Morris, Benny (1995). "Falsifying the Record: A Fresh Look at Zionist Documentation of 1948". **Journal of Palestine Studies**, 24(3).

Morris, Benny (1993). **Israel's Border Wars, 1949-1956: Arab Infiltration, Israeli Retaliation, and the Countdown to the Suez War**. Oxford: Clarendon Press.

Morris, Benny (1990). **1948 and After: Israel and the Palestinians**. Oxford: Clarendon Press.

Morris, Benny (1987). **The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949**. Cambridge: Cambridge University Press.

Morris, Benny (1988). "The New Historiography: Israel Confronts Its Past". **Tikkun**, 3(3).

Mosse, George (1996). **The Image of Man: The Creation of Modern Masculinity**. New York: Oxford University Press.

Mulder-Bach, Inka (1991). "History as Autobiography: The Last Things before the Last". **New German Critique**, 54, 139-157.

Muslih, Muhammad Y (1988). **The Origins of Palestinian Nationalism.** New York: Columbia University Press.

Nassar, Issam (1999). "Hanna Safieh: A Witness to History". H. Safieh (ed.), **A Man and his Camera: Photographs of Palestine, 1927-1967.** Jerusalem: Raffi Safieh.

Nazzal, Nafez (1978). **The Palestinian Exodus from Galilee - 1948.** Beirut: Institute for Palestine Studies.

Neophytos [Monk of Cyprus] (1938). **Annals of Palestine**. Jerusalem: Palestine Oriental Society.

Nijim, B. K. and B. Muammar (1984). **Toward the De-Arabization of Palestine, Israel, 1945-1977**. Dubuque, Iowa: Kendall/Hunt Pub. Co.

Nora, Pierre (1989). "Between Memory and History: Les Lieux de Memoire". **Representations**, 26, 7-25.

Oren, Michael (2002). **Six Days of War: June 1967 and the Making of the Modern Middle East**. Oxford: Oxford University Press.

Palumbo, Michael (1990). "What Happened to Palestine? The Revisionists Revisited". **The Link**, 23(4) (avaible at: http://student.cs.ucc.ie/cs1064/jobowen/IPSC/php/db.php?aid=818).

Palumbo, Michael (1987). **The Palestinian Catastrophe: The 1948 Expulsion of a People from their Homeland**. London: Faber and Faber.

Pappe, Ilan (2001). "The Tantura Case in Israel: The Katz Research and Trial". **Journal of Palestine Studies**, 30(3).

Pappe, Ilan (1999). **The Israel/Palestine Question**. London and New York: Routledge.

Pappe, Ilan (1992). **The Making of the Arab -Israeli Conflict, 1947-1951**. London and New York: I.B. Tauris.

Pappe, Ilan (1988). **Britain and the Arab-Israeli Conflict, 1948-51**. New York: St. Martin's Press.

Peri, Yoram (1983). **Between Battles and Ballots: Israel Military in Politics**. Cambridge: Cambridge University Press.

Podeh, Elie (2001). **The Arab-Israeli Conflict in Israeli History Textbooks, 1948-2000**. Westport, CT: Bergin & Garvey.

Podeh, Elie (2000). "History and Memory in the Israeli Educational System: The Portrayal of the Arab-Israeli Conflict in History Textbooks (1948-2000)". **History and Memory**, 12(1), 65-100.

Popper, Karl R. (1966). **The Open Society and its Enemies**. London: Routledge and Kegan Paul.

Rabinowitz, Dan (1994). "The Common Memory of Loss: Political Mobilization among Palestinians Citizens of Israel". **Journal of Anthropological Research**, 50, 27-49.

Rogan, Eugene L. and Avi Shlaim (eds.) (2001). **The War for Palestine: Rewriting the History of 1948**. Cambridge: Cambridge University Press.

Rose, John H. Melkon (1993). **Armenians of Jerusalem: Memories of Life in Palestine**. London: Radcliff Press.

Sa'di, Ahmad H. (2002). "Catastrophe, Memory and Identity: Al-Nakbah as a Component of Palestinian Identity". **Israel Studies**, 7(2), 175-198.

Sa'di, Ahmad H. (1999). "National Identity, Conflict and Presentations: The Palestinians in Israel". G. Brauer (eds.), **Nationality, Identity, Education**. Hamburg: Dr. Kovac, 235-255.

Said, Edward (2000). "The Politics of Knowledge". E. Said (ed.), **Reflections on Exile and Other Literary and Cultural Essays**. London: Granta, 372-385.

Said, Edward (1993). **Culture and Imperialism**. London: Chatto & Windus.

Said, Edward and Christopher Hitchens (eds.) (1988). **Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question**. London and New York: Blackwell.

Said, Edward (1986a). **After the Last Sky**. London: Faber and Faber.

Said, Edward (1986b). "On Palestinian Identity: A Conversation with Salman Rushdie". **New Left Review**, 160, 63-80.

Said, Edward W. (1980). **The Question of Palestine**. New York: Vintage Books.

Said, Edward (1979). **The Question of Palestine**. New York: Vintage Books.

Sanbar, Elias (1991). "History as Autobiography: The Last Things Before the Last". **New German Critique**, 54, 139-157.

Sayigh, Rose M. (2003). "Survivors of the 1948 Expulsions: A Second Call for a Race against Time". **Birzeit workshop on oral history**, (Nov. 21-22).

Sayigh, Rosemary (1979). **Palestinians: From Peasants to Revolutionaries**. London: Zed Books.

Schiff, Zeev (1974). **October Earthquake: Yom Kippur 1973**. Tel Aviv: University Publishing Projects.

Schiff, Zeev and Ehud Yaari (1984). **Israel's Lebanon War**. New York: Simon and Schuster.

Scholch, Alexander (1993). **Palestine in Transformation: 1856–1882**. Washington DC: Institute for Palestine Studies.

Schudson, Michael (1992). **Watergate in American Memory: How We Remember, Forget and Reconstruct the Past**. New York: Basic Books.

Segev, Tom (2001). "The Return of Ibrahim Abu-Lughod". **Ha'aretz**, (1 June).

Segev, Tom (1993). **The Seventh Million: The Israelis and the Holocaust**. New York: Hill and Wang.

Shafir, Girshon (1989). **Land, Labor and the Origins of the Israeli–Palestinian Conflict, 1882–1914**. Cambridge: Cambridge University Press.

Shalim, Avi (1999). **The Iron Wall: Israel and the Arab World since 1948**. New York: W.W. Norton.

Shibler, David K. (1986). **Arab and Jew: Wounded Spirits in a Promised Land**. New York: New York Times Books.

Shlaim, Avi (1995). "The Debate about 1948". **The International Journal of Middle Eastern Studies**, 27, 287-304.

Shlaim, Avi (1988). **Collusion across the Jordan: King Abdullah, The Zionist Movement and The Partition of Palestine**. New York: Columbia University Press.

Shapira, Anita (2002). "The Strategies of Historical Revisionism". A. Shapira and D. J. Penslar (eds.), **Israeli Historical Revisionism: From Left to Right**. London: Frank Cass, 71-72.

Shapira, Anita (1999). "The Past is Not a Foreign Country: The Failure of Israel's 'New Historians' to Explain War and Peace". **New Republic**, (Nov. 29).

Shapira, Anita (1995). "Politics and Collective Memory: The Debate over the 'New Historians' in Israel". **History and Memory**, 7(1), 9-40.

Shapira, Anita (1992). **Land and Power: The Zionist Resort to Force, 1881–1948**. New York: Oxford University Press.

Sheffer, Gabriel (1996). **Moshe Sharett – Biography of a Political Moderate**. Oxford: Clarendon Press.

Silberstein, Laurence J. (1999). **The Postzionism Debate: Knowledge and Power in Israeli Culture**. London and New York: Routledge.

Slyomovics, Susan (1998). **The Object of Memory: Arab and Jew Narrate the Palestinian Village**. Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press.

Smith, Anthony D. (2000). **The Nation in History**. London: University Press of New England.

Stationery Office (1947). **A Survey of Palestine** (reprinted by the Institute for Palestine Studies, Washington DC, 1991).

Swedenburg, Ted (1995). **Memories of Revolt: The 1936–1939 Rebellion and Palestinian National Past**. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.

Swedenburg, Ted (1989). "Occupational Hazards: Palestine Ethnography". **Cultural Anthropology**, 4(3), 265-72 (Reprinted in George Marcus (ed.), **Rereading Cultural Anthropology**. Durham, NC: Duke University Press, 1992).

Swedenburg, Ted (1986/1987). "Problems of Oral History: The 1936 Revolt in Palestine". **Birzeit Research Review**, II.

Tamari, Salim and Elia Zureik (1997). **The UNRWA Archives on Palestinian Refugees**. Jerusalem: Institute of Jerusalem Studies.

Teveth, Shabtai (1985). **Ben Gurion and the Palestinians Arabs: From Peace to War**. Oxford: Oxford University Press.

Thelen, David (ed.) (1990). **Memory and American History**. Bloomington, IN: Indiana University Press.

Thomas, Nicholas (1994). **Colonialism's Culture: Anthropology, Travel and Government**. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Tleel, John. (2001). "I Am Jerusalem: Life in the Old City from the Mandate Period to the Present". **The Jerusalem Quarterly File**, 11-12.

Tresilian, David (2001). "A Review of Le Bein Des Absents, Paris: Acts Suud, 2001, by Elias Sanbar". **Al-Ahram Weekly**, 12-18 July.

Tzahor, Ze'ev (1995). "Ben Gurion's Mythopoetics". R. Wistrich and D. Ohana (eds.), **The Shaping of Israeli Identity: Myth, Memory and Trauma**. London: Frank Cass.

Tzur, Yaron (forthcoming). "Israeli Historiography and the Ethnic Problem". B. Morris (ed.), **Making Israel**. London.

U.N. Secretariat, St/AI/326. **1984 – UN Archive Instruction Annex I, Guidelines Concerning the Classification and Declassification of the Records and Archives of the Secretary – General.**

Wigoder, Meir (2001). "History Begins at Home". **History & Memory**, 13(1), 19-59.

Wistrich, Robert and David Ohana (eds.) (1995). **The Shaping of Israeli Identity: Myth, Memory and Trauma**. London: Frank Cass.

Yaniv, Avner (1987). **Dilemmas of Security: Politics, Strategy and the Israel Experience in Lebanon**. New York: Oxford University Press.

Yerushalmi, Yosef H. (1982). **Zakhor: Jewish History and Jewish Memory**. Seattle, WA: University of Washington Press.

Zameret, Zvi (2002). **The Melting Pot in Israel: The Commission of Inquiry Concerning Education in the Immigrant Camps during the Early Years of the State**. Albany, NY: State University of New York Press.

Zertal, Idith (1998). **From Catastrophe to Power: Holocaust Survivors and the Emergence of Israel**. Berkley, CA: University of California Press.

Zerubavel, Yael (1995). **Recovered Roots: Collective Memory and the Making of Israeli National Traditions**. Chicago, IL: University of Chicago Press.

إن حصر أهداف الرواية السردية التاريخية الفلسطينية في إطار التعبير العاطفي والبكائي عن صورة الضحية ومعاناتها وذاكرتها المعذبة، يعني أكثر ما يعنيه المراوحة في المكان وعدم القدرة على تجاوز مرحلة الكتابة العاطفية الذاتية لا سيما وأنه "لم تتح بعد للمحارب الفلسطيني الفسحة والاستراحة، كي يطمئن إلى وراثته ويبدأ بكتابة روايته"، كما يقول علي الخليلي.

يقودنا هذا القول إلى تساؤل آخر مرتبط بتوقيت كتابة الرواية الوطنية للشعب المتواجد في حالة صراع قومي، هل "الفسحة" أو "الاستراحة" التي يتحدث عنها الخليلي هي شرط من شروط الشروع بكتابة وتدوين الرواية التاريخية، أم أن هناك مكانا لمواكبة التوثيق التاريخي لتفاعل الحدث التاريخي وترامي أبعاده؟

ولعل عارف العارف قام بعمل كان من المفروض أن يقوم به كثيرون غيره بكل ما يتعلق بتوثيق أحداث النكبة حال وقوعها أو فترة قصيرة بعد ذلك. ولكن، من شأن تجربة العارف أن تشير إلى فداحة الخسارة التي أصابت رواية النكبة، بسبب عدم توثيق وقائعها الدقيقة كما فعل العارف في منطقة القدس، حيث واكب الأحداث هناك عن كثب، وأن تكون قدوة لشهادات من أماكن أخرى لم يعمد المشتركون فيها أو المشاهدون لها إلى تدوينها فضاعت بذلك شهادات ذات قيمة تاريخية عالية كشهادة العارف عن منطقة القدس. وعليه، تأتي المحاولات الجادة التي يقوم بها المؤرخون الفلسطينيون في العقدين الأخيرين لسد هذا النقص من خلال جمع الشهادات الشفوية والوثائق والمستندات المتعلقة بهذا الحدث الجسيم وذلك في سبيل بناء رواية تاريخية فلسطينية عنه.